تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

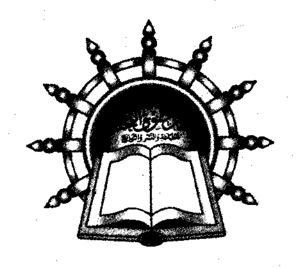
مكة المكرمة

المجلد السابع والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان


تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن



شعرٌ

أَتَاكَ الرَّوْحُ يَعْبِقُ بِالْغَوَالِيْ وَيَرْمِي بِالزَّبَرْجَدِ واللآلِيْ
يَقُولُ لِشَامِّيْهِ وَمُنْتَشِقِيْهِ هَلُمُّوا فَالْعُطُوْرُ فِيْ خِلاَلِيْ

آخرُ

إِذَا رَأَيْتَ أَثِيْمَا كُنْ سَاتِراً وَحَلِيْمَا
يَا مَنْ يُقَبِّحُ قَوْلِيْ لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

من كلام زين العابدين رضي الله عنه:

أَلاَ أَيُّهَا الْمَأْمُوْلُ فِيْ كُلِّ حَاجَةٍ إِلَيْكَ شَكَوْتُ الضُّرَّ فَارْحَمْ شِكَايَتِي
أَلاَ يَا رَجَائِي أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِيْ فَهَبْ لِيْ ذُنُوْبِيْ كُلَّهَا وَاقْضِ حَاجَتِيْ
فَزَادِيْ قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِيْ عَلَىٰ الزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ وَمَا فِيْ الْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

ولقد أحسن من قال، وهو أبو علي الثقفيُّ:

يَا عَاتِبَ الدَّهْرِ إِذَا نَابَهُ لاَ تَلُمِ الدَّهْرَ عَلَىٰ غَدْرِهِ
الدَّهْرُ مَأْمُوْرٌ لَهُ آمِرُ وَيَنْتَهِي الدَّهْرُ إِلَىٰ أَمْرِهِ
كَمْ كَافِرٍ أَمْوَالُهُ جَمَّةٌ تَزْدَادُ أَضْعَافاً عَلَىٰ كُفْرِهِ
وَمُؤْمِنٍ لَيْسَ لَهُ دِرْهَمٌ يَزْدَادُ إِيْمَاناً عَلَىٰ فَقْرِهِ



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نحمدك يا مولى النعم، ويا مفيض الحكم على من اختاره من أهل الكرم، ونصلّي ونسلم على السلطان الأعظم، والقائد الأجل الأكرم، ومنبع العلوم والحكم، سيّدنا محمد، وعلى آله وأصحابه السادات الكرام، صلاةً وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم القيامة.

أما بعد: فإنّي لما فرغت من تفسير الجزء الخامس والعشرين من القرآن الكريم.. تفرغت للشروع في الجزء السادس والعشرين منه بإذن الله سبحانه وتوفيقه، فقلت مستمدًّا من الله التوفيق والهداية، لأقوم الطريق في كتابة هذا التعليق:

سورة الأحقاف

مكية، قال القرطبي: في قول جميعهم، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا: نزلت سورة حم الأحقاف بمكة بعد الجاثية، قيل:[1] إلا قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قيل: إلا قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ فإنهما نزلتا بالمدينة. قيل[2]: وإلا ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فنزلت بالمدينة. وهي أربع أو خمس وثلاثون آية. وفي «الشهاب»: الاختلاف في عدد الآيات مبني على أن ﴿حمٓ ①﴾ آية أولاً، وست مئة وأربع وأربعون كلمةً، وألفان وخمس مئة وخمسة وتسعون حرفاً.

التسمية: سميت سورة الأحقاف؛ لأنه يذكر فيها الأحقاف التي هي مساكن عاد الذين أهلكهم الله تعالى بطغيانهم، وكانت مساكنهم بالأحقاف التي هي من

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

أرض اليمن، حيث قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾.

فضلها[1]: وذكر في فضلها عن النبيّ ﷺ: «من قرأ سورة الأحقاف.. كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا». ولكنه حديث موضوع لا أصل له.

الناسخ والمنسوخ: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الأحقاف مكية، وجميعها محكم إلا آيتين:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ الآية. من سورة الفتح.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ نسخ معناها بآية السيف.

المناسبة[2]: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

١ - تطابق السورتين في: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

٢ - تشابه موضوع السورتين، وهو إثبات التوحيد والنبوة والوحي والبعث والمعاد.

٣ - ختمت السورة السابقة بتوبيخ المشركين على الشرك، وبدئت هذه السورة بتوبيخهم على شركهم، ومطالبتهم بالدليل عليه، وبيان عظمة الإله الخالق المجيب من دعاه، على عكس تلك الأصنام التي لا تستجيب لدعاتها إلى يوم القيامة.

---

(١) البيضاوي.

(٢) التفسير المنير.

وعبارة «المراغي» هنا: ووجه اتصال هذه السورة بما قبلها: أنه تعالى ختم السورة السالفة بالتوحيد، وذمِّ أهل الشرك، وتوعُّدهم عليه، وافتتح هذه بالتوحيد، وتوبيخ المشركين على شركهم أيضاً. انتهى.

وعبارة أبي حيان: ومناسبة أول هذه السورة لما قبلها[1]: أنّ في آخر ما قبلها: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾، وقلتم: إنه ﷺ اختلقها، فقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ وهاتان الصفتان هما آخر تلك، وهما أوّل هذه. انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

المناسبة

بدأ سبحانه هذه السورة بإثبات أنّ هذا القرآن من عند الله لا من عند محمد كما تدّعون، ثم ذكر أنّ خلق السموات والأرض مصحوب بالحق، قائم بالعدل والنظام، ومن النظام أن تكون الآجال مقدرة معلومة لكل شيء، إذ لا شيء في الدنيا دائم، ولا بدّ من يوم يجتمع الناس فيه للحساب، حتى لا يستوي المحسن والمسيء، ولكن الذين كفروا أعرضوا عن إنذار الكتاب، ولم يفكّروا فيما شاهدوا في العالم من النظام والحكمة، فلا هم بسماع الوحي متعظون، ولا هم بالنظر في العالم المشاهد يعتبرون.

ثم نعى على المشركين حال آلهتهم، وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: أخبروني ماذا خلق آلهتكم من الأرض، أو لهم شركة في خلق السموات حتى يستحقّوا العبادة، فإن كان لهم ما تدّعون.. فهاتوا دليلاً على هذا الشرك المدّعى بكتاب موحى به من قبل القرآن، أو ببقية من علوم الأولين، وكيف خطر على بالكم أن تعبدوها، وهي لا تستجيب لكم دعاء إلى يوم القيامة؟ وهي غافلة عنكم، وفي الدار الآخرة تكون لكم أعداء، وتجحد عبادتكم لها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما تكلم[1] في تقرير التوحيد، ونفي الأضداد والأنداد.. أعقب هذا بالكلام في النبوة، وبيّن أنه كلما تلا عليهم الرسول شيئاً من القرآن.. قالوا: إنه سحر، بل زادوا في الشناعة، وقالوا: إنه مفترى، فردّ عليهم بأنه لو افتراه على الله.. فمن يمنعه من عقابه لو عاجله به، وهو العليم بما تندفعون فيه من الطعن في نبوتي، ويشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والجحود.

ثم أمر رسوله أن يقول لهم: إني لست بأول الرسل حتى تنكروا دعائي لكم إلى التوحيد، ونَهْيِي لكم عن عبادة الأوثان والأصنام، وما أدري ما يفعل بي في الدنيا، أأموت أم أُقتل كما قتل الأنبياء قبلي، ولا ما يفعل بكم، أترمون بالحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض، أم يفعل بكم غير ذلك مما عمل مع سائر المكذبين للرسل، وإني لا أعمل عملاً، ولا أقول قولاً إلا بوحي من ربي، وما أنا إلا نذير لا أستطيع أن آتي بالمعجزات والأخبار الغيبية، فالقادر على ذلك هو الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا نعى عليهم استهزاءهم بكتابه، وقولهم فيه: إنه سحر مفترى، وردَّ الرسول عليهم بأنه ليس بأول رسول حتى

---

(١) المراغي.

يستنكرون نبوته، ويطلبون منه ما لا قبل له به من المعجزات التي أمرها بيد الله تعالى لا بيده.. أردف[1] هذا بأمر رسوله أن يقول لهم: ما ظنّكم أنّ الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله الله عليّ لأبلغكموه فكفرتم به وكذّبتموه، وقد شهد شاهد من بني إسرائيل الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة على مثل ما قلتم، فآمن واستكبرتم.

ثم حكى عنهم شبهة أخرى بشأن إيمان من آمن منهم من الفقراء كعمار وصهيب وابن مسعود، فقالوا: لو كان هذا الدين خيراً.. ما سبقنا إليه هؤلاء. ثم إنهم حين لم يهتدوا به قالوا: إنه من أساطير الأولين.

ثم ذكر أنّ مما يدل على صدق القرآن: أنّ التوراة وهي الإمام المقتدى به بشّرت بمقدم محمد ﷺ، فاقبلوا حكمها في أنه رسول حقاً من عند الله.

ثمّ أعقب هذا ببيان أنّ من آمنوا بالله، وعملوا صالحاً لا يخافون مكروهاً ولا يحزنون لفوات محبوب، وأولئك هم أهل الجنة، جزاء ما عملوا من عمل صالح، وما أخبتوا لربهم، وانقادوا لأمره ونهيه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه أحمد في «المسند» والطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي ﷺ يوماً وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أنه لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله ﷺ، يحطُّ الله عن كل يهوديّ تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه» قال: فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم، فلم يجبه أحد، ثم

---

(١) المراغي.

(٢) أسباب النزول.

ثلّث، فلم يجبه أحد، فقال: «أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذبتم» ثم انصرف وأنا معه، حتى إذا كدنا نخرج.. نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد، قال: فأقبل فقال ذلك الرجل: أيَّ رجلٍ تعلموني يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا مِنْ أبيك قبلك، ولا من جدّك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بأنه نبيُّ الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت، وردّوا عليه قوله، وقالوا فيه شراً، قال رسول الله ﷺ: «كذبتم، لن يقبل قولكم، أما آنفاً فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن كذّبتموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل فيه قولكم» قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام، وأنزل الله عز وجل فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

وأخرج[1] البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: في عبد الله بن سلام نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾.

وأخرج ابن جرير والترمذي وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال: فيّ نزلت، ونزل فيّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني عن قتادة قال: قال ناس من المشركين: نحن أعزّ ونحن ونحن، فلو كان خيراً منا.. ما سبقنا إليه فلان وفلان، فنزل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾.

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله، يقال لها: «زِنّينٌ»، أو «زِنّيرة»، فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زِنّين، فأنزل الله تعالى في شأنها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا ...﴾ الآية. وقال عروة بن الزبير: إنّ زِنّيرة روميّة كان أبو جهل يعذبها، أسلمت فأصيب بصرها،

(١) لباب النقول.

فقالوا لها: أصابك اللات والعزى، فردّ الله عليها بصرها، فقال عظماء قريش: لو كا ما جاء به محمد خيراً. . ما سبقتنا إليه زِّنيرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس والكلبي والزجاج: إنّ الذين كفروا هم بنو عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة وأشجع، قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجهينة ومزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمد خيراً، ما سبقتنا إليه رعاة البهم، إذ نحن أعز منهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ۝١﴾؛ أي: هذه السورة[1] مسماة بـ ﴿حمٓ ۝١﴾. وقال بعضهم: ﴿الحاء﴾، إشارة إلى حماية أهل التوحيد، و﴿الميم﴾: إلى مرضاته منهم مع المزيد، وهو النظر إلى وجهه الكريم. وقال بعضهم: معناه: حميت قلوب أهل عنايتي فصنتها عن الخواطر والهواجس، فلاح فيها شواهد الدين، وأشرقت بنور اليقين.

يقول الفقير: فيه إشارة إلى أنّ القرآن حياة الموتى، كما قال: ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وكذا حياة الموتى من القلوب، فإنّ العلوم والمعارف، والحكم حياة القلوب والأرواح والأسرار. وأيضاً إشارةٌ إلى الأسماء الحسنى، فإنَّ حاء وميم من حساب البسط تسعةٌ وتسعون. وأيضاً إلى الصفات السبع التي خلق الله آدم عليها: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، فـ ﴿الحاء﴾، حاء الحياة، و﴿الميم﴾ ميم الكلام، فأُشير بالأول والآخر إلى المجموع؛ يعني: أنّ الله تعالى أنزل القرآن لتحصى أسماؤه الحسنى، وتعرف به صفاته العليا، ويتخلق بأخلاقه العظمى. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: القرآن المشتمل على هذه السورة، وعلى سائر السور الجليلة، وهو مبتدأ، خبره: قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: كائن منه تعالى، وما كان من الله فهو حق وصدق، فإنه قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يُغالب، وما كان من العزيز فهو عزيز غالب على جميع الكتب بنظمه ومعانيه، ودليل ظاهر

---

(١) روح البيان.

لأرباب الظواهر والباطن ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ أي: المتقن في صنعه، وما كان من الحكيم ففيه حكمة بالغة، فإنّ الله تعالى لا يفعل إلا ما فيه مصلحة لعباده، كما قال: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ بما فيهما من حيث الجزئية منهما، ومن حيث الاستقرار فيهما ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ من المخلوقات: كالنار والهواء والسحاب والأمطار والطيور المختلفة ونحوها ﴿إِلَّا﴾ خلقا متلبساً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالغرض الصحيح، والحكمة البالغة، وأنّ جعلها مقارّاً للمكلفين، ليعملوا فيجازيهم يوم القيامة، لا بالعبث والباطل، فإنه ما وجد شيء إلا لحكمة. وفي الآية إشارة إلى أنّ المخلوقات كلها ما خلقت إلا لمعرفة الحق تعالى، كما قال: فخلقت الخلق لأعرف، ولهذه المعرفة خلقت سموات الأرواح، وأراضي النفوس، وما بينهما من العقول والقلوب والقوى.

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾: معطوف[1] على ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ بتقدير المضاف المحذوف؛ أي: وإلا بتقدير أجل معين ينتهي إليه أمور الكل، وبقاؤه في هذه الدنيا؛ لأنَّ اقتران الخلق ليس إلا به، لا بالأجل نفسه، وهذا الأجل هو يوم القيامة، فإنه ينتهي فيه السموات والأرض وما بينهما، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. وقيل: المراد بالأجل المسمى: هو انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات، وهو آخر مدة بقائه المقدر له. والأول أولى، وفيه إشارة إلى قيام الساعة، وانقضاء مدّة الدنيا، وأنّ الله سبحانه لم يخلق خلقاً باطلاً وعبثاً لغير شيء، بل خلقه للثواب والعقاب، وفيه موعظة وزجر؛ أي: فانتبهوا أيها الناس، وانظروا ما يراد بكم، ولم خلقتم.

والمعنى[2]: أي ما خلقناهما إلا خلقا متلبساً بالعدل، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق، إليه ينتهي بقاؤه في هذه الحياة الدنيا، وهذا يستدعي أن يكون خلقه لحكمة وغاية، وأنَّ هناك يوماً معلوما للحساب والجزاء؛ لئلا يتساوى من أحسن في الدار الأولى، ومن أساء فيها، ومن أطاع ربه واتبع أوامره ونواهيه، ومن دسَّ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

نفسه وركب رأسه واتبع شيطانه وهواه، وسلك سبل الغواية، فلم يترك منها طريقاً إلا سلكه، ولا باباً إلا ولجه.

ثم بين غفلة المشركين، وإعراضهم عما أنذروا به فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: مشركوا أهل مكة ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ وخوّفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء، وأهوال يوم القيامة ﴿مُعۡرِضُونَ﴾؛ أي: مولّون غير مستعدين له بالإيمان والعمل الصالح. والجملة[1]: في محل النصب على الحال؛ أي: والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به. و﴿ما﴾ في قوله: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾: يجوز أن تكون موصولةً، وأن تكون مصدريةً؛ أي: عن إنذار الرسول إياهم.

والمعنى[2]: أي مع ما نصبنا من الأدلة، وأرسلنا من الرسل، وأنزلنا من الكتب بقي هؤلاء الكفار معرضين عنه غير ملتفتين إليه، فلا هم بما أنزلنا من الكتب اتعظوا، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا، وأنى لهم ذلك فهم صُمٌّ بكمٌ عميٌّ لا يعقلون.

وبعد أن أثبت لنفسه الألوهية، وأنه رحيم عادل، وأثبت البعث والجزاء يوم القيامة.. ردَّ على عبدة الأصنام فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للكافرين توبيخاً وتبكيتاً ﴿أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ﴾؛ أي: أخبروني ما تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه من الأصنام والكواكب وغيرهما ﴿أَرُونِي﴾ تأكيد لـ ﴿أَرَءَيۡتُم﴾؛ أي: أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾؛ أي: الآلهة ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بيان للإبهام في ﴿مَاذَا﴾؛ أي: أخبروني أيَّ جزءٍ من أجزاء الأرض تفردوا بخلقه دون الله، فالمفعول الأول لـ ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ قوله: ﴿ما تدعون﴾، والثاني ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾. ومآله أخبروني عن حال آلهتكم، ويحتمل أن لا يكون ﴿أَرُونِي﴾ تأكيداً، بل يكون هذا من باب التنازع؛ لأنَّ ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ يطلب مفعولاً ثانياً، و﴿أَرُونِي﴾ كذلك. ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾؛ أي: شركة مع الله، و﴿أَمۡ﴾ هذه هي المنقطعة المقدرة ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ أي: بل ألهؤلاء الأصنام شركة مع الله تعالى ﴿فِي﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو ملكها

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وتدبيرها، حتى يتوهم أن يكون لهم شائبة استحقاق للعباد، فإنَّ ﴿ما﴾ لا مدخل له في وجود شيء من الأشياء بوجه من الوجوه، فهو بمعزل من ذلك الاستحقاق بالكلية، وإن كانوا من الأحياء العقلاء.. فما ظنكم بالجماد.

فإن قلت[1]: فما تقول في عيسى عليه السلام، فإنه كان يحيي الموتى، ويخلق الطير، ويفعل ما لا يقدر عليه غيره؟

قلت: هو بإقدار الله تعالى وإذنه، وذلك لا ينافي عجزه في نفسه، وذكر الشرك في الجهات العلوية دون السفلية؛ أي: دون أن يعم بالأرض أيضاً؛ لأنَّ الآثار العلوية أظهر دلالة على اختصاص الله تعالى بخلقها لعلوّها، وكونها مرفوعة بلا عمد ولا أوتاد، أو للاحتراز عمّا يتوهم أنّ للوسائط شركة في إيجاد الحوادث السفلية؛ يعني: لو قال: أم لهم شرك في الأرض.. لتوّهم أنّ للسموات دخلاً وشركة في إيجاد الحوادث السفلية، هذا على تقدير أن تكون ﴿أم﴾: منقطعة، والأظهر: أن تجعل الآية من حذف معادل أم المتصلة لوجود دليله، والتقدير: ألهم شرك في الأرض أم لهم شرك في السموات كما في «حواشي سعدي المفتي».

والمعنى[2]: أي قل لهم أيها الرسول: أخبروني عن حال آلهتكم بعد التأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما، والنظام القائم المبنيّ على الحكمة ودقّة الصنع، والإبداع في التكوين، هل تعقلون لهم مدخلاً في خلق جزء من هذا العالم السفليّ، فيستحقوا لأجله العبادة؟ ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت في هذا النظام، والمشاهد أنه على حال واحدة يستمدُّ أدناه من أعلاه، ويرتبط بعضه ببعض، وكل فرد في الأرض مخدوم بجميع الأفراد فيهما، أم هل تظنون أن لهم شركة في خلق العالم العلويّ: شموسه وأقماره كواكبه ونجومه سياراتها وثوابتها.

وقصارى ذلك: نفى استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتمِّ وجه، فقد نفى أنَّ لها دخلاً في خلق شيء من أجزاء العالم السفليّ استقلالاً، ونفى ثانياً أنّ لها

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

دخلاً على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلويّ، ونفي ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية أيضاً.

وبعد أن بكتهم، وعجزهم عن الإتيان بسند عقلي.. عجَّزهم وبكَّتهم عن الإتيان بسند نقليّ، فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ...﴾ إلخ. تبكيت[1] لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقليّ. و﴿الباء﴾[2]: للتعدية؛ أي: ائتوني بكتاب إلهي كائن ﴿مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ﴾ الكتاب الذي أنزل عليَّ؛ أي: من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد، وإبطال الشرك، دالٍّ ذلك الكتاب على صحة دينكم؛ يعني: أنَّ جميع الكتب السماوية ناطقة بمثل ما نطق به القرآن ﴿أَوْ﴾ ائتوني بـ ﴿أَثَـٰرَةٍ﴾ مصدر بوزن سماحة وغواية؛ أي: بقية كائنة ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ الأولين؛ أي: بقيةٍ كائنة من علم بقيت عليكم من علوم الأولين، شاهدة باستحقاقهم للعبادة ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواكم صحة عبادتها، فإنها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلي أو نقليّ، وحيث لم يقم عليها شيء منهما، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل تبيَّن بطلانها.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ﴾ وهو مصدر كالشجاعة والسماحة، وهي البقية من الشيء، وقرأ عليٌّ وابن عباس بخلاف عنهما وزيد بن علي وعكرمة وقتادة والحسن والسلمي وأبو رجاء والأعمش وعمرو بن ميمون: ﴿أو أثرةٍ﴾ بفتح الهمزة والثاء بغير ألف، وهي واحدة جمعها أثر، كقترة وقتر، وقرأ عليّ والسلمي وقتادة أيضاً: بإسكان الثاء، وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر؛ أي: قد قنعت لكم بخبر واحد، وأثر واحد يشهد بصحة قولكم، وقرأ الكسائي: ﴿أثرة﴾ بضم الهمزة وسكون الثاء، وهي لغة فيها.

وعبارة البيضاوي هنا: وقرىء: ﴿إثارة﴾ ـ بالكسر؛ أي: مناظرة، فإن المناظرة تثير المعاني، وأثرة؛ أي: شيء أوثرتم به، وإثرة بالحركات الثلاث في

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

الهمزة وسكون الثاء، فالمفتوحة للمرة من مصدر أثر الحديث: إذا رواه، والمكسورة بمعنى الأثر، والمضمومة اسم ما يؤثر. انتهى.

والمعنى[1]: أي أحضروا لي دليلاً مكتوباً قبل القرآن مما نزل على الأنبياء، كالتوراة والإنجيل، يدلُّ على صحة عبادتكم لآلهتكم، أو ببقية بقيت عندكم من علم الأولين المفكرين في خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأصنام والأوثان للعبادة، وتدل على صحة هذا المنهج الذي سلكتموه ونهجتموه، إن كنتم صادقين في ادّعائكم ألوهية الأصنام.

والمعنى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقلياً على ذلك.

والخلاصة: أنّ الدليل إما وحي من الله، أو بقية من كلام الأوائل، وإما إرشاد من العقل، فإن كان الأول.. فأين الكتاب الذي يدل على أنهم شركاء؟ وإن كان الثاني.. فأين هو؟.

وبعد أن أبطل شركة الأصنام في الخلق بعدم قدرتها على ذلك.. أتبعه إبطاله بعدم علمها بالعبادة، فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ ﴿من﴾: للاستفهام الإنكاري، خبره. قوله: ﴿أَضَلُّ﴾؛ أي: وأيُّ امرىءٍ أبعد من الحق وأقرب إلى الجهل ﴿مِمَّن يَدْعُوا﴾ ويعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: حال كونه متجاوزاً دعاء الله وعبادته ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾؛ أي: أصناماً وجماداً لا تستجيب لداعيها. والموصول مع صلته مفعول ﴿يَدْعُوا﴾؛ أي: لا أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع في الإجابة فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضر؟ فتبيَّن به أنه أجهل الجاهلين، وأضل الضالّين، وما هنا للشوكاني من أنّ الاستفهام للتقريع والتوبيخ غير صواب؛ لأنّ قوله هذا يناقض تفسيره أولاً؛ أي: هم أضل من كل ضالّ، حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المجيب الخبير، إلى عبادة مصنوعهم العاري عن السمع والقدرة والاستجابة. وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: غاية لنفي الاستجابة؛ أي: ما دامت الدنيا.

---

(١) التفسير المنير.

فإن قيل[1]: يلزم منه أنّ منتهى عدم الاستجابة يوم القيامة؛ للإجماع على اعتبار مفهوم الغاية.. قلنا: لو سلّم.. فلا يعارض المنطوق، وقد دلّ قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية. على معاداتهم إياهم، فأنّى الاستجابة. وقد يجاب بأنّ انقطاع عدم الاستجابة حينئذٍ؛ لاقتضائه سابقة الدعاء ولا دعاء، ويردّه قوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ إلّا أن يخصّ الدعاء بما يكون عن رغبة. كما في «حواشي سعدي المفتي».

وقال ابن الشيخ: وإنما جعل ذلك غاية، مع أنّ عدم استجابتهم أمر مستمرّ في الدنيا والآخرة، إشعاراً بأنّ معاملتهم مع العابدين بعد قيام الساعة أشدّ وأفظع مما وقعت في الدنيا، إذ يحدث هناك العداوة والتبرّي، ونحوه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ فإنّ اللعنة على الشيطان، وإن كانت أبدية، لكن يظهر يوم الدين أمر أفظع منها، تنسى عنده كأنها تنقطع.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أنّ الأصنام ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾؛ أي: عن دعاء الداعين المشركين وعبادتهم، فالضمير الأول لمفعول ﴿يَدْعُوا۟﴾، والثاني لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أنّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿غَـٰفِلُونَ﴾؛ أي: جاهلون لكونهم جمادات لا يعقلون، فكيف يستجيبون؟ وعلى تقدير كون معبوديهم أحياء كالملائكة ونحوهم، فهم عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم، وضمائر العقلاء؛ لإجرائهم الأصنام مجرى العقلاء، ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها؛ للتهكم بها وبعبدتها.

والمعنى[2]: أي لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد من دون الله أصناماً، ويتخذهم آلهةً، ويطلب منها ما لا تستطيعه، وهم إذا دُعوا لا يسمعون ولا يجيبون إلى يوم القيامة؛ أي: لا يجيبون أبداً ما داموا في الدنيا، إذ هم في غفلة عن دعائهم؛ لأنهم أحجار، فهم صمّ بكم لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يعقلون، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تأبيد على عادة العرب، ما دامت الدنيا، وما أنكى

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

هذا التوبيخ، وما أمضى ألمه لهؤلاء المشركين على سوء رأيهم، وقبح اختيارهم في عبادتهم ما لا يعقل شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادة من بيده جميع نعمهم، ومن به إغاثتهم حين تنزل بهم الجوائح والمصائب.

وبعد أن أبان أنهم لا ينفعونهم في الدنيا، ولا يستجيبون لهم دعاء.. أبان حالهم في الآخرة فقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: وإذا جمع الناس لموقف الحساب.. ﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: الأصنام ﴿لَهُمْ﴾؛ أي؛ لعابديهم ﴿أَعْدَآءً﴾ يضرُّونهم ولا ينفعونهم؛ أي: كانت هذه الآلهة التي يعبدونها في الدنيا أعداء لهم؛ إذ يتبرؤون منهم ﴿وَكَانُوا۟﴾؛ أي: الأصنام ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾؛ أي: بعبادة عابديهم ﴿كَٰفِرِينَ﴾؛ أي؛ منكرين مكذبين بلسان الحال، أو المقال، على ما يروى أنه تعالى يحيي الأصنام فتتبرأ من عبادتهم، وتقول: إنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم[1]؛ لأنها الآمرة بالإشراك.

والمعنى[2]: أي وإذا جمع الناس العابدون للأصنام في موقف الحساب.. كانت الأصنام لهم أعداء تتبرّأ منهم وتلعنهم، وكانوا جاحدين مكذبين منكرين لعبادتهم، فيخلق الله الحياة في الأصنام فتكذّبهم، وتتبرّأ الملائكة والمسيح وعزير والشياطين ممن عبدوهم يوم القيامة، ونظير الآية قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾، وقوله في سورة العنكبوت حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفار ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآنية حالة كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على مدلولاتها من حلال وحرام وحشر ونشر وغيرها.. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿لِلْحَقِّ﴾؛ أي: لأجل الحقّ، وشأنه الذي هو

---

(١) التفسير المنير.
(٢) روح البيان.

الآيات المتلوّة.

ويجوز[1] أن تكون ﴿اللام﴾ بمعنى الباء؛ أي: كفروا بالحق، والتعدية بـ ﴿اللام﴾ من حمل النقيض على النقيض، فإنّ الإيمان يتعدّى بها كما في قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ وغيره. والحق هنا عبارة عن الآيات المتلوّة وضع موضع ضميرها تنصيصاً على حقّيتها، ووجوب الإيمان بها، كما وضع الموصول موضع ضمير المتلوّ عليهم؛ تسجيلاً بكمال الكفر والضلالة عليهم ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: في أول ما جاءهم من غير تدبّر ولا تأمل ﴿هَٰذَآ﴾ الحق الذي هو القرآن المتلوّ عليهم ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر كونه سحراً وباطلاً لا حقيقة له، وإذا جعلوه سحراً.. فقد أنكروا ما نطق به من البعث والحساب والجزاء، وصاروا أكفر من الحمير؛ أي: أجهل وأبلد من الحمير؛ لأنّ الكفر من الجهل والعياذ بالله.

والمعنى[2]: أي وإذا تليت على هؤلاء حججنا التي أودعناها كتابنا، الذي أنزلناه عليك حال كونها بينة واضحةً جليةً.. قالوا في شأن الحق الذي أتاهم، وهو القرآن: هذا سحر واضح، وتمويه خادع، يفعل فعل السحر في قلب من سمعه، فكذّبوا به وافتروا وكفروا وضلوا.

ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: بل أيقول كفار مكة: افترى محمد هذا القرآن؛ أي: اختلقه من عند نفسه، وأضافه إلى الله كذباً، فقولهم هذا منكر، ومحل تعجب، فإن القرآن كلام معجز خارج عن حيّز قدرة البشر، فكيف يقوله محمد ﷺ ويفتريه؟.

واعلم: أنّ كلًّا من السحر والافتراء كفر، لكن الافتراء على الله أشنع من السحر، و﴿أَمْ﴾ هنا هي[3] المنقطعة المقدرة بمعنى بل، وهمزة الاستفهام التوبيخي التعجبي من صنيعهم، وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى قولهم: إنّ رسول الله ﷺ افترى ما جاء به، وفي ذلك من التوبيخ والتقريع ما لا

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

يخفى؛ أي: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب، إنهم يقولون: إنّ محمداً افتراه على الله عمداً، واختلقه عليه اختلاقاً.

ثمّ أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم، ويبطل شبهتهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ واختلقته على سبيل الفرض والتقدير ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: فلا تقدرون أن تدفعوا عنّي من عذاب الله شيئاً، إذ لا ريب في أنّ الله تعالى يعاقبني حينئذٍ، فكيف أفتري على الله كذباً، وأعرض نفسي للعقوبة التي لا خلاص منها؟.

والمعنى: أي قل لهم يا محمد: لو كذبت على الله، وزعمت أنه أرسلني إليكم، ولم يكن الأمر كذلك.. لعاقبني أشدّ العقاب، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، فكيف أقدم على هذه الفرية، وأعرض نفسي لعقابه؟ فالملوك لا يتركون من كذب عليهم دون أن ينتقموا منه، فما بالكم بمن يتعمد الكذب على الله في الرسالة، وهي الجامعة لأمور عظيمة، ففيها الإخبار عن تكليف الناس بما يصلح شأنهم في دينهم ودنياهم.

ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم علّل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: أعلم بما تخوضون فيه من قدح القرآن، وطعن آياته، وتسميته سحراً تارةً، وفريةً أخرى؛ أي: هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن وغيره.

ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله تعالى فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى ـ و﴿الباء﴾: صلة ـ ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي بالصدق في البلاغ، وعليكم بالتكذيب والجحود، ولا يخفى ما في هذا من الوعيد الشديد على إفاضتهم في الطعن في الآيات.

ثم فتح لهم باب الرحمة بعد الإنذار السابق لعلهم يتوبون، ويثوبون إلى الحق، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب وآمن وصدّق بالقرآن، وعمل بما فيه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ له بقبول توبته؛ أي: ومع كل ما صدر منكم من تلك المطاعن الشنعاء، إن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم، وصحّ عزمكم على الرجوع عما أنتم عليه تاب عليكم، وعفا عنكم، وغفر لكم ورحمكم.

وبعد أن حكىٰ عنهم طعنهم في القرآن.. أمر رسوله أن يرد عليهم مقترحاتهم العجيبة، وهي طلبهم من الرسول ﷺ أن يأتيهم بمعجزات بحسب ما يريدون ويشتهون، وكلها تدور حول الإخبار بشؤون الغيب، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: ما كنت رجلاً غير مسبوق بمثله من الرسل، والبدع[1] بالكسر: البديع، وهو من الأشياء ما لم ير مثله، كانوا يقترحون عليه ﷺ آيات عجيبة، ويسألونه عن المغيبات عناداً ومكابرةً، فأمر عليه السلام بأن يقول لهم: ما كنت بدعاً من الرسل؛ أي: لست بأول مرسل أرسل إلى البشر، فإنه تعالى قد بعث قبلي كثيراً من الرسل، وكلهم قد اتفقوا على دعوة عباد الله إلى توحيده وطاعته، ولست داعياً إلى غير ما يدعون إليه، بل أدعو إلى الله بالإخلاص في التوحيد، والصدق في العبودية، وبعثت لأتمم مكارم الأخلاق، ولست قادراً على ما لم يقدروا عليه، حتى آتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب، فإن من قبلي من الرسل ما كانوا يأتون إلا بما آتاهم الله تعالى من الآيات، ولا يخبرون قومهم إلا بما أوحي إليهم، فكيف تنكرون منّي أن دعوتكم إلى ما دعا إليه من قبلي من الأنبياء؟ وكيف تقترحون عليّ ما لم يؤته الله إيّاي؟.

وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبي عبلة[2]: ﴿بِدَعاً﴾: بكسر الباء وفتح الدال جمع بدعة، وهو على حذف مضاف؛ أي: ذا بدع، وقرأ مجاهد: ﴿بَدِعاً﴾ بفتح الباء، وكسر الدال كحذر على الوصف، وقرأ الجمهور: بكسر الباء وسكون الدال.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

والمعنى: أي قل لهم: لست بأول رسول بلَّغ عن ربه، بل قد جاءت رسل من قبلي، فما أنا بالفذِّ الذي لم يعهد له نظير حتى تستنكروا وتستبعدوا رسالتي إليكم، وما أنا بالذي يستطيع أن يأتي بالمعجزات متى شاء، بل ذلك بإذنه تعالى، وتحت قبضته وسلطانه، وليس لي من الأمر شيء، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أيها المكذبون. ﴿ما﴾ الأولى: نافية، و﴿لا﴾ تأكيد لها، والثانية: استفهامية مرفوعة بالابتداء، خبرها: ﴿يُفۡعَلُ﴾. وجُوِّز أن تكون الثانية موصولة منصوبة بـ ﴿أَدۡرِي﴾ والاستفهامية أقضى لحق مقام التبرّي من الدراية؛ أي:[1] وما أعلم أيُّ شيء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان، وإلا يصير أمري وأمركم في الدنيا، فإنه قد كان من الأنبياء من يسلم من المحن، ومنهم من يمتحن بالهجرة من الوطن، ومنهم من يبتلىٰ بأنواع الفتن، وكذلك الأمم منهم من أهلك بالخسف، ومنهم من كان هلاكه بالقذف، وكذا بالمسخ وبالريح وبالصيحة وبالغرق وبغير ذلك، فنفىٰ عليه السلام علم ما يفعل به وبهم من هذه الوجوه، وعلم من هو الغالب المنصور منه ومنهم، ثم عرّفه الله بوحيه إليه عاقبة أمره وأمرهم، فأمره بالهجرة، ووعده العصمة من الناس، وأمره بالجهاد، وأخبر أنه سيظهر دينه على الأديان كلها، ويسلِّط على أعدائه ويستأصلهم.

وقيل[2]: يجوز أن يكون المنفي هي الدراية المفصلة؛ أي: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدارين على التفصيل، إذ لا علم لي بالغيب، وكان بالإجمال معلوماً بقوله فإن جند الله هم الغالبون وإن مصير الأبرار إلى النعيم، ومصير الكفار إلى الجحيم، وقال أبو السعود ـ رحمه الله تعالى ـ: والأظهر الأوفق لما ذكر من سبب النزول: أنّ ﴿ما﴾ عبارة عما ليس في علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين هذا.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا يُفْعَلُ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول، وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة: بفتحها مبنياً للفاعل.

وخلاصة المعنى: أي ولا أعلم ما يفعل بي في الدنيا، أأخرج من بلدي كما أخرجت أنبياء من قبلي؟ أم أقتل كما قتل منهم من قتل؟ ولا ما يفعل بكم أيها المكذبون، أترمون بحجارة من السماء؟ أم تخسف بكم الأرض؟ كل هذا علمه عند ربّي جلّ وعلا.

وفي «صحيح البخاري» وغيره من حديث أمّ العلاء أنها قالت: لما مات عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ: قلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، لقد أكرمك الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنّ الله أكرمه، أما هو فقد جاءه اليقين من ربّه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم» قالت أم العلاء: فوالله ما أزكّي بعده أحداً، وفي رواية الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس، أنه لما مات.. قالت امرأته أو امرأة: هنيئاً لك ابن مظعون الجنة، فنظر إليها رسول الله ﷺ نظر مغضب، وقال: «وما يدريك، والله إني لرسول الله، وما أدري ما يفعل بي» فقالت: يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم، فقال: «أرجو له رحمة ربه تعالى، وأخاف عليه ذنبه».

ومن هذا يعلم أنّ ما ينسب إلى بعض الأدعياء من العلم بشؤون الغيب فهو فرية على الله ورسوله، وكفى بما سلف ردّاً عليهم.

ثم أكد ما سلف وقرّره بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما أتبع إلا القرآن، ولا أبتدع شيئاً من عندي؛ أي: ما أفعل إلا اتباع ما يوحىٰ إليّ، على معنى قصر أفعاله ﷺ على اتباع الوحي، لا قصر اتباعه على الوحي، كما هو المتسارع إلى الأفهام، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه من الغيوب. وقيل: عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذية المشركين، والأول هو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذركم عقاب الله، وأخوفكم عذابه

(١) البحر المحيط.

حسبما يوحى إليّ، وآتيكم بالشواهد الواضحة على صدق رسالتي، ولستُ أقدر على شيء من الأعمال الخارجة عن قدرة البشر ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيّن الإنذار لكم بالمعجزات الباهرة، ففيه أنه ﷺ أرسل مبلِّغاً وليس له من الهداية شيء، ولكن الله يهدي من يشاء.

وقرأ ابن عمير[1]: ﴿ما يوحي﴾ بكسر الحاء؛ أي: الله عز وجل ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني أيها القوم ﴿إِن كَانَ﴾ ما يوحى إليّ من القرآن في الحقيقة ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: والحال أنكم قد كفرتم به، فهو[2] حال بإضمار قد من الضمير في الخبر وسط بين أجزاء الشرط، مسارعة إلى التسجيل عليهم بالكفر، ويجوز أن يكون عطفاً على كان كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ لكن لا على أنَّ نظمه في سلك الشرط المتردِّد بين الوقوع وعدمه عندهم، باعتبار حاله في نفسه، بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم، فإن كفرهم به متحقّق عندهم أيضاً، وإنما تردُّدهم في أنَّ ذلك كفر بما عند الله أم لا؟ وكذا الحال في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وما بعده من الفعلين، فإن الكل أمور متحققة عندهم، وإنما تردّدهم في أنها شهادة وإيمان بما عند الله، واستكبار منهم أم لا؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الواقفين على شؤون الله، وأسرار الوحي بما أوتوا من التوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾؛ أي: على مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة، المطابقة لما في القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك، فإنها عين ما فيه في الحقيقة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني وإن اختلفت الألفاظ. وقال الجرجاني: مثل صلة؛ يعني: عليه.

والمعنى: وشهد شاهد على القرآن أنه من عند الله. وكذا قال الواحدي. و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ﴾: للدلالة على أنه سارع في الإيمان بالقرآن لما علم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

أنه من جنس الوحي الناطق بالحق، وليس من كلام البشر ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عطف على ﴿شهد شاهد﴾؛ أي: فآمن الشاهد بالقرآن، واستكبرتم أنتم عن الإيمان. وجواب[1] الشرط محذوف، والتقدير: أخبروني إن كان من عند الله، وشهد على ذلك أعلم بني إسرائيل فآمن به من غير تباطؤ، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة، فمن أضل منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضعون الجحد والإنكار موضع الإقرار والتسليم، وصفهم بالظلم؛ للإشعار بعلية الحكم، فإن تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم وعنادهم بعد وضوح البرهان. وقال أبو حيان: ومفعولا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: محذوفان؛ لدلالة المعنى عليهما، والتقدير: أرأيتم حالكم إن كان كذا، ألستم ظالمين؟ فالأول حالكم، والثاني ألستم ظالمين، وجواب الشرط، محذوف؛ أي: فقد ظلمتم، ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً. انتهى.

وفيه إشارة إلى أنه لا عذر لهم بحال، إذ عند وجود الشاهد على حقّية الدعوى تبطل الخصومة، وذلك الشاهد في الآية عبد الله بن سلام بن الحارث حبر أهل التوراة، وكان اسمه الحصين، فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله - رضي الله عنه - لما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة.. أتاه، فنظر إلى وجهه الكريم، فعلم أنه ليس بوجه كذّاب، وتأمّله فتحقق أنه النبي المنتظر، فقال له: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما حال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال النبي ﷺ: «أما أول أشراط الساعة.. فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة.. فزيادة كبد الحوت، وأما الولد.. فإن سبق ماء الرجل.. نزعه، وإن سبق ماء المرأة.. نزعته» فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً، فقام ثم قال: يا رسول الله، إنّ اليهود قوم بهتٌ، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عنّي بهتوني عندك، فجاء اليهود وهم خمسون، فقال لهم النبي ﷺ: «أيّ رجل عبد الله فيكم؟

---

(١) روح البيان.

قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا، شرّنا وابن شرنا، وانتقصوه. قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر. قال سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض: «إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وقال مسروق ـ رضي الله عنه ـ: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، فإن آل ﴿حمٓ ①﴾ نزلت بمكة، وإنما أسلم عبد الله بالمدينة قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، وأجاب الكلبي بأن الآية مدنية، وإن كانت السورة مكية، فوضعت في المكية على ما أمر رسول الله ﷺ.

ومعنى الآية: أي قل لهم[1]: أخبروني حالكم إن ثبت أنّ القرآن من عند الله لعجز الخلق عن معارضته، لا أنه سحر ولا مفترى كما تزعمون، ثم كذبتم به، وشهد أعلم بني إسرائيل بكونه من عند الله، فآمن واستكبرتم، أفلستم تكونون أضل الناس وأظلمهم؟

والخلاصة[2]: أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، وشهادة منصف من بني إسرائيل عارف بالتوراة على مثل ما قلت، فآمن به مع استكباركم، أفلا تكونون ظالمين لأنفسكم؟

ثم ذكر أن في استكبارهم عن الإيمان ظلماً لأنفسهم، وكفرا بآيات ربهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: إنّ الله لا يوفّق لإصابة الحق، وهدى الصراط المستقيم من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم بسخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم، وهذا استئناف بياني تعليل لاستكبارهم.

ثم حكى نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة في القرآن العظيم والمؤمنين به

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: لأجلهم، فليس الكلام على المواجهة والخطاب حتى يقال: ما سبقتمونا؛ أي: قالوا لأجل إيمان من آمن من فقراء المؤمنين كعمار وصهيب وابن مسعود ومن لف لفهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما جاء به محمد ﷺ من القرآن والدين ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: حقاً ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ما سبقنا إليه هؤلاء الأراذل والفقراء، فإنّ معالي الأمور لا تنالها أيدي الأراذل، وهؤلاء سقّاط الناس، ورعاة الإبل والشاء، وقد قالوا[1] ذلك زعماً منهم أنّ الرياسة الدينية مما ينال بأسباب دنيوية، وقد غاب عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية، وملكات روحانية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية، والإقبال على الآخرة بالكلية، وأنّ من فاز بها.. فقد حازها بحذافيرها، ومن حرمها.. فما له منها من خلاق، ولم يعلموا أنّ الله يختصّ برحمته من يشاء، ويصطفي لدينه من يشاء.

يقول الفقير: الأولى في مثل هذا المقام أن يقال: إنّ الرياسة الدينية فضل الله تعالى، يؤتيه من يشاء بغير علل ولا أسباب، فإن القابلية أيضاً إعطاء من الله تعالى. انتهى.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾: ظرف لمحذوف يدل عليه ما قبله، ويترتب عليه ما بعده، لا لقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ فإنه للاستقبال، و﴿إِذْ﴾ للمضي؛ أي: وإذ لم يهتدوا بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان قالوا ما قالوا؛ أي: وحين لم يهتدوا بالقرآن ظهر عنادهم وقالوا: لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ في المستقبل غير مكتفين بنفي خيريّته: ﴿هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وكذب مأثور عن الناس الأقدمين، كما قالوا: أساطير الأولين بقصد انتقاص القرآن وأهله، فقد جهلوا بلبّ القرآن وعادوه؛ لأنّ الناس أعداء ما جهلوا، ومن كان مريضاً مرّ الفم.. يجد الماء الزّلال مراً، فلا ينبغي لأحد أن يستهين بشيء من الحق إذا لم يهتد عقله به، ولم يدركه فهمه، فإنّ ذلك من محض الضلالة والجهالة، بل ينبغي أن

---

(١) روح البيان.

يطلب الاهتداء من الهادي ويجدَّ فيه.

ثمّ ردّ عليهم طعنهم في القرآن، وأثبت صحته فقال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: التوراة.

قرأ الجمهور[1]: بكسر الميم من ﴿مِنْ﴾ على أنها حرف جر، وهي ومجرورها خبر مقدم، و﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة، والكلام مسوق لردّ قولهم: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، وإبطال له، فإن كونه مصدقاً لكتاب موسى مقرّر لحقيته قطعاً؛ يعني: كيف يصحّ هذا القول منهم، وقد سلّموا لأهل كتاب موسى أنهم من أهل العلم؟ وجعلوهم حكماً يرجعون لقولهم في هذا النبي، وهذا القرآن مصدق له، أو له ولسائر الكتب الإلهية؛ أي: فإن كون القرآن موافقاً لكتاب موسى في أصول الشرائع، يدل علىٰ أنه حق، وأنه من عند الله، ويقتضي بطلان قولهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

وقرأ الكلبي بفتح ميم ﴿مَن﴾ على أنها موصولة ونصب ﴿كتاب﴾ على أنه مفعول لفعل محذوف؛ أي: وآتينا من قبل القرآن، أو قبل محمد ﷺ كتاب موسى ﴿إِمَامًا﴾ حال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: حال كون كتاب موسى إماماً يقتدى به في دين الله سبحانه ﴿و﴾ حال كونه ﴿رحمة﴾ لمن آمن به، وعمل بموجبه ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الذي يقولون في حقه ما يقولون ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، أو مصدق لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿كِتَٰبٌ﴾ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾؛ أي: حال كون هذا القرآن ملفوظاً به على لسان العرب؛ لكون القوم عرباً.

قرأ الجمهور[2]: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بياء الغيبة على أنّ فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب أو الله أو الرسول، والأول أولى، وهو متعلق بـ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو رجاء وشيبة والأعرج وأبو جعفر: ﴿لتنذر﴾ بتاء الخطاب للرسول، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد؛ أي: وهذا كتاب

---

(١) الشوكاني. (٢) الشوكاني.

مصدق لما بين يديه، أنزل بلسان عربي مبين؛ لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالإشراك وهم كفار مكة. وقوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في حيّز النصب عطفاً على محل ﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ لأنه مفعول له؛ أي: أنزل بلسان عربي لينذر الظالمين بعبادة الأصنام من عذاب الله سبحانه، وليبشّر المحسنين بالإيمان والعمل الصالح بالجنة، وبرضوان الله تعالى. وقال الزجاج: الأجود أن يكون في محل رفع؛ أي: وهو ﴿بشرى للمحسنين﴾ وقوله: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿بشرى﴾.

ومن الظالمين[1]: اليهود والنصارى، فإنهم قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وغيّروا ذكر محمد ﷺ، ونعته في التوراة والإنجيل، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، فكان ﷺ نذيراًلهم، وبشيراً للذين آمنوا بجميع الأنبياء والكتب المنزلة، وهدوا إلى الصراط المستقيم، وثبتوا على الدين القويم.

والخلاصة: كيف يكون إفكاً قديماً وهو مصدق لكتاب موسى الذي تعترفون بصدقه، وهو بلسان عربيّ، والتوراة بلسان عبريّ؟ فتصديق الأول للثاني مع اختلاف لغتهما دليل على اتحادهما صدقاً، فبطل كونه إفكاً قديماً، وثبت له الصدق القديم.

ومجمل معنى الآية[2]: أي ومما يدلّ على أنّ القرآن حق وصدق، وأنه من عند الله... اعترافكم بإنزال الله التوراة على موسى الذي هو إمام وقدوة يقتدى به في الدين، وهو رحمة لمن آمن به، وهذا القرآن الموافق للتوارة في أصول الشرائع مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب الإلهية المتقدمة، أنزله الله حال كونه بلغة عربية واضحة فصيحة، يفهمونها، من أجل أن ينذر به هذا النبي الكريم من عذاب الله الذين ظلموا أنفسهم، وهم مشركوا مكة، ويبشّر به المؤمنين الذين أحسنوا عملاً، فهو مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين، وهو ليس إفكاً قديماً كما يزعمون، بدليل توافقه مع التوراة.

---

(١) روح البيان.

(٢) التفسير المنير.

الإعراب

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة حم؛ أي: مسماة بلفظ حم، والجملة: مستأنفة. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ، خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ والجملة: مستأنفة. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: صفتان للجلالة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة: مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ اسم موصول معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿ما﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرّغ. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة. ﴿وَأَجَلٍ﴾: معطوف على ﴿الحق﴾ ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة لـ ﴿الحق﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿عَمَّآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ وجملة ﴿أُنذِرُواْ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف؛ أي: عن الذي أنذروه. ﴿مُعْرِضُونَ﴾: خبر ﴿الذين﴾ ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم، والجملة الاسمية، معطوفة على الجملة الفعلية قبلها. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿أَرَءَيْتُم﴾: فعل وفاعل، و﴿مَّا﴾ مفعول به أول، وجملة ﴿تَدْعُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَّا﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿تَدْعُونَ﴾؛ أي: تدعونهم مجاوزين الله في دعائهم. ﴿أَرُونِي﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة: توكيد لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾. ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم وجوباً لـ ﴿خَلَقُواْ﴾. ﴿خَلَقُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حال من مفعول ﴿خَلَقُواْ﴾، والجملة الفعلية سادّة مسدّ المفعول الثاني لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ وإن شئت قلت: ﴿ما﴾:

اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول خبره، وجملة ﴿خَلَقُواْ﴾: صلة الموصول، والجملة الاسمية سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ ويجوز أن لا تكون ﴿أَرُونِي﴾ توكيداً لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ فتكون المسألة من باب التنازع؛ لأنّ ﴿أَرَءَيْتُم﴾: يطلب مفعولاً ثانياً. و﴿أَرُونِي﴾ كذلك، وقوله: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾ هو المتنازع فيه. ﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى همزة الاستفهام وبل الإضرابية. كما مر. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿شِرْكٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ ﴿شِرْكٌ﴾ والجملة الاسمية: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱئْتُونِي﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية ومفعول به، والجملة: من تتمّة المقول. ﴿بِكِتَٰبٍ﴾: متعلق بـ ﴿ٱئْتُونِي﴾. ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ ﴿كتاب﴾. ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾: معطوف على ﴿كتاب﴾ ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ صفة لـ ﴿أَثَٰرَةٍ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم صادقين فائتوني به، وجملة الشرط، من تتمّة المقول.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام معناه الإنكار، في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَضَلُّ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّن﴾: متلعق بـ ﴿أَضَلُّ﴾، وجملة ﴿يَدْعُواْ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿يَدْعُواْ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَدْعُواْ﴾، ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ أو حال من فاعله. ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ و﴿غَٰفِلُونَ﴾: خبر ﴿هم﴾، والجملة: في محل النصب حال من مفعول ﴿يَدْعُواْ﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة، في محل الخفض فعل شرط لـ ﴿إذا﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص واسمه. ﴿لَهُمْ﴾ حال من ﴿أَعْدَآءً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿أَعْدَآءً﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، معطوف على ﴿كان﴾ الأولى، ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿كَٰفِرِينَ﴾ و﴿كَٰفِرِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ نائب فاعل، والجملة: فعل شرط لـ﴿إذا﴾. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من ﴿آيات﴾ وجملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى. ﴿لِلْحَقِّ﴾: متعلق بـ ﴿قَالَ﴾ و﴿اللام﴾ فيه: للتعليل. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين، في محل النصب على الظرفية، مبنيّ على السكون، والظرف: متعلق بـ ﴿قَالَ﴾. ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ومفعول به وفاعل يعود على ﴿الحق﴾ والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿لَمَّا﴾ إليها. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سِحْرٌ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة مقدرة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: فعل ماض، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنِ﴾: حرف شرط. ﴿ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِنِ﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقتران الجواب بـ ﴿لا﴾ النافية ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَمْلِكُونَ﴾: فعل مضارع وفاعل مرفوع بثبات النون. ﴿لِى﴾: متعلق بـ ﴿تَمْلِكُونَ﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ حال من

﴿شَيْـًٔا﴾ و﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول ﴿تَمْلِكُونَ﴾، وجملة ﴿تَمْلِكُونَ﴾: جواب ﴿إِنِ﴾ الشرطية، وجملة ﴿إِنِ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ وجملة ﴿تُفِيضُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿تُفِيضُونَ﴾. ﴿كَفَىٰ﴾: فعل ماض، ﴿بِهِۦ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، و﴿الهاء﴾: ضمير مجرور لفظاً في موضع رفع فاعل ﴿كَفَىٰ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾، ﴿بَيْنِى﴾: متعلق بـ ﴿شَهِيدًا﴾ ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: خبران لـ ﴿هو﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿مَا﴾، نافية. ﴿كُنتُ بِدْعًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: صفة لـ ﴿بِدْعًا﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَدْرِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ وجملة ﴿يُفْعَلُ﴾: من الفعل المغير ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية سادّة مسدّ مفعولي ﴿أَدْرِى﴾ وهي معلقة عنها باسم الاستفهام. ﴿بِى﴾: متعلق بـ ﴿يُفْعَلُ﴾. ﴿وَلَا بِكُمْ﴾: معطوف عليه. قال الزمخشري: و﴿مَا﴾ في ﴿مَا يُفْعَلُ﴾: يجوز أن تكون موصولةً منصوبةً، وأن تكون استفهامية مرفوعة. انتهى. وجملة ﴿وَمَآ أَدْرِى﴾: معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية. ﴿أَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أَتَّبِعُ﴾، ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَىَّ﴾: متعلق بـ ﴿يُوحَىٰٓ﴾، وجملة ﴿يُوحَىٰٓ﴾، صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿نَذِيرٌ﴾: خبره ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿نَذِيرٌ﴾،

والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على ما قبلها، على كونها مقولا لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ومفعولا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: محذوفان تقديرهما: أرأيتم حالكم إن كان كذا وكذا ألستم ظالمين؟. وجواب الشرط: محذوف أيضاً، تقديره: فقد ظلمتم، وقيل: تقديره: فمن المحق منّا ومن المبطل؟ وقيل: جواب الشرط ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، واسمه ضمير يعود على القرآن. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: خبره، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية: محذوف، كما قدرنا آنفاً، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿وَكَفَرْتُم﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿كفرتم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿كفرتم﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من اسم ﴿كَانَ﴾ ولكن بتقدير قد. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾: فعل وفاعل في محل النصب معطوف على: ﴿كفرتم﴾. ﴿مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿شَاهِدٌ﴾. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿شهد﴾. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿آمن﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿شَاهِدٌ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿شهد﴾، ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿آمن﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع. وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول ﴿يَهْدِى﴾. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة للقوم، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ أو مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾. صلة الموصول. ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ ﴿قال﴾

و﴿اللام﴾: للتعليل، ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على القرآن، أو على ما جاء به محمد. ﴿خَيْرًا﴾: خبرها، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿مَّا﴾: نافية ﴿سَبَقُونَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿سَبَقُونَآ﴾ والجملة جواب ﴿لَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: ظهر عنادهم وتسبّب عنه قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، ولا يعمل في ﴿إذ﴾ قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾؛ لتضاد الزمانين، ولأجل ﴿الفاء﴾ أيضاً. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَهْتَدُوا۟﴾: فعل مضارع. وفاعل مجزوم بحذف النون. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يَهْتَدُوا۟﴾ والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾، والظرف: متعلق بذلك المحذوف، والجملة المحذوفة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، و﴿السين﴾: حرف استقبال. ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل معطوف على الجملة المحذوفة، التي هي متعلق ﴿إذ﴾ الظرفية. ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿قَدِيمٌ﴾ صفة ﴿إِفْكٌ﴾، والجملة: في محل النصب مقول لـ ﴿يقولون﴾، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿من قبله﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: حالان من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾. ﴿وَهَٰذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿هذا﴾: مبتدأ. ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على ما قبلها. ﴿مُّصَدِّقٌ﴾: صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿لِّسَانًا﴾: حال مؤولة من الضمير المستكن في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أو من ﴿كِتَٰبٌ﴾. والعامل فيه، معنى الإشارة، والتقدير: ملفوظاً به بلغة عربية. ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة ﴿لِّسَانًا﴾، ﴿لِّيُنذِرَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿ينذر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله: ضمير مستتر يعود على الكتاب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول

به، وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾: صلة الموصول، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور ﴿باللام﴾ الجار والمجرور: متعلق بمحذوف، تقديره: أنزل لإنذاره الذين ظلموا. ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: معطوف على محل ﴿لِيُنذِرَ﴾ إن كان مفعولاً لأجله، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: وهو بشرى ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿بشرى﴾ أو صفة له.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَمَّآ أُنذِرُوا﴾؛ أي: خوّفوا. ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: مولّون لاهون. ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾؛ أي: تعبدون. ﴿أَرُونِي﴾ أصله: أرئيوني، نقلت حركة الهمزة إلىٰ الراء ثمّ حذفت للتخفيف واستثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمّت الراء لمناسبة الواو، وحذفت نون الرفع لبناء الأمر على ذلك. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؛ أي: نصيب وفي «السمين»: والشرك: المشاركة. اهـ. وهذا أولى. ﴿ائْتُونِي﴾ أصله: ائتيونني، استثقلت الضمة على الياء ثم حذفت فالتقى ساكنان، ثم حذفت الياء ثم حركت التاء بحركة مجانسة للواو، ثم حذفت نون الرفع لبناء الأمر على ذلك.

تنبيه: أبدل ورش والسوسي الهمزة الثانية من ﴿ائْتُونِي﴾ في الوصل ياء، وحققها الباقون، ومن المعلوم أنّ الأولى همزة تسقط في الوصل، وأما الابتداء بها.. فجميع القرّاء أبدلوها ياءً بعد الابتداء بهمزة الوصل مكسورةً. اهـ «خطيب».

﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: بقية كائنة من علم الأثارة بفتح الهمزة، ومثلها الأثرة بالتحريك، بقيةٌ من علم، والمَكْرُمة المتوارثة، والفعل المجيد، من قولهم: سمنت الناقة على أثارة من شحم ولحمٍ، أي: على بقية لحم وشحم كانت بها من لحم وشحم ذاهبٍ ذائبٍ. وعن ابن الأعرابي: أغضبني فلانٌ على أثارة غضبٍ، أي: على أثر غضب كان قبل ذلك، وهم أثارةٌ من علم؛ أي: بقيةٌ منه يأثرونها عن الأولين، ويقال: لبني فلان أثارةٌ من شرف، إذا كانت عندهم شواهد قديمة. وفي «المختار»: وأثر الحديث: ذكره عن غيره فهو آثر بالمد، وبابه نصر، ومنه حديث مأثور، ينقله خلف عن سلف. اهـ. وفي «السمين»: قوله: أو أثارة

العامة على أثارة، وهي مصدر على فعالة كالشجاعة والغواية والضلالة والسماحة، ومعناها: البقية. والمعنى: بما يؤثر ويروى؛ أي: ائتوني بخبر واحد يشهد بصحة قولكم، وهذا على سبيل التنزّل للعلم بكذب المدّعي اهـ.

﴿أَضَلُّ﴾ أصله: أَضْلل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ فيه إعلالٌ بالإبدال، أصله: دعاوهم، أبدلت الواو همزة لتطرّفها إثر ألف زائدة. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ والحشر، الجمع. كما في «القاموس». قال الراغب: الحشر: إخراج الجماعة عن مقرّهم، وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها، ولا يقال إلا في الجماعة. وسمّي يوم القيامة يوم الحشر، كما سمّي يوم البعث، ويوم النشر. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ كذب عليه عمداً.

﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا تغنون عنّي من الله شيئاً إن أراد تعذيبي. ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تخوضون فيه، يقال: أفاضوا في الحديث: إذا خاضوا فيه وشرعوا؛ أي: تخوضون في قدح القرآن، وطعن آياته، وتسميته سحر تارة، وفرية أخرى، وهو من فاض الماء وأفاضه: إذا سال، وأصله: تفيضون، بوزن تفعلون مضارع أفاض، نقلت حركة الياء إلى الفاء فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ أصله: كفى بوزن فعل كرمي، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ البدع والبديع من كل شيء: المبتدع المحدث دون سابقة له من الابتداع، وهو الاختراع. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يوحىٰ: فيه إعلال بالقلب، أصله: يوحي قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أصله: يهتديون، حذفت نون الرفع؛ لدخول الجازم وهو ﴿لَمْ﴾ فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت... التقىٰ ساكنان فحذفت الياء وضمت الدال لمناسبة الواو. ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ أي: من قول الأقدمين، فهذا على حدّ قولهم: هو أساطير الأولين. وفي «الخطيب» ﴿قَدِيمٌ﴾؛ أي: أَفَكَه غيره وعثر هو عليه وأتى به، ونسبه إلى الله تعالى، كما قالوا: أساطير الأولين.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لم يقل له؛ أي: لكتاب موسى تعميماً وإيذاناً بأنه

مصدق للكتب السماوية كلِّها، لا سيما نفسه؛ لكونه معجزاً. اهـ «كرخي».
﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وبشرى مصدر على وزن فعلى، كرجعى، وهي بمعنى البشارة، والبشارة: الخبر السار، سمي بشارة؛ لطلاقة بشرة وجهه عند سماعه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروبا من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية في قوله: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾؛ لأنه كناية عن ترك الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ و﴿أَرُونِي﴾.

ومنها: التبكيت في قوله: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾؛ لأنّ الغرض منه تبكيتهم، وتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقليّ.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَدْعُواْ﴾ ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾.

ومنها: النكتة البلاغية الرائعة في قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المعنى عندها،لكن عدم الاستجابة مستمرّ بعد هذه الغاية؛ لأنهم في القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم، فالوجه: أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها، وإن وافق ما قبلها، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني، حتى كأنّ الحالتين، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أنّ الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة، لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة وبالكفر، بعبادتهم إياهم.

ومنها: التغليب، فغلب العاقل على غيره على سبيل المجاراة معهم، حيث عبّر عن الأصنام وغيره بضمير العقلاء في قوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾؛ لأنّ عابدي الأصنام يصفونها بالتمييز جهلاً منهم وغباوةً.

ومنها: وصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة، مع ظهور حالها للتهكم بها وبعَبَدَتِها.

ومنها: وضع الموصول موضع ضمير المتلوّ عليهم في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة، وفيه أيضاً: وضع الحق موضع ضمير الآيات المتلوّة تنصيصاً على حقّيتها، ووجوب الإيمان بها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ حيث استعمل الإفاضة في الأخذ في الشيء، والاندفاع فيه.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾؛ أي: ما أفعل إلا اتباع ما يوحي إليّ على معنى قصر أفعاله ﷺ على اتباع الوحي، لا قصر اتباعه على الوحي كما هو المتسارع إلى الأفهام.

ومنها: الطباق بين: ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿كفرتم﴾ وبين: ﴿ينذر﴾ و﴿بشرى﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾.

ومنها: حذف المتعلق في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ حيث لم يقل: مصدق له؛ أي: لكتاب موسى؛ إفادة للتعميم، وإيذاناً بأنه مصدق للكتب السماوية كلها، لا سيما نفسه، لكونه معجزاً كما سبق عن الكرخي.

ومنها: تنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾؛ إيذاناً بفخامة شأنه، وعلوّ قدره.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار، في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ تسجيلاً عليهم بصفة الظلم؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: لينذرهم؛ أي: أهل مكة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (١٦) وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها:

أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] في سابق الآيات توحيده سبحانه، وإخلاص العبادة له، والاستقامة في العمل.. أردف هذا بالوصية بالوالدين، وقد فعل هذا في غير موضع من القرآن الكريم، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وعبارة «التفسير المنير»: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[2] جزاء المؤمنين الموحدين المستقيمين على الشريعة.. أمر ووصّى ببرّ الوالدين، وأشاد بصفة خاصة بالبارّ بوالديه بعد بلوغه سنَّ الأربعين، وبشره بقبول أعماله الصالحة، والتجاوز عن سيئاته، وجعله في عداد أصحاب الجنة وعداً منجزاً لا خلف فيه. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[3] حال الداعين للوالدين البررة بهما، ثم ذكر ما أعد لهم من الفوز والنجاة في الدار الآخرة.. أعقب هذا بذكر حال الأشقياء العاقّين للوالدين، المنكرين للبعث والحساب، المحتّجين بأنّ القرون الخوالي لم تبعث، ثم ردّ الأباء عليهم بأنّ هذا اليوم حقّ لا شك فيه، بإجابة الأبناء لهم بأنّ هذه أساطير الأولين وخرافاتهم، ثم ذكر أنّ أمثال هؤلاء ممن حقّ عليهم القول بأنّ مصيرهم إلى النار.

ثم أردف هذا بأنّ لكل من البررة والكفرة منازل عند ربهم، كفاء ما قدموا من عمل، وسيجزون عليها الجزاء الأوفى، ثم أخبر بأنه يقال للكفار حين عرضهم على النار: أنتم قد تمتعتم في الحياة الدنيا، واستكبرتم عن اتباع الحق، وتعاطيتم الفسوق والمعاصي، فجازاكم الله بالإهانة والخزي، والآلام الموجبة للحسرات المتتابعة في دركات النار.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

(٢) التفسير.

(٣) المراغي.

الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما أورد الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة، التي أعرض عنها أهل مكة، ولم يلتفتوا إليها، ولم تجدهم فتيلا ولا قطميراً لاستغراقهم في الدنيا، واشتغالهم بطلبها.. أردف هذا بذكر قصص عاد وما حدث منهم مع نبيهم هود عليه السلام، وضرب لهم به المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجوده من الدنيا، ويقبلوا على طاعة الله، فقد كانوا أكثر منهم أموالاً، وأقوى منهم جنداً، فسلَّط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم، ولم يغن عنهم مالهم من الله شيئاً، وفيه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب قومه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما روىٰ الواحدي عن ابن عباس قال: أنزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وذلك أنه صحب رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان عشرة، ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة، فنزلوا منزلاً فيه سدرةٌ ـ شجرة السدرة ـ فقعد رسول الله ﷺ في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال له: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبيّ، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم إلا محمد نبي الله، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضوره، فلما نبّىء رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم، وصدق رسول الله ﷺ، فلما بلغ أربعين سنة.. قال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ.

وقال السّدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. أخرج مسلم، وأهل السنن إلا ابن ماجه عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قالت أم سعد لسعد: أليس الله قد أمر بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاماً ولا أشرب،

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص ٢١٦.

حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

وقال الحسن البصري: هي مرسلة نزلت على العموم، وهذا هو الأولى؛ لأنّ حمل اللفظ على العموم منذ بداية نزول الوحي أوقع وأفيد وأشمل، وإن كانت العبرة دائماً لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ...﴾ في عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لأبويه، وكانا قد أسلما وأبىٰ هو، فكانا يأمرانه بالإسلام، فيردّ عليهما ويكذبهما ويقول: فأين فلان وأين فلان؟ يعني: مشايخ قريش ممن قد مات، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه، فنزلت توبته في هذه الآية: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟...﴾ الآية. وأخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس مثله، لكن أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهان قال: قال مروان بن الحكم في عبد الرحمن بن أبي بكر: إنَّ هذا هو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أنّ الله أنزل عذري.

وأخرج عبد الرزاق من طريق مكيّ أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالت: إنما نزلت في فلان، وسمَّت رجلاً. وقال الحافظ بن حجر: ونفي عائشة أصح إسناداً، وأولى بالقبول. وقال ابن كثير: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.. فقوله، ضعيفٌ؛ لأنّ عبد الرحمن أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. قال القرطبي: الصحيح أن الآية نزلت في عبد كافر عاق لوالديه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على أداء فرائض الله

تعالى، واجتناب معاصيه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوب. والمراد[1]: دوام نفي الحزن؛ أي: إنّ الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين، التي هي منتهى العمل، و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: للدلالة على تراخي رتبة العمل، وتوقّف الاهتداء به على التوحيد. قال ابن طاهر: استقاموا على ما سبق منهم من الإقرار بالتوحيد، فلم يروا سواه منعماً، ولم يشكروا سواه في حال، ولم يرجعوا إلى غيره، وثبتوا معه على منهاج الاستقامة. و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾: زائدة في خبر الموصول جوازاً، لما فيه من معنى الشرط.

والمعنى[2]: أي إنّ الذين جمعوا بين التوحيد والاستقامة على منهج الشريعة، لا يخافون من وقوع مكروه بهم في المستقبل، ولا يحزنون من فوات محبوب في الماضي؛ أي: فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم بعد مماتهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون الموحدون المستقيمون على أمر الله هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾؛ أي: ملازموها حالة كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهَا﴾ مكثاً مؤبّداً، فهو حال من الضمير المستكن في ﴿أَصْحَابُ﴾ يجزون الجنة ﴿جَزَاءً﴾ وكفاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، فـ ﴿جَزَاءً﴾: منصوب إما بعامل مقدر كما قدّرنا، أو بمعنى ما تقدم، فإنّ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾. في معنى جازيناهم.

وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإنّ نفي الخوف والحزن على الدوام، والاستقرار في الجنة على الأبد، مما لا تطلب الأنفس سواه، ولا تتشوف إلى ما عداه، ولما كان رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما كما ورد في الحديث. . حث الله سبحانه عليه، بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾؛ أي: عهدنا إليه، وأمرناه بأن يحسن ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؛ أي: بأبويه وإن عليا ﴿إِحْسَانًا﴾ فحذف الفعل واقتصر على المصدر دالًّا عليه.

---

(١) روح البيان.

(٢) التفسير المنير.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿حسنا﴾ بضم الحاء وإسكان السين، وقرأ عليّ والسلمي وعيسى بفتحهما، وعن عيسى: بضمهما، وقرأ الكوفيون: ﴿إِحْسَنًا﴾ فقيل: ضمّن ﴿وصينا﴾ معنى ألزمنا، فيتعدى لاثنين، فانتصب ﴿حسنا﴾ و﴿إِحْسَنًا﴾ على المفعول الثاني لـ ﴿وصينا﴾. وقيل: التقدير: إيصاء ذا حسن أو ذا إحسان، ويجوز أن يكون ﴿حسناً﴾ بمعنى إحسان، فيكون مفعولاً له؛ أي: ووصّيناه بهما لإحساننا إليهما، فيكون الإحسان من الله تعالى.

والمعنى[2]: أي أمرنا الإنسان بالإحسان إليهما، والحنوّ عليهما، والبرّ بهما في حياتهما وبعد مماتهما، والإنفاق عليهما عند الحاجة، والبشاشة عند لقائهما، وجعلنا البرّ بهما من أفضل الأعمال، وعقوقهما من الكبائر. والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ثم ذكر سبب التوصية وعلته، وخصَّ الكلام بالأم؛ لأنها أضعف وأولى بالرعاية، وفضلها أعظم، كما ورد في صحيح الأحاديث، ومن ثم كان لها ثلثا البّر، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ﴾؛ أي: حملت الإنسان ﴿أُمُّهُ﴾ الأمّ[3] بإزاء الأب وهي الوالدة القريبة التي ولدته، والوالدة البعيدة التي ولدت من ولدته، ولهذا قيل لحوّاء عليها السلام: هي أُمُّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط. ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود الشي أو تربيته أو إصلاحه أو مبدأه أمٌّ. ﴿كُرْهًا﴾ حال من فاعل ﴿حَمَلَتْهُ﴾؛ أي: حملته حال كونها ذات كره، وهو المشقة والصعوبة، يريد حالة ثقل الحمل في بطنها لا في ابتدائها، فإنّ ذلك لا يكون فيه مشقة، أو حملته حملاً ذا كره ومشقة.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف في الموضعين، وقرأ شيبة أبو جعفر، والأعرج والرحميان نافع وابن كثير وأبو عمرو بالفتح، وبهما معاً أبو رجاء ومجاهد وعيسى، والضم والفتح لغتان بمعنى واحد، كالعَقْرِ والعُقْرِ. وقالت

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

فرقة بالضم: المشقة، وبالفتح: الغلبة والقهر.

﴿وَوَضَعَتْهُ﴾؛ أي: ولدته ﴿كُرْهًا﴾ وهي شدة الطلق. وفي الحديث[1] «اشتدي أزمة تنفرجي». قال ﷺ لامرأة مسماة بأزمة، حين أخذها الطلق؛ أي: تصبري يا أزمة حتى تنفرجي عن قريب بالوضع. كذا في «المقاصد الحسنة».

والمعنى: أي حملته في بطنها بمشقة، فقاست في حال حمله مشقةً وتعباً، من وَحْمٍ وغثيانٍ وثقلٍ وكربٍ، ووضعته بمشقةٍ أيضاً، فقاست بسبب وضعه مشقة ألم الطلق وشدته، ووجع الولادة، ثم الرضاع والتربية، وكانت أيام الوحم تمنع من الطعام والشراب، وتعاف كل شيء، وكل هذا مما يستدعي البر بها، والإحسان الزائد إليها، واستحقاقها للكرامة، وجميل الصحبة.

ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله، فقال: ﴿وَحَمْلُهُ﴾؛ أي: ومدة حمله في البطن ﴿وَفِصَٰلُهُ﴾ وهو الفطام؛ أي: قطع الولد ومنعه عن اللبن. والمراد به: الرضاع التام المنتهىٰ به، فيكون مجازاً مرسلاً عن الرضاع التام، بعلاقة أنّ أحدهما بغاية الآخر ومنتهاه، كما أراد بالأمد المدّة من قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمْـ ـرِ وَمَـرْدِيٌّ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهُ

أي: هالك إذا انتهت مدة عمره، ونظيره: التعبير عن المسافة بالغاية في قولهم: مَن لابتداء الغاية، وإلى لانتهاء الغاية؛ أي: ومدة حمله ورضاعه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ تمضي عليها بمقاساة الشدائد، والشهر: مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، أو باعتبار جزء من اثني عشر جزءاً من دوران الشمس من نقطة إلى تلك النقطة، سمي به لشهرته، والمراد به: الشهر القمري، لا الشمسي.

وقرأ الجمهور ﴿وَفِصَٰلُهُ﴾، وهو مصدر فاصل الرباعيّ، كأنه من اثنين فاصل أمه وفاصلته، وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة والجحدري: ﴿وفَصْلُه﴾. قيل: والفصل والفصال: مصدران، كالفطم والفطام.

---

(١) روح البيان.

أي: إنّ مدة حمله[1] ورضاعه ثلاثون شهراً؛ أي: عامان ونصف، تكابد الأمُّ فيها الآلام الجسمية والنفسية، فتسهر الليالي ذوات العدد إذا مرض، وتقوم بغذائه وتنظيفه، وكلِّ شؤونه بمحبةٍ وحنانٍ بلا ضجرٍ ولا سآمة، وتحزن إذا اعتل جسمه، أو ناله مكروه يؤثّر في نموه وحسن صحته.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ حق الأمّ آكد من حق الأب؛ لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة، وأرضعته وحضنته وعنيت به بتعب وصبر، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك، وإن تعب في الكسب والإنفاق، كذا جاءت الأحاديث النبوية تؤكد بر الأم، وتقدمه بمراتب ثلاث على مرتبة الأب، أخرج الشيخان، البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمُّك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أمُّك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك».

وفي الآية أيضاً[2]: إيماءٌ إلى أنّ أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنّ أكثر مدة الإرضاع حولان كاملان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الإرضاع.

وأول من استنبط هذا الحكم من هذه الآية عليّ ـ كرم الله وجهه ـ وهو استنباط صحيح، ووافقه عليه عثمان، وجمع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ روى ابن أبي حاتم ومحمد بن إسحاق صاحب «السيرة» عن معمر بن عبد الله الجهني قال: تزوّج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها.. بكت أختها، فقالت لها: وما يبكيك، فوالله ما التبس بي أحدٌ من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله فيّ ما شاء، فلما أتي بها إلى عثمان رضي الله عنه.. أمر برجمها، فبلغ ذلك عليًا ـ رضي الله عنه ـ فأتاه فقال له: ما

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

تصنع؟ قال: ولدت تماماً لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾؟ وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده أبقى إلا ستة أشهر، فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، عليَّ بالمرأة، فوجدها قد فرغ منها[1].. قال معمر: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلمَّا رآه أبوه.. قال: ابني والله لا أشك فيه.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر.. كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر.. كفاه من الرضاعة ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر... فحولان كاملان؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. وقال أبو حنيفة: المراد بحمله: الحمل على اليد، ولو حمل على حمل البطن.. كان بيان الأقل مع الأكثر. انتهى.

قيل: ولعلّ[2] تعيين أقل مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع؛ أي: في الآية؛ لانضباطهما، وتحقُّق ارتباط النسب، والرضاع بهما، فإن من ولدت لستة أشهر من وقت التزوج، يثبت نسب ولدها، كما وقع في زمان عليّ رضي الله عنه فحكم بالولد على أبيه، فلو جاءت بولد لأقلَّ من ستة.. لم يلزم الولد للزوج، ويفرَّق بينهما، ومن مصَّ ثدي امرأة في أثناء حولين من مدة ولادته.. تكون المرضعة أمًّا له، ويكن زوجها الذي لبنها منه أباً له. قال في «الحقائق»: الفتوى في مدة الرضاع على قولهما. وفي «فتح الرحمن»: اتفق الأئمة على أنَّ أقل مدة الحمل ستة أشهر، واختلفوا في أكثر مدته، فقال أبو حنيفة: سنتان. والمشهور عن مالك: خمس سنين، وروي عنه أربع وسبع. وعند الشافعي، وأحمد: أربع سنين، وغالبها تسعة أشهر. انتهى.

---

(١) وفي رواية: أنّ عثمان رجع عن قوله ولم يحدّها؛ أي: أن الأمر تم قبل الحد. اهـ.

(٢) روح البيان.

وحكي عن أرسطوطاليس أنه قال: إنّ مدة الحمل لكل الحيوان مضبوطةٌ، سوى الإنسان، فربما وضعت لسبعة أشهر ولثمانية، وقل ما يعيش الولد في الثامن إلا في بلاد معينة، مثل: مصر. انتهى. وفي «إنسان العيون»: ذكر أنَّ مالكاً رحمه الله مكث في بطن أمه سنتين، وكذا الضحاك بن مزاحم التابعي. وفي «محاضرات السيوطي»: أنَّ مالكاً مكث في بطن أمه ثلاث سنين. وأخبر مالك أنَّ جارةً له ولدت ثلاثة أولاد في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل ولد أربع سنين. انتهى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غاية[1] لمحذوف؛ أي: أخذ ما وصَّيناه به، حتى إذا بلغ وقت أشده بحذف المضاف. وبلوغ الأشد: أن يكتهل ويستوفي السن الذي تستحكم فيه قوته وعقله وتمييزه. وسن الكهولة ما بين سنّ الشباب وسنّ الشيخوخة. قال في «فتح الرحمن»: ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: كمال قوته وعقله ورأيه. وأقلُّه: ثلاث وثلاثون، وأكثره: أربعون ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ أي: تمام أربعين، بحذف المضاف. قيل: لم يبعث نبي قبل أربعين، وهو ضعيف جداً، يدل عى ضعفه أنّ عيسىٰ ويحيى عليهما السلام بعثا قبل الأربعين. كما في «بحر العلوم». وجوابه: أنه من إقامة الأكثر الأغلب مقام الكل. قال ابن الجوزي: قوله: «ما من نبيٍ نبىء إلا بعد الأربعين» موضوع؛ لأنَّ عيسى نبىء ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنةً، فاشتراط الأربعين في حق الأنبياء ليس بشيء. انتهى. وكذا نُبِّىء يوسف عليه السلام وهو ابن ثماني عشرة سنة. كما في كتب التفاسير، وقيس على النبوة قوة الإيمان والإسلام. وقوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قمريةً، لا الشمسية، كما أفادته الآية. كما في «الروح» يفيد أن بلوغ الأربعين هو شيءٌ وراء بلوغ الأشد، وهو[2] نهاية استحصاد العقل واستكماله، ومن ثم روي عن ابن عباس: «من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شرَّه.. فليتجهز إلى النار» ولهذا قيل:

إِذَا ٱلْمَرْءُ وَافَىٰ ٱلأَرْبَعِيْنَ وَلَمْ يَكُنْ ... لَهُ دُوْنَ مَا يَهْوَىٰ حَيَاءٌ وَلاَ سِتْرُ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

فَدَعْهُ فَلاَ تَنْفَسْ عَلَيْهِ ٱلَّذِيْ مَضَىٰ   وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ ٱلْحَيَاةِ لَهُ ٱلْعُمْرُ

﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان ﴿رَبِّ﴾ي، ويا مالك أمري ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ أي: وَفِّقْني، وألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ من نعمة الهداية إلى الدين الحق والتوحيد وغير ذلك من نعم الدنيا، كسلامة العقل والصحة والعافية، وسعة العيش وتمام الخلقة السوية، وحنان الأبوين حين ربيّاني صغيراً، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه؛ لأنّ النعمة عليهما نعمة عليه.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: معطوف[1] على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾؛ أي: ألهمني ووفّقني للعمل الصالح الذي ترضاه منّي، والعمل الصالح المرضي: هو ما يكون سالماً من شوائب عدم القبول. وفيه إشارةٌ إلى أنه لا يمكن للعبد أن يعمل عملاً يرضي به ربَّه إلا بتوفيقه وإرشاده ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾؛ أي: واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، متمكناً من نفوسهم، راسخاً في قلوبهم؛ أي: اجعل ذرّيتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه. وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات. وأصل ﴿أصلح﴾: يتعدى بنفسه كما في قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ وإنما عدي هنا بالحرف ﴿فِي﴾؛ لإفادة الرسوخ والسريان. قال سهلٌ: اجعلهم لي خلف صدق، ولك عبيدا حقاً. وقال محمد بن عليّ: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً. وفيه إشارة إلى أنَّ صلاحية الآباء تورث صلاحية الأبناء ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من ذنوبي التي فُرِّطت مني في أيامي الخوالي ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من الخاضعين لك بالطاعة، المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك.

قال ابن كثير: وهذا فيه إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدّد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، ويعزم عليها. وقد روىٰ أبو داود في «سننه» عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ كان يعلّمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى

---

(١) التفسير المنير.

النور، وجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرّياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها وأتمها علينا.

قال عليّ رضي الله عنه: هذه الآية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره، فأوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده، ووالده: هو أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، وأمه: أم الخير، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد، وأم أبيه أبي قحافة: قيلة، وامرأة أبي بكر الصديق اسمها: قتيلة بنت عبد العزّى.

وقال ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أجاب الله دعاء أبي بكر، فأعتق تسعةً من المؤمنين يعذَّبون في الله، منهم: بلال وعامر بن فهيرة، ولم يدع شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه، ولم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده، ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر وهذا دليل على استجابة دعاء أبي بكر رضي الله عنه.

ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الإنسان المذكور، ولأنّ المراد به: الجنس المتصف بالوصف المحكي عنه، وهو مبتدأ خبره الموصول المذكور بعده؛ أي: أولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة هم ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ من الطاعات واجبة أو مندوبة، فإن المباحات حسن لا يثاب عليها، فأفعل التفضيل على بابه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يتقبل﴾ مبنياً للمفعول ﴿أحسن﴾ رفعاً، وكذا ﴿ويتجاوز﴾. وقرأ زيد بن عليّ وابن وثّاب وطلحة وأبو جعفر والأعمش بخلاف عنه، وحمزة والكسائي وحفص: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿أَحْسَنَ﴾ نصباً، ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ بالنون

(١) البحر المحيط.

فيهما، وقرأ الحسن والأعمش وعيسى: بالياء فيهما مفتوحةً، ونصب ﴿أَحْسَنَ﴾.

﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾؛ أي: نتسامح ﴿عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي: ما فعلوا قبل التوبة، ولا يعاقبون عليها. قال الحسن: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ إنما ذلك من أراد الله سبحانه هوانه، وأما من أراد كرامته.. فإنه يتجاوز عن سيئاته حال كونهم كائنين ﴿فِيٓ﴾ عداد ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ منتظمين في سلكهم، فالجار والمجرور: في محل النصب على الحال، كقولك: أكرمني الأمير في أصحابه؛ أي: كائناً في جملتهم. وقيل: إن ﴿فِيٓ﴾ بمعنى: مع؛ أي: مع أصحاب الجنة. وقيل: إنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم في أصحاب الجنة ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة؛ لأنّ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ إلخ. في معنى الوعد بالتقبل والتجاوز.

والمعنى عليه: وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق. ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف؛ أي: وعدهم الله وعد الصدق ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ به في الدنيا على ألسنة الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية.

ومعنى الآية: أي [1] هؤلاء الذين هذه صفاتهم، هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالح الأعمال، فيجازيهم به، ويثيبهم عليه، ويصفح عن سيئات أعمالهم التي فرطت منهم في الدنيا لماماً ولم تكن عادة لهم، بل جاءت بحافزة من القوة الشهوانية، أو القوة الغضبية، فلا يعاقبهم عليها، وهم منتظمون في سلك أصحاب الجنة، داخلون في عدادهم.

ثم أكد الوعد السابق بقوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾؛ أي: وعدهم الله الوعد الحق الذي لا شك فيه ولا خلف، وأنه موفّ به.

وهذه الآية كما تنطبق على سعد بن أبي وقاص، وعلى أبي بكر الصديق، اللذين قيل: في كل منهما نزلت الآية، تنطبق على كل مؤمن، فهو موصى

---

(١) المراغي.

بوالديه، مأمور أن يشكر نعمة الله عليه، وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً، وأن يسعى في إصلاح ذرّيته، ويدعو الله أن يوفقه لعمل أهل الجنة.

ولما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه وعلى والديه.. ذكر من قال لهما قولاً يدل على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان، فقال: ﴿وَالَّذِى﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأنَّ المراد به ـ أي: بالموصول ـ الجنس ﴿قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ عند دعوتهما له إلى الإيمان، ويدخل فيه كل عبد سوءٍ عاقٍ لوالديه فاجرٍ لربّه ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ و﴿أُفٍّ﴾:[1] كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه، وكراهيته له. و﴿اللام﴾: لبيان المؤفف له، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؛ أي: هذا التأفيف لكما خاصَّة. وقال الراغب: أصل الأفّ: كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر وما يجري مجراهما، ويقال ذلك لكل مستخفٍ به، استقذاراً له؛ أي: نتناً وقبحاً لكما، أتضجر منكما. ف﴿اللام﴾ بمعنى: منْ.

وقرأ نافع وحفص[2]: ﴿أُفٍّ﴾ بكسر ﴿الفاء﴾ مع التنوين، وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن: بفتحها من غير تنوين، وقرأ الباقون، بكسر من غير تنوين، وهي لغات. وقد مضى الكلام على ﴿أُفٍّ﴾ مدلولاً. ولغات، وقراءةً في سورة الإسراء مبسوطاً، وقرأ الجمهور: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ بنونين خفيفتين الأولى مكسورة، وفتح ياءه أهل المدينة ومكة، وأسكنها الباقون، وقرأ الحسن وعاصم وأبو عمرو في روايةٍ، وهشامٌ، بإدغام نون الرفع في نون الوقاية، وقرأ نافع في رواية، وجماعةٌ: بنونٍ واحدةٍ، وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر بخلاف عنه، وعبد الوارث عن أبي عمرو وهارون بن موسى عن الجحدري وسامٌ عن هشام: بفتح النون الأولى، كأنهم فرُّوا من توالي الكسرتين والياء إلى الفتح؛ طلباً للتخفيف، ففتحوا كما فرَّ من أدغم ومن حذف، وقال أبو حاتم: فتح النون باطل غلط.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ بضم الهمزة، وفتح الراء مبنياً للمجهول، وقرأ الحسن وابن يعمر والأعمش وأبو العالية وابن مصرِّف والضحاك: بفتح الهمزة،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وضم الراء مبنياً للفاعل.

والمعنى: أتعدانني وتخبرانني أن أبعث بعد الموت، وأخرج من القبر ﴿و﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتِ﴾ ومضت ﴿الْقُرُونُ﴾؛ أي: أمة بعد أمة ﴿مِن قَبْلِي﴾ فماتوا ولم يبعث منهم أحد ولم يرجع. فالجملة: في محل النصب على الحال من مفعول ﴿أَتَعِدَانِنِي﴾، وكذا جملة قوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾: في محل النصب على الحال من قوله: ﴿لِوَالِدَيْهِ﴾؛ أي: قال لهما ذلك، والحال: أنهما يستغيثان الله سبحانه له، ويسألانه، ويطلبان منه أن يغيثه، ويوفِّقه للإيمان، واستغاث يتعدَّى بنفسه، وبالباء، يقال: استغاث الله، واستغاث به. وقال الرازي: معناه: يستغيثان الله من كفره، فلما حذف الجار.. وصل الفعل؛ أي: يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله؛ أي: يستغيثان الله حال كونهما قائلين له: ﴿وَيْلَكَ﴾؛ أي: هلكت هلاكك، وهو في الأصل: دعاء عليه بالهلاك أريد به الحث والتحريض على الإيمان، لا حقيقة الهلاك. وانتصابه: إما على المصدر[1] بفعل ملاقٍ له في المعنى دون اللفظ؛ أي: هلكت هلاكك، وهو من المصادر التي لم تستعمل أفعالها كالويح والويس والويب، وإمَّا على المفعول به؛ أي: ألزمك الله ويلك. وعلى كلا التقديرين، فالجملة معمولة لقول مقدر؛ أي: يقولان: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾. والقول المقدر: في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يَسْتَغِيثَانِ﴾، كما مرت الإشارة إليه ﴿ءَامِنْ﴾؛ أي: صدِّق بالبعث، والإخراج من الأرض، وهو فعل أمر من الإيمان، وهو من جملة مقولهما ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث؛ أي: إنّ موعوده وهو البعث ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: كائن واقع لا محالة؛ لأنَّ الخلف في الوعد نقص يجب تنزيه الله منه، وأضاف الوعد إليه تعالى في قوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على خطأه في إسناده الوعد إليهما. في قوله: ﴿أَتَعِدَانِنِي﴾ ﴿فَيَقُولُ﴾ مكذباً لهما: ﴿مَا هَٰذَا﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا أكاذيب الأقدمين، وأباطيلهم التي يسطرونها في الكتب من غير أن يكون لها حقيقة، كأحاديث رستم، وبهرام، واستنديار.

(١) الفتوحات.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بكسر ﴿إِن﴾ على الاستئناف، أو على التعليل وقرأ الأعرج، وعمرو بن فائد: بفتحها على أنها معمولةٌ لآمن بتقدير الباء؛ أي: آمن بأنَّ وعد الله بالبعث حقٌّ.

والمعنى: أي والذي قال لوالديه لأجل أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقه من قبورهم، ومجازاته إياهم بأعمالهم: أفٍّ لكما؛ أي: قبحاً لكما، إنّي لضجر منكما، أتقولان: إني أبعث من قبري حيًّا بعد موتي وفنائي، وما لحق بي من بلى، وتفتت عظام، إنَّ هذا لعجب عاجب، فها أولئك قرون قد مضت، وأمم قد خلت من قبلي، كعاد وثمود، ولم يبعث منهم أحدٌ، ولو كنت مبعوثاً بعد وفاتي كما تقولان.. لبعث من قبلي من القرون الغابرة، ووالداه يستصرخان الله عليه، ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث، ويقولان له حثّاً وتحريضاً: هلاكاً لك، صدق بوعد الله، وأنك مبعوث بعد وفاتك، إنّ وعد الله الذي وعده خلقه أنه باعثهم من قبورهم ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم حق لا شك فيه.

والخلاصة[2]: أنهما يستعظمان قوله، ويلجآن إلى الله في دفعه، ويدعوان عليه بالويل والثبور ليستحثاه على ترك ما هو فيه، ويشعراه بأن ما يرتكبه جدير بأن يهلك فاعله.

ثم ذكر ردَّه عليهما مع الاستهزاء بهما، والتعجيب من حالهما. بقوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ إلخ؛ أي: فيقول ذلك الولد مجيباً لوالديه، رادًّا عليهما نصحهما، مكذِّباً بوعد الله: ما هذا الذي تقولان لي، وتدعواني إليه إلا ما سطره الأولون من الأباطيل، فأصبتماه أنتما وصدَّقتما به، ولا ظل له من الحقيقة.

ثم ذكر سبحانه جزاء هؤلاء على ما قالوا واعتقدوا، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة هم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ ووجب ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: العذاب بقوله سبحانه لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما يفيده

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قوله: ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾: حال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾؛ أي: حال كون أولئك القائلين في عداد أمم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ بيان للأمم، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُمۡ﴾ جميعاً؛ أي: هم والأمم ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾؛ لأنهم قد ضيَّعوا فطرتهم الأصلية الجارية مجرى رؤوس أموالهم باتباع الشيطان؛ تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقي.

والمعنى[1]: أي هؤلاء الذين هذه أوصافهم، هم الذين وجب عليهم عذاب الله، وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذّبوا الرسل، وعتوا عن أمر ربهم.

وفي الآية[2]: إيماء إلى أنَّ الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس، قال أبو حيان في «البحر»: قال الحسن البصري في بعض مجالسه: الجن لا يموتون، فاعترضه قتادة بالآية فسكت، وفيها رد أيضاً على من قال: إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر؛ لأنه رضي الله عنه أسلم وَجُبَّ عنه ما قبل الإسلام، وكان من أفاضل الصحابة، أما من حق عليه القول... فهو من علم الله تعالى أنه لا يسلم أبداً.

ثم ذكر العلة في هذا العذاب المهين، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأنهم ضيَّعوا فطرهم التي فطرهم الله عليها، واتبعوا الشيطان، فغبنوا ببيعهم الهدى بالضلال، والنعيم بالعذاب.

ثم ذكر أنّ لكل من الفريقين الذين قالوا: ربنا الله، والذي قال لوالديه أُفٍّ مراتب متفاوتة، فقال: ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ ومراتب متفاوتة ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾؛ أي[3]: من أجزية ما عملوا من الخير والشر، فـ ﴿من﴾ نعت لـ ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ ويجوز أن تكون بيانية. و﴿ما﴾ موصولة، أو من أجل ما عملوا، فـ ﴿ما﴾ مصدرية، و﴿من﴾: متعلق بقوله: ﴿لكل﴾ أي: ولكل من الفريقين من

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

أجل ما عملوا درجات متفاوة حسناً وقبحاً، والدرجات: طبقات عالية في مراتب المثوبة، وإيرادها هنا بطريق التغليب، قال ابن زيد: درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلاً، ودرجات أهل الجنة تذهب علواً.

فإن قلت[1]: كيف وصف الفريقين بأنّ لكل منها درجات، مع أنَّ أهل النار لهم دركات لا درجات؟

قلت: الدرجات: هي الطبقات من المراتب مطلقاً، أو فيه إضمارٌ تقديره: ولكل فريق درجات أو دركات، لكن حذف الثاني اختصاراً لدلالة المذكور عليه.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾: معللة لمحذوف، تقديره: وجازاهم بما ذكر ليوفِّيهم ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: ليعطيهم الله سبحانه أجزية أعمالهم وافيةً تامةً، من وفاه حقّه. إذا أعطاه إياه وافياً تاماً ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: بنقص ثواب الأولين وزيادة عقاب الآخرين.

وفي «الروح»: ﴿اللام﴾ في ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلقة بمحذوف مؤخر، كأنه قيل: وليوفهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم فعل ما فعل من تقدير الأجزية على تقدير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في محل النصب على الحال من مفعول ﴿يُوفِّيهم﴾، أو مستأنفة مقررة لما قبلها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ بالياء؛ أي: الله تعالى، وقرأ الأعمش والأعرج وشيبة وأبو جعفر والأخوان: حمزة والكسائي وابن ذكوان ونافع بخلاف عنه: بالنون، وقرأ السلميّ: بالتاء من فوق؛ أي: ﴿ولتوفيهم﴾ الدرجات، أسند التوفية إليها مجازاً.

والمعنى: أي ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة بحسب أعمالهم، من خير أو شرّ في الدنيا، وليوفيهم أجور أعمالهم: المحسن منهم بإحسانه، والمسيء منهم بإساءته، وهم لا يظلمون شيئاً، فلا

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) البحر المحيط.

يعاقب المسيء إلا بعقوبة ذنبه، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه.

وبعد أن بين سبحانه أنه يعطي كل ذي حق حقه.. بين الأهوال التي يلاقيها الكافرون، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك أهوال يوم ينكشف الغطاء، ويعرض الذين كفروا؛ أي: يقرب الذين كفروا على النار لتعذيبهم، وينظرون إليها.

وقيل: معنى[1] ﴿يُعْرَضُ﴾: يعذبون، من قولهم: عرض الأسارى على السيف؛ أي: قتلوا، وإلا فالمعروض عليه يجب أن يكون من أهل الشعور والإطلاع، والنار ليست منه، وقيل: تعرض النار عليهم بأن يوقفوا بحيث تبدو لهم النار، ومواقعهم فيها، وذلك قبل أن يلقوا فيها، فيكون من باب القلب مبالغةً بادعاء كون النار مميزاً ذا قهر وغلبة.

يقول الفقير: لا حاجة عندي إلى هذين التأويلين، فإن نار الآخرة لها شعور وإدراك، بدليل أنها تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، وتقول للمؤمنين: «جُزْ يا مؤمن فإن نورك أطفأ ناري»، وأمثال ذلك، وأيضاً لا بعد في أن يكون عرضهم على النار باعتبار ملائكة العذاب، فإنهم حاضرون عندها بأسباب العذاب، وأهل النار ينظرون إليهم وإلى ما يعذبونهم به عياناً. والله أعلم.

أي: اذكر يوم يقربون إليها، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾؛ أي: أصبتم وأخذتم ما كتب لكم من طيبات الدنيا ولذائذها وحظوظها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾؛ أي: بالطيبات وانتفعتم بها، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها؛ لأنّ إضافة الطيبات تفيد العموم. قال سعدي المفتي: قوله: ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ كأنه عطف تفسيري لـ ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾. والطيبات هنا[2]: المستلذّات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطىء وغير ذلك، مما يتنعم به أهل الرفاهية.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى: أنه كانت تكون لكم طيبات الآخرة لو آمنتم، لكنكم لم تؤمنوا فاستعجلتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، فهذه كناية عن عدم الإيمان، ولذلك ترتب عليه: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، ولو أريد الظاهر ولم يكن كنايةً عما ذكر.. لم يترتب عليه الجزاء بالعذاب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ على الخبر؛ أي: فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ ولذلك حسنت ﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثاب وأبو جعفر والأعرج وابن كثير: بهمزة بعدها مدة مطولة، وقرأ ابن عامر: بهمزتين حققهما ابن ذكوان، وليَّن الثانية هشام. وابن كثير في رواية، وعن هشام: الفصل بين المحقَّقَة والمَلَيَّنَة بألف. وهذا الاستفهام على معنى التوبيخ والتقرير، فهو خبر في المعنى، فلذلك حسنت ﴿الفاء﴾ بعدها، ولو كان استفهاماً محضاً.. لم تدخل ﴿الفاء﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: ففي هذا اليوم الحاضر؛ يعني يوم القيامة ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: الذل والحقارة؛ أي: العذاب الذي فيه ذلّ لكم وخزي عليكم، وقرىء: الهوان، وهو والهون بمعنى واحد.

ثم بين تلك الكناية بقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وتترفعون عن الإيمان ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بغير استحقاق لذلك.

وفيه إشارة[2] إلى أنّ الاستكبار إذا كان بحق، كالاستكبار على الظلمة.. لا ينكر ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾؛ أي: تخرجون عن طاعة الله تعالى؛ أي: تجزون عذاب الهون بسبب استكباركم، وفسقكم المستمرين، علّل سبحانه ذلك العذاب بأمرين:

أحدهما: الاستكبار عن قبول الحق والإيمان بمحمد ﷺ، وهو ذنب القلب.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

والثاني: الفسق والمعصية بترك المأمورات، وفعل المنهيات، وهو ذنب الجوارح، وقدّم الأول على الثاني؛ لأنّ ذنب القلب أعظم تأثيراً من ذنب الجوارح، وهذا شأن الكفرة، فإنهم قد جمعوا بينهما، وهذه الآية محرضة على التقليل من الدنيا، وترك التنعم فيها، والأخذ بالتقشف، وما يجتزي به رمق الحياة.

ومعنى الآية: أي[1] واذكر يا محمد لقومك حال الذين كفروا حين يعذبون في النار، ويقال لهم على سبيل التوبيخ: إنّ كل ما قدّر لكم من اللذات والنعيم قد استوفيتموه في الدنيا ونلتموه، ولم يبق لكم منه شيء، ولكن بقيت لكم الإهانة والخزي جزاء استكباركم، وفسوقكم عن أمر ربكم، وخروجكم عن طاعته.

فصل في ذكر نبذة من الأحاديث المحرضة على التزهد في الدنيا

ولما وبّخ[2] الله سبحانه الكافرين بالتمتع بالطيبات.. آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا، رجاء ثواب الآخرة، فقد وردت أحاديث صحيحة دالة على ذلك:

فمنها: ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متّكىء على رمال حصير قد أثّر في جنبه، فقلت: أستأنس يا رسول الله، قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردّ البصر إلا أهبة ثلاثة، فقلت: ادع الله أن يوسع على أمّتك، فقد وسَّع على فارس والروم، ولا يعبدون الله، فاستوى جالساً ثم قال: «أفي شكّ أنت يا ابن الخطاب، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت: استغفر لي يا رسول الله. متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله ﷺ. متفق عليه.

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وعنها قالت: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً، إنما هو الأسودان: التمر والماء، إلا أن نؤتىٰ باللحيم. وفي رواية أخرى قالت: إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. قال عروة: قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا. متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير). أخرجه الترمذي، وله عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أُخفت في الله ما لم يخف أحد، وأوذيت في الله ما لم يؤذ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة، وما لي ولبلال طعام إلاّ شيء يواري إبط بلال».

وعن أبي هريرة قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته. أخرجه البخاري.

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن: أنّ عبد الرحمن بن عوف أتي بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير منّي، فكفّن في بردة إن غطّي رأسه.. بدت رجلاه، وإن غطّي رجلاه.. بدا رأسه، قال: وأراه، قال: قتل حمزة وهو خير منّي، فلم يوجد ما يكفّن فيه إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيّباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام، أخرجه البخاري أيضاً.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن ابن عمر: أنّ عمر رضي الله عنه رأىٰ في يد جابر بن عبد الله رضي الله عنه درهماً، فقال: ما هذا الدرهم؟ قال: أريد أن أشتري به لأهلي لحماً قرموا إليه،

فقال: أكلما اشتهيتم شيئاً اشتريتموه؟ أين تذهب عنكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾؟.

وقد كان[1] السلف الصالح يؤثرون التقشف والزهد في الدنيا؛ رجاء أن يكون ثوابهم في الآخرة أكمل، لا أن التمتع بزخارف الدنيا مما يمتنع، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

نعم: إنّ الاحتراز عن التنعم أولىٰ؛ لأنّ النفس إذا اعتادت ذلك، وألفته.. صعب عليها تركه والاكتفاء بما دونه، ولله در البوصيري إذ يقول:

وَالنَّفْسُ كَٱلطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَىٰ ... حُبِّ ٱلرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

والذي يضبط هذا الباب، ويحفظ قانونه: أنّ على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قفاراً ـ الطعام بلا إدام ـ ولا يتكلف الطيب، ويتخذه عادةً. وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمده أصلاً، ولا يجعله ديدناً له.

قِصّة هود عليه السلام مع قومه عاد

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لكفار مكة هوداً عليه السلام مع قومه، ليعتبروا من حال قومه، فمعنى[2] ﴿أَخَا عَادٍ﴾. واحداً منهم في النسب لا في الدين، كما في قولهم: يا أخا العرب، وعاد: هم ولد عاد بن **عوص** بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وهود: هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد ﴿إِذْ أَنذَرَ﴾ وخوَّف ﴿قَوْمَهُ﴾ عاداً من عذاب الله تعالى، والظرف: بدل اشتمال من ﴿أَخَا عَادٍ﴾ لأنّ ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، يلابس وقت إنذاره وما وقع له معهم، فـ ﴿إِذْ﴾: ظرف للماضي، بمعنى الوقت مضافة لما بعدها ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾؛ أي: بموضع يقال له: الأحقاف واد باليمن به منازلهم، وليس صلةً لـ ﴿أَنذَرَ﴾ كما قد

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

يتوهم، بل هو حال من ﴿عَادٍ﴾؛ أي: حال كونهم كائنين بالأحقاف؛ أي: نازلين به، أو صفة؛ أي: أخا عاد الكائنين بالأحقاف؛ أي: بالوادي المعلوم. اهـ شيخنا. وأمَّا صلة ﴿أَنذَرَ﴾ فهي قوله الآتي: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

والأحقاف: جمع حقفٍ، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج. قاله الخليل وغيره. وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم، وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرمل في الصحارى؛ لأنَّ الريح تصنع ذلك. وقال في «فتح الرحمن»: الصحيح من الأقوال: أنَّ بلاد عاد كانت في اليمن، ولهم كانت إرم ذات العماد. وعن عليّ رضي الله عنه: شر وادٍ بين الناس وادي الأحقاف، وواد بحضرموت يدعىٰ برهوت، تلقى فيه أرواح الكفار، وخير واد وادي مكة، ووادٍ نزل به آدم بأرض الهند، وخير بئر في الناس بئر زمزم، وشر بئر في الناس بئر برهوت. كذا في «كشف الأسرار».

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: مضت الرسل، جمع نذير بمعنى المنذر ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من قبل هود، كنوح عليهما السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾؛ أي: ومن بعد هود، كصالح عليهما السلام. وهذه الجملة: معترضة بين المفسِّر والمفسَّر، أو المتعلِّق والمتعلَّق، مقرِّرة لما قبلها، مؤكدة لوجوب العمل بموجب الإنذار، وسَّط بها بين إنذار قومه وبين قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مسارعةً إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد، وإيذاناً باشتراكهم في العبادة المحكيّة.

وفي «الفتوحات»[1]: المضي بالنسبة لزمن محمد ﷺ خوطب به محمد، وأخبر به لبيان أنَّ إنذار هود لعاد وقع مثله للرسل السابقين عليه، والمتأخرين عنه، فأنذروا أممهم كما أنذر هود أمته، فصحَّ قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾، فالذين قبله أربعة: آدم وشيث وإدريس ونوح، والذين بعده: كصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وكذا سائر أنبياء بني إسرائيل.

والمعنى[2]: واذكر يا محمد لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك، والعذاب

---

(١) الجمل. (٢) روح البيان.

العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك. قال في «بحر العلوم»: ﴿أن﴾، مخففة من الثقيلة؛ أي: أنه يعني: أنَّ الشأن والقصة لا تعبدوا إلا الله، أو مفسرة بمعنى أي، أي: لا تعبدوا إلا الله أو مصدرية بحذف الباء؛ أي: بأن لا تعبدوا إلا الله، وتلك الباء للتصوير والتفسير؛ أي: صورة إنذاره أن قال: لا تعبدوا إلخ. و﴿لا﴾: ناهية. وإنما كان هذا إنذاراً؛ لأنّ النهي عن الشيء إنذار وتخويف من مضرّته. اهـ. «بيضاوي». فصح أنّ قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ مفسر للإنذار، ومتعلق به. اهـ «شهاب».

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بسبب شرككم، وإعراضكم عن التوحيد، تعليل لقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾؛ أي إنما أحذركم أن لا تعبدوا إلا الله لأني أخاف عليكم بسبب شرككم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: هائل واليوم العظيم يوم نزول العذاب عليهم، فعظيم مجاز عن هائل، لأنّه يلزم العظم، ويجوز أن يكون من قبيل الإسناد إلى الزمان مجازاً، وأن يكون الجر على الجوار.

والمعنى[1]: أي واذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ما جئتهم به من الحق هوداً أخا عاد، فقد كذّبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها أن لا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم إياه، بل أخلِصوا له العبادة، وأفرِدوا له الألوهية، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله، فقال لهم ناصحاً: إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾، وحين نصحهم بذلك أجابوه و﴿قَالُوٓا۟﴾ له: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا هود بالتوحيد والإيمان، والاستفهام فيه[2]: للتقرير والتوبيخ، والتعجيز له فيما أنذره إياهم من العذاب العظيم، على ترك إفراد الله تعالى بالعبادة. ذكره في «البحر». ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾؛ أي: لتصرفنا وتردنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؛ أي: عن عبادتها إلى دينك، وهذا مما لا يكون ولا يعقل ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وتخبرنا من

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

العذاب العظيم. و﴿الباء﴾: للتعدية ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك بنزوله بنا ﴿قَالَ﴾ هود ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت مجيئه أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحده لا عندي، لا علم لي بوقت نزوله، ولا مدخل لي في إتيانه وحلوله، وإنما علمه عند الله تعالى، فيأتيكم به في وقته المقدر له ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار، وبيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله.

وقرأ أبو عمرو: ﴿أبلغكم﴾ بالتخفيف ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث بقيتم مصرين على كفركم، ولم تهتدوا بما جئتكم به، بل تقترحون عليّ ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب، وتعيين وقت نزوله. وفي «التأويلات النجمية»: تجهلون الصواب من الخطأ، والصلاح من الفساد حين أدلكم على الرشاد.

والمعنى[1]: أي قال قومه له: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه، وإلى اتباعك فيما تقول، هلمّ فهات ما تعدنا به من العذاب على عبادة ما نعبد من الآلهة، إن كنت صادقاً في قولك وعدتك.

والخلاصة: أتزيلنا بضروب من الكذب عن آلهتنا وعبادتها، فأتنا بما تعدنا من معالجة العذاب على الشرك إن كنت صادقاً في وعيدك، وقد استعجلوا عذاب الله. وعقوبته، استبعاداً منهم لوقوعه، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾. فردّ هود عليهم مقالتهم، قال: إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندي، فلا أستطيع تعجيله، ولا أقدر عليه، ثم بين وظيفته فقال: وأبلغكم ما أرسلت به إليكم من ربكم من الإنذار، لا أن آتي بالعذاب، فليس ذلك من مقدوري، بل هو من مقدورات ربّي، ثمّ بيّن لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل، فقال: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ...﴾ إلخ؛ أي: وإنّي لأعتقد فيكم الجهل، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم، ولم تهتدوا بما جئتكم به، بل اقترحتم عليّ ما ليس

---

(١) المراغي.

من شأن الرسل، وهو الإتيان بالعذاب.

ثمّ ذكر مجيء العذاب إليهم، وانتقامه منهم، واستئصال شأفتهم، فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ﴿الفاء﴾. عاطفة على محذوف، تقديره: فأتاهم العذاب الموعود به، فلمّا رأوه وأبصروه حال كونه ﴿عَارِضًا﴾؛ أي: سحاباً يعرض في أفق السماء، أو يبدو في عرض السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾؛ أي: متوجّهاً تلقاء أوديتهم، والإضافة فيه[1] لفظية، ولذا وقع صفة للنكرة، قال المفسّرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم، يقال له: المُعَتِّب، فلمّا شاهدوها.. ﴿قَالُواْ﴾ مستبشرين مسرورين بها: ﴿هَٰذَا﴾ السحاب ﴿عَارِضٌ﴾؛ أي: غيم ﴿مُّمْطِرُنَا﴾؛ أي: يأتينا بالمطر، فلما قالوا ذلك.. أجاب عليهم هود، فقال: ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: هذا العارض ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب حيث قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾. وقرىء: ﴿ما استعجلتم﴾ بضم التاء وكسر الجيم. ذكره في «البحر». ﴿رِيحٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو ريح ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والجملة الاسمية: صفة أولى لـ ﴿رِيحٌ﴾ والريح التي عُذّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه. وقرىء ﴿قل بل ريح﴾؛ أي: بل هي ريح. ذكره البيضاوي. وكذا جملة قوله: ﴿تُدَمِّرُ﴾؛ أي: تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مرّت عليه من نفوسهم وأموالهم، صفة ثانية لـ ﴿رِيحٌ﴾. والاستغراق فيه عرفيّ، والمراد: المشركون منهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإذن ربها وإرادته، إذ لا حركة ولا سكون إلا بمشيئته تعالى، وأضاف الرب إلى الريح، مع أنه تعالى ربّ كل شيء؛ لتعظيم شأن المضاف إليه، وللإشارة إلى أنها في حركتها مأمورة، وأنها من أكابر جنود الله؛ يعني: ليس ذلك من باب تأثيرات الكواكب والقرانات، بل هو أمر حدث ابتداءً بقدرة الله تعالى لأجل التعذيب.

وقرأ الجمهور: ﴿تُدَمِّرُ﴾ بضم التاء وكسر الميم المشددة من التدمير وهو: الإهلاك، وكذا الدمار، وقرأ[2] زيد بن علي: ﴿تَدْمُرُ﴾ بفتح التاء وسكون الدال

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وضم الميم. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنصب، وقرىء: ﴿يَدْمُر﴾ بالتحتية المفتوحة والدال الساكنة، والميم المضمومة، ورفع ﴿كل﴾ على الفاعلية، من دمر دماراً: إذا هلك ﴿فَأَصْبَحُوا﴾، أي: صاروا من العذاب بحال ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ فيها ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم، و﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فجاءتهم الريح فدمَّرتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لا تَرَى إلا مساكنهم﴾ بفتح التاء الفوقية على الخطاب، ونصب ﴿مساكنهم﴾؛ أي: لاترى أنت يا محمد، أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم، وقرأ عبد الله ومجاهد وزيد بن علي وقتادة وأبو حيوة وطلحة وعيسى والحسن وعمرو بن ميمون بخلافٍ عنهما، وعاصم وحمزة: ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ بالتحتية المضمومة مبنياً للمفعول، ورفع ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ قال سيبويه: معناه: لا يرى أشخاصُهم إلا مساكنَهم واختار أبو عبيد وأبو حاتم هذه القراءة، قال الكسائي، والزجاج: معناها: لا يُرى شيء إلا مساكنهم، فهي محمولة على المعنى، كما تقول: ما قام إلا هند، والمعنى: ما قام أحد إلا هند، وقرأ الجحدريّ، والأعمش، وابن أبي إسحاق والسلميّ: بالتاء من فوق مضمومة، ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالرفع. وهذا لا يجيزه أصحابنا إلا في الشعر، كقوله:

فَمَا بَقِيَتْ إِلاَّ ٱلضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ

وبعضهم يجيزه في الكلام، وقرأ عيسى الهمدانيّ: ﴿لا يرى﴾ بضم الياء، ﴿إلا مسكنهم﴾ بالتوحيد، وروى هذا عن الأعمش، ونصر بن عاصم، وقرىء: ﴿لا ترى﴾ بتاء مفتوحة للخطاب، ﴿إلا مسكنهم﴾ بالتوحيد مفرداً منصوباً. واجتزىء بالمفرد عن الجمع تصغيراً لشأنهم، وأنهم لمّا هلكوا في وقت واحد.. فكأنهم كانوا في مسكن واحد. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: جزاءً مثل ذلك الجزاء الفظيع، يعني: الهلاك بعذاب الاستئصال ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المتمردّين في الإجرام المستمرّين على الإشراك الذين منهم هؤلاء.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أي كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب في الدنيا فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي كل مجرم كافر بالله متمادٍ في غيّه، والآية وعيد لأهل مكة على إجرامهم بالتكذيب، فإنّ الله تعالى قادر على أن يرسل عليهم ريحاً مثل ريح عاد أو نحوها فلا بد من الحذر.

قيل[1]: أوحى الله تعالى إلى خزّان الريح، أن أرسلوا مقدار منخر البقر، فقالوا: يا رب ننسف الأرض ومن عليها! فقال تعالى: مثل حلقة الخاتم، ففعلوا، فجاءت ريح باردة من قبل المغرب، وأول ما عرفوا به أنه عذاب أن رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض، وترفع الظعينة في الجوّ حتى ترى كأنها جرادة، فتدمغها بالحجارة، فدخلوا بيوتهم، وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، فأمال الله الأحقاف عليهم، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم كشفت الريح عنهم الأحقاف، فاحتملتهم فطرحتهم في البحر، وقد قالوا: من أشد منا قوة، فلا تستطيع الريح أن تزيل أقدامنا، فغلبت عليهم الريح بقوتها، فما أغنت عنهم قوتهم، وبقي هود ومن آمن معه، وكانوا أربعة آلاف.

وفي «الخازن»: وقيل: إنّ هوداً عليه السلام لما أحسَّ بالريح.. خطَّ على نفسه وعلى من معه من المؤمنين خطاً، فكانت الريح تمر بهم لينة باردة طيبة، والريح التي تصيب قومه شديدة عاصفة مهلكة، وهذه معجزة عظيمة لهود عليه السلام. انتهى.

ولما أخبر سبحانه بهلاك قوم عاد.. خاطب قريشاً على سبيل الموعظة، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أقدرنا عاداً، وملكناهم ﴿فِيمَآ﴾؛ أي: في الذي ﴿إِن﴾ نافية بمعنى ما؛ أي: في الذي ما ﴿مَّكَّنَّٰكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿فِيهِ﴾ من السعة، والبسطة، وطول الأعمار، وسائر مبادي التصرفات، ومما[2] يحسن وقوع ﴿إِن﴾ ههنا دون ما التقصي والفرار عن تكرر لفظة ما، وهو

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الداعي إلى قلب ألفها هاء في مهما.

أي:[١] ولقد مَكَّنَّا عاداً الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه من الأموال الكثيرة، وبسطة الأجسام، وقوة الأبدان، وهم على ذلك ما نجوا من عقاب الله، فتدبروا أمركم، وفكروا فيما تعملون قبل أن يحل بكم العذاب، ولا تجدون منه مهرباً.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: خلقنا لعاد، وأعطيناهم ﴿سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ أي: قلوباً ليستعملوها فيما خلقت له، ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم، ويستدلّوا بها على شؤون منعمها عز وجل، ويدوموا على شكرها، ولعل[٢] توحيد السمع وإفراده لأنه لا يدرك به إلا الصوت وما يتبعه بخلاف البصر، حيث يدرك به أشياء كثيرة، بعضها بالذات، وبعضها بالواسطة، والفؤاد يعمّ إدراك كل شيء، والفؤاد من القلب كالقلب من الصدر؛ سُمِّيَ به لتفؤده؛ أي: لتوقده وتحرقه ﴿فَمَآ﴾: نافية؛ أي: فيما ﴿أَغْنَىٰ﴾ ودفع ﴿عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي، ومواعظ الرسل، يقال: أغنى عنه كذا: إذا كفاه ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة في صحائف العالم ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله سبحانه ﴿مِّن شَىْءٍ﴾؛ أي: شيئاً من الإغناء، و﴿مِّنَ﴾: مزيدة للتأكيد.

والمعنى[٣]: أي إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا، فأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا، وأعطيناهم أبصاراً ليروا ما نصبناه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها، وأعطيناهم قلوباً تفقه حكمة الله في خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم في آخرتهم، ويقرّبهم من جوار ربهم، بل صرفوها في طلب الدنيا ولذاتها، لا جرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة، إذ لم يستعملوها فيما خلقت له من شكر من أنعم

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

بها، ودوام عبادته.

ثم بيّن العلة في عدم إغناء ذلك عنهم، فقال: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ويكذّبون رسله، وينكرون معجزاتهم. و﴿إِذْ﴾، ظرف جرى مجرى التعليل، متعلق بـ ﴿بما أغنى﴾ من حيث إنّ الحكم مرتب على ما أضيف إليه، فإنّ قولك: أكرمته إذ أكرمني في قوة قولك: أكرمته لإكرامه، لأنك إذا أكرمته وقت إكرامه... فإنما أكرمته فيه لوجود إكرامه فيه، وكذا الحال في حيث ﴿وَحَاقَ﴾ أي: أحاط ونزل ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، فيقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وفي هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله، ويخافوا عقابه، فإنّ عاداً لمّا اغتروا بدنياهم، وأعرضوا عن قبول الحق.. نزل بهم العذاب، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئاً، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أنَّ هذه الآلات التي هي السمع والبصر، والفؤاد، أسباب تحصيل التوحيد، وبدأ بالسمع؛ لأنّ جميع التكليف الوارد على القلب إنما يوجد من قبل السمع، وثنّى بالبصر؛ لأنه أعظم شاهد بتصديق المسموع منه، وبه حصول ما به التفكر والاعتبار غالباً، تنبيها على عظمة ذلك، وإن كان المبصر هو القلب، ثم رجع إلى الفؤاد الذي هو العمدة في ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أهلكنا يا أهل مكة ﴿مَا حَوْلَكُم﴾؛ أي: ما حول قريتكم ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ المكذِّبة للرسل كعاد، وقد كانوا بالأحقاف بحضرموت، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وسبأ باليمن، ومدين وكانت في طريقهم في رحلاتهم صيفاً وشتاءً؛ أي: أهلكنا تلك الأمم المكذّبة بعد أن أنذرناهم بالمثلات، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: ولقد كررنا، وبيّنا لهم قبل إهلاكهم الآيات التي يعتبر بها بتكرير ذكرها، وإعادة أقاصيص الأمم الخالية بتكذيبها وشركها؛

---

(١) روح البيان.

أي[1]: بيَّنا لهم دلائل قدرتنا، وبديع حججنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لكي يرجعوا عن غيِّهم الذي استمسكوا به لمحض التقليد، أو لشبهة عرضت لهم، فلم يرجعوا، فحل بهم سوء العذاب، ولم يجدوا لهم نصيراً، ولا دافعاً لعذاب الله.

ثم أبان الله تعالى مدى الكرب والشدَّة بفقد الأعوان والنصراء لدفع عذاب الله، فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾: تحضيضية؛ أي: فهلاً نصر أولئك الأمم المكذّبة، حين أهلكهم الله تعالى الأصنام والأوثان ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ هم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾؛ أي: اتخذوها آلهة من دون الله، يتقربون بعبادتها إلى ربهم؛ أي: فهلاً نصرهم أوثانهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً يتقرَّبون به إلى ربهم فيما زعموا، حين جاءهم بأسه، فأنقذوهم من عذابه إن كانوا يشفعون عنده ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾ وغابوا ﴿عَنْهُمْ﴾ ولم يفيدوهم شيئاً، و﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي عن نفي النصرة لما هو أخص منه، إذ نفيها يصدق بحضورها عندهم بدون النصرة، فأفاد بالإضراب أنهم لم يحضروا بالكلية، فضلاً عن أن ينصروهم، والقربان: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من طاعة ونسيكة، والجمع: قرابين، كرهبان ورهابين، وأحد[2] مفعولي ﴿اتَّخَذُوا﴾: ضمير محذوف راجع إلى الموصول، والثاني: ﴿ءَالِهَةً﴾ و﴿قُرْبَانًا﴾: حال، والتقدير: فهلاً نصرهم وخلّصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة، حال كونها متقرَّباً بها إلى الله تعالى، حيث كانوا يقولون: ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، وفيه تهكم بهم ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾؛ أي: بل ضلت الآلهة وغابت عنهم؛ أي: عن عابديها عند حلول البأس بهم، وفيه تهكم آخر بهم، كأنّ عدم نصرتهم لغيبتهم أو ضاعوا عنهم: أي: ظهر ضياعهم عنهم بالكلية.

﴿وَذَلِكَ﴾؛ أي: ضياع[3] آلهتهم عنهم، وامتناع نصرتهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها، ونتيجة شركهم، وثمرته ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

عطف على ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: وما كانوا يكذبون بقولهم: إنها آلهة، وإنها تشفع لهم، و﴿ما﴾: إما مصدرية؛ أي: أثر افترائهم على الله، أو موصولة؛ أي: وأثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى، من نسبة الشركاء إليه تعالى.

والمعنى[1]: أي فهلاً نصرتهم آلهتهم التي تقرَّبوا بها إلى الله لتشفع لهم، ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم، بل غابوا وذهبوا عنهم، ولم يحضروا لنصرتهم عند الحاجة إليهم. وذلك الضلال والضياع سببه اتخاذهم إياها آلهةً، وزعمهم الكاذب أنها تقرِّبهم إلى الله تعالى، وتشفع، وافتراؤهم وكذبهم بقولهم: إنها آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

وفي هذا[2]: تقريع لأهل مكة، وتأنيبٌ لهم على أنه لو كانت آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تغني عنهم شيئاً، أو تنفعهم عنده.. لأغنت عمن كان قبلهم من الأمم الذين أُهلكوا بعبادتهم لها، فدفعت عنهم العذاب إذ نزل بهم، أو لشفعت لهم عند ربهم، لكنها أضرّتهم ولم تنفعهم، وغابت عنهم أحوج ما كانوا إليها، فما أحراهم أن يتنبهوا لما هم فيه من خطل الرأي، وسوء التقدير للأمور.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿إِفْكُهُمْ﴾ بكسر الهمزة وإسكان الفاء وضم الكاف، مصدر أفك يأفك إفكاً؛ أي: كذبهم، وقرأ ابن عباس في رواية: بفتح الهمزة مع سكون الفاء وهو أيضاً مصدر لأفك، وقرأ ابن عباس أيضاً وابن الزبير، والصباح بن العلاء الأنصاري وأبو عياض، وعكرمة، وحنظلة بن النعمان بن مرة، ومجاهد: ﴿أَفَكَهم﴾ بثلاث فتحات، على أنه فعل ماض؛ أي: ذلك القول صرفهم عن التوحيد، وقرأ أبو عياض وعكرمة أيضا: كذلك، إلا أنهما شدَّدا الفاء للتكثير، فقالا: أفَّكهم من باب فعّل المضعف، وقرأ ابن الزبير أيضاً، وابن عباس فيما ذكر ابن خالويه: ﴿آفَكَهم﴾ بالمدّ، فاحتمل أن يكون بزنة فاعل، فـ ﴿الهمزة﴾ أصلية، وأن يكون بزنة أفعل، فـ ﴿الهمزة﴾: للتعدية؛ أي: جعلهم

---

(١) التفسير المنير.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

يأفكون، ويكون أفعل بمعنى المجرد، وعن الفرّاء أنه قرىء: ﴿أَفَكُهم﴾ بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف، وهي لغة في الإفك، فيكون له ثلاثة مصادر: الأَفْك، والإِفْك بفتح الهمزة وكسرها مع سكون الفاء، والأفك بفتح الهمزة والفاء، وقرأ ابن عباس فيما روى قطرب، وأبو الفضل الرازي: ﴿آفكهم﴾ اسم فاعل من أفك؛ أي: صارفهم، والإشارة بذلك على قراءة من قرأ: ﴿أفكهم﴾ مصدراً إلى اتخاذ الأصنام آلهةً؛ أي: ذلك كذبهم وافتراؤهم، وقال الزمخشري: وذلك إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم، وضلالهم عنهم؛ أي: وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهةً، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب، من كونه ذا شركاء. انتهى.

وعلى قراءة من جعله فعلاً معناه: وذلك الاتخاذ صرفهم عن الحق، وكذلك قراءة اسم الفاعل؛ أي: صارفهم عن الحق، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ في قوله: ﴿وما يفترون﴾: مصدرية كما مرّ؛ أي: وافتراؤهم، وهذا الاحتمال هو الأحسن، ليُعْطَف مصدرَ على مثله، وأن تكون بمعنى الذي، والعائد: محذوف؛ أي: والذي يفترونه.

الإعراب

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُوا﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة في خبر الموصول، لما فيه من معنى الشرط. ﴿لا﴾ نافية ﴿خَوْفٌ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء به تقدم النفي عليه، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية. في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: حرف عطف، ﴿لا﴾: زائدة لتكررها ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على الجملة السابقة.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. خبر، والجملة: خبر ثان لـ ﴿إنّ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿جَزَآءً﴾: مصدر منصوب بفعل محذوف؛ أي: يجزون جزاءً، والجملة المحذوفة: في محل النصب حال ثانية من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. وجوّز أبو البقاء إعرابه حالاً. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿جَزَآءً﴾ و﴿ما﴾: موصولة أو مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: مستأنفة. ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿وصينا﴾. ﴿إِحْسَٰنًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: وصّيناه أن يحسن إليهما إحساناً، أو مفعول به على تضمين ﴿وصّينا﴾ معنى ألزمنا، فيكون مفعولاً ثانياً؛ أي: ألزمنا الإنسان إحساناً بوالديه، ﴿حَمَلَتْهُ﴾: فعل ومفعول به، ﴿أُمُّهُۥ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالوصية. ﴿كُرْهًا﴾: حال من ﴿أُمُّهُۥ﴾؛ أي: حالة كونها ذات كره ومشقة وتعب، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: حملاً كرهاً. ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَحَمْلُهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿حمله﴾: مبتدأ. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: معطوف عليه. ﴿ثَلَٰثُونَ﴾: خبر. ﴿شَهْرًا﴾ تمييز، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من مفعول ﴿وضعته﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿بَلَغَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الإنسان ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: مفعول به، والجملة: في محل الخفض مضاف إليه على كونها فعل شرط، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿وَبَلَغَ﴾: فعل وفاعل مستتر. ﴿أَرْبَعِينَ﴾: مفعول به. ﴿سَنَةً﴾: تمييز، والجملة: معطوفة على جملة ﴿بَلَغَ﴾ الأول.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الإنسان، والجملة جواب

﴿إِذَا﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها: في محل الجر بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الجارة المتعلقة بمحذوف، تقديره: وعاش إلى قوله: رب أوزعني وقت بلوغه أشده، وبلوغه أربعين سنة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾: فعل دعاء مبني على السكون، وفاعله: ضمير يعود على الله، والنون: للوقاية، والياء: مفعول به أول، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَشْكُرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. ﴿نِعْمَتَكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ تقديره: رب أوزعني شكر نعمتك. ﴿الَّتِىٓ﴾: صفته لـ ﴿نِعْمَتَكَ﴾. ﴿أَنْعَمْتَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: أنعمتها. ﴿عَلَىَّ﴾: متعلق بـ ﴿أَنْعَمْتَ﴾. ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾: معطوف على ﴿عَلَىَّ﴾، ﴿وَأَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن أعمل﴾: ناصب ومنصوب وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾؛ أي: وعملي. ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو صفة لمصدر محذوف، وجملة ﴿تَرْضَىٰهُ﴾: صفة لـ ﴿صَٰلِحًا﴾. ﴿وَأَصْلِحْ﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾. ﴿لِى﴾: متعلق بـ ﴿أصلح﴾، ﴿فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾: متعلق بـ ﴿أصلح﴾ أيضاً؛ أي: واجعل لي الصلاح في ذريتي راسخاً فيهم. ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تُبْتُ﴾ خبر، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ ﴿تُبْتُ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل الدعاء المذكور قبله، وجملة ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: معطوفة على جملة ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. وجملة ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾: صلة الموصول. ﴿أَحْسَنَ﴾: مفعول به. و﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿عَمِلُوا۟﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: مصدرية؛ أي: أحسن عملهم. ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾: معطوف على ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ داخل في حيز الصلة. ﴿عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾. متعلق بـ ﴿نتجاوز﴾. ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾: حال من

الموصول؛ أعني: الذين نتقبل عنهم. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾: منصوب بفعله المقدر؛ أي: وعدهم الله وعد الصدق؛ أي: وعداً صادقاً لا خلف فيه، وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لوعد الصدق. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُوعَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: يوعدونه ﴿وَٱلَّذِى﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذي﴾، مبتدأ، وجملة ﴿قَالَ﴾: صلته. ﴿لِوَٰلِدَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿قَالَ﴾، ﴿أُفٍّ﴾: اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، مبني على الكسر لشبهه بالحرف شبهاً استعمالياً، وفاعله: ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنا وجملة اسم الفعل: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: ﴿لَّكُمَآ﴾: متعلق بـ ﴿أُفٍّ﴾.

﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَتَعِدَانِنِىٓ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿تعدان﴾: فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والألف: فاعل، والنون: للوقاية، والياء: مفعول أول له، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾: ناصب وفعل مغير ونائب فاعل مستتر، والجملة: في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ ﴿تعدانني﴾؛ أي: تعدانني خروجي من القبر. ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿خَلَتِ ٱلْقُرُونُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلِى﴾: متعلق بـ ﴿خَلَتِ﴾، والجملة: في محل النصب حال من نائب ﴿أُخْرَجَ﴾، ﴿وَهُمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هما﴾: مبتدأ. ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ﴿والديه﴾. ﴿وَيْلَكَ﴾: منصوب على المصدرية بفعل مقدر من معناه لا من لفظه؛ لأنّ العرب أماتوا لفظ فعله، تقديره: هلكت ويلك؛ أي: هلاكك، أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: ألزمك الله ويلك، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿يَسْتَغِيثَانِ﴾، تقديره: وهما يستغيثان الله حال كونهما قائلين: ويلك آمن. ﴿ءَامِنْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الولد، والجملة الفعلية: من تتمّة مقولهما. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ناصب

واسمه وخبره، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب من تتمّة قولهما، مسوقة لتعليل الأمر بالإيمان. ﴿فَيَقُولُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على القول المحذوف. ﴿يقول﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الولد. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: خبر. ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾، وجملة ﴿يقول﴾: معطوفة على جملة يقولان المحذوف.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر لقوله السابق: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾. والجمع هنا باعتبار المعنى. ﴿حَقَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: فاعل، والجملة: صلة الموصول. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ حال من الضمير المجرور بـ ﴿على﴾؛ أي: حال كونهم كائنين في عداد أمم. وجملة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: صفة لـ ﴿أُمَمٍ﴾. ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: متعلق بـ ﴿خَلَتْ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: حال من فاعل ﴿خَلَتْ﴾، أو صفة لـ ﴿أُمَمٍ﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾: وجملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلِكُلٍّ﴾: خبر مقدم. ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿مِّمَّا﴾: صفة لـ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ وجملة ﴿عَمِلُواْ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يوفّيهم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله: ضمير يعود على الله، و﴿الهاء﴾: مفعول أول. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولتوفيته إياهم أعمالهم، والجار والمجرور: متعلقان بمعلول محذوف، والمعلول المحذوف، معطوف على مقدر تقديره: فعل بهم ما فعل، ليعدل بينهم، وجازاهم بما ذكر، ليوفيهم أعمالهم. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب حال مؤكدة من ضمير ﴿يوفيهم﴾.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَوۡمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: يقال لهم يوم عرضهم على النار: أذهبتم، والقول المحذوف: مستأنف. ﴿يُعۡرَضُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نائب فاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾. ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يُعۡرَضُ﴾، ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾: مفعول به. ﴿فِي حَيَاتِكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾. ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة لـ ﴿الحياة﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾: معطوف على ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ ﴿استمتعتم﴾. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿اليوم﴾: ظرف متعلق بـ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ و﴿تُجۡزَوۡنَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل، والجملة: معطوفة على ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾. ﴿عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾: مفعول به ثان. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾. ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: خبره، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾. ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾: متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَبِمَا﴾: معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾، وجملة ﴿كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾: في الموضعين موصوفةً أو مصدرية.

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ومفعول به، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان قصة عاد قوم هود. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، في محل النصب بدل اشتمال من ﴿أَخَا عَادٍ﴾. ﴿أَنذَرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَخَا عَادٍ﴾. ﴿قَوۡمَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذۡ﴾. ﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾: حال من ﴿قَوۡمِهِۦ﴾. ﴿وَقَدۡ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: حال من ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾: معطوف عليه، والجملة: اعتراضية لا محل لها

من الإعراب؛ لاعتراضها بين المفسِّر والمفسَّر، أو بين المتعلِّق والمتعلَّق. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، أو مصدرية أو مفسرة، واسمها. ضمير الشأن؛ أي: أنه ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة، في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿أَنذَرَ﴾؛ أي: إذ أنذر قومه بعدم عبادتهم إلا الله. ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخَافُ﴾: خبر ﴿إنّ﴾ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿أَخَافُ﴾. ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ﴾: مفعول به. ﴿عَظِيمٖ﴾: صفة ﴿يَوۡمٍ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ تعليلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها تعليل للنهي عن عبادة غير الله.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التوبيخي. كما في «البحر»، ﴿جئتنا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تأفكنا﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل مستتر، يعود على هود. ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لإفكك إيّانا عن آلهتنا، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿جئتنا﴾. ﴿فَأۡتِنَا﴾ ﴿الفاء﴾، عاطفة. ﴿ااتنا﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بِمَا﴾: متعلق به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ لتوافقهما في الطلبية. ﴿تَعِدُنَآ﴾: فعل مضارع: وفاعل مستتر. ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: بما تعدناه. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: معلوم مما قبلها؛ أي: إن كنت من الصادقين. فأتنا بما تعدنا. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على هود، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾: مبتدأ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَأُبَلِّغُكُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أبلغكم﴾: فعل مضارع. وفاعل مستتر، ومفعول به. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب. مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. ﴿أُرْسِلْتُ﴾: فعل ماض، مغير الصيغة. ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به والجملة: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَلَٰكِنِّيٓ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكنّي﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرَىٰكُمْ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على ما قبلها. ﴿أَرَىٰكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول أوّل. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول ثان له، وجملة ﴿تَجْهَلُونَ﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿رَأَوْهُ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول به. ﴿عَارِضًا﴾: حال من المفعول؛ لأنّ الرؤية بصرية، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾. ﴿مُّسْتَقْبِلَ﴾ صفة ﴿عَارِضًا﴾؛ لأنّ الإضافة فيه لفظية. ﴿أَوْدِيَتِهِمْ﴾ مضاف إليه ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة، جواب ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾: معطوفة على محذوف، تقديره: فجاءهم العذاب، فلمّا رأوه قالوا. إلخ. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿عَارِضٌ﴾: خبره، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿مُّمْطِرُنَا﴾: صفة ﴿عَارِضٌ﴾، لأنّ الإضافة فيه لفظية، كما مرّ آنفاً. ﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة: مقول لقول محذوف، تقديره: قال هود: بل هو ما استعجلتم به. ﴿ٱسْتَعْجَلْتُم﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿رِيحٌ﴾: بدل من ﴿مَا﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي ريح. ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية: نعت أول لـ ﴿رِيحٌ﴾.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿تُدَمِّرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على ﴿رِيحٌ﴾. ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾:

مفعول به، ﴿بِأَمۡرِ﴾ متعلق بـ ﴿تُدَمِّرُ﴾، ﴿رَبِّهَا﴾: مضاف إليه، والجملة: نعت ثان لـ ﴿رِيحٌ﴾. ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فأدركتهم الريح فأصبحوا إلخ. ﴿أصبحوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُرَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ نائب فاعل، والرؤية هنا بصريّة، تتعدّى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾: في محل النصب خبر ﴿أصبح﴾ وجملة ﴿أصبح﴾: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿نَجۡزِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله. ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾. والجملة الفعلية: مستأنفة؛ أي: نجزي القوم المجرمين جزاءً مثل ذلك الجزاء الفظيع.

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة: جواب لقسم محذوف، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿فِيمَآ﴾: جار ومجرور، متعلّق بـ ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ﴾. ﴿إِن﴾: نافية، ﴿مَّكَّنَّٰكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿مَّكَّنَّٰكُمۡ﴾. والجملة: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: ولقد مكنّاهم في الذي ما مكّنّاكم فيه. ﴿وَجَعَلۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ﴾، ﴿لَهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿جعلنا﴾؛ لأنّه بمعنى خلقنا. ﴿سَمۡعٗا﴾: مفعول به لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾: معطوفان عليه. ﴿فَمَآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَغۡنَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿أَغۡنَىٰ﴾، ﴿سَمۡعُهُمۡ﴾: فاعل، ﴿وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم﴾: معطوفان عليه. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿شَيۡءٍ﴾. مفعول مطلق مجرور لفظاً، منصوب محلاً؛ أي: شيئاً من الإغناء. وجملة ﴿ما أغنى﴾: معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، مفيدة للتعليل، متعلق بمعنى النفي؛ لأنّ المعلّل هو النفي؛ أي: انتفى نفع هذه الحواسّ عنهم؛ لأنّهم كانوا يجحدون. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿كان﴾: في محل الجر

بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليه. ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَجْحَدُونَ﴾. ﴿وَحَاقَ﴾: فعل ماض. ﴿بِهِم﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَانُوا﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل. والجملة: جواب القسم، وجملة جواب القسم مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿حَوْلَكُمْ﴾: منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿مِنَ الْقُرَى﴾: حال من الضمير المستقرّ في الصلة أو من ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿لعل﴾: تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَلَوْلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لولا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلّا. ﴿نَصَرَهُمُ﴾: فعل ومفعول به. ﴿الَّذِينَ﴾: فاعل. والجملة: معطوفة على جملة القسم. ﴿اتَّخَذُوا﴾: فعل وفاعل والمفعول الأول لـ ﴿اتَّخَذُوا﴾: محذوف، تقديره: فلولا نصرهم الذين اتخذوهم، وهو عائد الموصول. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿اتَّخَذُوا﴾، ﴿قُرْبَانًا﴾: حال من المفعول الأول المحذوف. ﴿آلِهَةً﴾: مفعول ثان. وجملة ﴿اتخذ﴾: صلة الموصول. وقال ابن عطية والحوفيّ: المفعول الأول: محذوف، كماقلنا: و﴿قُرْبَانًا﴾: مفعول ثان، ﴿آلِهَةً﴾: بدل منه. وقد أنكر الزمخشريّ هذا الوجه؛ لفساد المعنى عليه. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب للانتقال عن نفي النصرة لما هو أخص منه، إذ نفيها يصدق بحضورها عندهم بدون النصرة، فأفاد بالإضراب أنهم لم يحضروا بالكلّية، فضلاً عن أن ينصروهم. ﴿ضَلُّوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به. والجملة الإضرابية: معطوفة على جملة ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ذلك﴾: مبتدأ، ﴿إِفْكُهُمْ﴾: خبر. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ المصدرية؛ أي: وافتراؤهم، أو الموصولة؛ أي: والذي يفترونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ من التوصية. والتوصية، وكذا الإيصاء، والوصيّة: بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه، أو الأمر المقترن بضرورة الاعتناء والاهتمام؛ أي: أمرنا، والإحسان: خلاف الإساءة، والحسن: خلاف القبح. والمراد: أنه يفعل معهما فعلاً ذا حسن.

﴿كُرْهًا﴾ والكره بالضم والفتح، كالضُعف والضَعف: المشقّة والتعب.

﴿وَحَمْلُهُ﴾؛ أي: مدّة حمله ستة أشهر. ﴿وَفِصَالُهُ﴾؛ أي: المدّة القصوى لفطامه من الرضاع سنتان. والمراد به: الرضاع التامّ، المنتهي بالفطام. وفي «المختار»: الفصال، هو الفطام. وقرىء: ﴿وفصله﴾ وهو مصدر فاصل الرباعيّ، كأنّ الأمّ فاصلته، وهو فاصلها. والفصل والفصال: بمعنى واحد كالفطم والفطام، والقطف والقطاف، وفي الآية تجوّز، كما سيأتي من حيث إنّ المراد بالفصال فيها: الرضاع: أي: مدّته التي يعقبها الفطام، فهو مجاز، علاقته المجاورة.

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وبلوغ الأشدّ أن يكتهل، ويستوفي السنّ التي تستحكم فيها قوته وعقله وتمييزه، وذلك إذا أناف على الثلاثين، وناطح الأربعين. ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ والمراد بالسنة: القمرية، على ما أفادته الآية، كما قال: شهراً لا الشمسية، اهـ «الروح». كما مرّ.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أي: ألهمني ووفّقني ورغّبني، من أوزعته بكذا: إذا جعلته مولَعا به، راغباً في تحصيله. وأصله: الإغراء بالشيء من قولهم: فلان موزع

بكذا؛ أي: مغرى به. وقال الراغب: وتحقيقه أولعني بذلك.

﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ من ذرأ الشيء إذا كثر. ومنه: الذرّيّة لنسل الثقلين. كما في «القاموس»؛ أي: واجعل الصلاح سارياً في ذرّيتي، راسخاً فيهم. كما مرّ.

﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ والقبول: هو الرضا بالعمل، والإثابة عليه. ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: حسن أعمالهم وطاعاتهم، فإنّ المباح حسن، ولا يثاب عليه. فالقبول ليس قاصراً على أحسن، وأفضل عبادتهم، بل يعم كل طاعاتهم أفضلها ومفضولها.

﴿أُفّٖ﴾ هو صوت يصدر من الإنسان حين تضجره، وكتب عليه الكرخي في سورة الإسراء: وهو مصدر أفّ يؤف أفّاً، بمعنى تبّا وقبحاً، أو صوت يدلّ على تضجّر، أو اسم الفعل الذي هو أتضجر. اهـ. فجعل فيه احتمالات ثلاثة: مصدر، واسم صوت، واسم فعل. لكن المراد: أيُّ كلام يؤذيهما فيه كسر لخاطرهما.

﴿يَسۡتَغِيثَانِ﴾ من الغوث. أصله: يستغوثان، نقلت حركة الواو إلى الغين إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. ﴿أُخۡرَجَ﴾؛ أي: أبعث من القبر للحساب.

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾؛ أي: مضت ولم يخرج منها أحد. والقرون: جمع قرن، والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد.

﴿يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: يقولان: الغياثُ بالله منك، يقال: استغاث الله، واستغاث بالله. والمراد: أنهما يستغيثان بالله من كفره إنكاراً، واستعظاماً له حتى لجأ إلى الله في دفعه. كما يقال: العياذ بالله من كذا. ﴿وَيۡلَكَ﴾ دعاء عليه بالثبور والهلاك، ويراد به: الحثُّ على الفعل أو تركه، إشعاراً بأنّ مرتكبه حقيق بأن يهلك، فإذا سمع ذلك.. ارعوى عن غيّه، وترك ما هو فيه، وأخذ بما ينجيه. وهو من المصادر التي لم تستعمل أفعالها، ومثله: ويحه، وويسه، وويبه.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أباطيلهم التي سطّورها في الكتب من غير أن يكون

لها حقيقة، كما مرّ. ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: وجب عليهم قوله لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ الآية.

﴿خَٰسِرِينَ﴾؛ أي: كانوا من الذين ضيّعوا نظرهم الشبيه برؤوس الأموال باتّباعهم همزات الشياطين. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ والدرجات: المنازل، واحدها: درجة. وهي المنزلة، ويقال لها: منزلة إذا اعتبرت صعوداً، ودركة إذا اعتبرت حدوراً. ومن ثمّ يقال: درجات الجنة، ودركات النار. فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ من وفّاه حقّه: إذا أعطاه إيّاه وافياً تامّاً.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ الإذهاب: الاشتغال بالطيّبات المستلذّات.

وعبارة الخطيب: والمعنى: أنّ ما قدّم لكم من الطيبات والدرجات.. فقد استوفيتموه في الدنيا، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظوظكم في الدنيا شيء في الآخرة. انتهت. قال ابن بحر: الطيبات: الشباب والقوّة، مأخوذ من قولهم: ذهب أطيباه؛ أي: شبابه وقوّته. قال الماورديّ: ووجدت الضحاك قاله أيضاً. قال القرطبيّ: القول الأول: أظهر. ﴿ٱلْهُونِ﴾؛ أي: الهوان، والذلّ. ﴿تَفْسُقُونَ﴾: تخرجون عن طاعة الله تعالى.

﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف بالكسر والسكون، وهو: ما استطال من الرمل العظيم واعوجّ، ولم يبلغ أن يكون جبلاً. والجمع: حقاف وأحقاف: وحقوف. وجمع الجمع: حقائف وحقفة. يقال: احقوقف الرمل والهلال: إذا اعوجّ. وفي المراد بالأحقاف هنا خلاف. فقال ابن زيد: هي رمال مشرفة على البحر، مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالاً، وشاهد ما ذكرناه ما قال قتادة: هي جبال مشرفة بالشحر، والشَّحَر: موضع قريب من عدن. وفي «القاموس»: الشحر كمنع، فتح الفم، وساحل البحر بين عمان وعدن. وقال ابن إسحاق: الأحقاف: رمل فيما بين عمان إلى حضرموت. وقال قتادة: الأحقاف: رمال مشرفة على هجر بالشحر من أرض اليمن. قال ياقوت: فهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى، مأخوذ من احقوقف الشيء: إذا اعوجَّ، وإنما أخذ الحقف من احقوقف، مع أنّ الأمر ينبغي أن يكون بالعكس؛ لأنّ احقوقف أجلىٰ معنى،

وأكثر استعمالاً. فكانت له من هذه الجهة أصالةٌ، اهـ من «الروح».

﴿لِتَأْفِكَنَا﴾؛ أي: تصرفنا من الأفك بالفتح مصدر أفكه يأفكه أفكاً: إذا قلبه، وصرفه عن الشيء. ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؛ أي: عبادتها. ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من معالجة العذاب على الشرك. ﴿عَارِضًا﴾ والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء. قال الأعشى:

يَا مَنْ رَأَىٰ عَارِضاً قَدْ بِتُّ أَرْمُقُهُ   كَأَنَّمَا ٱلْبَرْقُ فِيْ حَافَاتِهِ ٱلشُّعَلُ

﴿عن ألهتنا﴾ أصله: أألِهَةٌ، بوزن أفعلة، أبدلت الهمزة الساكنة حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى المفتوحة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أصله: رأيوه، بوزن فعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان: الألف، وواو الجماعة، فحذفت الألف. ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أصله: يرءي، بوزن يفعل، نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت للتخفيف، ثمّ أبدلت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. وكذلك القول في قراءة من قرأ ﴿ترى﴾ بالتاء والبناء للفاعل.

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس: أنّ النبيّ ﷺ قال: «نُصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». قال شاعرهم يحكي هذا القصص فيما رواه ابن الكلبيّ:

فَدَعَا هُوْدٌ عَلَيْهِمْ   دَعْوَةً أَضْحَوْا هُمُوْدَا
عَصَفَتْ رِيْحٌ عَلَيْهِمْ   تَرَكَتْ عَاداً خُمُوْدَا
سُخِّرَتْ سَبْعَ لَيَالِيْ   لَمْ تَدَعْ فِيْ الأَرْضِ عُوْدَا

﴿عَادٍ﴾ قبيلة عربية من إرم. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾؛ أي: لقد جعلنا لهم مكنة، وقدرة في الذي ما مكّنّاكم فيه يا أهل مكة. ﴿أَغْنَىٰ﴾ أصله: أغني بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ وحول الشيء: جانبه الذي يمكنه أن يحوّل إليه. ﴿قُرْبَانًا﴾ والقربان: ما يتقرّب به إلى الله تعالى. يجمع على قرابين، كرهبان ورهابين، كما مرّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروبا من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ بعد قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ لزيادة العناية والاهتمام بشأنّ الأمّ؛ لحقّها العظيم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ﴾؛ لأنّه مجاز عن مدّة الرضاع التامّ التي يعقبها الفطام، فهو مجاز علاقته المجاورة.

ومنها: الطباق بين: ﴿حَمَلَتْهُ﴾ ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ لأنّ الكلام على حذف المضاف؛ أي: بلغ وقت أشدّه، وكذا قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ على حذف مضاف؛ أي: تمام أربعين سنة، وكذا قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ أي: أن أشكرك على نعمتك.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا﴾ للتفخيم والتعميم.

ومنها: زيادة ﴿فِى﴾ في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ مع أنّ الصلاح يتعدّى بنفسه، كما في قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾؛ ليدلّ على أنّ المدعو جعل الصلاح سارياً في ذرّيّته، راسخاً فيهم.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿صَـٰلِحًا﴾ ﴿وَأَصْلِحْ﴾ في قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾؛ أي: الوعد الصادق الذي لا خلف فيه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أضافه إلى لفظ الجلالة؛

تحقيقاً للحقّ، وتنبيهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما في قوله: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾.

ومنها: صيغة الحصر في قوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾؛ لأنّه غلَّب درجات السعداء على دركات الأشقياء، فعبّر عن الكل بالدرجات على طريق التغليب.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنّه استعار العرض للتعذيب، فاشتقَّ منه ﴿يُعْرَضُ﴾ بمعنى يعذّب على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، فالعرض هنا مجاز عن التعذيب، نظير قوله: عرض الأسارى على السيف؛ أي: قتلوا، وإلاّ فالمعروض عليه يجب أن يكون من أهل الشعور والاطلاع، والنار ليست منهم. قال الفرَّاء: معنى عرضهم عليها: إبرازها لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾؛ أي: أبرزناها، حتى نظر الكفار إليها، فالمعروض عليه، يجب أن يكون من أهل الشعور، والنار ليست منه، فلا بدَّ أن يحمل العرض على التعذيب مجازاً بطريق التعبير عن الشيء باسم ما يؤدّي إليه، كما يقال: عرض بنو فلان على السيف، فقتلوا به، أو يكون باقياً على أصل معناه، ويكون الكلام محمولاً على القلب. والأصل: ويوم تعرض النار على الذين كفروا؛ أي: تظهر وتبرز عليهم، والنكتة في اعتبار القلب: المبالغة بادّعاء أنَّ النار ذات تمييزٍ، وقهرٍ وغلبةٍ.

ومنها: الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: يقال لهم: أذهبتم.

ومنها: إضافة الرب إلى الريح في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ مع أنه تعالى ربّ كل شيء؛ لتعظيم شأن المضاف إليه، وللإشارة إلى أنَّها في حركتها مأمورةٌ، وأنها من أكابر جنود الله تعالى.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾.

ومنها: الإطناب بتكرار اللفظ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾

ثم قال: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾؛ لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنّ الله سبحانه لمّا بيَّن أنَّ الإنس مؤمن وكافر، وذكر أن الجنّ فيهم مؤمن وكافر، وكان ذلك بأثر قصة هود وقومه، لما كان عليه قومه من الشدّة والقوّة، والجنّ توصف أيضاً بذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، وأنَّ ما أهلك به قوم هود هو الريح، وهو من العالم الذي لا يشاهد، وإنما يحس بهبوبه، والجن أيضاً من العالم الذي لا يشاهد، وإنّ هوداً عليه السلام كان من العرب، ورسول الله ﷺ من العرب.. فهذه تجوز أن تكون مناسبةً لهذه الآية بما قبلها، وفيها أيضاً توبيخ لقريش، وكفّار العرب، حيث أنزل عليهم هذا الكتاب المعجز، فكفروا به وهم من أهل اللسان الذي أنزل به القرآن، وآمنوا به، وبمن أنزل عليه، وعلموا أنّه من عند الله، بخلاف قريش وأمثالها، فهم مصرّون على الكفر به، ذكره أبو حيّان.

---

(١) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر أنّ في الإنس من آمن، ومنه من كفر.. أعقب هذا ببيان أنّ الجنّ كذلك، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وأنّ مؤمنهم معرّض للثواب، وكافرهم معرّض للعقاب، وأنّ الرسول ﷺ كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجنّ.

واعلم[1]: أنّ عالم الملائكة وعالم الجنّ لا يقوم عليهما دليل من العقل، فهما بمعزل عن ذلك، وإنّما دليلهما السمع وإخبار الأنبياء بذلك فقط، فعلينا أنّ نؤمن بما جاء به فحسب، ولا نزيد على ذلك شيئاً، ولا نتوسّع في بحثه وتأويله وتفصيله، فإنّ ذلك من عالم الغيب، لم نؤت من علمه كثيراً ولا قليلاً، فعلينا أن نؤمن بأنّ اتصالاً قد تمّ بين النبيّ ﷺ وعالم الملائكة، وبه تلقىٰ الوحي على أيديهم، وأنّه اتصل بعالم الجنّ، فعلمهم وبشرهم وأنذرهم، ولكنّا لا ندري كيف كان الاتصال؟ ولا كيف تلقّوا عنه القرآن؟. ولعلّ تقدم العلوم في مستأنف الأيّام يلقي علينا ضوءاً من هذه المعرفة، أو لعل قراءة علم الروح والتوسع في دراسته بيَّن لنا بعض السرّ في ذلك، ففي هذه الدراسة معرفة شيء من أحوالنا في الحياة الأخرى بعد هذه الحياة، وسيأتي تفصيل لهذا القصص في سورة الجنّ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر في أول السورة[2] ما يدلّ على وجود الإله القادر الحكيم، وأبطل قول عبدة الأصنام، ثمّ ثنّىٰ بإثبات النبوة، وذكر شبهاتهم في الطعن فيها، وأجاب عنها.. أردف ذلك بإثبات البعث، وأقام الدليل عليه، فذكر أنّ من خلق السموات والأرض على عظمهنّ، فهو قادر على أن يحيي الموتى، ثمّ أعقب هذا بما يجري مجرى العظة والنصيحة لرسوله ﷺ بالصبر على أذى قومه، كما صبر من قبله أولوا العزم من الرسل، وبعدم استعجال العذاب لهم، فإنّه نازل بهم لا محالة وإن تأخّر، وحين نزوله بهم سيستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا، حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا.

ثم ختم السورة بأنّ في هذه العظات كفاية أيّما كفايةٍ، وما يهلك إلا من

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

خرج عن طاعة ربّه، ولم ينقد لأمره ونهيه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ سبب[1] نزولها: ما أخرجه الحاكم بسنده عن زرّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلمّا سمعوه.. أنصتوا، قالوا: صه، وكانوا تسعة، أحدهم: زوبعة، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ...﴾ الآية، إلى ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وأقرّه الذهبيّ، وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق الحاكم بهذا السند في «دلائل النبوّة» (ج ٢/ ص: ١٣).

التفسير وأوجه القراءة

ولمَّا بيَّن سبحانه أنّ في الإنس من آمن، وفيهم من كفر.. بيّن أيضاً أنّ في الجنّ كذلك، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ والعامل في الظرف محذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ صرفنا ووجّهنا، وأملنا إليك نفراً وجماعة من الجنّ، وأقبلنا بهم نحوك.

وقرىء ﴿صرَّفْنَا﴾ بتشديد الراء؛ لأنّهم كانوا جماعة، فالتكثير بحسب الحال. ذكره في «البحر». والنفر: دون العشرة، وجمعه أنفار. قال الراغب: النفر: عدة رجال يمكنهم النفر إلى الحرب ونحوها.

واعلم[2]: أنَّ الجن بعض الروحانيين، وذلك أنَّ الروحانيين ثلاثة أجناس: أخيار وهم الملائكة، وأشرار وهم الشياطين، وأوساط فيهم أخيار وأشرار، وهم الجنّ.

قال سعيد بن المسيّب: الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، والشياطين ذكور وإناث، يتوالدون ولا يموتون، بل يُخَلَّدون

---

(١) المسند الصحيح. (٢) روح البيان.

في الدنيا، كما خلد إبليس، والجن يتوالدون، وفيهم ذكور وإناث، ويموتون.

يقول الفقير: يؤيّده: ما ثبت أنَّ في الجنّ مذاهب مختلفة كالإنس، حتى الرافضي ونحوه، وإنّ بينهم حروباً وقتالاً، ولكن يشكل قولهم: إبليس هو أبو الجنّ، فإنه يقتضي أن لا يكون بينهم وبين الشياطين فرق، إلا بالإيمان والكفر فاعرف.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حال مقدرة من ﴿نَفَرًا﴾ لتخصيصه بالصفة، أو صفة أخرى له، ونقل بعضهم: إنّ أولئك الجنّ كانوا يهوداً فأسلموا.

أي: واذكر يا محمد لقومك وقت صرفنا إليك نفراً كائناً من الجنّ، مقدَّرا استماعهم القرآن، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾؛ أي: حضروا القرآن عند تلاوته، وقيل: حضروا النبي ﷺ، ويكون في الكلام التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، والأوَّل أولى.

﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوٓاْ﴾؛ أي: اسكتوا لنسمعه، وفيه إشارة إلى أنّ من شأنهم فضول الكلام واللغط كالإنس، ورمز إلى الحرص المقبول. قال بعض العارفين: هيبة الخطاب، وحشمة المشاهدة، حبست ألسنتهم، فإنّه ليس في مقام الحضرة إلاّ الخمول والذبول؛ أي: أمر بعضهم بعضاً بالإنصات لأجل أن يسمعوا.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ القرآن؛ أي: فرغ من تلاوته ﴿وَلَّوْاْ﴾؛ أي: انصرفوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ ورجعوا إليهم، حال كونهم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ لهم؛ أي: مقدرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم؛ يعني: آمنوا به، وأجابوا إلى ما سمعوا، ورجعوا إلى قومهم منذرين؛ أي: مخوّفين لهم من عقاب الله إن خالفوه؛ أي: انصرفوا وتفرقوا في البلاد، قاصدين إلى من ورائهم من قومهم، منذرين لهم عن مخالفة القرآن، ومحذّرين لهم، ولا يلزم من رجوعهم بهذه الصفة أن يكونوا رسل رسول الله ﷺ، إذ يجوز أن يكون الرجل نذيراً ولا يكون نبياً أو رسولاً من جانب أحد، فالنذارة في الجنّ من غير نبوّة، وفي «الخطيب»: رجعوا إلى قومهم منذرين بأمر رسول الله ﷺ، فجعلهم رسلاً إلى قومهم. اهـ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ مبنياً للمفعول، وأبو مجلز وخبيب بن عبد الله بن الزبير: ﴿قَضَى﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: قضى محمد ما قرأ؛ أي: أتمّه وفرغ منه.

وقال ابن عمرو وجابر بن عبد الله: قرأ عليهم سورة الرحمن، فكان إذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.. قالوا: لا شيء من آيات ربّنا نكذّب، ربنا لك الحمد.

ومعنى الآية[2]: أي واذكر يا محمد لقومك موبِّخاً لهم على كفرهم بما آمنت به الجنّ، لعلّهم يتنبهون لجهلهم، ويرعوون عن غيّهم وقبيح ما هم فيه من كفر بالقرآن، وإعراض عنه، مع أنهم أهل اللسان الذي به نزل، ومن جنس الرسول الذي جاء به، وأولئك استمعوه، وعلموا أنه من عند الله، وآمنوا به، وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله في ذلك الوقت الذي وجه الله إليه جماعةً من الجنّ ليستمعوا القرآن، ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات، فلمَّا حضروا الرسول.. قال بعضهم لبعض: أنصتوا مستمعين، فلمّا فرغ من تلاوته.. رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه.

وذكر الوقت[3] ذكر لما فيه من الأحداث التي يراد إخبار السامع بها، لما لها من خطر جليل، وشأن عظيم، فيراد علمه بها، ليكون لها في نفسه الأثر الذي يقصد منها من ترغيب أو ترهيب، ومسرّة أو حزن إلى نحو أولئك من أغراض الكلام ومقاصده.

قال العلماء[4]: إنّه ﷺ بعث إلى الجن قطعاً، وهم مكلّفون، وفيهم العصاة والطائعون، وقد أعلمنا الله أنّ نفراً من الجنّ رأوه عليه الصلاة والسلام، وآمنوا وسمعوا القرآن، فهم صحابة فضلاء من حيث رؤيتهم وصحبتهم، وحينئذٍ يتعيّن ذكر من عرف منهم في الصحابة رضي الله عنهم كذا في «شرح النخبة» لعليّ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

القاري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أولئك تسعة: سليط، شاصر، ماصر، حاصر، حسا، مسا، عليم، أرقم، أدرس. قيل: ومنهم زوبعة. قال في «القاموس»: الزوبعة بفتح الزاي المعجمة والباء الموحدة: اسم شيطان، أو رئيس الجنّ، فتكون الأسماء عشرة.

تنبيه[1]: ذكروا في سبب هذه الواقعة قولين:

أحدهما: أنّ الجنّ كانت تسترق السمع، فلمّا رجموا من السماء حين بعث النبيّ ﷺ. . . قالوا: ما هذا إلاّ لشيء أحدث في الأرض، فذهبوا فيها يطلبون، وكان قد اتفق أنَّ النبي ﷺ في السنة الحادية عشرة من النبوّة، لمّا أيس من أهل مكة. . خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فانصرف راجعاً إلى مكة، فقام ببطن نخلة يقرأ القرآن، فمرّ به نفر من جنّ نصيبين، كان إبليس قد بعثهم يطلبون السبب الذي أوجب حراسة السماء بالرجم بالشهب، فسمعوا القرآن، فعرفوا أنّ ذلك هو السبب.

والقول الثاني: أنّ الله أمر رسوله أن ينذر الجنّ، ويدعوهم إلى الله، ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله إليه نفراً منهم يستمعون القرآن، وينذرون قومهم، وذلك لأنّ الجنّ مكلّفون، لهم الثواب، وعليهم العقاب، ويدخلون الجنة، ويأكلون فيها، ويشربون كالإنس، فانتهض النبيُّ ﷺ ذات ليلة، وقال: «إنّي أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة القرآن، فأيكم يتبعني» فأطرقوا، فتبعه عبد الله بن مسعود، قال عبد الله بن مسعود: ولم يحضر معه أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة. . دخل النبيّ ﷺ شعباً يقال له: شعب الحجون، وخط لي خطّا، وأمرني أن أجلس فيه، وقال لي: لا تخرج حتى أعود إليك، فانطلق حتى وصل إليهم، فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي، وسمعت لغطاً شديداً، حتى خفت على نبيّ الله، وغشيته أسودة كثيرة، حالت بيني وبينه، حتى لم أسمع صوته، ثمّ طفقوا يتقطّعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرغ النبيّ منهم مع الفجر،

(١) الفتوحات.

فانطلق إليّ، فقال لي: «قد نمت»، فقلت: لا والله، ولكنّي هممت أن آتي إليك لخوفي عليك، فقال ﷺ لي: «لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، فأولئك جنّ نصيبين»: بلدة قاعدة ديار ربيعة أو مدينة بالشام أو باليمن. فقلت: يا رسول الله، سمعت لغطاً شديداً، فقال: «إنّ الجنّ اختصموا في قتيل قتل بينهم، فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحقّ». وكانت عدة هؤلاء الجن اثني عشر ألفاً.

وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: سألت ابن مسعود من آذن النبي ﷺ بالجنّ ليلة استمعوا القرآن؟. قال: آذنته بهم الشجرة.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ منكم أحد ليلة الجنّ؟. قال: ما صحبه منّا أحد، ولكنّا فقدناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل، استطير، ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلمّا كان في وجه الصبح.. إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فأخبرناه، فقال: إنّه أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وقد وردت أحاديث كثيرة أنّ الجنّ بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرةً بعد مرةً، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية.

ثمّ فصّل ما قالوه لهم في إنذارهم، فقال: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال أولئك النفر الجنّيون عند رجوعهم إلى قومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ فيه إطلاق الكتاب على بعض أجزائه، إذ لم يكن القرآن كلّه منزلاً حينئذٍ. ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ﴾ كتاب ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، وفي الكلام[1] حذف، والتقدير: فوصلوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إلخ. قيل: ذكروا موسى، لأنّهم كانوا على اليهودية وأسلموا. قال[2] سعدي المفتي في «حواشيه»: قلت: الظاهر أنّه مثل قول ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، فقد قالوا في وجهه وعلّته: إنه ذكر موسى مع أنه كان نصرانيّاً، تحقيقاً للرسالة؛ لأنّ نزوله على موسى متفق عليه بين اليهود والنصارى، بخلاف عيسى، فإن اليهود ينكرون نبوّته، أو لأنّ النصارى

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

يتبعون أحكام التوراة، ويرجعون إليها، وهذان الوجهان متأتّيان هنا أيضاً.

يقول الفقير: قد صحّ أنّ التوراة أوّل كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع، بخلاف ما قبله من الكتب، فإنها لم تشتمل على ذلك، إنما كانت مشتملة على الإيمان بالله وتوحيده، ومن ثم قيل لها: صحف، وإطلاق الكتب عليها مجاز، كما صرَّح به في «السيرة الحلبية». فلمّا كان القرآن مشتملاً على الأحكام والشرائع أيضاً.. صارت الكتب الإلهية كلها في حكم كتابين: التوراة والقرآن، فلذا خصَّصوا موسى بالذكر، وفيه بيان لشرف الكتابين وجلالتهما.

حالة كون ذلك الكتاب ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: موافقاً لما قبله من التوراة والكتب الإلهية في الدعوة إلى التوحيد والتصديق، وحقّية أمر النبوّة والمعاد وتطهير الأخلاق، فهو حال من ﴿كِتَٰبًا﴾ لتخصُّصه بالصفة، أو صفة ثانية له. ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ والصواب من العقائد الصحيحة ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: موصل إليه، لا عوج فيه، وهو الشرائع، والأعمال الصالحة، قال ابن عطاء: يهدي إلى الحق في الباطن، وإلى طريق مستقيم في الظاهر، وجملة ﴿يَهْدِيٓ﴾: إما حال ثانية، أو صفة ثالثة لـ ﴿كِتَٰبًا﴾.

والمعنى[1]: أي قالوا: يا قومنا من الجنّ إنّا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد توراة موسى، يصدِّق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله، ويرشد إلى سبيل الحقّ، وإلى ما فيه لله رضاً، وإلى الطريق الذي لا عوج فيه، وخصوا التوراة؛ لأنّه متفق عليه عند أهل الكتابين، كما مرّ آنفاً. وقال عطاء: لأنهم كانوا على اليهوديّة، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح. قيل: وأسلم[2] من قومهم حين رجعوا إليهم وأنذروهم سبعون. اهـ «خطيب». وقالوا: إنّ الجنّ لهم مللٌ مثل الإنس، ففيهم اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام، وفي مسلميهم مبتدعة، ومن يقول بالقدر، وخلق القرآن، ونحو ذلك من المذاهب والبدع، وروي: أنهم ثلاثة أصناف:

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

صنف: لهم أجنحة يطيرون بها.

وصنف: على صورة الحيات والكلاب.

وصنف: يحلون ويظعنون.

واختلف العلماء في مؤمني الجنّ، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلاّ النجاة من النار، وعليه أبو حنيفة. وحكي عن الليث وبعد نجاتهم من النار يقال لهم: كونوا تراباً مثل البهائم، وقال آخرون: لهم الثواب على الإحسان، كما عليهم العقاب على الإساءة، وهذا هو الصحيح، وعليه ابن عباس والأئمّة الثلاثة، فيدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، وقال عمر بن عبد العزيز: إنّهم حول الجنة في ربضٍ ورحابٍ، وليسوا فيها. اهـ «خازن».

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ يعني: محمداً ﷺ، لأنّه لا يوصف بهذا غيره، أو أرادوا ما سمعوه من الكتاب، فإنّه كما أنه هاد، كذلك هو داع إلى الله تعالى، وفي الآية دليل على أنّه مبعوث إلى الإنس والجنّ جميعاً، قال مقاتل: لم يبعث الله تعالى نبيًّا إلى الإنس والجنّ قبله ﷺ. ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ تعالى.

فإن قلت[1]: قوله: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به، فيدخل فيه الأمر بالإيمان، فلم أعاد ذكره بلفظ التعيين؟

قلت: إنّما أعاده؛ لأنّ الإيمان أهمّ أنواع المأمور به وأشرفها، فلذلك ذكره على التعيين، فهو من باب ذكر العام، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ أي:[2] بعض ذنوبكم، وهو ما كان في خالص حقّ الله تعالى، وحقّ الحربيّ، فإنَّ حقوق العباد غير الحربيين لا تغفر بالإيمان، بل برضىٰ أربابها؛ يعني: إذا أسلم الذميُّ لا يغفر عنه

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

حقوق العباد بإسلامه، وكذا لا تغفر عن الحربي إذا كان الحقّ ماليًّا، قالوا: ظلامة الكافر وخصومة الدابة أشدُّ؛ لأنّ المسلم إمّا أن يحمل عليه ذنب خصمه بقدر حقّه، أو يأخذ من حسناته، والكافر لا يأخذ من الحسنات، ولا ذنب للدابّة، ولا يؤهل لأخذ الحسنات، فتعيَّن العقاب. وقيل: ﴿من﴾: زائدة؛ لأنّ الإسلام يجب ما قبله، فلا يبقى معه تبعة، وقيل: إنّ ﴿من﴾[1] لابتداء الغاية.

والمعنى: أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب، ثمّ ينتهي إلى غفران ترك ما هو الأولى.

﴿وَيُجِرْكُم﴾؛ أي: ينجيكم ويؤمنكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: شديد معدٌّ للكفرة، وهو عذاب النار، قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم نحو: سبعين رجلاً من الجنّ، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ، فوافوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن، وأمرهم ونهاهم.

والمعنى: أي[2] يا قومنا أجيبوا رسول الله محمداً ﷺ إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله، وصدِّقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه، يغفر لكم بعض ذنوبكم، ويسترها لكم، ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته لكم عليها، وينقذكم من عذاب موجع إذا أنتم تبتم من ذنوبكم، وأنبتم إلى ربّكم، وأخلصتم له العبادة، وفي الآية إيماء إلى أنّ حكم الجنّ حكم الإنس في الثواب والعقاب، والتعبّد بالأوامر والنواهي، وقال الحسن[3]: ليس لمؤمني الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار، وبه قال أبو حنيفة، والأوّل أولى وبه قال مالك والشافعيّ، وابن أبي ليلى، فقد قال الله تعالى في مخاطبة الجنّ والإنس: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾، فامتَّن سبحانه على الثقلين، بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولا ينافيه الاقتصار ههنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم، ومما يؤيد هذا: أنّ الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل، فكيف لا

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل؟ ومما يؤيّد هذا أيضاً: ما في القرآن في غير موضع، أنّ جزاء المؤمنين الجنّة، وجزاء من عمل صالحاً الجنة، وجزاء من قال: لا إله إلا الله الجنّة، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة.

وقد اختلف أهل العلم: هل أرسل الله سبحانه إلى الجنّ رسلاً منهم أم لا؟.

وظاهر الآيات القرآنية أنَّ الرسل من الإنس فقط، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ وقال سبحانه في إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾. فكل نبيّ بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريّته، وأمّا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ فقيل: المراد من مجموع الجنسين، وصدق على أحدهما وهم الإنس، كقوله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢﴾؛ أي: من أحدهما.

ثم حذروا قومهم، وتوعَّدوهم، وأوجبوا إجابتهم داعي الله بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب، فقالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن لم يجب رسول الله محمداً ﷺ إلى ما دعا إليه من التوحيد، والعمل بطاعته، فـ ﴿مَن﴾: شرطيَّة. و﴿لَّا﴾: نافية، ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ﴾ ربَّه بهرب ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فلا يفوت ربّه، ولا يسبقه هرباً إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، وإن هرب كل مهرب من أقطارها، أو دخل في أعماقها ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك المنكر ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَوۡلِيَآءُۚ﴾؛ أي: أنصار ينصرونه، ويدفعون عنه عذابه، وهذا[1] بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثر بيان استحالة نجاته بنفسه، وجمع الأولياء باعتبار معنى ﴿مَن﴾ فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع، لانقسام الآحاد إلى الآحاد.

ثمّ بيّن أنّ من فعل ذلك.. فقد بلغ الغاية في الضلال، والبعد عن الصراط

---

(١) روح البيان.

المستقيم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بعدم إجابة الداعي ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ظاهر كونه ضلالاً، بحيث لا يخفى على أحد، حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه؛ أي:[1] وأولئك الذين يفعلون ذلك الإعراض، يكونون في ضلال بيّن، وجورٍ عن قصد السبيل، لأنّ طريق الحقّ واضحة، وأعلامه منصوبة، والوصول إليه ميسور، فمن جانفه وأعرض عنه.. فقد أجرم واستحقّ الجزاء الذي هو له أهلٌ.

ثم ذكر سبحانه دليلاً على البعث، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ﴿الهمزة﴾[2] فيه: للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر يستدعيه المقام، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المقدّر، والرؤية هنا: هي القلبية التي بمعنى العلم؛ أي: ألم يتفكروا، ولم يعلموا علماً جازماً في حكم المشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ابتداءً من غير مثال؛ أي: خلق هذه الأجرام العظام. ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾؛ أي: لم يتعب، ولم ينصب بذلك أصلاً، أو لم يعجز عنه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ﴾ بسكون العين وفتح الياء، مضارع عيي على وزن فعل بكسر العين، وقرأ الحسن: بكسر العين وسكون الياء، ووجهه: أنّه فتح في الماضي عين الكلمة، كما قالوا في بقي بقا. وهي لغة لطيءٍ، ولمّا بني الماضي على فعل بفتح العين.. بني مضارعه على يفعل بكسر العين، فجاء يعيي، فلمّا دخل الجازم.. حذف الياء، فبقي يعي بنقل حركة الياء إلى العين، فسكنت الياء وبقي يعي.

﴿بِقَٰدِرٍ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾ ووجه[4] دخول الباء: اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على ﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها، كأنّه قيل: أو ليس الله بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ ولذا أجيب عنه بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تقريرٌ للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود؛ يعني: أن الله تعالى إذا كان قادراً على

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

كل شيء.. كان قادراً على إحياء الموتى لأنّه من جملة الأشياء، وقدرته تعالى لا تختص بمقدور دون مقدور، فـ ﴿بلىٰ﴾: يختص بالنفي، ويفيد إبطاله على ما هو المشهور، وإن حكى الرضي عن بعضهم: أنه جاز استعمالها في الإيجاب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ اسم فاعل، و﴿الباء﴾: زائدة في خبر ﴿أَنَّ﴾ وحسّن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي، وقرأ الجحدريّ وزيد بن عليّ وعمرو بن عبيد وعيسى والأعرج: بخلاف عنه، ويعقوب: ﴿يَقْدِرُ﴾ مضارعاً، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى، واختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: لأنّ دخول الباء في حيّز أنّ قبيح.

والمعنى[2]: أي أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم، وبعثه إيّاهم من قبورهم بعد بلاهم، فيعلموا أنّ الذي خلق السموات السبع والأرض، فابتدعهنّ من غير شيء، ولم يعي في إنشائهنّ، بقادر على أن يحيي الموتى، فيخرجهم من بعد بلاهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم، ونحو الآية قوله عزّ وجل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والخلاصة: أنّ من قال للسموات والأرض: كُوني فكانت، لا ممانعةً، ولا مخالفةً، طائعةً خائفةً وجلةً، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ ثمّ أجاب عن ذلك الاستفهام مقرّراً للقدرة على وجه عام، فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ﴾ إلخ؛ أي: بلى إنّ الذي خلق ذلك ذو قدرة على كل شيء أراد خلقه، ولا يعجزه شيء أراد فعله، وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال لوضوح الجواب، إذ لا يختلف فيه أحد، ولا يعارض فيه ذو لبٍّ.

ولما أثبت البعث بما أقام من الأدلة.. ذكر ما يحدث حينئذٍ من الأهوال، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يعذّبون بها كما سبق في هذه السورة، والظرف: متعلق بقول محذوف، تقديره: يقال لهم: يومئذٍ على سبيل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

التوبيخ والتأنيب: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ العذاب الذي ترونه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: حقًّا، وكنتم تكذّبون به، وفيه تهكّم بهم، وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله، ووعيده، وقولهم: وما نحن بمعذَّبين، وفي الاكتفاء[1] بمجرّد الإشارة من التهويل للمشار إليه، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى، كأنّه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾؛ أي: إنّه الحقّ ﴿وَرَبِّنَا﴾؛ أي: أقسمنا بربّنا ومالك أمرنا على حقّيته، أكدوا جوابهم بالقسم؛ لأنّهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقّيته الآن كما في الدنيا، وأنّى لهم ذلك.

والمعنى[2]: أي ويوم يعرض هؤلاء المكذّبون بالبعث، وبثواب الله لعباده على أعمالهم الصالحة، وعقابه إيّاهم على أعمالهم السيئة على نار جهنم، يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ: أليس هذا العذاب الذي تُعَذَّبونه اليوم، وقد كنتم تكذّبون به في الدنيا بالحقّ الذي لا شكّ فيه؟ قالوا من فورهم: بلى وربّنا إنه لحق.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو خازن النار: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: أحسوا به إحساس الذائق المطعوم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ به في الدنيا. و﴿الباء﴾: للسببية، ومعنى الأمر: الإهانة بهم، والتوبيخ لهم على ما كان منهم في الدنيا، من الكفر والإنكار لوعد الله ووعيده، قال ابن الشيخ: الظاهر: أنّ صيغة الأمر لا مدخل لها في التوبيخ، وإنما هو مستفاد من قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: قال آمراً لهم على طريق الإهانة والتوبيخ: ذوقوا عذاب النار الآن، جزاء جحودكم به في الدنيا، وإبائكم الاعتراف به، إذا دعيتم للتصديق به.

ولمّا قرّر التوحيد والنبوّة والبعث، وأجاب عن شبهاتهم.. أردف ذلك بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لنبيّه، لأنّ الكفّار كانوا يؤذونه، ويوغرون صدره، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ و﴿الفاء﴾ فيه: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت عاقبة الكفرة، وأنه لم ينجح فيهم الإنذار، وأردت بيان

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

ما هو الأصلح والنصيحة لك.. فأقول لك: اصبر أيّها الرسول على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك، الذين أرسلناك إليهم منذراً.

﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾؛ أي: أصحاب الحزم والثبات ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته، فإنك منهم.

والخلاصة: اصبر على الدعوة إلى الحق، ومكابدة الشدائد، كما صبر إخوانك الرسل من قبلك، قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة، والأظهر: أنها منسوخة؛ لأنّ السورة مكيّة.

والمعنى: أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر.. فاصبر على ما يصيبك من جهتهم، كما صبر أولوا الثبات والحزم من الرسل، فإنك من جملتهم، بل من أفضلهم، و﴿مِنَ﴾: للتبين، فيكون الرسل كلهم أولي عزم وجدٌّ في أمر الله. قال في «التكملة»:[1] وهذا لا يصحّ لإبطال معنى تخصص الآية، وقيل: ﴿مِنَ﴾: للتبعيض على أنهم أولوا عزم، وغير أولي عزم، والمراد بأولي العزم: أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاغين فيها، ومشاهيرهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد عليهم السلام، وقد نظمهم بعضهم بقوله:

أُوْلُوْا ٱلْعَزْمِ: نُوْحٌ وَٱلْخَلِيْلُ ٱلْمُمَجَّدُ مُوْسَىٰ وَعِيْسَىٰ وَٱلْحَبِيْبُ مُحَمَّدُ

قال في «الأسئلة المقحمة»: هذا القول هو الصحيح، وقيل هم الصابرون على بلاء الله: كنوح، صبر على أذيّة قومه، كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم صبر على النار، وعلى ذبح ولده، والذبيح صبر على الذبح، ويعقوب على فقد الولد، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضرّ، وموسى قال قومه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ ويونس على بطن الحوت، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة، وقال: إنها معبرة فاعبروها، ولا تعمروها،

---

(١) روح البيان.

صلوات الله عليهم أجمعين، وقيل: غير ذلك من الأقوال المتلاطمة مما لا طائل تحتها.

ولمّا أمره بالصبر، وهو أعلى الفضائل.. نهاه عن العجلة، وهو أخس الرذائل، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾؛ أي: لأجلهم، فـ ﴿اللام﴾ للتعليل والمفعول: محذوف؛ أي: لا تستعجل العذاب يا محمد لكفّار مكة؛ أي: ولا تطلب من ربّك عجلة العذاب لهم، فإنه نازل بهم لا محالة، ومهلهم ليستعدوا بالتمتعات الحيوانية للعذاب العظيم، فإنّي أمهلهم رويداً، كأنّه ضجر بعض الضجر، فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأمر بالصبر، وترك الاستعجال، ونحو الآية لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑪﴾، وقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ⑰﴾.

ثم أخبر بأنَّ العذاب إذا نزل بالكافرين.. استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا، حتى يحسبونها ساعةً من نهار، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾؛ أي: لم يمكثوا في الدنيا، والتمتّع بنعيمها ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرةً وزماناً قليلاً ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ لما يشاهدون من شدّة العذاب، وطول مدّته؛ يعني[1]: أنَّ هول ما ينزل بهم ينسيهم مدّة اللبث، وأيضاً إنَّ ما مضى، وإن كان دهراً طويلاً، لكنّه يظن زماناً قليلاً، بل يكون كأن لم يكن، فغاية التنعم الجسماني هو العذاب الروحانيّ كما في البرزخ، والعذاب الجسمانيّ أيضاً كما في يوم القيامة.

والمعنى: أي كأنّهم حين يرون عذاب الله الذي أوعدهم بأنّه نازل بهم، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار؛ لأنّ شدّة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا في الدنيا من السنين والأعوام، فيظنّونها ساعة من نهار، ونحو الآية قوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ⑪② قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ⑪③﴾، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ④⑥﴾.

﴿بَلَاغٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي[2]: هذا القرآن الذي وعظتم به بلاغٌ

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وكفاية لهم في الموعظة إن فكروا واعتبروا، ودليله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾. أو تبليغ من الرسول إليهم، فالعبد يضرب بالعصا، والحرّ يكفيه الإشارة.

ثمّ أوعد وأنذر، فقال: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾؛ أي: ما يهلك بالعذاب ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن الاتعاظ به، أو الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لأمره ونهيه، إذ لا يعذِّب إلا من يستحق العذاب، وقال بعض أهل التأويل؛ أي: الخارجون عن عزم طلبه إلى طلب ما سواه، وفي هذه الألفاظ وعيد محضٌ، وإنذارٌ بيِّن، وقال قتادة: لا يهلك على الله إلا هالك مشرك، وهذه الآية أقوى آية من الرجاء، ومن ثم قال الزجاج: تأويله: لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون، وهذا تطميع في سعة فضل الله سبحانه وتعالى.

وقرأ أبيٌّ: ﴿من النهار﴾، وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِّن نَّهَارٍۭ﴾ وقرأ الجمهور: ﴿بَلَٰغٌۭ﴾ بالرفع، وقرأ الحسن وزيد بن عليّ وعيسى: ﴿بلاغاً﴾ بالنصب، فاحتمل أن يراد بلاغاً في القرآن؛ أي: بلِّغوا بلاغاً، أو بلَّغنا بلاغاً، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿بلاغ﴾ بالجرّ نعتاً لـ ﴿نَّهَارٍۭ﴾. وقرأ أبو مجلز وأبو سراح الهذليّ: ﴿بلِّغ﴾ على الأمر للنبيّ ﷺ، وعن أبي مجلز أيضاً: ﴿بلَّغ﴾ فعلا ماضياً، وقرأ الجمهور: ﴿يُهْلَكُ﴾ بضم الياء وفتح اللام وابن محيصن فيما حكى عنه ابن خالويه: بفتح الياء وكسر اللام، وعنه أيضاً: بفتح الياء واللام، وماضيه هلك بكسر اللام، وهي لغة، وقال أبو الفتح: هي مرغوبٌ عنها، وقرأ زيد بن ثابت: ﴿يُهلك﴾ بضم الياء وكسر اللام، ﴿إلا القوم الفاسقين﴾ بالنصب.

الإعراب

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق

---

(١) البحر المحيط.

بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك إذ صرفنا إليك. ﴿صَرَفْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾. ﴿نَفَرًا﴾ مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: صفة ﴿نَفَرًا﴾. ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب، صفة ثانية لـ ﴿نَفَرًا﴾ أو حال منه لتخصّصه بالصفة. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿حَضَرُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾: لا محل لها من الإعراب ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب شرط لـ ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾: معطوفة على محذوف، تقديره: إذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ فحضروه، فلمّا حضروه قالوا: أنصتوا. ﴿أَنصِتُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿قُضِىَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله: ضمير مستتر، يعود على القرآن، والجملة: فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿وَلَّوْاْ﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾: متعلق به. ﴿مُّنذِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿وَلَّوْاْ﴾. والجملة: جواب ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾: معطوفة على جملة ﴿لمّا﴾ الأولى. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب لـ ﴿لمّا﴾ المحذوفة، تقديره: فلمّا رجعوا إلى قومهم.. قالوا: يا قومنا إلخ. ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾: منادى مضاف، والجملة: في محلّ النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿كِتَٰبًا﴾. والجملة: صفةٌ أولى لـ ﴿كِتَٰبًا﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مُصَدِّقًا﴾: صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ أو حال منه

لتخصصه بالصفة. ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوفٍ صلةٍ لـ ﴿ما﴾، ﴿يَهْدِيٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿كِتَٰبًا﴾. والجملة: نعت ثالث لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ أو حال منه. ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ ﴿يَهْدِي﴾. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ﴾: معطوف على ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة ﴿طَرِيقٍ﴾. ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾: منادى مضاف، والجملة: مقول لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿أَجِيبُواْ﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو فاعل. ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب، مقول لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَءَامِنُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَجِيبُواْ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿يَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿لَكُم﴾. متعلق بـ ﴿يَغْفِرْ﴾. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَغْفِرْ﴾ أيضاً. و﴿مِن﴾: تبعيضية. ﴿وَيُجِرْكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يَغْفِرْ﴾، ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾: متعلق بـ ﴿يجر﴾ ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة ﴿عَذَابٍ﴾.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُجِبْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به. ﴿فَلَيْسَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة جامديّة. ﴿ليس﴾: فعل ناقص، في محلّ الجزم بـ ﴿مَن﴾ على كونه جواباً لها، واسمها: ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿معجز﴾: خبر ﴿ليس﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿معجز﴾. وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَلَيْسَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ليس﴾: فعل ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: خبرها مقدم. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: حال من ﴿أَوْلِيَآءُ﴾، ﴿أَوْلِيَآءُ﴾: اسمها مؤخر، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ليس﴾ الأولى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ خبر. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، والجملة: في محل النصب، مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من المقام، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يتفكروا ولم يروا، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَرَوْا﴾ فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿الَّذِي﴾: صفة للجلالة. ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَالْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَعْيَ﴾: فعل مضارع، مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة، وهي الألف، وفاعله: ضمير يعود على الموصول، والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾، ﴿بِخَلْقِهِنَّ﴾: متعلق بـ ﴿يَعْيَ﴾، ﴿بِقَادِرٍ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة في خبر ليس ﴿قادر﴾ خبرها. وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿يَرَوْا﴾. ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جرّ، ﴿أن﴾: حرف مصدر ونصب. ﴿يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿عَلَىٰ﴾؛ أي: على إحيائه الموتى، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿قادر﴾. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإبطال النفي، فهي تبطل النفي، وتقرّر نقيضه. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾. متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ و﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: جملة جوابيّة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿يوم﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: ويقال لهم. والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿يُعْرَضُ﴾: فعل مضارع، مغير الصيغة. ﴿الَّذِينَ﴾: نائب فاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول. ﴿عَلَى النَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يُعْرَضُ﴾ ﴿أَلَيْسَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري. ﴿ليس﴾: فعل ناقص. ﴿هَٰذَا﴾: اسمها. ﴿بِالْحَقِّ﴾: خبرها،

و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة: في محل النصب، مقول للقول المحذوف. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب قائم مقام الجواب، تقديره: بلى هو الحق، وجملة الجواب، في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَرَبِّنَا﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿ربنا﴾: مقسم به، مجرور بواو القسم، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: نقسم بربّنا، وجملة القسم: في محل النصب، مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الله أو على خازن النار، والجملة: مستأنفة. ﴿فَذُوقُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا اعترفتم بحقّية هذا العذاب، وأردتم بيان ما هو المستحق لكم.. فأقول لكم: ﴿ذوقوا﴾. ﴿ذوقوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول به. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلّق بـ ﴿ذوقوا﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، في محل النصب، مقول قال. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكْفُرُونَ﴾: خبر، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿الباء﴾؛ أي: بسبب كفركم، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿ذوقوا﴾ كما مرّ آنفاً.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت عاقبة الكفّار، وأنّ الإنذار لا ينجح فيهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصبر كما صبر أولوا العزم. ﴿اصبر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جرّ، ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾: فعل وفاعل مرفوع بالواو. ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: حال من ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾. والجملة الفعلبة: صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في

تأويل مصدر مجرور بـ ﴿الكاف﴾ تقديره: كصبر أولي العزم، الجار والمجرور، صفة لمصدر محذوف، تقديره: فاصبر صبراً كائناً كصبر أولي العزم، بَلْ أعلى منه. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَسْتَعْجِل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله: ضمير يعود على محمد. ﴿لَهُمْ﴾: متعلّق بـ ﴿يستعجل﴾. والجملة: معطوفة على جملة ﴿فَاصْبِرْ﴾. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ الآتي، ﴿يَرَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿يَرَوْنَ﴾ لأنّ الرؤية هنا بصرية. ﴿يُوعَدُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والتقدير: ما يوعدونه. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿سَاعَةً﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يَلْبَثُوٓا﴾ أو مفعول به على التوسع. ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾: صفة ﴿سَاعَةً﴾. وجملة ﴿يَلْبَثُوٓا﴾: في محل الرفع خبر ﴿كأنّ﴾ وجملة ﴿كأنّ﴾: مستأنفة. ﴿بَلَٰغٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا الذي وعظتم به بلاغ، وقيل: تقديره: هذا القرآن بلاغ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿هل﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري. ﴿يُهْلَكُ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ نائب فاعل. ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ صفة ﴿ٱلْقَوْمُ﴾. والجملة الفعلية: معطوفة على الاسمية قبلها لكونها في معنى الاسمية، كأنّه قيل: هذا بلاغٌ، فما هالك بعده إلاّ القوم الفاسقون.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ﴾؛ أي: وجّهنا نحوك. ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: جماعة من الجنّ. والنفر: ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال، سمّوا بذلك؛ لأنّهم ينفرون إذا حزبهم أمر لكفايته. وفي «المختار»: النَّفر بفتحتين: عدَّة رجال من ثلاثة إلى عشرة، وكذا النفير والنفر والنفرة بسكون الفاء فيها. انتهى. وهم جنّ نصيبين أو جن نينوىٰ، وكانوا سبعة أو تسعة، وكان ﷺ فيما رواه الشيخان ببطن نخلة على نحو ليلة من مكة منصرفه من الطائف، يصلّي بأصحابه الفجر في السنة الحادية

عشرة من البعثة. كما مرّ.

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ ورد الفعل جمعاً نظراً للمعنى، والاستماع: الإصغاء مع قصد السماع. ﴿أَنصِتُوا۟﴾ أمر من الإنصات. وهو الإصغاء مع السكوت؛ أي: أسكتوا. ﴿قُضِيَ﴾ فرغ من تلاوته. ﴿وَلَّوْا۟﴾؛ أي: رجعوا. ﴿مُّنذِرِينَ﴾؛ أي: مخوّفين لهم عواقب الضلال، وكانوا يهوداً، ثمّ أسلموا.

﴿أَجِيبُوا۟﴾ أصله: أجوبوا بوزن أفعلوا، نقلت حركة الواو إلى الجيم، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ. ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: داعو، قلبت الواو ياءً؛ لتطرُّفها إثر كسرة.

﴿وَيُجِرْكُم﴾ أصله: يجوركم بوزن يفعل، مضارع أجار، نقلت حركة الواو إلى الجيم فسكنت فالتقى ساكنان: الواو والراء، فحذفت الواو، فوزنه يفلكم. ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أصله: يجوب، نقلت حركة الواو إلى الجيم فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فوزنه يفل. ﴿أَوْلِيَآءُ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ قد اجتمع ههنا همزتان مضمومتان من كلمتين، وليس لهما نظير في القرآن؛ أي: لا وجود لهما في محلٍ منه غير هذا. اهـ «خطيب».

﴿وَلَمْ يَعْىَ﴾؛ أي: لم يتعب بذلك، ولم يعجز عنه، يقال: عييت بالأمر: إذا لم تعرف وجهه، وأَعْيَيْتُ: تعبت. وفي «القاموس»: أعيىٰ الماشي: إذا كلَّ، قال الكسائي: يقال: أَعْيَيْتُ من التعب، وعَيِيْتُ من انقطاع الحيلة والعجز، قال عبيد بن الأبرص:

عَـيُّـوْا بِـأَمْـرِهِـمُ كَـمَـا عَـيَّـتْ بَـبَـيْـضَـتِـهَـا ٱلْـحَـمَـامَـهْ

وحكي في سبب تعلّم الكسائي النحو على كبره: أنّه مشى يوماً، حتى أعيَ ثم جلس إلى قوم ليستريح، فقال: قد عيّيت، بالتشديد بغير همزة، فقالوا له: لا تجالسنا وأنت تلحن، قال الكسائي: وكيف؟ قالوا: إن أردت من التعب.. فقل: أعييت، وإن أردت من انقطاع الحيلة، والتعجيز في الأمر.. فقل: عييت مخفّفاً، فقام من فوره، وسأل عمَّن يعلم النحو، فأرشدوه إلى معاذٍ، فلزمه حتى نفد ما

عنده، ثمّ خرج إلى البصرة إلى الخليل بن أحمد. اهـ من «روح البيان» (ج: ٨، ص: ٤٩٣).

﴿فَٱصْبِرْ﴾ قال القشيري: الصبر: الوثوق بحكم الله، والثبات من غير بثٍّ ولا استكراهٍ، اهـ «خطيب».

﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾؛ أي؛ ذوو الحزم والصبر. والعزم في اللغة: الجدّ، والقصد مع القطع.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروبا من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، في قوله: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ إذا أعيد الضمير إلى النبيّ ﷺ؛ لأنّ مقتضى السياق حينئذٍ أن يقال: فلمّا حضروك.

ومنها: إطلاق الكتاب على بعض أجزائه، في قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ إذ لم يكن القرآن كلُّه منزلاً حينئذٍ.

ومنها: تخصيص موسى بالذكر دون عيسى؛ لكون نزول الكتاب عليه متفقاً عليه بين اليهود والنصارى، بخلاف عيسى؛ لأنّ اليهود تنكر نبوّته، ونزول الكتاب عليه.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنّه نفس الحق المذكور قبله، أطنب به للتأكيد وللتفخيم لشأنه.

ومنها: فن التنكيت في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فقد عبر بـ ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية إشارةً إلى أنّ الغفران يقع على الذنوب الخاصة، أما حقوق العباد فلا يمكن غفرانها، إلا بعد أن يُرضَّىٰ أصحابها، فإنّ الله تعالى لا يغفر بالإيمان ذنوب المظالم.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ومن لا يجب داعى الله﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار، في قوله: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: ومن لم يجبه، أظهره تفخيماً لشأنه، وإظهاراً لنباهته.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾؛ لأنّه مجاز عن الانقطاع عن العمل، علاقته: السببيّة؛ لأنّ العيّ؛ أي: التعب مستحيل عليه تعالى، وهو سبب للانقطاع عن العمل أو النقص فيه والمتأخر في إنجازه، فهو العلاقة في هذا المجاز.

ومنها: تعليل الخاصّ بالعام في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأنّه تعالى إذا كان قادراً على كل شيء.. كان قادراً على إحياء الموتى؛ لأنّه من جملة الأشياء، وقدرته لا تختصّ بمقدور دون مقدور.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنّه مجاز عن التعذيب بها، كما مرّ.

ومنها: التهكم بهم والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: باشروا العذاب؛ لأنّه مستعار من إحساس الذائق المطعوم.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ إقامة الأدلة على التوحيد، والردّ على عبدة الأصنام والأوثان.

٢ ـ المعارضات التي ابتدعها المشركون للنبوّة، والإجابة عنها، وبيان فسادها.

٣ ـ ذكر حال أهل الاستقامة الذين وحّدوا الله تعالى، وصدَّقوا أنبياءه، وبيان أنَّ جزاءهم الجنة.

٤ ـ ذكر وصايا المؤمنين من إكرام الوالدين، وعمل ما يرضي الله.

٥ ـ بيان حال من انهمكوا في الدنيا ولذّاتها.

٦ ـ قصص عاد، وفيه بيان أنَّ صرف النعم في غير وجهها يورث الهلاك.

٧ ـ استماع الجنّ للرسول ﷺ، وتبليغهم قومهم ما سمعوه.

٨ ـ عظةٌ للنبيّ ﷺ والمؤمنين من أمّته.

٩ ـ بيان أنّ القرآن فيه البلاغ والكفاية في الإنذار.

١٠ ـ من عدل الله ورحمته أن لا يعذّب إلاّ من خرج عن طاعته، ولم يعمل بأمره ونهيه[١].

---

(١) تمّ تفسير هذه السورة بمعونة الله وتوفيقه، آخر الساعة الثالثة من يوم الأربعاء الثاني عشر من شهر صفر، من شهور سنة ١٢/٢/١٤١٥ ألف وأربع مئة وخمس عشرة، سنة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات، وأزكى التحيّات، بيد مؤلفه وجامعه في مكة المكرمّة، في المسفلة في حارَة الرشد جوار المسجد الحرام، وصلى الله وسلم على سيدّنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، آمين آمين، لا أرضىٰ بواحدةٍ، حتى أكمل ألف ألفي آمين.

فائدة: أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس: أنَّ النبيّ ﷺ كان يدعو: «اللهم إنّي أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل برّ، والفوز بالجنّة، والنجاة من النار، اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا همًّا إلا فرّجته، ولا دينا إلا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها، برحمتك يا أرحم الراحمين».

والله أعلم

* * *

سورة محمد

سورة محمد ﷺ، وتسمّى سورة القتال، وسورة الذين كفروا. وهي مدنية، قال الماوردي في قول الجميع إلا ابن عباس، وقتادة، فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾. وقال الثعلبيُّ[1]: إنها مكية، وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك، وسعيد بن جبير وهو غلطٌ من القول، فالسورة مدنية كما لا يخفى. وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة، وأخرج النحاس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا.

وهي[2] ثمان أو تسع وثلاثون آية، وخمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون حرفاً، نزلت بعد سورة الحديد.

تسميتها: سمّيت سورة محمد؛ لبيانها تنزيل القرآن على محمد ﷺ، بقوله: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، ولم يذكر محمد باسمه في القرآن إلا في أربع مواضع: في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. وفي سورة الأحزاب: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وهنا في هذه السورة، وفي سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾. وأما في غير هذه المواضع الأربعة، فيذكر بصفة الرسول أو النبيّ.

وسميت أيضاً سورة القتال؛ لبيان أحكام قتال الكفار فيها في أثناء المعارك وبعد انتهائها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

مناسبتها لما قبلها: قال أبو حيان: مناسبة أولها لآخر ما قبلها واضحة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

جداً. اهـ. وفي «التفسير المنير»: هذه السورة يرتبط أولها ارتباطاً قويًّا بآخر سورة الأحقاف ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ حتى لو أسقطت البسملة بينهما لكان الكلام متصلاً مباشرةً بما قبله اتصالاً لا تنافر فيه كالآية الواحدة، ولكان بعضه آخذاً بحجز بعض.

فضلها: ما أخرجه الطبرانيّ في «الأوسط» عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ النبيّ ﷺ كان يقرؤها في صلاة المغرب.

الناسخ والمنسوخ منها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: جميعها محكم إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ نسخ المنّ والفداء بآية السيف، وقيل: في سورة محمد ﷺ آيتان منسوختان الثانية منهما: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ (الآية ٣٦). نسخت بقوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ (الآية ٣٧).

والله أعلم

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم (١) والذين ءامنوا وعملوا الصلحت وءامنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم (٢) ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا البطل وأن الذين ءامنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم (٣) فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعملهم (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٦) يأيها الذين ءامنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٧) والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعملهم (٨) ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعملهم (٩) أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكفرين أمثلها (١٠) ذلك بأن الله مولى الذين ءامنوا وأن الكفرين لا مولى لهم (١١) إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصلحت جنت تجري من تحتها الأنهر والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعم والنار مثوى لهم (١٢) وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكنهم فلا ناصر لهم (١٣) أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم (١٤) مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهر من ماء غير ءاسن وأنهر من لبن لم يتغير طعمه وأنهر من خمر لذة للشربين وأنهر من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرت ومغفرة من ربهم كمن هو خلد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم (١٥) ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال ءانفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (١٦) والذين اهتدوا زادهم هدى وءاتىهم تقوىهم (١٧) فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكرىهم (١٨) فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنت والله يعلم متقلبكم ومثوىكم (١٩)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السابقة.

واعلم: أنّ الله سبحانه قسم الناس في أول هذه السورة إلى فريقين[1]:

أهل الكفر الذين صدّوا الناس عن سبيل الله، وهؤلاء يبطل أعمالهم، سواء كانت حسنةً كصلة الأرحام وإطعام الطعام، أو سيئة كالكيد لرسول الله ﷺ، والصدّ عن سبيل الله، فالأولى يبطل الله ثوابها، والثانية يمحو أثرها، وهكذا كل من قاوم عملاً شريفاً، فإنّ مآله الخذلان.

وأهل الإيمان بالله ورسوله الذين أصلحوا أعمالهم، أولئك يغفر الله لهم سيئات أعمالهم، ويوفّقهم في الدين والدنيا، كما أضاع أعمال الكافرين ولم يثب عليها.

ثم علل ما سلف بأنّ أعمال الفريقين جرت على ما سنَّه الله في الخليقة بأنّ الحق منصور، وأنّ الباطل مخذول، سواء كان في أمور الدين أم في أمور الدنيا، فالصناعات المحكمة إنما يقبل الناس عليها، ويؤثرونها؛ لأنها جارية على الطريق القويم والنسق الحق، وهكذا الشأن في المزروعات، والمصنوعات المتقنة الجيّدة، والسياسات الحكيمة.

والصناعات المرذولة، والسلع المزجاة، لن يكون حظها إلا الكساد والبوار؛ لأنّ الباطل لا ثبات له، والحق هو الثابت، والله هو الحق فينصر الحقّ، والعلم الصحيح، والدين الصحيح، والصناعات الجيّدة والآراء الصادقة نتائجها السعادة، وضدّها عاقبته الشقاء والبوار.

وقصارى ذلك: أنّ الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق، وعلى قوانين ثابتة منظمة، فكل ما قرب إلى الحق كان باقياً، وكل ما ابتعد عنه كان هالكاً، فرجال الجدّ والنشاط مؤيَّدون، ورجال الكسل والتواكل مخذولون، والمُحِقُّون في كل شيء محبوبون منصورون.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] فيما سلف أنّ الناس فريقان:

أحدهما: متّبع للباطل، وهو حزب الشيطان.

وثانيهما: متبعٌ للحق، وهو حزب الرحمن.. ذكر هنا وجوب قتال الفريق الأول، حتى يفيء إلى أمر الله، ويرجع عن غيّه، وتخضد شوكته.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما نعىٰ على الكافرين مغبّة أعمالهم، وأنّ النار مثوى لهم.. أردف هذا أمرهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة، ورؤية آثارهم، لما للمشاهدت الحسّية من آثار في النفوس، ونتائج لدى ذوي العقول إذا تدبّروها واعتبروا بها.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا بينّ الفارق بين الفريقين في الاهتداء والضلال.. ذكر الفارق بينهما في مرجعهما ومآلهما، فذكر ما للأوّلين من النعيم المقيم، واللذات التي لا يدركها الإحصاء، وما للآخرين من العذاب اللازب في النار، وشرب الماء الحار الذي يقطّع الأمعاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر حال المشركين، وبيّن سوء مغبّتهم.. أردف هذا ببيان أحوال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه تهاوناً واستهزاء به، حتى إذا خرجوا من عنده.. قالوا للواعين من الصحابة: ماذا قال قبل افتراقنا وخروجنا من عنده؟. وهؤلاء قد طبع الله على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم، ومن ثم تشاغلوا عن سماع كلامه، وأقبلوا على جمع حطام الدنيا.

ثم أعقبه بذكر حال من اهتدوا، وألهمهم ربهم ما يتقون به النار، ثم عنف

---

(١) المراغي.

أولئك المكذّبين، وذكر أنّ عليهم أن يرعووا قبل أن تجيء الساعة التي بدت علاماتها بمبعث محمد ﷺ، والذكرى لا تنفع حينئذٍ.

ثم أمر رسوله ﷺ بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله، وإصلاح نفسه بالاستغفار من ذنبه، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات، والله هو العليم بمنصرفكم في الدنيا، ومصيركم إلى الجنّة أو إلى النار في الآخرة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ أخرج[1] ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنها نزلت في أهل مكة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: هم الأنصار.

وأخرج عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: ذكر لنا أنّ هذه الآية نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب، وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون يومئذٍ: أعل هبل، ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل، فقال المشركون: إنّ لنا العزّى، ولا عزّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً...﴾ إلخ. سبب نزولها: ما أخرجه أبو يعلى عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ تلقاء الغار.. نظر إلى مكة فقال: «أنت أحبّ بلاد الله إليّ، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك.. لم أخرج منك»، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قال: كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبيّ ﷺ، فيسمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه، ويسمعه المنافقون فلا يعونه، فإذا

---

(١) لباب النقول.

خرجوا.. سألوا المؤمنين: ماذا قال آنفاً؟. فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي:[1] أعرضوا عن دين الإسلام، وسلوك طريقه، من صد صدوداً، فيكون كالتأكيد والتفسير لما قبله، أو منعوا الناس عن ذلك، من صدّه صداً، كالمطعمين الجيوش يوم بدر، فإنَّ مترفيهم كأبي جهل والحارث ابن هشام وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم، أطعموا الجنود يوم بدر، يستظهرون على عداوة النبي ﷺ والمؤمنين، فيكون مخصّصاً لعموم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والظاهر: أنه عام في كل من كفر وصدّ، وقال مجاهد والسدي: هم كفار قريش كفروا بالله، وصدّوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، وقال الضحاك: معنى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن بيت الله بمنع قاصديه، وقيل: هم أهل الكتاب، والموصول: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿أَضَلَّ﴾ الله سبحانه، وأبطل ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الصالحة، ولم يتقبلها منهم؛ أي: حكم ببطلانها وضياعها، فإنّ ما كانوا يعملونه من أعمال البر، كصلة الأرحام، وقرى الأضياف، وفكّ الأسارى، وغيرها من المكارم، ليس لها أثر من أصلها؛ لعدم مقارنتها للإيمان، أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ، والصدّ عن سبيله بنصر رسوله، وإظهار دينه على الدين كلّه، وهو الأوفق بقوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قال الضحاك: معنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم، وقال أبو حيان: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أتلفها حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع، بل ضرر محض. وفي «البيضاوي»: معنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: جعلها ضالة؛ أي: ضائعة محبطة بالكفر، أو مغلوبة مغمورة فيه، كما يضل الماء في اللبن، أو جعلها ضلالاً، حيث لم يقصدوا بها وجه الله. انتهى.

---

(١) روح البيان.

وقال بعضهم[1]: أول هذه السورة متعلق بآخر السورة السابقة ـ سورة الأحقاف ـ كأن قائلاً قال: كيف يهلك الفاسقون ولهم أعمال صالحة، كإطعام الطعام ونحوه من الأعمال الصالحة، والله لا يضيع لعامل عمله، ولو كان مثقال ذرة من خير؟ فأخبر بأنّ الفاسقين هم الذين كفروا، وصدّوا عن سبيل الله، أضل أعمالهم؛ يعني: أبطلها؛ لأنها لم تكن لله ولا بأمره، إنما فعلوها من عند أنفسهم، ليقال عنهم ذلك، فلهذا السبب أبطلها الله تعالى.

والمعنى[2]: أي الذين جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره، وصدّوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه عما أراد، جعل الله أعمالهم تسير على غير هدى؛ لأنها عملت في سبيل الشيطان، لا في سبيل الرحمن، وما عمل للشيطان.. فمآله الخسران، فما عملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم الأخلاق من صلة الأرحام، وإطعام الجائع، وعمارة المسجد الحرام، وإجارة المستجير، ونحو ذلك، حكم الله ببطلانه، فلا يرون له في الآخرة ثواباً، ويجزون به في الدنيا من فضله تعالى بزيادة مال، أو حدوث ولد، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

قال ابن عباس في رواية عنه: نزلت الآية في المطعمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل والحارث ابنا هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبيّ وأمية ابنا خلف، ومنبه ونُبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل.

ولما ذكر سبحانه جزاء أهل الكفر.. أتبعهم بثواب أهل الإيمان، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ يعمّ كل من آمن وعمل صالحاً من المهاجرين والأنصار، وأهل الكتاب وغيرهم، وكذا يعمّ الإيمان بجميع الكتب الإلهية ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﷺ، وهو القرآن الذي أنزله الله على محمد.

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نُزِّلَ﴾ مشدداً مبنياً للمفعول، وقرأ زيد بن علي وابن مقسم: ﴿نَزَّل﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ الأعمش: ﴿أُنزِل﴾ معدى بالهمزة مبنياً للمفعول، وقرىء: ﴿نزل﴾ ثلاثياً مخففاً.

وخصّ سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ بالذكر، مع اندراجه تحت مطلق الإيمان المذكور قبله؛ تنبيهاً على شرفه، وعلوّ مكانه، كما في عطف جبرائيل على الملائكة، وعلى أنه الأصل في الكل، ولذلك أكّده بقوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ما نزّل على محمد ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: العدل الصواب، وقيل: الناسخ لما قبله، ولا يرد عليه النسخ، حال كونه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ بطريق حصر الحقّية فيه، والحق: مقابل الباطل، وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وبين خبره، وهو قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ أي: السيئات التي عملوها فيما مضى؛ أي: ستر الله أعمالهم السيئة بالإيمان والعمل الصالح ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي: حالهم وشأنهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق، وأرشدهم إلى أعمال الخير، وأصلح نيّاتهم بالإخلاص.

والمعنى[2]: أي والذين صدّقوا الله، وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه، وصدّقوا بالكتاب الذي نزل على محمد، وهو الحق من ربهم، محا الله بفعلهم سيء ما عملوا، فلم يؤاخذهم به، وأصلح شأنهم في الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة، وأصلح شأنهم في الآخرة بأن يورثهم نعيم الأبد، والخلود الدائم في جناته، قال ابن عباس: نزلت الآية في الأنصار. كما مرّ.

ثم بيّن سبب الإضلال، وإصلاح البال، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ من إضلال الأعمال، وتكفير السيئات، وإصلاح البال، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: ذلك كائن بسبب أنّ الكافرين ﴿ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: الشيطان، ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصدّ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: وبسبب أنّ المؤمنين ﴿ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ﴾ الذي لا محيد عنه، كائناً ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ ففعلوا ما فعلوا من الإيمان

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

به وبكتابه، ومن الأعمال الصالحة.

ومعنى الآية[1]: ذلك الأمر وهو إضلال أعمال الكفار، وتكفير سيئات المؤمنين، كائن بسبب اتباع الكفار الباطل، واتباع المؤمنين الحق من ربهم؛ أي: وإنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأنّ الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق، بما وسوس به إليهم الشيطان، ولأنّ الذين آمنوا اتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم، فأنار بصائرهم، وهداهم إلى سبيل الرشاد ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل الضرب والبيان المذكور ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾؛ أي: يبيِّن الله للناس أمثالهم؛ أي: أحوال الفريقين، وأوصافهما الجارية مجرى الأمثال في الغرابة، وهي: اتباع الأولين الباطل وخيبتهم، وخسرانهم، واتباع الآخرين الحق، وفوزهم وفلاحهم. وفي الخبر: «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه». قال الزجاج: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يبيّن الله للناس أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين؛ يعني: أنّ من كان كافراً أضل الله عمله، ومن كان مؤمناً كفّر الله سيئاته.

والمعنى: أي كما بيَّنت لكم فعلي بفريقي الكفار والمؤمنين، كذلك نمثل للناس الأمثال، ونشبه لهم الأشباه، فنلحق بالأشياء أمثالها وأشكالها.

والخلاصة: أنه جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، وإضلال أعمالهم مثلاً لخيبتهم، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، وتكفير سيئاتهم مثلا لفوزهم، وهكذا شأن القرآن، يوضِّح الأمور التي فيها عظة وذكرى بضرب الأمثال، كما ضرب المثل بالنخل والحنظل في سورة أخرى.

ولمّا بيّن سبحانه حال الفريقين.. أمر بجهاد الكفار، فقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد بالذين كفروا: المشركون، ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتب، و﴿الفاء﴾ فيه: للإفصاح؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر، من إضلال أعمال الكفرة وخيبتهم، وإصلاح

---

(١) الخازن.

أحوال المؤمنين وفلاحهم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: إذا لقيتم الذين كفروا، وقابلتموهم في المحاربة يا معشر المسلمين ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: فاضربوا الرقاب منهم ضرباً، فحذف الفعل وأنيب المصدر منابه مضافاً إلى المفعول، والألف واللام في ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: بدل من المضاف إليه؛ أي: فاضربوا رقابهم بالسيف، والمراد: فاقتلوهم.

وإنّما عبَّر[1] عن القتل بضرب الرقاب، لما في التعبير به من الغلظة والشدة ما ليس في نفس القتل، وهي: حز العنق، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وأعلاه وأشرفه، وإرشاداً للغزاة إلى أيسر ما يكون منه، وفي الحديث: «أنا لم أبعث لأعذِّب بعذاب الله، وإنما بعثت بضرب الرقاب وشدِّ الوثاق»؛ أي: فاقتلوهم كيفما أمكنكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أضعفتموهم بالجراح، أو بالغتم في قتلهم، وأكثرتم القتل فيهم، أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾؛ أي: وثاق الأسير منهم؛ أي: اربطوا الأسير منهم على كتفه كيلا ينفلت عنكم، والوثاق: الحبل الذي يربط به الأسير، وقال أبو الليث: يعني: حتى إذا قهرتموهم وأسرتموهم.. فاستوثقوا أيديهم واربطوها من خلفهم كيلا يفلتوا، والأسر يكون بعد المبالغة في القتل.

قرأ الجمهور: ﴿فَشُدُّوا۟﴾ بضم الشين، وقرأ السلميّ: بكسرها ﴿فَإِمَّا﴾ تمنون عليهم ﴿مَنًّۢا﴾ بإرسالهم من غير فداء ﴿بَعْدُ﴾؛ أي: بعد أسرهم، وشد وثاقهم ﴿وَإِمَّا﴾ تفدونهم ﴿فِدَآءً﴾ بمال أو بأسرى مسلمين.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فِدَآءً﴾ بالمدّ، وقرأ ابن كثير في رواية شبلٍ: ﴿فدىً﴾ بالقصر. والمنُّ: أن يترك الأمير الأسير الكافر من غير أن يأخذ منه شيئاً. والفداء: أن يترك الأمير الأسير الكافر، ويأخذ مالاً، أو أسيراً مسلماً في مقابلته، وإنما قدم المنّ على الفداء؛ لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به، كما قال شاعرهم:

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

وَلاَ نَقْتُلُ ٱلأَسْرَىٰ وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ إِذَا أَثْقَلَ الأَعْنَاقَ حِمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

قال الشيخ الرضيُّ: المطلوب[1] من شدّ الوثاق: إمّا قتلٌ، أو استرقاق، أو منّ، أو فداء. فالإمام يتخير في الأسارى البالغين من الكفار بين هذه الخصال الأربع، وهذا التخيير ثابت عند الشافعي، ومنسوخ عند الأحناف بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، قالوا: نزل ذلك يوم بدر، ثم نسخ. والحكم إما القتل أو الاسترقاق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا كثر المسلمون، واشتدّ سلطانهم. . . أنزل الله تعالى في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وكان عليه عمل رسول الله ﷺ، والخلفاء من بعده.

روىٰ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه في سارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خيرٌ، إن تقتلني. . تقتل ذا دم، وإن تُنْعِم. . تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال. . فسل ما شئت، حتى كان الغد، فقال له رسول الله ﷺ: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: عندي ما قلت لك، قال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فقد أصبح بلدك أحبَّ البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلمَّا قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد ﷺ.

وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من عقيل فأوثقوه، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ،

---

(١) روح البيان.

ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف، وأما الفداء بالمال.. فقد وقع يوم بدر، كما هو مشهور في الأحاديث الصحيحة.

والظاهر[1]: أنّ قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ غاية لقوله: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾؛ لأنه قد غيًّا، فضرب الرقاب بشد الوثاق وقت الإثخان، فلا يمكن أن يُغيّا بغاية أخرىٰ، لتدافع الغايتين، إلا أن تكون الثانية مبيّنة للأولى، ومؤكدة لها فيجوز.

والمعنى: فشدوا وثاق الأسير وربطه، حتى تضع أهل الحرب أوزارها وأحمالها وأسلحتها، ويتركوا حمل سلاحها؛ أي: حتى تنقرض الحرب وتنعدم بالكليَّة، بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفار يحارب حزباً من أحزاب الإسلام.

والأوزار[2]: جمع وزر، والوزر بالكسر: الثقل، وما يحمله الإنسان، فسمى الأسلحة أوزاراً؛ لأنها تحمل، فيكون جعل مثل الكراع من الأوزار من التغليب، و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية عند الشافعي لأحد الأمور الأربعة، أو للمجموع. والمعنى حينئذٍ: إنهم لا يتركون ذلك أبداً، حتى لا يكون مع المشركين حرب، بأن لا يبقى لهم شوكة، وأما عند أبي حنيفة فإنه حمل الحرب على حرب بدر، فهي غاية للمنّ والفداء، والمعنى: يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها وتنقضي، وإن حملت الحرب على الجنس.. فهي غاية للضرب والشد، والمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب أوزارها، بأن لا يبقى للمشركين شوكة.

ومعنى الآية: أي فإذا واجهتم المشركين في القتال.. فاحصدوهم حصداً بالسيوف، حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقابهم، وصاروا في أيديكم أسرى.. فشدّوهم في الوثاق كي لا يقاتلوكم، أو يهربوا منكم، ثم أنتم بعد انتهاء الحرب وانتهاء المعارك بالخيار في أمرهم، إن شئتم.. مننتم عليهم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

فأطلقتموهم بلا عوضٍ من مال أو غيره، وإن شئتم.. فاديتموهم بمال تأخذونه منهم حتى لا يكون حرب مع المشركين، ولا قتال بزوال شوكتهم.

واعلم[1]: أنَّ للحرب فوائد، وللسلم أخرى، فالأمم في حال الطفولة عقولها أشبه بعقول الشابّ المراهق، الذي لم يبلغ الحلم، تراه يقاتل الصبيان، ويشاجرهم، ويوقع الأذى بهم، وهم يزيدون في أذاه، وينكلون به، وهذه هي حال الأمم اليوم.

ألا إنَّ الحرب تقوّي الأبدان، وترقي الصناعات، وتجعل الأمم تنمو وتوقظ الشعور، وتفتح المغلق، وتيسر العسير، قال أرسطو للإسكندر: إنّ الراحة مضرة للأمم، ومن ثم قيل: إذا أردت رقي أمةٍ.. فاجعلها تخوض الحروب، فذلك يفتح لها باب السعادة، والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير، معرَّضة للزوال، كما رأينا ذلك في بعض من عليه الاستثمار من أفريقيا، فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها.. فإنّ نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحرب لدى من قبلها، فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء، وشفاء الغليل، وجمع الرجال والسلاح والكراع، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها، وانشراح صدورها، بظهور أمم أخرى تكافح معها في ميدان الحياة، ويكون كل فرد في الأمم المقبلة أشبه بالأب، يكدح لمساعدة أبنائه، وهذا الكدح والجد في العمل لفائدة الجميع، يجد العامل فيه لذّةً وفرحاً أشدَّ من فرح المنتصر في ميادين القتال.

وإنَّ الأمم لا تزال في الطور الأول، فهي تسعى لإسعاد نفسها، بإهلاك سواها، وسيأتي حينٌ تسعى فيه لإسعاد الجميع، ويكون فرحها بهذا المسعى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء، ويكون الناس جميعاً بعضهم لبعض كالآباء والأبناء.

واعلم[2]: أنه قد اختلف العلماء في هذه الآية، هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة في أهل الأوثان، وأنه لا يجوز أن يفادوا ولا يمن

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

عليهم، والناسخ لها قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾. وبهذا قال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج. وكثير من الكوفيين قالوا: والمائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الأدلّة على تركه، من النساء، والصبيان، ومن تؤخذ منه الجزية، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة، وقيل: إنَّ هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ روي ذلك عن عطاء وغيره، وقال كثير من العلماء: إنّ الآية محكمة، والإمام مخيّر بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخيَّر بين المنِّ والفداء. وبه قال مالك والشافعي والثوريّ والأوزاعي وأبو عبيد وغيرهم، وهذا هو الراجح؛ لأنّ النبيَّ ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك، وقال سعيد بن جبير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره.

ثمّ بين الله سبحانه وتعالى الحكمة في شرع القتال، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ محلُّه: إما رفعٌ على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر ذلك، وإما نصبٌ على أنه مفعول لفعل محذوف؛ أي: افعلوا ذلك. ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف؛ أي: ذلك حكم الكفار؛ أي:[1] هذا الذي أمرتكم به من قتل المشركين إن لقيتموهم في حرب، وشد وثاقهم في أسرهم، والمن والفداء حتى تضع الحرب أوزارها، هو الحق الذي أمركم به ربكم، وهو السنة التي شرعها لإصلاح حال عباده، وهي التي ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم ما دامت في طور طفولتها، حتى يتمّ نضجها العقلي والخلقي فتضع الحرب أوزارها، إذ لا يكون هناك حاجة إليها؛ لأنّ العالم كلّه كأسرة واحدة، سعادته بسعادة أفراده جميعاً، وشقاؤه بشقائهم.

---

(١) المراغي.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ ﴿لو﴾: [(١)] للمضيّ، وإن دخلت على المستقبل؛ أي: ولو شاء الله سبحانه وتعالى الانتصار والانتقام من الكفار ﴿لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: لانتصر من هؤلاء المشركين، وانتقم منهم بعقوبة عاجلة، وكفاكم أمرهم؛ أي: لانتقم منهم بغير قتال، بأن يكون ببعض أسباب الهلكة والاستئصال، من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت ذريع أو نحو ذلك، ويجوز أن يكون الانتقام بالملائكة، بصيحتهم أو بصرعهم أو بقتالهم، من حيث لا يراهم الكفار، كما وقع في بدر. ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بقتالهم ﴿لِّيَبْلُوَا۟﴾ ويختبر ﴿بَعْضَكُم﴾ أيها الناس ﴿بِبَعْضٍ﴾ آخر؛ أي: أمركم بالقتال، وبلاكم بالكافرين، لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم؛ بموجب الوعد، فيعلم المجاهدين في سبيله، والصابرين على ابتلائه، وبلاء الكافرين بكم ليعاجلهم على أيديكم ببعض عقوبتهم، ويتّعظ منهم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى ينيب إلى الحق، فالحكمة من القتال هي امتحان الناس، واختبار صبرهم على المكاره، وفي الجهاد تقوية لأبدانكم، ورقي لعقولكم، ونفاذ لكلمتكم، وجمع لشملكم بما ترون من اتحاد عدوكم، وبه ترقىٰ الزراعة والتجارة والصناعة وجميع العلوم، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى جزاء المجاهدين في سبيله، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: استشهدوا يوم بدر، ويوم أحد وفي سائر الحروب ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ الله سبحانه، ويضيع ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بل يثيبهم عليها؛ أي: والذين جاهدوا أعداء الله في طاعة الله، وطلب مرضاته، ونصرة ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى، سواء قتلوا في الجهاد أو لم يقتلوا، فلن يجعل الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضائعة سدى، كما أذهب أعمال الكافرين، وجعلها عديمة الجدوى.

روى أحمد عن المقدام بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «يعطىٰ الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: تكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوّج من الحور العين، ويأمن من الفزع

---

(١) روح البيان.

الأكبر ومن عذاب القبر، ويحلّىٰ حلّة الإيمان».

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وعن أبي قتادة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّين».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿قَٰتَلُوا﴾ بألف مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو وحفص، وقتادة والأعرج والأعمش: ﴿قتلوا﴾ مبنياً للمفعول، والتاء خفيفة، وقرأ زيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى بن عمر: ﴿قُتِّلوا﴾ بالتشديد مبنياً للمفعول، وقرأ أبو حيوة والجحدري: ﴿قَتَلوا﴾ على البناء للفاعل مع التخفيف. والمعنى على القراءة الأولى والرابعة: أنَّ المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع، وعلى القراءة الثانية والثالثة: أنَّ المقتولين في سبيل الله كذلك لا يضيِّع الله سبحانه أجرهم، وقرأ عليّ: ﴿فلن يضل﴾ مبنياً للمفعول، ﴿أعمالهم﴾ بالرفع، وقرىء: ﴿يَضِلّ﴾ بفتح الياء من ضلَّ. ﴿أعمالهم﴾ بالرفع.

ثمّ فسّر ما سلف بقوله: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ في الدنيا إلى أرشد الأمور إن لم يقتلوا، وفي الآخرة إلى طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم، والظاهر: أنّ السين للتأكيد، والمعنى: يهديهم الله ألبتة إلى مقاصدهم الأخروية، وقال الحسن بن زياد: يهديهم إلى محاجة منكر ونكير ﴿وَيُصۡلِحُ﴾ الله سبحانه ﴿بَالَهُمۡ﴾؛ أي: حالهم، وشأنهم في الدنيا بالعصمة والتوفيق، وفي الآخرة بأن يقبل الله أعمالهم، ويرضي خصمائهم؛ لكرامتهم على الله بالجهاد والشهادة ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وجملة قوله: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ مستأنفة[2] أو حالية؛ أي: عرّف الجنة، وبيَّنها لهم في الدنيا بذكر أوصافها، بحيث اشتاقوا إليها، أو بيَّنها لهم في الآخرة، بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدي إليه، كأنه كان ساكنه منذ خلق. وفي الحديث: «لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا». وقيل: إذا دخلوها.. يقال لهم: تفرَّقوا إلى منازلكم، فهم أعرف بمنازلهم في الجنة من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وفي «المفردات»: عرَّفه جعل له عَرْفاً؛ أي:

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) روح البيان.

رائحة طيِّبة. فالمعنى: زيَّنها وطيَّبها لهم بأنواع الملاذ. وقال بعضهم: حدَّدها لهم، وأفرزها: من عرَّف الدار إذا حدَّدها؛ أي: جعل لها حدوداً، فجنة كل أحد محدَّدة مفرزة. وقيل: هذا التعريف بدليل يدلهم عليها، وهو الملك الموكل بالعبد، يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل.

ومن فضائل الشهداء: أنه ليس أحد يدخل الجنة يحب أن يخرج منها، ولو أعطي ما في الدنيا جميعاً إلا الشهيد، فإنه يتمنَّى أن يردَّه الله إلى الدنيا مراراً، فيقتل في سبيل الله كما قتل أولاً؛ لما يرى من عظيم كرامة الشهداء على الله تعالى. ومن فضائلهم: أنّ الشهادة في سبيل الله تكفّر ما على العبد من الذنوب التي بينه وبين الله تعالى، وفي الحديث: «يغفر للشهيد كلّ شيء إلا الدَّيْن». والمراد[1] بالدين: كل ما كان عليه من حقوق الآدميين، كالغصب وأخذ المال بالباطل، وقتل العمد، والجراحة، وغير ذلك من التبعات، وكذلك الغيبة والنميمة والسخرية وما أشبه ذلك، فإنّ هذه الحقوق كلها لا بدّ من استيفائها لمستحقيها، وقال القرطبي: الدين الذي يحبس صاحبه عن الجنة: هو الذي قد ترك له وفاء ولم يوصِّ به، أو قدر على الأداء فلم يؤدِّه، أو ادّانه على سفه أو سرف ومات ولم يوفه، وأما من ادّان في حق واجب كفاقة وعسر، ومات ولم يترك وفاء.. فإنّ الله تعالى لا يحبسه عن الجنة شهيداً كان أو غيره، ويقضي عنه، ويرضي عنه خصمه، كما قال ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أدائها.. أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها.. أتلفه الله».

ومجمل معنى الآية[2]: أي سيوفقهم الله للعمل بما يرضيه ويحبّه، ويصونهم مما يورث الضلال في الدنيا، ويصلح شأنهم في العقبى، ويتقبل أعمالهم، ويجعل لكل منهم مقرّاً في الجنة، لا يضل في طلبه.

لا جرم أنّ لكل امرىء في الحياة عملاً يستوجب حالاً في الآخرة لا يتعدّاها، كما يحصل كل من نال إجازةً في علم أو صناعةٍ على عمل يشاكل

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

إجازته في قوانين الدولة، والناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر الملح، وأنواع الطير في جوّ السماء، لكل منها جو لا تتعداه، هكذا لكل من الصالحين درجةٌ في الآخرة لا يتعدَّاها، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها، كما أنّ السمك منه ما هو قريب من سطح الماء، ومنه ما يوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار وآلافها، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال: يُهدىٰ أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها.

ثمّ وعدهم سبحانه بنصرهم على أعدائهم إذا نصروا دينه، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: إن تنصروا دين الله ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ الله سبحانه على أعدائكم، ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب ومواقفها، أو على محجة الإسلام، وتثبيت الأقدام: عبارة عن النصر والمعونة في مواطن الحرب.

واعلم[1]: أنّ النصرة على وجهين:

الأول: نصرة العبد، وذلك بإيضاح دلائل الدين، وإزالة شبهة القاصرين، وشرح أحكامه وفرائضه وسننه وحلاله وحرامه والعمل بها، ثم بالغزو والجهاد لإعلاء كلمة الله، وقمع أعداء الدين، إما حقيقة كمباشرة المحاربة بنفسه، وإما حكماً بتكثير سواد المجاهدين بالوقوف تحت لوائهم، أو بالدعاء لنصرة المسلمين، وخذلان الكافرين بأن يقول: اللهمّ انصر من نصر الدين، واخذل من خذل المسلمين، ثم بالجهاد الأكبر، بأن يكون عوناً لله على النفس حتى يصرعها ويقتلها فلا يبقى من هواها أثر.

والثاني: نصرة الله تعالى، وذلك بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإظهار

---

(١) روح البيان.

الآيات والمعجزات، وتبيين السبل إلى النعيم وإلى الجحيم، والأمر بالجهاد الأصغر والأكبر، والتوفيق للسعي فيهما طلبا لرضاه، لا تبعاً لهواه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَيُثَبِّتْ﴾ مشدّداً، وقرأ المفضل عن عاصم: مخفّفاً، من أثبت الرباعي من باب أفعل.

وبعد أن ذكر سبحانه جزاء المجاهدين. أعقبه بجزاء الكافرين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله، مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه قوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ ودخلت ﴿الفاء﴾ تشبيهاً للمبتدأ بالشرط، وانتصاب ﴿تعساً﴾ على المصدر بالفعل المقدر خبراً، و﴿اللام﴾ فيه: للبيان، كسقياً لهم، ورعياً، ولذلك عطف عليه الفعل في قوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ والفعل منه، كمنع وسمع، كما سيأتي، يقال: تعسه الله وأتعسه، والتقدير: والذين كفروا بالله ورسوله، وجحدوا توحيده فَتَعِسَهُم الله تعساً؛ أي: أذلّهم الله إذلالاً، وأخزاهم خزياً، وأهلكهم إهلاكاً، وأبطل أعمالهم، وجعلها على غير هدىً واستقامةٍ؛ لأنها عُمِلت للشيطان، لا طاعة للرحمن.

ثم بيَّن سبب ذلك الإضلال، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من التعس وإضلال الأعمال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ تعالى من القرآن لما فيه من التوحيد، وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه، واشتهته أنفسهم الأمّارة بالسوء ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله سبحانه ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ لأجل ذلك؛ أي: أبطلها وجعلها من الأعمال التي لا تزكو ولا يعتد بها، كرّره إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن، ولا ينفك عنه بحال، والمراد بالأعمال: طواف البيت، وعمارة المسجد الحرام، وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوفين، وإعانة المظلومين، ومواساة اليتامى والمساكين، ونحو ذلك مما هو على صورة البرّ، وذلك بالنسبة إلى كفار قريش، وقس عليهم أعمال سائر الكفرة إلى يوم الدين.

والمعنى[2]: أي ذلك الذي فعلنا بهم من التعس، وإضلال الأعمال، من

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أجل أنهم كرهوا كتابنا الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ، فكذَّبوا به، وقالوا: هو سحر مبين، فمن ثم أحبط الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وأصلاهم سعيراً.

وقصارى ذلك: أنَّ كل ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال فهو باطل؛ لعدم الإيمان الذي هو أساس قبول الأعمال.

ثم خوف سبحانه الكفار، وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أُقعدوا في أماكنهم فلم يسيروا؛ أي: كفار مكة في الأرض إلى جانب الشام واليمن والعراق ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة: كعاد، وثمود وأهل سبأ، فإن آثار ديارهم تنبيء عن أخبارهم؛ أي: كيف كان آخر أمرهم من الدمار بسبب تكذيبهم رسلهم.

والمعنى[1]: أي أفلم يسر هؤلاء المكذبون بمحمد ﷺ، المنكرون ما أنزلناه عليه من الكتاب في نواحي الأرض، وأرجائها، فيروا نقمة الله التي أحلَّها بالأمم الغابرة، والقرون الخالية، حين كذبوا رسلهم، كعاد وثمود، ويتعظوا بذلك، ويحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم.

ثم ذكر ما فعله بهم، فقال: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقال: دمّره: أهلكه، ودمّر عليهم: أهلك ما يختص به، قال الطيبي: كأنَّ في ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ تضمين معنى أطبق، فعدَّى بعلى، فإذا أطبق عليهم دماراً.. لم يخلص مما يختص بهم أحدٌ، وفي «حواشي سعدي المفتي»: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أوقع التدمير عليهم.

وجملة ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: مستأنفة[2] استئنافاً بيانياً، نشأ عن سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله عليهم ما اختص به من أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي أهلك ما يختص بهم من الأهل والأولاد والأموال، أفلا يعتبر هؤلاء بما حلّ بمن قبلهم، فيعلموا أنّ ما حاق بهم من سوء المنقلب لا بد أن يحلّ بهم مثله، بحسب ما وضعه سبحانه من السنن في الأمم المكذبة لرسلها، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم؛ يعني: كفار مكة ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾؛ أي: أمثال هذه العاقبة التي ترون آثارها إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند الله تعالى، أو أمثال عقوبتهم، لكن لا على أنَّ لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه، بل مثله، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذَّبة، قال الزجاج[1] وابن جرير: الضمير في ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ يرجع إلى عاقبة الذين من قبلهم، وإنما جمع لما مرّ آنفاً، وقيل: أمثال العقوبة، وقيل: أمثال الهلكة، وقيل: أمثال التدميرة، والأول أولى؛ لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله، وقيل: المعنى[2]: ولقوم محمد أمثال تلك العاقبة، فأهلكوا بأيدي أمثالهم، الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم، وأسروا بأيدي من كانوا يستضعفونهم، وذلك الألم من الهلاك بسبب عام، فهو أخف من هذا.

ثم بين السبب في حلول أمثال هذه العاقبة بهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السابقة لهؤلاء، وقال بعضهم: ذلك المذكور من كون المؤمنين منصورين ظافرين، ومن كون الكافرين مقهورين مدمَّرين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بسبب أنه تعالى ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: ناصرهم على أعدائهم في الظاهر والباطن بسبب إيمانهم.

وقرأ ابن مسعود[3]: ﴿ذلك بأنّ الله وليُّ الذين آمنوا﴾. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: وبسبب أنّ الكافرين لا ناصر لهم، فيدفع عنهم العذاب الحال بهم بسبب كفرهم، فالمراد:[4] ولاية النصرة لا ولاية العبودية، فإنَّ الخلق كلهم عبادد

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

تعالى، فنفي المولى عنهم هنا لا يعارض إثباته في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾؛ لأنّ المراد به هناك: المالك لأمورهم، المتصرف في شؤونهم، أو المعنى: لا مولىٰ لهم في اعتقادهم حيث يعبدون الأصنام، وإن كان مولاهم الحق تعالى في نفس الأمر.

ومعنى الآية[1]: ذلك الذي فعله بهم من التدمير والهلاك، ونصر المؤمنين، وإظهارهم عليهم، بسبب أنّ الله ولي من آمن به، وأطاع رسوله، وأنّ الكافرين لا ناصر لهم فيدفع ما حلّ بهم من العقوبة والعذاب.

وبعد أن بيّن حال المؤمنين والكافرين في الدنيا.. بيّن حالهم في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ذا الجلال والإكرام ﴿يُدۡخِلُ﴾ يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ به، وصدّقوا رسوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الأعمال الصالحة ﴿جَنَّٰتٖ﴾ وبساتين ﴿تَجۡرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ الأربعة الآتية، كرامةً لهم على إيمانهم بالله، ورسوله واليوم الآخر، وهذا بيان لحكم ولايته تعالى للمؤمنين، وثمرتها الأخروية. قال الإمام الرازي[2]: كثيراً ما يقتصر الله سبحانه على ذكر الأنهار في وصف الجنة؛ لأنّ الأنهار يتبعها الأشجار، والأشجار تتبعها الثمار، والماء سبب حياة العالم، والنار سبب الإعدام. وللمؤمن الماء ينظر إليه، وينتفع به، وللكافر النار يتقلب فيها، ويتضرّر بها. انتهى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجحدوا بالله، وكذّبوا رسوله ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾؛ أي: ينتفعون في الدنيا بمتاعها أياماً قلائل، ويعيشون ﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ من طيّباتها، حريصين غافلين عن عواقبهم ﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ والبهائم في مسارحها، ومعالفها، غافلة عمّا هي بصدده من النحر والذبح ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾؛ أي: والحال أنّ النار الأخروية منزل ثواء وإقامةٍ، وخلودٍ لهم، والجملة إما حال مقدرة من واو ﴿يأكلون﴾، أو مستأنفة.

---

(١) المراغي.

(٢) تفسير الرازي.

ومعنى الآية: أي والذين جحدوا توحيد الله، وكذّبوا رسوله ﷺ، يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية، ويأكلون فيها غير مفكرين في عواقبهم، ومنتهى أمورهم، ولا معتبرين بما نصب الله لخلقه في الآفاق والأنفس من الحجج المؤدِّية إلى معرفة توحيده، وصدق رسوله، فمثلهم مثل البهائم، تأكل في معالفها ومسارحها، وهي غافلة عمَّا هي بصدده من النحر والذبح، فكذلك هؤلاء يأكلون، ويتلذَّذون بمتاع الدنيا، وينتفعون به كأنهم أنعام، ليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عن العاقبة، لاهون بما هم فيه، ونار جهنم مسكن ومأوى لهم، يصيرون إليها بعد مماتهم.

والخلاصة: أنّ المؤمنين عرفوا أنَّ نعيم الدنيا ظل زائل، فتركوا الشهوات، وتفرَّغوا للصالحات، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم في مقام كريم، وإنّ الكافرين غفلوا عن ذلك، فرتعوا في الدمن كالبهائم، حتى ساقهم الخذلان إلى مقرهم من تلك النيران، أعاذنا الله منها.

فإن قلت[1]: كيف التقابل بينه وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ...﴾ إلخ.

قلت ـ والله أعلم ـ: الآية من قبيل الاحتباك، ذكر الأعمال الصالحة، ودخول الجنة أولاً، دليلاً على حذف الفاسدة، ودخول النار ثانياً، وذكر التمتع والمثوى ثانياً، دليلاً على حذف التمتع والمأوى أولاً.

قال القشيري: الأنعام تأكل بلا تمييز من أي موضع وجد، كذلك لا تمييز له، أمن الحلال وجد أم من الحرام، وكذلك الأنعام، ليس لها وقت، بل في كل وقت تقتات وتأكل، كذلك الكافر أكول، كما قال ﷺ: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في معي واحد».

وبعد أن ضرب لهم المثل بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يعتبروا، وذكر لهم ما تقدّم من الأدلَّة على وحدانيته، ضرب المثل لنبيه تسلية له على ما يلاقي من عنت قومه وجحودهم، فقال: ﴿وَكَأَيِّن﴾ كلمة مركبة من الكاف وأيّ،

---

(١) روح البيان.

بمعنى كم الخبرية، قال المولى الجامي في «شرح الكافية»: إنما[1] بني كأيّن؛ لأنه كاف التشبيه دخلت على أيّ، وأيٌّ في الأصل: كان معرباً، لكنَّه انمحى عن الجزئين معناهما الإفرادي، فصار المجموع كاسم مفرد بمعنى كم الخبرية، فصار كأنه اسم مبني على السكون، آخره نون ساكنة كما في «من» لا تنوين تمكن، ولهذا يكتب بعد الياء نون مع أنَّ التنوين لا صورة له في الخط، انتهى. ومحلها الرفع بالابتداء ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: تمييز لها ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ ﴿الَّتِيَ أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ ﴿قَرْيَتِكَ﴾ وهي مكة. وقد حذف منهما المضاف وأجري أحكامه عليهما، كما يفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

ومعنى الآية: وكم من أهل قرية هم أشد قوّةً من أهل قريتك الذي أخرجوك منها، ووصف[2] القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوّتها، كما أنَّ وصف الثانية بإخراجه ﷺ للإيذان بأولويَّتها به لقوة جنايتها ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم، وهم: قريش الذين هم أهل قرية النبيّ ﷺ، وهي: مكة، قال مقاتل: أهلكناهم بالعذاب حين كذّبوا رسولهم، وجملة قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾: بيانٌ لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الأعوان والأنصار، إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، و﴿الفاء﴾: لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكاية حال ماضية.

ومعنى الآية[3]: أي وكثير من الأمم التي كان أهلها أشد بأساً، وأكثر جمعاً، وأعدّ عديداً من أهل مكة الذين أخرجوك أهلكناهم بأنواع العذاب، ولم يجدوا ناصراً ولا معيناً يدفع عنهم بأسنا وعذابنا، فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل، ولا تبْخَع نفسك عليهم حسرات، فالله مظهرك عليهم، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم إن لم ينيبوا إلى ربهم، ويثوبوا إلى رشدهم، وغير خافٍ ما في هذا من التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لأهل مكة.

---

(١) ملا جامي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

ثم ذكر الفارق بين حالي المؤمنين والكافرين، والسبب في كون هؤلاء في أعلىٰ علّيين، وأولئك في أسفل سافلين، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَن﴾[1]: عبارةٌ عن المؤمنين المتمسكين بأدلّة الدين، والتقدير: أليس الأمر كما ذكر، فمن كان مستقراً على حجة ظاهرة، وبرهان نيرٍ من مالك أمره ومربيه، وهو القرآن، وسائر المعجزات، والحجج العقلية ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من الشر وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبح القبائح، والمعنى: لا مساواة بين المهتدي والضالّ. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغة، وانهمكوا في فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه، فضلاً عن حجة تدل عليها، وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراد الأولين باعتبار لفظها، وقرىء:[2] ﴿أَمَنْ كَانَ﴾ بغير فاء.

ومعنى الآية[3]: أي أفمن كان على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزله في كتابه من الهدى، والعلم وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة، فهو على علم بأنَّ له ربًّا يجازيه على طاعته إيّاه بالجنة، وعلى إساءته ومعصيته إياه بالنار، كمن حسَّن له الشيطان قبيح عمله، وأراه إيَّاه جميلاً، فهو على العمل به مقيم، وعلى السير على نهجه دائب، واتبع هواه، وجمحت به شهواته، فطفق يعدو في المعاصي ويخبُّ فيها، ويضع غير ملتفت إلى واعظ أو زاجرٍ.

والخلاصة: أيستوي الفريقان: من كان ثابتاً على حجة بينة من عند ربّه، وهي كتابه الذي أنزله على رسوله، وسائر الحجج التي أقامها في الآفاق والأنفس، ومن زيَّن له الشيطان سيّء أعماله من الشرك وسائر المعاصي، كإخراجك من قريتك، واتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها تعاضد ما

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

يدّعيه، وتطمئن إليها نفسه في الدفاع عمّا يدين به، كلاهما لا يستويان، ونحو الآية قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال.. بيّن الفرق في مرجعهما ومآلهما، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: صفة الجنة التي وعدها الله سبحانه من اتقى عقابه، فأدّى فرائضه، واجتنب نواهيه ما ستسمعونه بعد، وعبَّر[1] عن المؤمنين بالمتقين؛ إيذاناً بأنَّ الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى، الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها، وترك السيئات عن آخرها، ومثلها وصفها العجيب الشأن، وهو مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: مثل الجنة الموعودة للمؤمنين، وصفتها العجيبة الشأن ما تسمعون فيما يتلىٰ عليكم، وقوله: ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في الجنة الموعودة إلى آخره مفسر له ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ جمع نهر، وهو: مجرى الماء الفائض كما سيأتي؛ أي: فيها أنهار جارية ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ أي: غير متغير الطعم والرائحة واللون، وإن طالت إقامته، بخلاف ماء الدنيا؛ فإنه يتغير بطول المكث في مناقعه وفي أوانيه، مع أنه مختلف الطعوم مع اتحاد الأرض ببساطتها، وشدة اتصالها، وقد يكون متغيراً بريح منتنة من أصل خلقته، أو عارضٍ عرض له من منبعه أو مجراه. كذا في «المناسبات».

يقول الفقير[2]: قد صحَّ أنّ المياه كلها تجري من تحت الصخرة التي في المسجد الأقصى، فهي ماء واحد في الأصل، عذب فرات سائغ للشاربين، وإنما يحصل التغير من المجاري، فإنّ طباعها ليست متساوية، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ وتجاور أجزائها لا يستلزم اتحادها في نفس الأمر، بل هي متجاورة مختلفة، ومثلها العلوم، فإنها إذا مرت بطبع غير مستقيم تتغير عن أصلها، فتكون في حكم الجهل، ومن هذا القبيل علوم جميع أهل الهوى، والبدع والضلال والخرافات.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ءَاسِنٍ﴾ بالمد على وزن فاعل كضارب، من أسن يأسن، كضرب يضرب، وقرأ حميد، وابن كثير وأهل مكة: ﴿أسِنٍ﴾ بالقصر على وزن فعل، من أسن يأسن كحذر يحذر، وهما سبعيتان، وقرىء: ﴿ياسِنٍ﴾ بالياء، قال أبو علي: وذلك على تخفيف الهمز.

﴿و﴾ فيها ﴿أنهار﴾ جارية ﴿مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كألبان الدنيا بأن كان قارصاً، وهو: الذي يقرص اللسان ويقبضه، أو حازراً بتقديم الزاي وهو: الحامض، أو غير ذلك؛ لأنه لم يخرج من ضروع الإبل، والغنم والبقر.

والمعنى: لم يتغير طعمه بنفسه عن أصل خلقته، ولو أنهم أرادوا تغييره بشهوةٍ اشتهوها تغيَّر، وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم، وذلك تركه ﴿و﴾ فيها ﴿أنهار﴾ جارية ﴿مِّنْ خَمْرٍ﴾ وهو: ما أسكر من عصير العنب، أو عام؛ أي: لكل مسكرٍ، كما في «القاموس» ﴿لَّذَّةٍ﴾؛ أي: لذيذة ﴿لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾؛ أي: ليس فيها حموضة ولا غضاضة، ولا مرارة، ولم تدنسها الأرجل بالدوس ولا الأيدي بالعصر، وليس في شربها ذهاب عقل، ولا صداع، ولا آفة من آفات خمر الدنيا، وإنّما هي لتلذذ محض.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَّذَّةٍ﴾ بالجر، على أنه صفة لـ ﴿خَمْرٍ﴾ وقرىء بالرفع على أنه صفة لـ ﴿أنهار﴾ وبالنصب على أنه مصدر، أو مفعول لأجله؛ أي: لأجل لذّة له ﴿و﴾ فيها ﴿أنهار من عسلٍ مصفىٰ﴾؛ أي: من عسل قد صفي من القذى، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضلات النحل وغيرها؛ أي: خلقه الله تعالى: مصفى، لا أنه كان مختلطاً فصفي.

قال بعضهم:[3] الفرق بين الخالص والصافي: أن الخالص ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه، والعسل: لعاب النحل وقيئه، كما قال ظهير الفارابي، وقال الدميري في: «حياة الحيوان»: وبالجملة

---

(١) البحر المحيط، والشوكاني، والفتوحات.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

فإنَّه يخرج من بطون النحل، ولا ندري أمن فمها أم من غيره، وقد سبق جملة النقل فيه في سورة النحل.

وبدىء بالماء[1] في الذكر؛ لأنه لا يستغنى عنه في الدنيا، ثم باللبن، لأنه يجري مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم، ثم بالخمر؛ لأنه إذا حصل الري والشبع.. تشوفت النفس لما يستلذ به، ثم بالعسل؛ لأنَّ فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم.

أخرج أحمد، والترمذي، وصحَّحه، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي عن معاوية بن حيدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأزهار منها بعد».

فإن قيل[2]: ما الحكمة في قوله تعالى في الخمر: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾؟ ولم يقل في اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين، ولا قال في العسل: مصفّى للناظرين؟

أجاب الرازي: بأنَّ اللذّة تختلف باختلاف الأشخاص، فرب طعام يتلذذ به شخص ويعافه الآخر، فلذلك قال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسرها، ولأنّ الخمر كريهة الطعم في الدنيا، فقال: لذّة؛ أي: لا يكون في خمر الآخرة كراهة طعم، وأمَّا الطعم واللون.. فلا يختلفان باختلاف الناس، فإنّ الحلو، والحامض وغيرهما، يدركه كل أحدٍ، لكن قد يعافه بعض الناس، ويلتذ به البعض مع اتفاقهم أنَّ له طعماً واحداً، وكذلك اللبن، فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجة. اهـ. «خطيب».

وقال صاحب «الروح»[3]: وبدأ بأنهار الماء لغرابتها في بلاد العرب، وشدّة حاجتهم إليها، ولما كان خلوها عن تغير أغرب.. نفاه بقوله: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾. ولمَّا كان اللبن أقل فكان جريه أنهاراً أغرب.. ثنى به، ولما كان الخمر أعز.. ثلث به، ولما كان العسل أشرفها، وأقلها.. ختم به. انتهى.

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.
(٣) روح البيان.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: للمتقين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة الموعودة مع ما فيها من فنون الأنهار صنف ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ على وجه لا حاجة معه من قلة، ولا انقطاع. وقيل: لهم فيها زوجان من كل الثمرات أخذاً من قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾. وفي ذكر[1] الثمرات بعد المشروب، إشارةٌ إلى أنَّ مأكول أهل الجنة للذة لا لحاجةٍ، فلهذا ذكر الثمار بعد المشروب؛ لأنها للتفكه واللذة.

﴿و﴾ لهم فيها ﴿مغفرة﴾ عظيمة كائنة ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: المحسن إليهم بمحو ذنوبهم السالفة أعيانها وآثارها، بحيث لا يخشون لها عاقبة بعقاب ولا عتاب، وإلا لتنغص العيش عليهم، قال في «فتح الرحمن»: قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عطف على الصنف المحذوف؛ أي: ونعيم أعطته المغفرة وسببته، وإلا فالمغفرة قبل دخول الجنة.

وفي «الخازن»: فإن قلت: المؤمن المتقي لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة، فكيف يكون فيها المغفرة؟.

قلت: ليس بلازم أن يكون المعنى: ولهم مغفرة فيها؛ لأنّ الواو لا تقتضي الترتيب، فيكون المعنى: ولهم فيها من كل الثمرات، ولهم مغفرة قبل دخولهم فيها، وقيل[2]: معنى ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: رفع تكليفٍ عنهم، فيأكلون ويشربون من غير حساب ولا عقاب، ورفع قبيح ومكروه، فلا يحتاجون إلى غائط، ولا يمرضون بسبب تناول المأكولات والمشروبات، بخلاف الدنيا، فإنّ للأكل توابع ولوازم لا بدّ منها.

وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ خبر[3] لمبتدأ محذوف، تقديره أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد الكريم، كمن هو خالد في النار التي لا يطفأ لهيبها، ولا يفك أسيرها، ولا يؤنس غريبها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؛ أي: ليس هؤلاء كأولئك، فليس من هو في الدرجات العلى

---

(١) الخازن.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

كمن هو في الدركات السفلى، وقوله: ﴿وَسُقُوا﴾: بدل ما ذكر من أشربة أهل الجنة ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾؛ أي: بالغاً نهاية الحرارة ﴿فَقَطَّعَ﴾ بحرارته ﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾؛ أي: مصارينهم، معطوف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية، لكنه راعىٰ في الأول لفظ ﴿مَن﴾، وفي الثانية معناها، والحميم: الماء الحار الشديد الغليان، فإذا شربوه.. قطع أمعاءهم لفرط حرارته، والأمعاء: جمع معي، وهي ما في البطون من الحوايا، كما سيأتي في مبحث اللغة.

قيل: إذا دنا منهم.. شوى وجوههم، وانمازت فروة رؤوسهم؛ أي: انعزلت وانفرزت، فإذا شربوا.. قطع أمعاءهم، فخرجت من أدبارهم، فانظر بالاعتبار أيها الغافل عن القهار، هل يستوي الشراب العذب البارد، والماء الحميم المر؟.

وإنما ابتلاهم الله بذلك؛ لأنّ قلوبهم كانت خالية عن العلوم والمعارف الإلهية، ممتلئة بالجهل والغفلة.

﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي[1]: ومن هؤلاء الكفار الذين يتمتّعون، ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، وهم: المنافقون، أفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿من﴾، وجمع في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ باعتبار معناها.

والمعنى: أنّ المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله ﷺ، ومواطن خطبه التي يمليها على المسلمين، حتى إذا خرجوا من عنده ﷺ ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: المنافقون على طريق الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ يعني: علماء الصحابة: كعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ﴾ محمد ﴿ءَانِفًا﴾؛ أي: في الساعة الماضية القريبة منّا قبل خروجنا في وعظه؛ أي؛ في أول وقتٍ يقرب منّا.

والمعنى: أنا لم نلتفت إلى قوله؛ لأنّه كلام ساقط، فماذا قال حين تكلم؟ والمعنى: ماذا قال قبيل هذا الوقت؟

---

(١) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ءَانِفًا﴾ على وزن فاعل، وابن كثير: ﴿أنفا﴾ على وزن فعل.

والمعنى[2]: أي ومن الناس منافقون يستمعون، فلا يعون ما تقول، ولا يفهمون ما تتلوا عليهم من كتاب ربك، تغافلاً عما تدعوهم إليه من الإيمان، حتى إذا خرجوا من عندك.. قالوا لمن حضر مجلسك من أهل العلم بكتاب الله: ماذ قال محمد قبل أن نفارق مجلسه؟ وما مقصدهم من ذلك إلا السخرية والاستهزاء بما يقول، وأنه مما لا ينبغي أن يؤبه به، أو يلقى لمثله سمع.

روى مقاتل: أنَّ النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد. سألوا عبد الله بن مسعود استهزاءً، ماذا قال محمد آنفاً؟ قال ابن عباس: وقد سئلت فيمن سئل.

ثم بين سبب استهزائهم، وتهاونهم بما سمعوا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنافقون القائلون ما ذكر التاركون اتباع الحق، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وأماتها، فلم يؤمنوا، ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة، وشهواتهم العاطلة في الكفر والعناد، فلذلك فعلوا ما فعلوا مما لا خير فيه.

أي[3]: هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين ختم الله على قلوبهم، فلا يهتدون للحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، واتّبعوا شهواتهم، وما دعتهم إليه أنفسهم، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان.

ثمّ ذكر سبحانه أضداد هؤلاء بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحق والخير، فآمنوا بالله، وعملوا بما أمرهم الله به ﴿زَادَهُمْ﴾ الله سبحانه ﴿هُدًى﴾ ورشاداً بالتوفيق والإلهام، وقيل: زادهم النبيّ ﷺ، وقيل: زادهم القرآن، وقال الفرَّاء: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى، وقيل: زادهم نزول الناسخ

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

هدى، وعلى كل تقدير فالمراد: أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين.

﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى، وأعطاهم ﴿تَقْوَىٰهُمْ﴾ وخشيتهم منه تعالى؛ أي: ألهمهم إياها، وأعانهم عليها.

والمعنى: والذين اهتدوا بالإيمان، واستماع القرآن زادهم الله تعالى على اهتدائهم هدى، وبصيرة، وعلماً، وشرح صدورهم، وألهمهم رشدهم، وأعانهم على تقواه، حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين، وخلق الله فيهم كمال التقوى، فلا يخافون لومة لائم، ويتنزه العارفون عمّا يشغل أسرارهم عن الحق، ويتبتَّلون إليه تعالى.

ثم بين أنهم في غفلة عن النظر والتأمل في عاقبة أمرهم، فقال: ﴿فهل ينظرون﴾؛ أي: المناقون والكافرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: القيامة، سميت ساعة لسرعة قيامها، والاستفهام فيه: إنكاري؛ أي: ما ينتظرون إلا القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأةً، بدل اشتمال من الساعة؛ أي: أن تباغتهم بغتةً.

والمعنى[1]: أنهم لا يتذكَّرون بذكر أحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة، وما فيها من عظائم الأمور، وما ينتظرون للتذكر إلا إتيان نفس الساعة بغتةً وفجأة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تعليل لمفاجأتها، لا لإتيانها مطلقاً، على معنى إنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مرتقب ينتظرونه، سوى إتيان نفس الساعة بغتةً؛ لأنّه قد جاء أشراطها، وأماراتها التي منها بعثة محمد ﷺ، وانشقاق القمر، فلم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدوها من مبادي إتيانها، فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾؛ أي[2]: فمن أين لهم التذكر والتوبة إذا جاءتهم الساعة فجأة؟؛ أي: لا تنفعهم الذكرى، إذ لا تقبل التوبة، ولا يحسب الإيمان حينئذٍ، حكم بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذٍ، و﴿أَنَّىٰ﴾: خبر مقدم، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾: اعتراض وسط بينهما؛ رمزاً إلى غاية سرعة مجيئها،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وجواب ﴿إِذَا﴾: محذوف؛ أي: كيف لهم التذكُّر إذا جاءتهم الساعة، فكيف يتذكّرون؟ وإطلاق المجيء عن قيد البغتة؛ لما أنَّ مدار استحالة نفع التذكر عند مجيئها مطلقاً لا مقيّداً بالبغتة، ويحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً؛ أي: فأنَّى لهم الخلاص، ويكون ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ فاعلاً بـ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾. اهـ «سمين». وفي «الخازن»: يعني: من أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة بغتة؟ اهـ.

وقرأ أبو جعفر الرؤاسي عن أهل مكة[1]: ﴿إنْ تأتهم﴾ على الشرط، وجوابه. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾. وهذا غير مشكوك فيه؛ لأنها آتية لا محالة، لكن خوطبوا بما كانوا عليه من الشك، ومعناه: إن شككتم في إتيانها.. فقد جاء أعلامها، فالشكّ راجع إلى المخاطبين الشاكّين فيها.

قال الزمخشري: فإن قلت: فما جزاء الشرط على هذه القراءة؟

قلت: قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾، ومعناه: إن تأتهم الساعة.. فكيف لهم ذكراهم؛ أي: تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة؟ يعني: لا تنفعهم الذكرى حينئذٍ؛ لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ على القراءتين؟

قلت: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول، كقولك: إن أكرمني زيد.. فأنا حقيقٌ بالإكرام أكرمه.

وقرأ الجعفي وهارون عن أبي عمرو: ﴿بَغَتَّة﴾ بفتح الغين وشدّ التاء، قال صاحب «اللوامح»: وهي صفة، وانتصابها على الحال لا نظير لها في المصادر ولا في الصفات، بل في الأسماء، نحو: الحَرِيَّة، وهو: اسم جماعة، والسريَّة: وهو اسم مكان. انتهى.

ومعنى الآية[2]: أي إنه بعد أن قامت الأدلّة على وحدانية الله تعالى، وصدق نبوّة رسوله، وأنَّ البعث حق، وأنّ الله يهلك من كذّب رسله، ويحل بهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الوبال والنكال، كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التي أهلكها الله لتكذيبها رسلها، ولم يبق منها إلا آثارها، ولم يفدهم كل ذلك شيئاً، ولم يتعظوا، ولم يؤمنوا، فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتةً، إذْ جاءت علامتها، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك.

والخلاصة: أنّ البراهين قد نصبت، والأدلة قد وضحت على وجوب الإيمان بالله، وصدق رسوله، والبعث والنشور، وهم لم يؤمنوا، فلا يتوقع منهم إيمان بعدئذٍ، إلا حين مجيء الساعة بغتةً، وها هي ذي أشراطها قد ظهرت، ومقدّماتها قد بدأت، ولم يأبهوا بها، ولا فكّروا في أمرها، والمراد: بيان أنهم بلغوا الغاية في العناد، والنهاية في الاستكبار.

ثم أظهر خطأهم، وحكم بأنّ رأيهم آفنٌ في تأخيرهم التذكر إلى قيام الساعة، ببيان أنَّ التذكر لا يجدي نفعاً حينئذٍ، فقال: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ إلخ؛ أي: فمن أين التذكر إذا جاءتهم الساعة؟ فإنّ الذكرى لا تنفع حينئذٍ ولا تقبل التوبة، ولا ينفع الإيمان.

وبعد أن أبان أنّ الذكرى لا تنفع إذ انقضت هذه الدار التي جعلت للعمل، أمر رسوله بالثبات على ما هو عليه، والاستغفار لأتباعه، فقال: ﴿فَاعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أنّ الشأن الأعظم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي[1]: انتفى انتفاءً عظيماً، أن يكون معبوداً بحق غير الملك الأعظم، و﴿الفاء﴾ فيه: للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا علمت أنَّ مدار السعادة هو التوحيد والطاعة، ومناط الشقاوة: هو الإشراك والعصيان، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿اعلم أنه لا إله إلا الله﴾؛ أي: أثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، والعمل بموجبه، كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾؛ أي: ثبتنا على الصراط المستقيم، وبهذا يندفع الإيراد بأنه ﷺ

---

(١) روح البيان.

كان عالماً بالله، وأنه لا إله إلا هو، فما فائدة هذا الأمر، كقولك للجالس: اجلس؛ أي: دم على ما أنت عليه من الجلوس، أو المعنى[1] ازدد علما إلى علمك، وقيل: إنّ هذا الخطاب وإن كان له ﷺ، فالمراد به غيره، قال أبو العالية، وسفيان بن عيينة: هذا متصل بما قبله، معناه: إذا جاءتهم فاعلم أنه لا ملجأ ولا منجا، ولا مفزع عند قيامها إلا إلى الله الذي لا إله إلا هو، وقيل: معناه: فاعلم أنه لا إله إلا الله، وأنَّ جميع الممالك تبطل عند قيامها، فلا ملك ولا حكم لأحد إلا الله الذي لا إله إلا هو، وقيل: المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا الله، فعبَّر عن الذكر بالعلم.

وقدَّم العلم على العمل؛ تنبيهاً على فضله، واستبداده بالمزية عليه، لا سيما العلم بوحدانية الله تعالى، فإنه أول ما يجب على كل أحد، والعلم أرفع من المعرفة، ولذا قال: فاعلم دون فاعرف؛ لأن الإنسان قد يعرف الشيء ولا يحيط به علماً، فإذا علمه وأحاط به علماً.. فقد عرفه، والعلم بالألوهية من قبيل العلم بالصفات؛ لأنّ الألوهية صفة من الصفات، فلا يلزم أن يحيط بكنهه تعالى أحد، فإنه محالٌ إذ لا يعرف الله إلا الله، كما في الحديث.

﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ يا محمد؛ أي: أطلب الغفران من الله سبحانه ﴿لِذَنْبِكَ﴾ هو كل مقام عالٍ ارتفع ﷺ عنه إلى أعلى، أو ما صدر منه ﷺ من ترك الأولى، وعبَّر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، وإرشاداً له ﷺ إلى التواضع، وهضم النفس، واستقصاء العمل، أو أطلب من الله أن لا يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك. وقيل: معنى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾: استغفر لذنوب أهل بيتك ﴿و﴾ استغفر ﴿للمؤمنين والمؤمنات﴾؛ أي: لذنوب أمّتك بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعي غفرانهم؛ لأنهم أحق الناس بذلك منك؛ لأنَّ ما عملوا من خيرٍ كان لك مثل أجره، إذ لمكمل الغير مثل أجر ذلك الغير.

وفي إعادة[2] حلة الاستغفار على اختلاف متعلقيه جنساً، وفي حذف

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، إشعارٌ بعراقتهم في الذنب، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار، وهو سؤال المغفرة، وطلب الستر، إما من إصابة الذنب، فيكون حاصله العصمة والحفظ، وإما من إصابة عقوبة الذنب، فيكون حاصله العفو والمحو.

والمعنى[1]: أي إذا علمت سعادة المؤمنين، وعذاب الكافرين.. فاستمسك بما أنت عليه من موجبات السعادة، واستكمل حظوظ نفسك بالاستغفار من ذنبك ـ وذنوب الأنبياء أن يتركوا ما هو الأولى بمنصبهم الجليل ـ وتوجه بالدعاء والاستغفار لأتباعك من المؤمنين والمؤمنات.

وفي الحديث الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منيّ، اللهم اغفر لي هزلي، وجدي، وخطئي، وعمدي، وكل ذلك عندي». وثبت أنه ﷺ كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به منّي، أنت إلهي لا إله أنت». وجاء أيضاً أنه قال: «أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنّي أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». وفي رواية: «مئة مرة». وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإنّ إبليس قال: إنما أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك.. أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون». وفي الأثر المرويّ: «قال إبليس: وعزّتك وجلالك، لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عز وجل: وعزّتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

ثم رغَّبهم سبحانه في امتثال ما يأمرهم به، ورهَّبهم مما ينهاهم عنه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾؛ أي: مكان تقلبكم الذي تتقلبون فيه في

---

(١) المراغي.

معاشكم ومتاجركم في الدنيا ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾؛ أي: مكان ثوائكم وإقامتكم في الآخرة، وقيل[1]: متقلّبكم في أعمالكم نهاراً، ومثواكم في ليلكم نياماً، وقيل: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم في الأرض، أي: مقامكم فيها، قال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن في الدنيا، ومثواكم في القبور، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم في الدنيا والآخرة، فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به، فإنه المهم لكم في المقامين.

والمعنى[2]: أي والله يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، فاتقوه واستغفروه، فهو جدير بأن يتقىٰ ويخشىٰ، وأن يستغفر ويسترحم.

والخلاصة: أنه تعالى عالم بجميع أحوالكم، فلا يخفىٰ عليه شيء منها، وإن دق وخفي، فراقبوه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾، وقوله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

الإعراب

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة. ﴿وَصَدُّوا﴾: معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿وَصَدُّوا﴾. ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾ ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة. ﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة. ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿وَءَامَنُوا﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

﴿عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾: متعلق بـ ﴿نُزِّلَ﴾، وجملة ﴿نُزِّلَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية أو حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿الْحَقُّ﴾: خبره، والجملة إما اعتراضية، أو حالية من نائب فاعل ﴿نُزِّلَ﴾. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: حال من ﴿الْحَقُّ﴾. ﴿كَفَّرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والجملة: في محل الرفع خبر عن ﴿الذين آمنوا﴾، والجملة الاسمية: معطوفة على ما قبلها. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿كَفَّرَ﴾ ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾: مفعول به. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿كَفَّرَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلته. ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿الباء﴾، والتقدير: ذلك كائن بسبب اتباع الذين كفروا الباطل. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول. ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: حال من ﴿الْحَقَّ﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ وجملة ﴿أنّ﴾: معطوفة على جملة ﴿أنّ﴾ الأولى ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: ضرباً مثل ذلك الضرب. ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به. ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة: مستأنفة.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر، من إضلال أعمال الكفرة وخيبتهم، وصلاح أحوال المؤمنين، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿إذا لقيتم﴾ إلخ. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿لَقِيتُمُ﴾: فعل وفاعل. ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول، وجملة ﴿لَقِيتُمُ﴾: في محل الخفض

بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي؛ أي: فاضربوا الرقاب وقت ملاقاتكم العدو: ﴿فَضَرْبَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿ضرب﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف ناب عنه المصدر، ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: مضاف إليه للمصدر، والتقدير: فاضربوا رقابهم، والجملة المحذوفة: جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء؛ أي: حرف تبدأ بعده الجمل، فتكون بمعنى الفاء السببية؛ أي: فإذا ترتب على قتالهم كثرة القتل.. فأسروهم. اهـ شيخنا. وجعلها أبو حيان حرف جر وغاية، قال: وهذه غاية للضرب. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لإذا على كونها فعل شرط لها. ﴿فَشُدُّواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطية. ﴿شدُّوا الوثاق﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة مسبَّبة عما قبلها. ﴿فَإِمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية. ﴿إما﴾: حرف تفصيل. ﴿مَنًّۢا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً؛ لأنه سبق تفصيلاً لعاقبة جملة سيقت قبله، تقديره: فإما منوا منًّا، والجملة: معطوفة على جملة ﴿شدّوا﴾. ﴿بَعْدُ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبنيّ على الضمّ؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لافتقاره إلى المضاف إليه المحذوف؛ أي: بعد أسرهم وشدّ وثاقهم، والظرف: متعلق بالفعل المحذوف. ﴿وَإِمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إما﴾ الثانية على ﴿إما﴾ الأولى، و﴿إما﴾: عاطفة ما بعدها على ما بعد ﴿إما﴾ الأولى، أو أحدهما زائد فتكون ﴿الواو﴾: عاطفة. و﴿إما﴾: حرف تفصيل فقط. ﴿فِدَآءً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: وإما افدوهم فداءً، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَنًّا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَضَعَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة. ﴿ٱلْحَرْبُ﴾: فاعل. ﴿أَوْزَارَهَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، تقديره: إلى وضع الحرب أوزارها، والجار والمجرور: متعلق إما بالضرب أو بالشدِّ، أو بالمن والفداء؛

لأنها غاية لذلك كله على ما بسط في كتب الفقه.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر فيهم ما ذكر من القتل والأسر، وما بعدهما من المنّ والفداء، أو مفعول لفعل محذوف؛ أي: افعلوا بهم ذلك، والجملة: مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿يَشَاءُ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لو﴾ ﴿لَانتَصَرَ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿انتصر﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾: مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل. ﴿لِّيَبْلُوَا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يبلو﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿بَعْضَكُم﴾: مفعول به. ﴿بِبَعْضٍ﴾: متعلق بـ ﴿يبلو﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بفعل محذوف، تقديره: ولكن أمركم بالقتال لبلاء بعضكم ببعض، والجملة الاستدراكية: معطوفة على جملة ﴿لو﴾. ﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿قُتِلُوا﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿قُتِلُوا﴾. ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لما في الموصول من معنى الشرط. ﴿لن﴾: حرف نصب واستقبال ونفي. ﴿يُضِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لن﴾ وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال. ﴿يهديهم﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة: مفسرة لما قبلها. ﴿وَيُصْلِحُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿يهْديهم﴾. ﴿بَالَهُمْ﴾: مفعول به. ﴿وَيُدْخِلُهُمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستر، ومفعول به معطوف على ﴿يهديهم﴾، ﴿الْجَنَّةَ﴾: مفعول به ثان على السعة. ﴿عَرَّفَهَا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على

الله ومفعول به. ﴿لهم﴾: متعلق به، والجملة: مستأنفة أو حال من فاعل ﴿يدخلهم﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، تعويضاً عمّا فات؛ أيّ من الإضافة، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿أي﴾ أوبدل منه. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلة الموصول. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿يَنصُرْكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: جواب النداء. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يَنصُرْكُمْ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿فَتَعْسًا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه الموصول بالشرط. ﴿تَعْسًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: فتعسوا تعساً. ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿تعسا﴾ أو صفة له، و﴿اللام﴾: للتبيين، والجملة المحذوفة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية، مستأنفة. ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع معطوفة على الجملة المحذوفة على كونها خبر المبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَرِهُواْ﴾: خبره ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب كراهتهم ما أنزل الله. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: ما أنزله الله. ﴿فَأَحْبَطَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أحبط أعمالهم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَرِهُواْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه المقام. و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أقعدوا في منازلهم فلم يسيروا في الأرض، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لَمْ يَسِيْرُوا﴾: جازم وفعل مضارع وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾ معطوف على تلك المحذوفة. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسِيرُوا﴾. ﴿فَيَنظُرُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية. ﴿يَنْظُرُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿الفاء﴾ السببية الواقعة في جواب النفي أو الاستفهام، وعلامة نصبه: حذف النون، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيّد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: ألم يكن سيرهم في الأرض فنظرهم كيف كان عاقبة الذين. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم مبنيّ على الفتح. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَاقِبَةُ﴾: اسمها. وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل النصب مفعول لـ ﴿يَنظُروا﴾ علق عنها باسم الاستفهام. ﴿الَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿دَمَّرَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿دَمَّرَ﴾ لتضمينه معنى أطبق، والجملة: مفسرة لـ ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿للكافرين﴾: خبر مقدم. ﴿أَمْثَالُهَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِأَنَّ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿أنّ﴾: حرف نصب ﴿اللَّهَ﴾: اسمها، ﴿مَوْلَى﴾: خبرها. ﴿الَّذِينَ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: ذلك كائن بسبب كون الله مولى الذين آمنوا. ﴿وَأَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن الكافرين﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿مَوْلَى﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لهُم﴾: خبرها، وجملة ﴿لَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة. ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب، صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول. ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو: فاعل، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الابتدائية: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾. ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾: فعل وفاعل والجملة: صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية، تقديره: كأكل الأنعام، والجار والمجرور: صفة لمصدر محذوف، تقديره: أكلاً كائناً كأكل الأنعام. ﴿وَٱلنَّارُ﴾: مبتدأ. ﴿مَثْوًى﴾ خبره، ﴿لَّهُمْ﴾: صفة لـ ﴿مَثْوًى﴾، والجملة الاسمية: مستأنفة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كأين﴾: اسم مركب من الكاف وأي، بمعنى كم الخبرية، في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿قَرْيَةٍ﴾: تمييز لـ ﴿كأيّن﴾. ﴿هِيَ﴾: مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، والجملة: صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿قَرْيَةٍ﴾: تمييز لـ ﴿كأيّن﴾. ﴿هِيَ﴾: مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، والجملة: صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿قُوَّةً﴾ تمييز محوّل عن المبتدأ، منصوب بـ ﴿أَشَدُّ﴾، ﴿مِّن قَرْيَتِكَ﴾: متعلق بـ ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿ٱلَّتِيٓ﴾: صفة لـ ﴿قَرْيَتِكَ﴾، ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة ﴿ٱلَّتِيٓ﴾. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر لـ ﴿كأيّن﴾، وجملة ﴿كأيّن﴾: مستأنفة مسوقة لتسليته ﷺ. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية،

﴿نَاصِرَ﴾: اسمها. ﴿لَهُمْ﴾: خبرها، والجملة: في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

﴿أَفَمَن﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أليس الأمر كما ذكر، فمن كان على بينة من ربه، إلخ. والجملة المحذوفة، مستأنفة، مسوقة لبيان حال الفريقين. ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها: ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ خبرها، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة الموصول. ﴿كَمَن﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ؛ أعني ﴿من﴾ الموصولة، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة المقدرة. ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به. ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: نائب فاعل، والجملة: صلة ﴿من﴾ الموصولة، وأفرد الضمير نظراً للفظ ﴿من﴾. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زُيِّنَ﴾. ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: مفعول به، وجمع الضمير نظراً لمعنى ﴿من﴾. ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾، ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: وعدها المتقون، وخبر المبتدأ: محذوف، قدّره سيبويه فيما يتلى عليكم: مثل الجنة، والجملة بعدها: مفسرة للمثل، وقدَّره النضر بن شميل: مثل الجنة ما تسمعون، والجملة بعدها أيضاً: مفسرة للمثل. ﴿فِيهَآ﴾: خبر مقدم. ﴿أَنْهَٰرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: إما مفسرة للمثل لا محل لها من الإعراب، أو خبر لمبتدأ مضمر؛ أي: هي فيها أنهار، أو داخلة في حيز الصلة وتكرير لها، أو حال من ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾. ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ صفة ﴿مَّآءٍ﴾. ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ الأولى. ﴿مِّن لَّبَنٍ﴾: صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ وجملة ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾: صفة ﴿لَّبَنٍ﴾، ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ الأولى، ﴿مِّنْ خَمْرٍ﴾:

صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾. ﴿لَّذَّةٍ﴾؛ أي: لذيذة: صفة ﴿خَمْرٍ﴾. ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: متعلق بـ ﴿لَّذَّةٍ﴾، ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ الأولىٰ. ﴿مِّنْ عَسَلٍ﴾: صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾. ﴿مُّصَفًّى﴾: صفة ﴿عَسَلٍ﴾.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لهم﴾: خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بالاستقرار المحذوف الذي تعلق به الخبر، والمبتدأ: محذوف، تقديره: أصناف. و﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: نعت للمبتدأ المحذوف. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: معطوف على أصناف، أو مبتدأ خبره مقدم محذوف؛ أي: ولهم مغفرة. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: نعت لـ ﴿مغفرة﴾. ﴿كَمَنْ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد، وجملة ﴿هُوَ خَٰلِدٌ﴾ صلة ﴿من﴾: الموصولة. ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدٌ﴾. ﴿وَسُقُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿سقوا﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة ونائب فاعل. ﴿مَآءً﴾: مفعول ثان. ﴿حَمِيمًا﴾: صفة ﴿مَآءً﴾ والجملة: معطوفة على جملة الصلة. ﴿فَقَطَّعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قطّع﴾ فعل ماض، وفاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿مَآءً﴾، ﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجمع باعتبار معنى ﴿من﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿سقوا﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿منهم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان جانب آخر من استهزاءهم وتعنّتهم. ﴿يَسْتَمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَّن﴾. وأفرد الضمير نظراً للفظ ﴿مَّن﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَمِعُ﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿خَرَجُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْ عِندِكَ﴾: متعلق بـ ﴿خَرَجُوا۟﴾ والجملة: في محل

الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي، وجمع الضمير هنا وفيما بعد نظراً لمعنى ﴿مِنْ﴾. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ ﴿قَالُوا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها، وجوابها: في محل الجر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور: متعلق بـ ﴿يَسْتَمِعُ﴾، والتقدير: ومنهم من يستمع إليك إلى وقت خروجهم من عندك. ﴿أُوتُوا﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل. ﴿الْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ ﴿أُوتُوا﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿مَاذَا﴾ ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، في محل الرفع خبر. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله: ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿ءَانِفًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ﴿قَالَ﴾. وجملة ﴿قَالَ﴾: صلة لـ﴿مِنْ﴾ الموصولة، والجملة الاسمية، في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿الَّذِينَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿طَبَعَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿طَبَعَ﴾، ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: مفعول به. ﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿اهْتَدَوْا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿زَادَهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾ ومفعول أول. ﴿هُدًى﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿وَءَاتَاهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾ ومفعول أول. ﴿تَقْوَاهُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة: معطوفة على جملة ﴿زَادَهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ⑱﴾.

﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿هل﴾: حرف استفهام. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿السَّاعَةَ﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تَأْتِيَهُم﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على ﴿السَّاعَةَ﴾ ﴿بَغْتَةً﴾: حال من فاعل ﴿تَأْتِيَهُم﴾؛ أي: باغتة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة:

في تأويل مصدر منصوب على كونه بدل اشتمال من ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ تقديره: فهل ينظرون إلا الساعة إتيانها باغتةً. ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، لإتيان الساعة مفاجأة. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مسوقة لتعليل إتيان الساعة بغتة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَنَّىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنّى﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على السكون، وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿لَهُم﴾: متعلق بما تعلق به ﴿أنّى﴾. ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: فالتذكر والاتعاظ كائن من أين لهم، والجملة: معطوفة على جملة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾. والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِذَا﴾: محذوف، تقديره: إذا جاءتهم الساعة بغتة.. فكيف يتذكّرون. وجملة ﴿إِذَا﴾ معترضة: لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين المبتدأ والخبر.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَٱعْلَمْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا علمت سعادة المؤمنين، وشقاوة الكافرين، وأردت بيان ما هو اللازم لك. فأقول لك: ﴿اعلم﴾. ﴿اعلم﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿أَنَّهُۥ﴾ ﴿أنّ﴾: حرف نصب ومصدر، و﴿الهاء﴾: ضمير الشأن في محل النصب اسمها، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ مع مدخولها: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي علم؛ أي: فاعلم عدم وجود إله إلا الله. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿اعلم﴾ ﴿لِذَنۢبِكَ﴾: متعلق بـ ﴿استغفر﴾، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿لِذَنۢبِكَ﴾، ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: معطوف على ﴿للمؤمنين﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: مفعول

به. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: معطوف عليه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: صرفوا الناس عن الدخول في الإسلام، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه، فهو من صدّ صدوداً: إذا أعرض بنفسه، فيكون كالتأكيد والتفسير لما قبله، أو من صدَّه صدّاً: إذا منعه عن الشيء، فهو تأسيس لا تأكيد، وأصله: صددوا، أدغمت الدال في الدال.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أبطلها وأحبطها، وأصله: أضلل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد، فسكنت فأدغمت في الثانية.

﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو: اسم عربي، وهو مفعل من الحمد، والتكرير فيه: للتكثير، كما تقول: كرّمته فهو مكرّم، وعظّمته فهو معظّم، إذا فعلت ذلك مرةً بعد مرةً، وهو منقول من الصفة على سبيل التفاؤل أنه سيكثر حمده، وكان ﷺ كذلك. وقد روى بعض نقلة العلم فيما حكاه ابن دريد: أن النبي ﷺ لمّا ولد.. أمر عبد المطلب بجزور فنحرت، ودعا رجال قريش وكانت سنّتهم في المولود إذا ولد في استقبال الليل.. كفئوا عليه قدراً حتى يصبح، ففعلوا ذلك بالنبيّ ﷺ، فأصبحوا وقد انشقت عنه القدر، وهو شاخص إلى السماء، فلما حضرت رجال قريش وطعموا.. قالوا لعبد المطلب: ما سميت ابنك هذا؟ قال: سميته محمداً، قالوا: ما هذا من أسماء آبائك، قال: أردت أن يحمد في السموات والأرض، يقال: رجل محمود ومحمد، فمحمود لا يدل على الكثرة، ومحمد يدل على ذلك، والذي يدل على الفرق بينهما قول الشاعر:

فَلَسْتَ بِمَحْمُودٍ وَلاَ بِمُحَمَّدٍ ... وَلَكِنَّمَا أَنْتَ ٱلْحَبَطُ ٱلْحَبَاتِرُ

وقد سمت العرب في الجاهلية رجالاً من أبنائها بذلك، منهم: محمد بن حمران الجعفي الشاعر، وكان في عصر امرىء القيس، وسمّاه: شُوَيْعرا، ومحمد بن خولي الهمدانيّ، ومحمد بن بلال بن أحيحة، وكان زوج سلمى بنت

عمرو جدة رسول الله ﷺ أم جدّه، ومحمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، وأبو محمد بن أوس بن زيد، شهد بدراً.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾؛ أي: حالهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق، قال الراغب في «المفردات»: البال: الحال التي يكترث لها، ولذلك يقال: ما باليت بكذا؛ أي: ما اكترثت، ويعبر عن البال بالحال الذي ينطوي عليه الإنسان، ويقال: ما خطر كذا ببالي. انتهى. والبال: القلب، يقال: ما خطر الأمر ببالي، والحال، والعيش. يقال: فلان رخي البال والخاطر، يقال: فلان كاسف البال، وما يهتم به يقال: ليس هذا من بالي؛ أي: مما أباليه، وأمر ذو بال؛ أي: يهتم به، وما بالك، أي: ما شأنك. قال الجوهري: والبال أيضاً: رفاء العيش، يقال: فلان رخي البال؛ أي: رخي العيش، وعبارة أبي حيان: البال: الفكر، تقول: خطر في بالي كذا. ولا يثنىٰ ولا يجمع، وشذ قولهم: بالات في جمعه، وعبارة «القاموس»: والبال: الحال والخاطر والقلب والحوت العظيم، والبالة بهاء: القارورة، والجراب، ووعاء الطيب.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال الراغب: اللقاء: يقال: في الإدراك بالحس؛ أي: بالبصر والبصيرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أكثرتم فيهم القتل، قال في «الكشاف»: الإثخان: كثرة القتل، والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنته الجراحات: إذا أثبتته، حتى تثقل عليه الحركة، وأثخنه المرض إذا أثقله، من الثخانة التي هي: الغلظ والكثافة، وفي «المفردات»: يقال: ثخن الشيء فهو ثخين: إذا غلظ ولم يستمر في ذهابه، ومنه استعير قولهم: أثخنته ضرباً واستخفافاً.

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ الوثاق بالفتح والكسر: اسم لما يوثق به، ويشد من القيد والحبل ونحوه، والجمع: وثق كرباط وربط، وعناق وعنق، اهـ من «المصباح». قال في «الوسيط»: الوثاق: اسم من الإيثاق، يقال: أوثقه إيثاقاً ووثاقاً: إذا شدّ أسيره كيلا يفلت، وفي «القاموس»: الأسير: الأخيذ والمقيَّد والمسجون، والجمع: أسرى وأسارى بالضم، وأسارى بالفتح. اهـ. وفي «المختار»: وأسرت

قتب البعير: شددته بالإسار بوزن الإزار، ومنه سمي الأسير، كانوا يشدونه بالقد، فسمي كل أخيذ أسيراً، وإن لم يشد به، وأسره من باب ضرب أسراً وإساراً أيضاً بالكسر، فهو أسير ومأسور. اهـ. وفيه أيضاً: والقد بالكسر: سير يقد من جلدٍ غير مدبوغ. اهـ.

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ المنّ هنا: أن يترك الأمير الأسير الكافر من غير أن يأخذ منه شيئاً. ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وهو: أن يترك الأمير الأسير الكافر، ويأخذ منه مالاً أو أسيراً مسلماً في مقابلته، يقال: فداه يفديه فدى وفداءً، وفداه وافتداه وفاداه: أعطي شيئاً فانقذه، والفداء ذلك المعطي ويقصر، كما في «القاموس»، وقال الراغب: الفدى والفداء: حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه، كما يقال: فديته بمالي، وفديته بنفسي، وفاديته بكذا. انتهى.

وفي إعلال بالإبدال، أصله: فداي، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ﴿تضع﴾: فعل مثالي حذفت فاؤه في المضارع، و﴿أَوْزَارَهَا﴾: آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها، كالسلاح والكراع، قال الأعشى:

وَأَعْـدَدْتُ لِـلْـحَـرْبِ أَوْزَارَهَـا ... رِمَـاحـاً طِـوَالاً وَخَـيْـلاً ذُكُـورَا
وَمِـنْ نَـسْـجِ دَاوُدَ مَـوْضُـونَـةٌ ... تُـسَـاقُ مَـعَ ٱلْـحَـيِّ عِـيْـراً فَـعِـيْـرَاً

وعبارة «الكشاف»: وسميت أوزارها؛ لأنها لمَّا لم يكن لها بد من جرها فكأنها تحملها، وتستقل بها، فإذا انقضت. فكأنها وضعتها، وقيل: أوزارها، آثامها؛ يعني: حتى يترك أهل الحرب ـ وهم: المشركون ـ شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا.

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أصله: يضلل، بوزن يفعل نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد فسكنت، فأدغمت في اللام الثانية.

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وفي «المفردات»: عرَّفه جعل له عرفاً؛ أي: رائحة طيّبةً، مأخوذ من العرف: وهو الرائحة الطيبة، وطعام معرّف؛ أي: مطيَّب، تقول

العرب: عرّفت القدر: إذا طيبتها بالملح، والأبازير، وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض، وهو من العرف المتتابع، كعرف الفرس؛ أي: وفّقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة، وقيل: عرَّف أهل السماء أنها لهم، وقيل: فيه حذف؛ أي: عرّف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم، فحذف المضاف، أو حدَّدها لهم بحيث يكون لكل واحد جنة مفرزة.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾؛ أي: يوفقكم للدوام على طاعته. ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ وفي «المختار»: التعس: الهلاك، وأصله: الكب، وهو ضد الانتعاش، وقد تعس من باب قطع، وأتعسه الله، ويقال: تعساً لفلان؛ أي: ألزمه الله هلاكاً. اهـ.

وفي «المصباح»: وتعس تعساً من باب تعب لغة، فهو تعس، مثل: تعب، ويتعدَّوا بالحركة وبالهمزة، فيقال: تعسه الله بالفتح، وأتعسه، وفي الدعاء: «تعساً له، وتعس وانتكس». فالتعس: أن يخرَّ لوجهه، والنكس: أن لا يستقل بعد سقطته حتى يسقط ثانيةً، وهي أشد من الأولى.

وفي «القرطبي»: وفي التعس عشرة أقوال:

الأول: بعداً لهم. قاله ابن عباس وابن جريج.

الثاني: خزياً لهم. قاله السدّي.

الثالث: شقاءً لهم. قاله ابن زيد.

الرابع: شتماً لهم من الله. قاله الحسن.

الخامس: هلاكاً لهم. قاله ثعلب.

السادس: خيبةً لهم. قاله الضحاك وابن زياد.

السابع: قبحاً لهم. حكاه النقاش.

الثامن: رغماً لهم. قاله الضحاك أيضاً.

التاسع: شرًّا لهم. قاله ثعلب أيضاً.

العاشر: شقوة لهم. قاله أبو العالية، وقيل: إنّ التعس: الإنحطاط والعشار. قاله ابن السكيت. انتهى.

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ وفي «الشهاب»: ومعنى ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ﴾ أهلكه، ودمّر عليه: لك ما يختص به من المال والنفس، والثاني: أبلغ؛ لما فيه من العموم، بجعل مفعوله نسياً منسياً، فيتناول نفسه، وكل ما يختص به من المال، ونحوه. والإتيان بعلىٰ؛ لتضمينه معنى أطبق عليهم؛ أي: أوقعه عليهم محيطاً بهم.

﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾: جمع نعم بفتحتين، وهي: الإبل والبقر والضأن والمعز.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: أهوايهم، أبدلت الياء همزة لتطرفها بعد ألفٍ زائدةٍ.

﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ﴾ جمع نهر بالسكون، ويحرك مجرىٰ الماء الفائض.

﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ من أسن الماء بالفتح، من باب ضرب أو نصر، أو بالكسر من باب طرب لغة فيه: إذا تغير طعمه وريحه ولونه تغيُّراً منكراً. وفي «القاموس»: الآسن من الماء: الآجن؛ أي: المتغير الطعم واللون.

والمعنى: من ماء غير متغير الطعم والرائحة واللون، وإن طالت إقامته، بخلاف ماء الدنيا، فإنه يتغير بطول المكث في مناقعه وفي أوانيه.

﴿لَّذَّةٖ﴾ واللذَّة: مصدر بمعنى الالتذاذ، ووقعت صفة للخمر، وهو عين لتأويلها بالمشتق؛ أي: لذيذة على حدِّ مررت برجلٍ عدل؛ أي: عادل، وفي «الكرخي»: قوله: ﴿لَّذَّةٖ﴾ يجوز أن يكون تأنيث لذٍّ، ولذٌّ بمعنى لذيذ، ولا تأويل على هذا، ويجوز أن يكون مصدراً وصف به، ففيه التأويلات المشهورة. اهـ.

﴿مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾؛ أي: لم يخرج من بطون النحل؛ أي: لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل، ولم يمت فيه بعض نحله، كعسل الدنيا. وفي «المصباح»: العسل: يذكر ويؤنث، وهو الأكثر، ويصغر على عسيلة على لغة التأنيث، ذهاباً إلى أنها قطعة من الجنس، وطائفة منه. اهـ. وفي «المختار»: العسل: يذكر

ويؤنث، يقال: منه عسل الطعام؛ أي: عمله بالعسل، وبابه ضرب ونصر، وزنجبيل معسل؛ أي: معمول بالعسل، والعاسل: الذي يأخذ العسل من بيت النحل، والنحل: عسالة، وأصل ﴿مُّصَفًّى﴾: مصفي، بوزن مفعل اسم مفعول، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل الياء واو؛ لأنه من صفا يصفو.

﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع ثمرة؛ وهي اسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر، ويقال لكل نفع يصدر عن شيء: ثمرة، كقولهم: ثمرة العلم العمل الصالح، وثمرة العمل الصالح الجنة.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ أصله: سقيوا بوزن فعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء، وضمت القاف لمناسبة الواو.

﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: أمعاي بالياء، أبدلت الياء همزة لما تطرفت إثر ألف أفعال الزائدة، وهو: جمع معي بالفتح والكسر، وبالقصر وهو: ما في البطون من الحوايا، وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد المعدة.

﴿ءَانِفًا﴾؛ أي: قبيل هذا الوقت، مأخوذ من أنف الشيء لما تقدَّم منه، وأصل ذلك: الأنف بمعنى الجارحة، ثم سمي به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه، وقرىء: بالمدّ وبالقصر، وهما: لغتان بمعنى واحد، وهما: اسما فاعل كحاذر وحذر، وآسن وأسن، إلا أنه لم يستعمل لهما فعل مجرد، بل المستعمل ائتنف يأتنف، واستأنف يستأنف، والائتناف والاستئناف: الابتداء، قال الراغب: استأنفت الشيء: أخذت أنفه؛ أي: مبدأه. ومنه. ماذا قال آنفاً.

﴿مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يقال: استمع له وإليه: إذا أصغىٰ. ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أصله: أأتيوا بوزن أفعلوا، أبدلت الهمزة الساكنة واواً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقىٰ ساكنان فحذفت الباء وضمت الياء لمناسبة الواو.

﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال الراغب: الطبع: أن يصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة، وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم، وأخص من النقش، والطابع

والخاتم: ما يطبع به ويختم، والطابع فاعل ذلك.

﴿أَشْرَاطُهَا﴾ الأشراط: جمع شرط: وهو العلامة، وفي «المصباح»: وجمع الشرط، شروط، مثل: فلس وفلوس، والشرط بفتحتين: العلامة، والجمع: أشراط، مثل: سبب وأسباب، ومنه أشراط الساعة؛ أي: علاماتها. اهـ.

﴿اهْتَدَوْا﴾ أصله: اهتديوا بوزن افتعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقىٰ ساكنان فحذفت الألف. ﴿زَادَهُمْ﴾ أصله: زيدهم، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَءَاتَاهُمْ﴾ أصله: أأتيهم بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مد من جنس حركة الأولى، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿تَقْوَاهُمْ﴾ أصله: تقويهم؛ قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. وأصل التقوى: وقيا، قلبت الواو تاءً، وقلبت الياء واواً.

﴿مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ يجوز فيهما أن يكونا مصدرين ميميين من تقلب وثوى، وأن يكونا اسمي مكان أو زمان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المقابلة بين قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ فإنه ذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله؛ تنويهاً بشأن المنزل عليه، كما في عطف جبرائيل على الملائكة، وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل في الكل.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فإنه حصر الحقية فيه بتعريف طرفي الجملة.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فقد شبه أعمالهم بالضالة من الإبل، التي هي بمضيعةٍ لا ربَّ لها يحفظها ويعتني بها، أو بالماء الذي يضل في اللبن.

والمعنى: أنَّ الكفار ضلَّت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي، حتى صار صالحهم مستهلكاً في غمار سيئهم.

ومنها: الطباق بين الحق والباطل في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾، وكذلك بين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وبين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ شبه ترك القتال بوضع آلته، واشتق من الوضع تضع بمعنى تنتهي وتترك، بطريق الاستعارة التبعية.

وفيه أيضاً: الإسناد المجازي؛ أي: حتى يضع أهلها آلاتها، فقد أسند وضع الأوزار إلى الحرب، وإنما هو لأهلها.

وفيه أيضاً: الاستعارة المكنية، حيث شبه الحرب بمطايا ذات أوزار؛ أي: أحمال ثقال.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ففيه مجاز مرسل، علاقته ذكر الجزء وإرادة الكل؛ لأن ضرب الرقاب عبارة عن القتل، ولكن لمَّا كان قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته وقع عبارة عن القتل، وقد أوثر المجاز لما فيه من تصوير وتجسيد؛ لأنّ في هذه العبارة كما قال الزمخشري، من الغلظة والشدَّة ما ليس في لفظ القتل، لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة، وهو: حز العنق، وإطارة العضو الذي هو أعلى البدن، وأشرف أعضائه.

ومنها: الطباق بين: ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَآءً﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾؛ لأنه أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: يثبّتكم، وعبّر بالأقدام؛ لأنّ الثبات والتزلزل يظهران فيها. وهو

مثل: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾؛ أي: دينه ورسوله.

ومنها: تكرار قوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ إشعاراً بأن الإحباط يلزم الكفر بالقرآن، ولا ينفك عنه بحال، كما في «الروح».

ومنها: التضمين في قوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فإنه ضمن ﴿دَمَّرَ﴾ معنى أطبق، فعدَّاه بـ ﴿على﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ تسجيلاً عليهم باسم الكفر؛ لأنَّ مقتضى السياق أن يقال: ولهم أمثالها.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ فإنه ذكر الأعمال الصالحة، ودخول الجنة أوّلاً، دليلاً على حذف الأعمال الفاسدة، ودخول النار ثانياً، وذكر التمتع والمثوى ثانياً، دليلاً على حذف التمتع والمأوىٰ أولاً.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ وجه الشبه: أنّ الأنعام تأكل بلا تمييز من أيّ موضع، كذلك الكافر لا تمييز له أمن الحلال وجد أم من الحرام، وكذلك الأنعام ليس لها وقت، بل في كل وقت تقتات وتأكل، كذلك الكافر أكول، كما قال ﷺ: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في معي واحد».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾؛ أي: وكأيّن من أهل قرية من قريتك؛ أي: من أهل قريتك، فإنه أطلق المحل وأراد الحال. ونسبة الإخراج إليها باعتبار التسبب.

ومنها: وصف القرية الأولى بشدة القوة، للإيذان بأولوية الثانية منها

بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصف الثانية بإخراجه ﷺ، للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها.

ومنها: التعبير بالمتقين عن المؤمنين في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: المؤمنون إيذاناً بأنّ الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى، الذي هو عبارة عن فعل المأمورات، وترك المنهيات.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ أطنب بتكرار لفظ ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ تشويقاً لنعيم الجنة.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾؛ دلالةً على عظمها.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ لأنّ فيه تأكيداً لما أفاده التنكير في ﴿مغفرة﴾ مكن الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية.

ومنها: إعادة صلة الاستغفار، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، في قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ولذنب المؤمنين إشعاراً بعراقتهم في الذنب، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] حال المنافقين والكافرين

---

(١) المراغي.

والمؤمنين حين استماع آيات التوحيد والحشر والبعث، وغيرها من الأمور التي أوجب الدين علينا اعتقادها بقوله فيما سلف: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾.. أردف هذا فذكر حالهم في الآيات العملية كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها، فأبان أنَّ المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها، ويرجون نزولها، وإذا تأخرت.. كانوا يقولون: هلا أمرنا بشيء من ذلك؛ لينالوا ما يقربهم من ربهم، ويحصلوا على رضوانه، والزلفى إليه، وأنّ المنافقين كانوا إذا نزل شيء من تلك التكاليف.. شق عليهم، ونظروا نظرة المصروع الذي يشخص بصره خوفاً وهلعاً.

ثم ذكر نتيجة لما سلف، وفذلكة لما تقدم، فأعقب هذا بأنّ الله طرد المنافقين وأبعدهم من الخير، ومن قبل هذا أصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين، وأعمى أبصارهم، فلا يسيرون على الصراط المستقيم، أما المؤمنون فقد رضي عنهم، وأرضاهم، ونالوا محبته، ودخلوا جنته فضلاً منه ورحمةً، والله ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر أن أولئك المنافقين أبعدهم الله عن الخير فأصمهم فلم ينتفعوا بما سمعوا، وأعمى أبصارهم فلم يستفيدوا بما أبصروا.. بيَّن أن حالهم دائرة بين أمرين: إما أنهم لا يتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم، أو أنهم يتدبرون ولكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة، ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة، والمعجزات الباهرة، وقد زيّن لهم الشيطان ذلك، وخدعهم بباطل الأمانيّ، ثمّ بيّن سبب ارتدادهم وهو قولهم لبني قريظة والنضير من اليهود: سنطيعكم في بعض أحوالكم، وهو ما حكي عنهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية. والله يعلم ما يصدر عنهم من كل قبيح.

ثم أردف هذا بذكر ما يصادفونه من الأهوال إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم بسبب اتباعهم أهوائهم، وعمل ما يغضب ربهم، ومن ثم أحبط

أعمالهم، وهل يعتقد هؤلاء المنافقون أنَّ الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بلىٰ إنه سيوضح ذلك لذوي البصائر، ولو نشاء لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم نفعل ذلك ستراً منّا على عبادنا، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى عالمها، وإنك لتعرفنهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم بمغامز يضعونها أثناء حديثهم، وقد كان يفهمها رسول الله، ويفهم مراميها، فلا تخفىٰ عليه.

ثم ذكر أنه يبتلي عباده بالجهاد وغيره، ليعلم الصادق في إيمانه، الصابر على مشاقّ التكاليف من غيره، ويختبر أعمالهم حسناتهم وسيئاتهم، فيجازيهم بما قدّموا. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر أنّ المنافقين ستفضح أسرارهم، وأنهم سيلقون شديد الأهوال حين وفاتهم.. أردف ذلك بذكر حال جماعة من أهل الكتاب: وهم بنو قريظة والنضير، كفروا بالله، وصدّوا الناس عن سبيل الله، وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نعته في التوراة، وما ظهر على يديه من المعجزات، فهؤلاء لن يضرُّوا الله شيئاً بكفرهم، بل يضرون أنفسهم، وسيحبط الله مكايدهم التي نصبوها لإبطال دينه.

ثم ذكر قصص بني سعد، وقد أسلموا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: قد آثرناك، وجئناك بنفوسنا وأهلينا، منّاً بذلك عليه، فنهاهم عن ذلك، وبيَّن لهم أنَّ هذا مما يبطل أعمالهم.

ثم أعقب هذا ببيان أن من كفروا وصدوا عن السبيل القويم، ثم ماتوا وهم علىٰ هذه الحال فلن يغفر الله لهم، ثم أرشد إلى أن عمل الكافرين الذي له صورة الحسنات محبط، وأن ذنبهم غير مغفور، وبعدئذٍ أردف هذا بأنّ الله خاذلهم في الدنيا والآخرة، فلا تبالوا بهم، ولا تظهروا ضعفاً أمامهم، فإنَّ الله ناصركم ولن يضيع أعمالكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا أمر المؤمنين بترك المعاصي، لأنها محبطة لثواب الأعمال الصالحة، وأمرهم بالتشمير عن ساعد الجد للجهاد، ومقاتلة الأعداء نصرة لدينه، ووعدهم بأن الله ناصرهم وهم الأعلون، فلا ينبغي لهم أن يطلبوا المهادنة من العدوّ خوراً وجبناً خوفاً على الحياة ولذاتها.. أكد هذا المعنى، فأبان أنه لا ينبغي لكم أيها المؤمنون الحرص على الدنيا، فإنها ظل زائل، وعرض غير باق، وما هي إلا لذات مؤقتة لا تلبث أن تزول، وهي مشغلة عن صالح الأعمال، فلا يليق بكم أن تعضوا عليها بالنواجذ، بل اعملوا لما يرضي ربكم يؤتكم أجوركم، وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النزر الذي فيه صلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامة دنيوية كانت أو دينية، وهو عليم بأنكم أشحة على أموالكم، فلو طلبها.. لبخلتم بها، وظهرت أحقادكم على طالبيها، والله قد طلب إليكم الإنفاق في سبيله، والقيام بما تحتاج إليه الدعوة، فإن بخلتم فضرر ذلك عائد إليكم، والله غني عن معونتكم، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى.. يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه، وينصرون الدعوة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة» عن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اشتياقاً منهم إلى الوحي، وحرصاً على الجهاد، لأنّ

---

(١) لباب النقول.

فيه إحدى الحسنين: إما الجنة والشهادة، وإما الظفر والغنيمة ﴿لَوْلَا﴾: تحضيضيّة؛ أي: هلا ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ نؤمر فيها بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾؛ أي: غير منسوخة أو مبينة لا تشابه فيها بوجه آخر سوى وجوب القتال، وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة؛ لأنّ النسخ لا يرد عليها من قبل أنَّ القتال نسخ ما كان من الصفح، والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة وذكر فيها القتال بطريق الأمر به؛ أي: وفرض فيها الجهاد.

قرأ الجمهور[1]: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ﴾ و﴿ذكر﴾ على بناء الفعلين للمفعول، وقرأ زيد بن علي وابن عمير: ﴿نزلت﴾ و﴿ذكر﴾ على بناء الفعلين للفاعل، ونصب ﴿القتال﴾؛ أي: ذكر الله القتال، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿فإذا أنزلت سورة محدثة﴾؛ أي: محدثة النزول. ﴿رَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في الإيمان أو نفاق، وهو الأظهر، فيكون المراد: الإيمان الظاهري الزعمي، والكلام من إقامة المظهر مقام المضمر؛ أي: رأيت المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ جبناً وهلعاً ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ﴾؛ أي:[2] نظراً كنظر من أصابته الغشية والسكرة ﴿مِنَ﴾ أجل حلول ﴿ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال، وميلهم إلى الكفار، قال ابن قتيبة والزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظراً شديداً، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت.

أي: تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً، كدأب من أصابته غشية الموت؛ أي: حيرته وسكرته إذا نزل به، وعاين الملائكة، والغشي: تعطل القوى المتحركة والحساسة لضعف القلب، واجتماع الروح إليه بسبب يُحقِّقه في داخل، فلا يجد منقذاً. ومن أسباب ذلك: امتلاء خانق، أو مؤذ بارد، أو جوع شديد، أو وجع شديد، أو آفة في عضو مشارك كالقلب والمعدة، كذا في «المغرب». وفي الآية إشارة إلى أنّ من أمارات الإيمان: تمنى الجهاد والموت شوقاً إلى لقاء الله، ومن

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

أمارات الكفر والنفاق: كراهة الجهاد كراهية الموت.

ومعنى الآية(1): أي إنّ المؤمنين المخلصين في إيمانهم يشتاقون للوحي ونزول آيات الجهاد حرصاً على ثوابه، ويقولون: هلاّ أنزلت سورة تأمرنا به، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة في الأمر به.. فرحوا بها، وشقّ ذلك على المنافقين، وشخصت أبصارهم هلعاً وجبناً من لقاء العدوّ، ونظروا مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصره حين الموت.

ونحو الآية قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

ثم هددهم وتوعّدهم، فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين، إذ حياتهم ليست في طاعة الله، فالموت خير منها، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد، والدعاء عليهم بالهلاك، فكأنه قيل: أهلكهم الله هلاكاً أقرب لهم من كل شرّ وهلاك، فهو نحو قولهم في الدعاء: بعداً له وسحقاً، قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد أولى لك؛ أي: وليك الهلاك وقاربك ما تكره، وأنشد قول الشاعر:

فَعَادَىٰ بَيْنَ هَادِيَتَيْنِ مِنْهَا ... وَأَوْلَىٰ أَنْ يَزِيدَ عَلَىٰ ٱلثَّلَاثِ

أي: قارب أن يزيد. وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: كلام مستقل(2) مستأنف، محذوف منه أحد الجزئين: إما المبتدأ؛ أي: أمرهم أو أمرنا أو الأمر المرضي لله طاعة لله ولرسوله، وقول معروف بالإجابة إلى ما أمروا به من الجهاد أو الخير؛ أي: طاعة مخلصة، وقول معروف خير لهم، وقيل: هو حكاية لقولهم؛ أي: قالوا: طاعة... إلخ. ويشهد له قراءة أبيّ: ﴿يقولون طاعة وقول معروف﴾؛ أي: أمرنا ذلك كما قال في النساء: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ

---

(1) المراغي.
(2) روح البيان.

عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾.

وقيل[1]: هو متصل بما قبله، و﴿اللام﴾ في ﴿لَهُمۡ﴾: بمعنى الباء مجازةً، فأولى بهم طاعة الله وطاعة رسوله، وقول معروف بالإجابة.

والمعنى: لو أطاعوا وأجابوا.. لكانت الطاعة والإجابة أولى بهم، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء عنه.

ومعنى الآية على القول الأول: طاعة الله ورسوله، وقول معروف أمثل لهم، وأحسن مما هم فيه من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدوّ، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل، وظلّ زائل، والآخرة خير لمن اتقى.

﴿فَإِذَا عَزَمَ﴾؛ أي: حتم وفرض ووجب ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: الجهاد، ووجد القتال ولزمهم، وجواب الشرط: محذوف، تقديره: خالفوا وتخلفوا؛ أي: فإذا عزم الأمر... خالف المنافقون، وكذبوا فيما وعدوا به، وقيل: الجواب قوله: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ كما في «البيضاوي»؛ أي: فلو صدقوا فيما قالوا من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد بالجري على موجبه، أو صدقوا في إظهار الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ من الكذب والنفاق، والقعود عن الجهاد، وفي الآية دلالة على اشتراك الكل فيما حكي من قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾. فالمراد بهم: الذين في قلوبهم مرض.

والمعنى[2]: فإذا حضر القتال.. كرهوه وتخلّفوا عنه خوفاً وفرقاً، ولو صدقوا في إيمانهم، واتباعهم للرسول، وأخلصوا النيّة في القتال.. لكان خيراً لهم عند ربهم، إذ ينالون به الثواب والزلفىٰ عنده، ويعطيهم ما تقرُّبه أعينهم، ويدخلهم جنات النعيم.

ثم خاطب أولئك المنافقين خطاب توبيخ وتأنيب، فقال: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ وترجيتم؛ أي: هل يتوقع منكم يا من في قلوبهم مرض ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أمور الناس،

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

وتأمرتم عليهم، وجعلتم حكاماً ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالتغاور والتناهب والتقاتل والتفارق وأخذ الرشا ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ بمقاتلة بعض الأرحام بعضاً، ووأد البنات، قال الكلبي؛ أي: فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم، وتقطعوا أرحامكم، وخبر ﴿عسى﴾ ﴿أَن تُفۡسِدُوٓاْ﴾. والشرط اعتراض بين الاسم والخبر، وهذا على لغة الحجاز، فإنَّ بني تميم لا يلحقون الضمير به.

والمعنى[1]: أنهم لضعفهم في الدين، وحرصهم على الدنيا أحقاء بأن يتوقع ذلك منه من عرف حالهم، ويقول لهم: هل عسيتم.

وقيل المعنى[2]: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾؛ أي: فعلكم ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾؛ يعني: أعرضتم عن سماع القرآن، وفارقتم أحكامه ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ يعني: تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالمعصية والبغي وسفك الدم، وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالإسلام، وتقطّعوا أرحاكم.

وقال أبو حيان: الأظهر: أنّ المعنى: إن أعرضتم أيّها المنافقون عن امتثال أمر الله في القتال أن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم، تقطعوا أرحامكم؛ لأنّ من أرحامكم كثيراً من المسلمين، فإذا لم تعينوهم.. قطعتم أرحامكم. انتهى.

والخلاصة: أنه لا عجب بعد أن صدر منكم ما صدر، من كراهة الدفاع عن حوزة الإسلام أن تعيدوا أحوال الجاهلية جزعة إذا صرتم أمراء الناس وولاتهم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ عليُّ بن أبي طالب: بضم التاء والواو، وكسر اللام مبنياً للمفعول، وبها قرأ ابن أبي إسحاق وورش عن

---

(١) البيضاوي.
(٢) الخازن.
(٣) الشوكاني والبحر المحيط.

يعقوب، ومعناها: فهل عسيتم إن ولي عليكم ولاة جائرون أن تخرجوا عليهم في الفتنة، وتحاربوهم، وتقطعوا أرحامكم بالبغي والظلم والقتل، وقرأ الجمهور: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ بالتشديد على التكثير، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه، وسلام وعيسى ويعقوب وأبان وعصمة: بالتخفيف من القطع، مضارع قطع الثلاثي، وقرأ الحسن: ﴿وَتَقَطعوا﴾ بفتح التاء والقاف على إسقاط حرف الجر؛ أي: بأرحامكم؛ لأنّ تقطع لازم، يقال: عسيت أن أفعل كذا، وعسيت بالفتح والكسر لغتان. ذكره الجوهري وغيره.

وبعد أن ذكر هناتهم، بيّن سببها، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة[(١)] إلى المخاطبين بطريق الالتفات، إيذاناً بأنّ ذكر إهانتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ، خبره: قوله تعالى: هم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: أبعدهم، وطردهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ عن استماع الحق، لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ لتعاميهم عمّا يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق، قيل[(٢)]: لم يقل: أصم آذانهم؛ لأنه لا يلزم من ذهاب الآذان ذهاب السماع، فلم يتعرض لها، ولم يقل: أعماهم، لأنه يلزم من ذهاب الأبصار ـ وهي الأعين ـ ذهاب الإبصار؛ لأن العين لها مدخل في الرؤية بخلاف الأذن، فلا مدخل لها في السمع.

قال سعدي المفتي: إصمام الآذان غير إذهابها، ولا يلزم من أحدهما الآخر، والصمم والعمى يوصف بكل منهما الجارحة، وكذلك مقابلهما من السماع والإبصار، ويوصف به صاحبهما في العرف المستمر، وقد ورد التنزيل على الاستعمالين، اختصر في الإصمام، وأطنب في الإعماء مع مراعاة الفواصل.

والمعنى[(٣)]: أي فهؤلاء هم الذين أبعدهم من رحمته، فأصمهم عن الانتفاع

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

بما سمعوا، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة مما شاهدوا من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق، فلم يكن سماعهم سماع إدراك، ولا إبصارهم إبصار اعتبار.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم. قامت الرحم، فأخذت بِحِقْوِ الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك» ثمّ قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ...﴾» الآية. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وقد وردت أحاديث كثيرة في صلة الرحم، كما مرّ بعضها في أول سورة النساء، فلا نطيل الكلام بذكرها هنا.

و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: ألا يلاحظ هؤلاء المنافقون هذا القرآن فلا يتدبرونه، ولا يتصفحون ما فيه من المواعظ الزاجرة، والحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة، التي تكفي من له فهم وعقل، وتزجره عن الكفر بالله، حتى لا يقعوا في المعاصي الموبقة ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لهم ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ وأغلاقها، فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلاً.

والمعنى: أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والشرك، لأنّ الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بالقلوب: قلوب هؤلاء المخاطبين، والأقفال: جمع قفل بالضم: وهو الحديد الذي يغلق به الباب. كما في «القاموس».

قال في «الإرشاد»[1]: ﴿أَمْ﴾: منقطعة، وما فيها من معنى بل، للانتقال من التوبيخ بعدم التدبّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبّر، والتفكر، وما فيها من معنى الهمزة للتقرير، وتنكير القلوب: إما لتهويل حالها، وتفظيع شأنها بإبهام أمرها في الفساد والجهالة، كأنه قيل: أم على قلوب منكرة لا يعرف

---

(١) روح البيان.

حالها، ولا يقادر قدرها في القسوة، وإما لأنّ المراد: قلوب بعض منهم: وهم المنافقون، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقوال مخصوصة بها مناسبة غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة التي من الحديد، إذ هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح، انتهى.

فإن قيل: قد أخبر تعالى: بأنه أصمهم وأعمى أبصارهم، فكيف يوبخهم على ترك التدبر؟ كقولك للأعمى: أبصر، وللأصمّ: اسمع؟

أجيب عنه: بأن التكليف بما لا يطاق جائز، وقد أمر الله من علم أنه لا يؤمن بالإيمان، فلذلك وبخهم على ترك التدبّر، مع كونه أصمهم وأعمى أبصارهم. كذا في «الفتوحات».

وفي «التأويلات النجمية»: أفلا يتدبّرون القرآن، فإنّ فيه شفاء من كل داء، ليفضي بهم إلى حسن العرفان، ويخلصهم من سجن الهجران. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أم قفل الحق على قلوب أهل الهوى، فلا يدخلها زواجر التنبيه، ولا ينبسط عليها شعاع العلم، ولا يحصل لهم فهم الخطاب، وإذا كان الباب متقفلاً.. فلا الشك والإنكار الذي فيها يخرج، ولا الصدق واليقين الذي هم يدعون إليه يدخل في قلوبهم. انتهى.

قرأ الجمهور: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالجمع، وقرىء: ﴿إقفالها﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر، كالإقبال، وقرىء: ﴿أقفلها﴾ بالجمع على أفعل.

ومجمل معنى الآية[1]: أفلا يتدبر هؤلاء المافقون مواعظ الله التي وعظ بها في آي كتابه، ويتفكرون في حججه التي بينها في تنزيله، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون، أم هم قد أقفل على قلوبهم، فلا يعقلون ما أنزل في كتابه من العبر والمواعظ.

والخلاصة: أنهم بين أمرين، كلاهما شر، وكلاهما فيه الدمار والمصير إلى النار، فإما أنهم يعقلون ولا يتدبّرون، أو أنهم سلبوا العقول فهم لا يعون شيئاً.

---

(١) المراغي.

ولما أخبر بإقفال قلوبهم.. بين منشأ ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ﴾ ورجعوا ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ وأعقابهم؛ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وهم المنافقون الموصوفون بمرض القلوب، وغيره من قبائح الأفعال والأحوال، فإنهم كفروا به ﷺ ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة، والمعجزات القاهرة ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لعنة الله عليه ﴿سَوَّلَ﴾ وزيَّن ﴿لَهُم﴾ ما هم عليه من الشرك والمعاصي، جملة ﴿مِن﴾ مبتدأ وخبر وقعت خبراً لـ ﴿إِنَّ﴾؛ أي: سهل لهم ركوب العظائم، وحسنها لهم، وصورها لهم بصورة الحسن، من التسويل، وهو: تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن.

وقرأ زيد بن علي ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: كيده على تقدير حذف مضاف من السول، وهو: استرخاء البطن.

قال قتادة[1]: هم: كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبي ﷺ بعد ما عرفوا نعته عندهم، وبه قال ابن جرير، وقال الضحاك والسدي: هم المنافقون، قعدوا عن القتال، وهذا أولى؛ لأنّ السياق في المنافقين.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ الشيطان؛ أي: مدَّ لهم في الآمال والأماني، ووعدهم طول العمر، وقيل: إنّ الذي أملى لهم هو الله سبحانه، والمعنى: أمهلهم الله، ولم يعاجلهم بالعقوبة.

قرأ الجمهور[2]: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر، وأبو جعفر وشيبة والجحدري وابن سيرين: ﴿وأُملي لهم﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: أمهلوا ومدوا في عمرهم، قيل: وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله أو الشيطان، كالقراءة الأولى، وقد اختار القول بأنّ الفاعل هو الله، الفراء، والمفضل، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدم ذكره قريباً، وقرأ مجاهد[3] وابن هرمز والأعمش وسلام ويعقوب: ﴿وأملي﴾ بهمزة المتكلم

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

مضارع أملي؛ أي: وأنا أنظرهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾. ويجوز أن يكون ماضياً سكنت منه الياء، كما تقول في يعي: بسكون الياء.

والمعنى[1]: أي إنَّ الذين رجعوا القهقرىٰ على أعاقبهم كفّاراً من بعد ما تبيَّن لهم الهدى، وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجج، ثم آثروا الضلال على الهدىٰ عناداً لأمر الله، الشيطان زيَّن لهم ذلك، وخدعهم بالآمال، وحسن لهم ما في الدنيا من لذة يتمتعون بها إلى حين، ثم يعودون كما كانوا كافرين إلى نحو ذلك من وساوسه التي لا تدخل تحت الحصر، ولا يبلغها العد.

ثم ذكر كيف إنهم ضلوا، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الارتداد كائن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنّ المنافقين المذكورين ﴿قَالُوا﴾ سرّاً ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ﴾؛ أي: قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ، مع علمهم بأنه من عند الله، حسداً وطمعاً في نزوله عليهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وذلك البعض: هو عداوة رسول الله ﷺ، ومخالفة ما جاء به، كما أفاده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾. وهم: بنو قريظة والنضير، الذين كانوا يوالونهم ويودونهم، وأرادوا بالبعض الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه إظهار كفرهم، وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارهم، فإنهم كانوا يفعلون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه لما كان لهم في إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية.

والمعنى[2]: أي سنطيعكم في بعض أموركم، أو في بعض ما تأمروننا به، كالقعود عن الجهاد، والموافقة في الخروج معهم إن أخرجوا، والتظافر على الرسول ﷺ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾؛ أي: إخفاءهم لما يقولون لليهود. قرأ الجمهور[3]

---

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

(٣) البحر المحيط.

﴿أسرارهم﴾ بفتح الهمزة، جمع سر، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ الكوفيون وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن وثاب والأعمش: بكسر الهمزة على المصدر، و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَكَيْفَ﴾: عاطفة على محذوف، و﴿كَيْف﴾ مفعول لفعل محذوف، والظرف في قوله: ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: متعلق بذلك الفعل المحذوف، والتقدير: هم يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيلة، فكيف يفعلون إذا قبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه؟ حال كون الملائكة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؛ أي: ظهورهم وخلفهم بمقامع الحديد، والجملة: حال من فاعل ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾. وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفىٰ أحد على معصية إلا تضرب الملائكة وجهه ودبره، والمعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب، فسيكون حالهم هذا. وفي الكلام تخويف وتهديد، وقيل: ذلك عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ﷺ، وقيل: ذلك يوم القيامة، والأول أولى، وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾ بالتاء، وقرأ الأعمش: ﴿توفَّاهم﴾، بألف بدل التاء، فاحتمل أن يكون ماضياً ومضارعاً حذفت منه التاء.

والمعنى: أي فكيف يفعلون إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه وأفظعها؟ وقد مثل ذلك بحال يخافونها في الدنيا، ويجبنون عن القتال لأجلها، وهو الضرب على الوجوه والأدبار، إذ في يوم الوفاة لا نصرة لهم ولا مفر، فكيف يحترزون من الأذى، ويبتعدون من العذاب؟.

ثم بين سبب التوفي على تلك الحال الشنيعة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفّي الهائل مع الضرب ﴿بِأَنَّهُمُ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾؛ أي: ما يرضاه من الإيمان والطاعة، حيث كفروا بعد الإيمان، وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود

---

(١) الشوكاني.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات، أو بعد ذلك من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها، فالكفر والمعاصي سبب لإحباط الأعمال، وباعث على العذاب والنكال.

والمعنى: أي ذلك الهول الذي يرونه، من أجل أنهم انهمكوا في المعاصي، وزينت لهم الشهوات، وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان به، والعمل على طاعته، والإخلاص له في السر والعلن، فأحبط ما عملوه من البر والخير، كالصدقات، والأخذ بيد الضعيف، ومساعدة البائس الفقير، وإغاثة الملهوف إلى نحو أولئك؛ إذ هم فعلوه وهم مشركون، فلم تكن لله ولا بأمره، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدوثة بين الناس.

ثم بالغ في توبيخ المنافقين، وإظهار خباياهم، وإعلان نواياهم، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أظن ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: نفاقٌ؛ لأنّ النفاق مرض قلبي، كالشك ونحوه؛ أي: بل أحسب المنافقون ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: أنه لن يظهر الله ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾؛ أي: أحقادهم وبغضهم وحسدهم للمؤمنين، والأضغان: جمع ضغن بالكسر، وهو: الحقد، والحقد: إمساك العداوة في القلب، والتربص لفرصتها؛ أي:[1] بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين، أن لن يخرج الله أحقادهم، ولن يبرزها لرسول الله وللمؤمنين، فتبقى أمورهم مستورةً؛ أي: إن ذلك مما يكاد يدخل تحت الاحتمال، وفي بعض الآثار: «لا يموت ذو زيغ في الدين حتى يفتضح» وذلك لأنه كحامل الثوم، فلا بد من أن تظهر رائحته، كما أنَّ الثابت في طريق السنة كحامل المسك، إذ لا يقدر على إمساك رائحته ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ إراءتهم إيّاك ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾؛ أي: لأعلمناكهم وعرفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب: سأريك ما أصنع؛ أي: سأعلمك ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾؛ أي: بعلامتهم الخاصّة بهم، التي يتميَّزون بها، ونسمهم بها.

(١) روح البيان.

وعن أنس رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة من المنافقين، والناس يشكون منهم، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى وجه كل منهم مكتوب هذا منافق. وفي «عين المعاني»: وعلى جبهة كل واحد مكتوب كهيئة الوشم «هذا منافق». و﴿الفاء﴾[1]: لترتيب المعرفة على الإراءة، وما بعدها معطوف على جواب ﴿لو﴾. و﴿اللام﴾: لام الجواب، وكرّرت في المعطوف للتأكيد، وأمّا ﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: فهي لام جواب قسم محذوف، و﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ معناه: فحواه ومقصده ومغزاه، وما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين واستهزائه، وكان ﷺ بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه، قال أبو زيد: لحنت له اللحن: إذا قلت له قولاً يفقهه عنك، ويخفى على غيره، ومنه قول الشاعر:

مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَانًا فَخَيْرُ الأَحَادِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا

أي: أحسنها ما كان تعريضاً يفهمه المخاطب ولا يفهمه غيره لفطنته وذكائه، وإياه قصد بقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. وأصل اللحن: إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض.

أي: والله إنك يا محمد لتعرفن المنافقين في وجه خفي من القول، فيفهمه النبي ﷺ، ولا يفهمه غيره، ولكن لم يظهره إلى أن أذن الله تعالى له في إظهار أمرهم، وفي المنع من الصلاة على جنائزهم، والقيام على قبورهم.

ومعنى الآية: أي[2] ولو نشاء أيها الرسول لعرّفناك أشخاصهم، فعرفتهم عياناً بعلامات هي غالبة عليهم، ولكنّه لم يفعل ذلك في جميع المنافقين للستر على خلقه، وردّاً للسرائر إلى عالمها، وحرصاً على أن لا يؤذىٰ ذوي قرباهم من المخلصين ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي: ولتعرفنهم فيما يدارونه من القول، فيعدلون عن التصريح بمقاصدهم إلى التعريض والإشارة، وإيّاه عنى القائل في مدح محبوبته، فقال:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

مَـنْـطِـقٌ صَـائِـبٌ وَتَـلْـحَـنُ أَحْـيَـا نَاً وَخَيْـرُ ٱلأَحَـادِيْـثِ مَا كَـانَ لَـحْـنَـا

يريد: أنها تتكلم بشيء وتريد غيره، وتعرض في حديثها، فتزيله عن جهته لفطنتها وذكائها، وقد كانوا يخاطبون الرسول ﷺ بألفاظ ظاهرها الحسن، وهم يعنون بها: القبيح، قال الكلبيّ: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ ﷺ منافق إلا عرفه، وقال أنس: فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ، عرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرفها بتعريف الله إيّاه، وفي الحديث: «ما أسرَّ أحد سريرةً إلا كساه الله جلبابها، إن خيراً.. فخير، وإن شراً.. فشر».

وروي: أنَّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال: ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله سبحانه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وقد ثبت في الحديث تعيين جماعة من المنافقين، فقد روى أحمد عن عقبة بن عامر، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إنّ فيكم منافقين، فمن سميت.. فليقم، ثم قال: قم يا فلان، قم يا فلان، ثم يا فلان» حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً، ثمّ قال: «إنّ فيكم منافقين، فاتقوا الله». قال: فمرّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سمي مقنع قد كان يعرفه، فقال: مالك، فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر الدهر.

ثم وعد سبحانه وأوعد وبشّر وأنذر، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ ونياتكم، فيجازيكم بحسب قصدكم وعملكم على ما قدّمتم من خير أو شر، إذ لا يضيع عمل عامل منكم عدلاً منه ورحمةً، وهذا وعد منه للمؤمنين، ووعيد للمنافقين، وإيذان بأنَّ حالهم بخلاف حال المنافقين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي، لنبلونكم بالأمر بالقتال ونحوه من التكاليف الشاقّة؛ إعلاماً لا استعلاماً، أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العذاب، فإنّ الله تعالى عالم بجميع الأشياء ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقّ الجهاد علماً فعليّاً يتعلّق به الجزاء؛ أي: حتى[1] نعلم كائناً ما علمناه أزلاً أنه سيكون

---

(١) النسفي.

﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي: نظهر أعمالكم، والأخبار: بمعنى المخبر بها؛ أي: ما يخبر به من أعمالكم، فيظهر حسنها وقبحها؛ لأنّ الخبر علىٰ حسب المخبر عنه، إن حسناً فحسن، وإن قبيحاً فقبيح؛ يعني:[1] أنا نأمركم بالجهاد، حتى يظهر المجاهد، ويتبين من يبادر منكم ويصبر عليه من غيره؛ لأنّ المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾؛ أي: على الوجود والظهور، ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي: نظهرها ونكشفها، ليتبين للناس من يأبى القتال، ولا يصبر على الجهاد، ومن يمتثل أمره ويصبر عليه.

وقيل المعنى[2]: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾؛ أي: حتى نميّز المجاهدين في سبيل الله منكم يا معشر المنافقين والصابرين؛ أي: ونميّز الصابرين في الحرب منكم، ﴿ونبلو أخباركم﴾؛ أي: نظهر أسراركم وبغضكم وعداوتكم، ومخالفتكم لله ولرسوله.

وقرأ الجمهور الأفعال الثلاثة[3] بالنون، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلّها، وقرأ الجمهور: ﴿وَنَبْلُوَا﴾ بنصب الواو عطفاً على قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾. وروى ورش عن يعقوب: إسكانها على القطع عمّا قبله.

والمعنى: أي ولنختبرنّكم بالأمر بالجهاد، وسائر التكاليف الشاقّة، حتى يتبيّن المجاهد الصابر من غيره، ويعرف ذو البصيرة في دينه من ذي الشكّ والحيرة فيه والمؤمن من المنافق، ونبلو أخباركم، فنعرف الصادق منكم في إيمانه من الكاذب، قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية.. بكى، وقال: اللهم لا تبتلنا، فإنك إذا بلوتنا.. فضحتنا، وهتكت أستارنا.

وفيه إشارة إلى أنه بنار البلاء يخلص إبريز الولاء، قيل: البلاء للولاء كاللهب للذهب، فإنّ بالبلاء والامتحان. تبين جواهر الرجال، فيظهر المخلص،

---

(١) الخازن.

(٢) تنوير المقابص.

(٣) الشوكاني.

ويفتضح المنافق، وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان، والله تعالى عالم بخصائص جواهر الإنسان من الأزل إلى الأبد؛ لأنه خلقها على أوصافها من السعادة والشقاوة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَصَدُّوا﴾؛ أي: منعوا الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن دين الإسلام الموصل إلى رضا الله تعالى ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ؛ أي: خالفوه وعادوه، وصاروا في شقّ في غير شقّه، المخالفة: أصل كل شرّ إلى يوم القيامة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ بما شاهدوا من نعته ﷺ في التوراة، وبما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل عليه من الآيات، وهم قريظة والنضير، أو المطعمون يوم بدر وهم رؤساء قريش، وقيل: المنافقون ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ بكفرهم وصدّهم ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء، أو لن يضرّوا الله شيئاً، من الضرر، أو لن يضرّوا رسول الله بمشاقّته شيئاً، وقد حذف المضاف؛ لتعظيمه وتفظيع مشاقّته ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ ﴿السين﴾: لمجرد التأكيد ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: مكايدهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى، ومشاقّة رسوله، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل، ولا يتم لهم إلا القتل، كما لقريظة وأكثر المطعمين ببدر، والجلاء عن أوطانهم كما للنضير.

وقيل: المراد بأعمالهم: ما صورته صورة أعمال الخير، كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير، وإن كانت باطلة من الأصل؛ لأنّ الكفر مانع.

والمعنى[1]: أي إنّ الذين جحدوا توحيد الله، وصدّوا الناس عن دينه الذي بعث به رسوله، وخالفوا هذا الرسول، وحاربوه، وآذوه من بعد أن استبان لهم بالأدلّة الواضحة، والبراهين الساطعة، أنه مرسل من عند ربّه، لن يضرّوا الله شيئاً، لأنّ الله بالغ أمره، وناصر رسوله، ومظهره على من عاداه وخالفه، وسيبطل مكايدهم التي نصبوها لإبطال دينه ومشاقّة رسوله، ولا يصلون بها إلى ما

---

(١) المراغي.

كانوا يبغون له من الغوائل، وستكون ثمرتها: إما قتلهم، أو جلاءهم عن أوطانهم.

والمراد بصدّ الناس عن سبيل الله: منعهم إيّاهم عن الإسلام بشتّى الوسائل، وعن متابعة الرسول والانضواء تحت لوائه.

ثمّ أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به من الفرائض والصدقة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ فيما أمركم من الجهاد والسنة، ولا تشاقّوا الله والرسول في شيء منها ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بمثل ما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق والرياء والسمعة والعجب والمن والأذى وغيرها.

والظاهر: النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال، كائناً ما كان من غير تخصيص بنوع معيّن.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أنّ كل عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله، فهو باطل لم يكن له ثمرة؛ لأنّه صدر عن الطبع، والطبع ظلمانيّ، وإنما جاء الشرع وهو نورانيّ ليزيل ظلمة الطبع بنور الشرع فيكون مثمراً، وثمرته أن يخرجكم من الظلمات إلى النور؛ أي: من ظلمات الطبع إلى نور الحق، فعليك بالإطاعة واستعمال الشريعة، وإيّاك والمخالفة والإهمال.

وعن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضرّ مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، حتى نزلت هذه الآية، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنّا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولاً، حتى نزلت: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات

---

(١) روح البيان.

والفواحش، فكنّا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها.. قلنا: قد هلك، حتى نزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. فكففنا عن القول في ذلك، وكنّا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً، خفنا عليه، وإن لم يصب.. رجونا له.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في الآية: من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً بعمل سوء... فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى.

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر، والصدّ عن سبيل الله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله تعالى ورسوله ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن دينه الموصل إلى رضاه ﴿ثُمَّ مَاتُوا﴾ وفارقوا الدنيا ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ﴿الواو﴾: للحال ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ في الآخرة، لأنّهم ماتوا على الكفر، فيحشرون على ما ماتوا عليه، كما ورد: «تموتون كما تعيشون، وتحشرون كما تموتون». فقيّد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأنّ باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حياً، وظاهر الآية العموم، وإن كان السبب خاصّاً؛ لأنها نزلت في أصحاب القليب: وهم أبو جهل وأصحابه الذين قتلوا ببدر، وألقوا في قليب بدر، والقليب ـ بوزن أمير ـ: البئر أو القديمة منها. والمراد: البئر التي طرح فيها جيف الكفار المقتولين يوم بدر، وأما البئر التي استقى منها المشركون ذلك اليوم فهي منتنة الآن، سمعته من بعض أهل بدر حين مروري بها. ويستفاد من الآية: أنّ كل كافر مات على كفره، فالله لا يغفر له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ثم نهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن الوهن والضعف، فقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾؛ أي: فلا تضعفوا أيّها المؤمنون عن قتال الكفار، والخطاب فيه لأصحاب النبيّ ﷺ، ثم وهو عام لجميع المسلمين إلى يوم القيامة، و﴿الفاء﴾ فيه: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا تبيّن لكم بما يتلى عليكم: أنّ الله عدوّهم يبطل أعمالهم فلا يغفر لهم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿لا تهنوا﴾؛ أي: لا تضعفوا عن قتالهم، فإنّ من كان الله

عليه لا يفلح ﴿و﴾ لا ﴿تدعوا﴾ الكفار ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾؛ أي: إلى الصلح فوراً؛ أي: ابتداء منكم، فإن ذلك فيه ذلة لكم، وهو مجزوم بالعطف على ﴿تَهِنُوا۟﴾ ويجوز نصبه بإضمار أن، قال الزجاج: منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح، وأمرهم بحربهم حتى يسلموا، واختلف العلماء[1] في هذه الآية: هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، وقيل: منسوخة بهذه الآية، ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ، فإنّ الله سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد، حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص، قال قتادة: معنى الآية: لا تكون أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَتَدْعُوٓا۟﴾ مضارع دعا الثلاثي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿وتدّعوا﴾ بتشديد الدال من ادّعى القوم وتداعوا، مثل قولك: ارتموا الصيد وتراموا، وقرأ الجمهور: ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ بفتح السين، وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وحمزة وأبو بكر: بكسرها.

وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ أي: الغالبون بالسيف والحجة، في محل النصب حال من فاعل ﴿تَهِنُوا۟﴾، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهي مؤكّدة لوجوب الانتهاء، قال الكلبيّ: آخر الأمر لكم، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وكذا جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَكُمْ﴾ بالنصر والمعونة عليهم في محل نصب على الحال، فإنّ كونهم الأغلبين، وكونه تعالى؛ أي: ناصرهم في الدارين، من أقوى موجبات الاجتناب عمّا يوهم الذلّ والضراعة، وكذا توفيته تعالى لأجور أعمالهم، حسبما يعرف عنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾؛ أي: لن ينقصكم سبحانه وتعالى ﴿أَعْمَـٰلَكُمْ﴾؛ أي: شيئاً من أجور أعمالكم، ولن يضيّعها، بل يوفي أجورها موفّرة كاملة، من وتره يتره وتراً، من

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

باب وعد: إذا نقصه حقّه. كما سيأتي.

وعبّر[1] عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوتر الذي هو إضاعة شيء معتدّ به من الأنفس والأموال، مع أنّ الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنة، إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق، وتنزيل ترك الإثابة، بمنزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها.

والمعنى: أي فلا تضعفوا أيّها المؤمنون عن جهاد المشركين، وتجبنوا عن قتالهم، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة خوراً وإظهاراً للعجز، وأنتم العالون عليهم، والله معكم بالنصر لكم عليهم، ولا يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ عند أهل البصيرة؛ أي: إنّ الاشغال بها ﴿لَعِبٌ﴾؛ أي: شغل غير مقصود لذاته، سواء شغل عن المقصود أم لا، يقال: لعب فلان: إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، كفعل الصبيان ﴿وَلَهْوٌ﴾؛ أي: شغل شاغل عما هو المقصود؛ لأنّ اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه، ولذلك يقال: آلات الملاهي؛ أي: إنّ الاشتغال بالدنيا أعمال ضائعة لا نتيجة لها، ومشغلة عن طاعة الله تعالى؛ أي: باطل وغرور لا أصل لشيء منها، ولا ثبات له، ولا اعتداد به.

وفيه[2]: إشارة إلى أنّ الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها، لا وجود لها في الحقيقة، وإنما هي أمر عارض، وخيال زائل ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ أيّها الناس بما يجب به الإيمان ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾؛ أي: يعطكم ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات، التي يتنافس فيها المتنافسون، وفي الآية حث على طلب الآخرة العلية الباقية، وتنفير عن طلب الدنيا الدنية الفانية ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ أي: لا يأمركم بإخراج جميع أموالكم في الزكاة، وسائر وجوه الخير، بحيث يخل أداؤها بمعاشكم؛

(١) روح المعاني. (٢) روح البيان.

لأنَّ الجمع المضاف من صيغ العموم، وإنما أمركم بإخراج القليل منها: وهو ربع العشر أو العشر، تؤدونها إلى فقرائكم، فطيبوا بها نفساً، وقيل: المعنى: لا يسألكم أموالكم، إنما يسألكم أمواله؛ لأنه أملك لها، وهو المنعم عليكم بإعطائها، وقيل: لا يسألكم الرسول أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة، كما في قوله: ﴿قُل مَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. والأول أولى. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾؛ أي: إن يسأل الله سبحانه وتعالى إيّاكم أموالكم جميعاً ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾؛ أي: يجهدكم، ويلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفىٰ بالمسألة، وألحف وألح بمعنى واحد، والإحفاء: الاستقصاء في الكلام، ومنه إحفاء الشارب؛ أي: استئصاله؛ أي: إزالته من أصله.

وجواب الشرط قوله: ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ بها، فلا تعطوا؛ أي: إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم.. تبخلوا بها، وتمتنعوا من الامتثال ﴿وَيُخْرِجْ﴾ الله سبحانه، ويعضده القراءة بنون العظمة، أو البخل؛ لأنّه سبب الإضغان ﴿أَضْغَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: أحقادكم معطوف على جواب الشرط، قال في «عين المعاني»؛ أي: يظهر أضغانكم عند الامتناع، وقيل: ويخرج ما في قلوبكم من حبّ المال، وهذه المرتبة لمن يوقىٰ شح نفسه.

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ جزماً عطفاً على جواب الشرط، والفعل مسند إلى الله، أو إلى الرسول أو إلى البخل، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿ويخرج﴾ بالرفع على الاستئناف، بمعنى: وهو يخرج، وحكاها أبو حاتم عن عيسى، وفي «اللوامح»: عن عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿ويَخْرُجُ﴾ بالياء التحتانية وفتحها، وضمّ الراء والجيم، ﴿أضغانكم﴾ بالرفع، بمعنى: وهو يخرج أو سيخرج أضغانكم رفع بفعله، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن، وأيُّوب بن المتوكل، واليمانيّ: ﴿وتَخْرُجُ﴾ بتاء التأنيث مفتوحة، ﴿أضغانكم﴾ رفع به، وقرأ يعقوب الحضرميّ: ﴿ونخرج﴾ بالنون وضم الجيم،

(١) البحر المحيط.

والفاعل: ضمير يعود على الله، ﴿أضغانكم﴾ بالنصب، وهي مروية عن عيسى، إلا أنه فتح الجيم بإضمار أن، فالواو: عاطفة على مصدر متوهّم؛ أي: يكن بخلكم وإخراج أضغانكم، وهذا[1] الذي خيف أن يعتري المؤمنين، هو الذي تقرب به محمد بن مسلمة إلى كعب بن الأشرف، وتوصل به إلى قتله حين قال له: إنّ هذا الرجل قد أكثر علينا، وطلب منّا الأموال.

ومجمل معنى الآيتين: [2] يقول الله سبحانه حاضّاً عباده المؤمنين على جهاد أعدائه، والنفقة في سبيله، وبذل مهجتهم في قتال أهل الكفر به: قاتلوا أيّها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر، ولا تدعكم الرغبة في الحياة إلى ترك قتالهم، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب، إلا ما كان منها من عمل في سبيل الله، وطلب رضاه.

ثم رغّبهم في العمل للآخرة، فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ . . .﴾ إلخ؛ أي: وإن تؤمنوا بربكم، وتتقوه حقّ تقاته، فتؤدّوا فرائضه، وتجتنبوا نواهيه.. يؤتكم ثواب أعمالكم، فيعوّضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة، وسائر وجوه الطاعات، بل يأمركم بإخراج القليل منها: وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء، ونفع ذلك عائد إليكم.

ثمّ بيّن شحّ الإنسان على ماله، وشدة حرصه عليه، فقال: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ إلخ؛ أي: إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة، ويلحف عليها بطلبها. تبخلوا بها وتمنعوها إياه ضنّا منكم بها، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكموها، فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حبكم للمال، قال قتادة: قد علم الله سبحانه أنّ في سؤال المال خروج الأضغان للإسلام، من حيث محبّة المال بالجبلة والطبيعة، ومن نوزع في حبيبه.. ظهرت طوّيته التي كان يسرها.

والخلاصة: قد علم الله شحّ الإنسان على المال، فلم يطلب منه إلا النزر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

اليسير في الصدقات، وبذل المال في المرافق العامة لإصلاح شؤون المجتمع الإسلاميّ، كسدّ الثغور، وبناء القناطر والجسور.

ثمّ أكد ما سلف وقرّره بقوله: ﴿ها﴾ حرف تنبيه بمعنى انتبهوا ﴿أنتم﴾ كلمة[1] على حدة، وهو مبتدأ، خبره: قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾؛ أي: انتبهوا أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون؛ يعني: في قوله: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ الآية. ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. استئناف مقرّر لذلك، حيث دلّ على أنهم يدعون لإنفاق بعض أموالهم في سبيل الله، فيبخل ناس منهم، أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين؛ أي: ها أنتم الذين تدعون، ففيه توبيخ عظيم، وتحقير من شأنهم، والإنفاق في سبيل الله يعمّ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما؛ أي: ها أنتم أيها المؤمنون تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله، ونصرة دينه ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بالرفع، ومنكم من يجود؛ لأنّ من هذه ليست بشرط؛ أي: فمنكم ناس يبخلون، وهو في حيّز الدليل على الشرطية الثانية، كأنه قيل: الدليل عليه أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، فمنكم ناس يبخلون بما يطلب منهم ويدعون إليه من الإنفاق في سبيل الله، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال.. فكيف لا يبخلون بالكثير: وهو جميع الأموال.

ثم بيّن سبحانه أنّ ضرر البخل عائد على النفس، فقال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالجزم؛ لأن ﴿من﴾: شرطية ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾؛ أي: بمنعها الأجر والثواب ببخله، فإنّ كلاً من ضرر البخل، نفع الإنفاق عائد إليه، فإن من يبخل وهو مريض بأجرة الطبيب، وبثمن الدواء.. فلا يبخل إلا على نفسه، والبخل يستعمل بعن وبعلىٰ؛ لتضمّنه معنى الإمساك والتعدّي؛ أي: فإنما يمسك الخير عن نفسه بالبخل ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْغَنِيُّ﴾ عنكم وعن صدقاتكم؛ لأنّه الغنيّ عن المطلب المتنزه عن الحاجة دون من عداه ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ إليه، وإلى ما عنده من الخير والرحمة، فما يأمركم به، فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من

---

(١) روح البيان.

المنافع، فإن امتثلتم فلكم، وإن توليتم فعليكم.

وجملة قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾: معطوفة على الشرطية المتقدمة، وهي: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ إلخ؛ أي: وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى، وعما دعاكم إليه، ورغبكم فيه من الإنفاق في سبيله ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ أي: يذهبكم ويخلق مكانكم قوماً آخرين: هم أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ﴾؛ أي: أولئك الآخرون ﴿أَمۡثَٰلَكُم﴾ في التولّي عن الإيمان والتقوى والإنفاق، بل يكونون راغبين فيها، وكلمة[1] ﴿ثُمَّ﴾: للدلالة على أنّ مدخولها مما يستبعده المخاطب؛ لتقارب الناس في الأحوال، واشتراك الجل في الميل إلى المال، والخطاب في ﴿تَتَوَلَّوۡاْ﴾ لقريش، والبدل: الأنصار. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أو للعرب، والبدل: العجم وأهل فارس، كما روي: أنه عليه السلام سئل عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه، فقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطاً - أي: معلقاً - بالثريّا - النجم المعروف - لتناوله رجال من فارس». فدلّ على أنهم الفرس الذين أسلموا، أخرجه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي إسناده مقال. وقال مجاهد: هم من شاء الله من سائر الناس، وقال ابن جرير: والمعنى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ في البخل بالإنفاق في سبيل الله.

الإعراب

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾.

﴿وَيَقُولُ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿يقول الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلته. ﴿لَوۡلَا﴾: حرف تحضيض. ﴿نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: في محل النصب، مقول لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾:

---

(١) روح البيان.

عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: في محل الخفض بإضافة إذا إليها، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ صفة ﴿سُورَةٌ﴾. ﴿وَذُكِرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿فيها﴾: متعلق بـ ﴿ذكر﴾ ﴿الْقِتَالُ﴾: نائب فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أُنزِلَتْ﴾. ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿يقول﴾ ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ خبر مقدم، ﴿مَّرَضٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة صلة الموصول.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب حال من الموصول، إن كانت الرؤية بصرية، ومفعول ثان إن كانت قلبية، وكلا الوجهين مراد في الآية. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾. ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ﴾ مفعول مطلق مبيّن للنوع، مؤكد لعامله. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿الْمَغْشِيِّ﴾؛ لأنه اسم مفعول. ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾: متعلق به أيضاً. ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿أولى﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء به قصد الدعاء. ﴿لهُم﴾: خبره؛ أي: فالهلاك كائن لهم، وعليه اقتصر أبو البقاء، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: العقاب أو الهلاك أولى لهم؛ أي: أقرب وأدنى، ويجوز أنّ تكون اللام بمعنى الباء؛ أي: أولى وأحقّ بهم، وفي «شرح القاموس»: معناه: الويل لك، أو أولاك الله ما تكرهه، فتكون اللازم زائدة. اهـ.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿طَاعَةٌ﴾: مبتدأ، خبره: محذوف، وسوّغ الابتداء به الوصف المحذوف؛ أي: طاعة الله ورسوله أمثل لكم وأفضل، قال الرازي: لا يقال: ﴿طَاعَةٌ﴾: نكرة لا تصلح للابتداء؛ لأنّا نقول: هي موصوفة يدل عليه قوله تعالى: ﴿قول معروف﴾ فإنه موصوف، فكأنه تعالى قال: طاعة مخلصة وقول معروف خير.

انتهى. ﴿وَقَوْلٌ﴾: معطوف على ﴿طَاعَةٌ﴾، ﴿مَّعْرُوفٌ﴾: صفة ﴿قول﴾، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: أمرنا طاعة وقول معروف. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿فَلَوْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لو﴾. ﴿لَكَانَ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿كان﴾: فعل ماض وناقص، واسمها: ضمير يعود على الصدق. ﴿خَيْرًا﴾: خبرها، ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾. وجملة ﴿كان﴾: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية. جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿طَاعَةٌ﴾: عطف فعلية على اسمية. ﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿هل﴾: حرف استفهام. ﴿عَسَيْتُمْ﴾: فعل من أفعال الرجاء، ترفع الاسم وتنصب الخبر. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط: محذوف لدلالة ﴿هل عسيتم﴾ عليه تقديره: إن تولّيتم تفسدوا في الأرض وجملة الشرط: معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين ﴿عسىٰ﴾ وخبرها. ﴿أَن تُفْسِدُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عسى﴾. ولكنّه في تأويل مشتق؛ لئلا يخبر بالمعنى عن الذات، تقديره: فهل عسيتم إفسادكم؛ أي: مفسدين إن تولّيتم، وجملة ﴿عسى﴾: مستأنفة. ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿تُفْسِدُوا۟﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة: صلة الموصول. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أصمّهم﴾: فعل ماض ومفعول به، وفاعله: ضمير مستتر يعود على الله، والجملة: معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَأَعْمَىٰٓ﴾ فعل وفاعل مستتر. ﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أصمهم﴾: على كونها معطوفة على الصلة.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخيّ، داخلة على مقدر يقتضيه السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: ألا يلاحظ هؤلاء المنافقون هذا القرآن فلا يتدبرّون، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ذلك المحذوف. ﴿أَمۡ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام التقريري التوبيخي. ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾: خبر مقدم. ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾: مبتدأ مؤخر وجوباً، والجملة: جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾: متعلق بـ ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾ أو حال من فاعله. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾ أيضاً. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡهُدَى﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من بعد تبيّن الهدى لهم. ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿سَوَّلَ لَهُمۡ﴾: خبر عن ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾. والجملة الابتدائية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، وجملة ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾: معطوفة على جملة ﴿سَوَّلَ لَهُمۡ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة. ﴿أنّ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿قَالُواْ﴾: خبرها. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ ﴿قَالُواْ﴾. وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير: ذلك كائن بسبب قولهم للذين كرهوا، وجملة ﴿كَرِهُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما أنزله الله. ﴿سَنُطِيعُكُمۡ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على المتكلمين. ﴿فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُواْ﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم لمبتدأ محذوف، تقديره: فكيف حالهم؟ أو في محل النصب مفعول لفعل محذوف، تقديره: فكيف يصنعون؟ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، الجملة: في محل الخفض مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: معطوف على ﴿وُجُوهَهُمْ﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وجواب ﴿إِذَا﴾: معلوم مما قبله؛ أي: إذا توفّتهم الملائكة.. فكيف حالهم؟ أو ﴿إِذَا﴾ ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بالفعل المحذوف؛ أي: فكيف يصنعون وقت توفية الملائكة إياهم؟ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمُ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿أنّ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾: فعل وفاعل، و﴿مَآ﴾: موصولة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك بسبب اتباعهم ما أسخط الله. ﴿أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: صلة لـ ﴿مَآ﴾ الموصولة ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنىٰ بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿حَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل والجملة: مستأنفة. ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: صلة الموصول. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن. ﴿لَّن﴾: حرف نصب واستقبال ﴿يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ

﴿لَّن﴾، ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿حَسِبَ﴾. والتقدير: أم حسب الذين في قلوبهم مرض عدم إخراج الله أضغانهم. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿أريناكهم﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والرؤية هنا بصرية، تعدّت إلى مفعولين بالهمزة، والجملة جواب ﴿لو﴾: الشرطية لا محل له وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿حَسِبَ﴾. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: رابطة للجواب مؤكِّدة للأولى. ﴿عرفتهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿أريناكهم﴾. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿عرفتهم﴾. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿تعرفن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله: ضمير يعود على محمد، و﴿الهاء﴾: مفعول به، ﴿فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾: متعلق بـ ﴿تعرفنهم﴾ أو حال من المفعول؛ أي: حال كونهم لا حنين، والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الابتدائية: مستأنفة. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نبلوّن﴾: فعل مضارع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله: ضمير مستتر يعود على الله، و﴿الكاف﴾: مفعول به، والجملة: جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة أو معطوفة على جملة القسم الأولى. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿نَعْلَمَ﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: مفعول به. ﴿مِنكُمْ﴾: حال من ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿نبلوّن﴾؛ أي: ولنبلونكم إلى علمنا المجاهدين والصابرين منكم. ﴿وَنَبْلُوَا۟﴾ فعل مضارع، معطوف على ﴿نَعْلَمَ﴾، وفاعله: ضمير

يعود على الله. ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ مفعول به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه. ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَصَدُّوا۟﴾ معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿صدوا﴾ ومضاف إليه. ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف أيضاً على ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ متعلق بـ ﴿شاقوا﴾ ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿تَبَيَّنَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ فاعل، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره من بعد تبين الهدى لهم. ﴿لَن﴾: حرف نصب. ﴿يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ ﴿لَن﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول مطلق؛ أي: شيئاً من الضرر، ولك أن تعربه مفعولاً به. ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿والسين﴾: حرف استقبال. ﴿يحبط أعمالهم﴾: فعل مضارع وفعل مستتر ومفعول به معطوف على جملة ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾. ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾، منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿أيّ﴾، وجملة النداء: مستأنفة. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ معطوف على ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تُبْطِلُوٓا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلته. ﴿وَصَدُّوا۟﴾: معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿وَصَدُّوا۟﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف

عطف، ﴿مَاتُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿مَاتُوا﴾، ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر لما في الموصول من معنى الشرط، ﴿لن﴾: حرف نصب. ﴿يَغْفِرَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لن﴾. ﴿لهُم﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم وجوب الجهاد، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم. ﴿لا تهنوا﴾ ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَهِنُوا﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَتَدْعُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لا تهنوا﴾. ﴿إِلَى السَّلْمِ﴾: متعلق به. ﴿وَأَنتُمُ﴾ ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿أنتُم﴾: مبتدأ. ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾: خبره، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿وَصَدُّوا﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿مَعَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿تَهِنُوا﴾ أيضاً. ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لن﴾: حرف نصب واستقبال. ﴿يَتِرَكُمْ﴾: فعل وفاعل. مستتر يعود على ﴿اللَّهُ﴾، ومفعول به. ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾: بدل اشتمال من ضمير المفعول أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: في أعمالكم، كما نصّ عليه في «المختار»، أو مفعول ثان كما يفيده كلام «المصباح». والجملة الفعلية: في محل الرفع معطوفة على الظرف على كونها خبر المبتدأ. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿الْحَيَوٰةُ﴾: مبتدأ، ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة، ﴿لَعِبٌ﴾: خبر، ﴿وَلَهْوٌ﴾: معطوف عليه، والجملة: مستأنفة. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تُؤْمِنُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿وَتَتَّقُوا﴾: معطوف عليه، ﴿يُؤْتِكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها. ﴿أُجُورَكُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة الشرطية. معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾، عطف فعليّة على اسمية. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَسْـَٔلْكُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول معطوف على ﴿يُؤْتِكُمْ﴾،

﴿أَمْوَالَكُمْ﴾: مفعول ثان لـ ﴿يسأل﴾.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ ﴿يسأل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، و﴿الكاف﴾: ضمير المخاطبين في محل النصب مفعول أول، و﴿الميم﴾: حرف دالّ على الجمع، و﴿الواو﴾ للإشباع، و﴿الهاء﴾ مفعول ثان. ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يحفكم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على الشرط. ﴿تَبْخَلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على الجواب. ﴿هَـٰٓأَنتُمْ﴾ ﴿ها﴾: حرف تنبيه لتنبيه المخاطب على ما يلقى إليه. ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: خبره، وجملة ﴿تُدْعَوْنَ﴾: مستأنفة، وأعربه بعضهم ﴿ها﴾. للتنبيه، و﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تُدْعَوْنَ﴾: خبره، و﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: منادى معترض بين المبتدأ والخبر؛ أي: أنتم يا هؤلاء تدعون.. إلخ. وجنح الزمخشري إلى إعراب ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: اسم موصول بمعنى الذين، وهو الخبر، وجملة ﴿تُدْعَوْنَ﴾: صلة، وتبعه البيضاوي. وكررت ﴿ها﴾؛ للتنبيه وللتأكيد. ﴿تُدْعَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿لِتُنفِقُوا۟﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل. ﴿تنفقوا﴾: فعل مضارع وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿تنفقوا﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور، متعلق بـ ﴿تنفقوا﴾؛ أي: تدعون لإنفاقكم في سبيل الله. ﴿فَمِنكُم﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنكم تدعون للإنفاق، وأردتم بيان تفاصيل أحوالكم.. فأقول لكم: منكم من يبخل ومنكم من لا يبخل. ﴿منكم﴾: خبر مقدم، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يَبْخَلُ﴾:

صلته، والجملة الاسمية: في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الجواب أو الشرط أو هما. ﴿يبخل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية جوازاً. ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة. ﴿يَبْخَلُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مِن﴾، ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يَبْخَلُ﴾، عدّاه بـ ﴿عَن﴾؛ لتضمّنه معنى الإمساك، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَتَوَلَّوْا۟﴾: فعل مضارع وفاعل، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ مجزوم على كونه جواب الشرط، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به. ﴿غَيْرَكُمْ﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية، معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَكُونُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه، معطوف على الجواب مجزوم. ﴿أَمْثَٰلَكُم﴾: خبره.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَوْلَا﴾: كلمة تفيد الحثّ على حصول ما بعدها؛ أي: هلاّ أنزلت سورة في أمر الجهاد. ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾؛ أي: بيّنة واضحة، لا احتمال فيها لشيء آخر. ﴿مَّرَضٌ﴾؛ أي: ضعف في الدين وشكّ ونفاق.

﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: نظر المغمىٰ عليه خوفاً من الموت، أو المحتضر الذي لا يحرّك بصره. ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ اختلف اللغويّون، والمعربون في هذه الكلمة، فقال الأصمعيّ: إنه فعل ماض، فمعناه: قاربهم ما يهلكهم، وعلى قوله: هو فعل ماض، وفاعله: ضمير مستتر يدلّ عليه السياق؛ كأنه قيل: فأولى

هو؛ أي: الهلاك، والأكثرون على أنه اسم، ثمّ اختلف هؤلاء: فقيل: هو اسم على وزن أفعل، مشتق من الولي: وهو القرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، وقيل: اسم على وزن فعلى، مشتقّ من آل يؤول، فمعناه: الدعاء عليهم بأن يؤول أمرهم إلى المكروه، وقال الراغب: أولى: كلمة تهدّد وتخوّف، يخاطب بها من أشرف على الهلاك، فيحثّ به على عدم التعرّض، أو يخاطب به من نجا منه فينهي عن مثله ثانياً، فأكثر ما يستعمل مكرّراً، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، وأنه حث على تأمّل ما يؤول إليه أمره لينتبه المتحرّز منه، وقال صاحب «الصحاح»: قول العرب: أولى لك: تهديد وتوعيد، ومنه قول الشاعر:

فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ ... وَهَلْ لِلدَّاءِ يَحْلُبُ مَنْ يَرُدُّ

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جدَّ أولو الأمر، والعزم والعزيمة: الجدّ، وعقد القلب إلى إمضاء الأمر، والعزيمة: تعويذٌ، كأنه تصوّر أنك قد عقدت على الشيطان أن يمضي إرادته منك.

والمعنى: فإذا جدّوا في أمر الجهاد، وافترض القتال.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ بكسر السين وفتحها؛ أي: لعلكم، أو فهل يتوقّع منكم إلا الإفساد أن أعرضتم عن الإيمان والقتال؟ وكلمة عسى: تدلّ على توقّع حصول ما بعدها، ولكن التوقع من الله غير متصوّر؛ لأنّ الله عزّ وجل عالم بما كان وبما يكون، فتفيد هنا التحقق؛ أي: حقّق الله إن أعرضتم وتولّيتم عن دين الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ أنّ ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض، بالإغارة والنهب والسلب، وقطع الأرحام، كما مرّ، أو إن تولّيتم أمور الناس، أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشوة، والحكم بالظلم.

﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾: جمع رحم، والرحم في الأصل: رحم المرأة: وهو منبت الولد، ووعاؤه في البطن، ثمّ سمّيت القرابة والوصلة من جهة الولادة رحماً بطريق الاستعارة؛ لكونهم خارجين من رحم واحد.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ والتدبّر: النظر في دبر الأمور وعواقبها، وأصل التدبّر: التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره، وتدبّر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب، وجمع الفهم وقت تلاوته، ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف، وخلوص النيّة. اهـ. «خازن».

﴿أَقْفَالُهَآ﴾ والأقفال: جمع قفل بالضم: وهو الحديد الذي يغلق به الباب. كما في «القاموس».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ الارتداد والردّة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه، لكن الردّة تختصّ بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره، وأصله: ارتَدَدُوا، فكرهوا توالي المثلين، فأدغمت الدال الأولى في الثانية، على حدّ قول ابن مالك في «ألفيته».

أَوَّلَ مِثْلَيْنِ مُحَرَّكَيْنِ فِيْ كِلْمَةٍ ٱدْغِمْ لاَ كَمِثْلِ صُفَفِ

والأدبار: جمع دبر، ودبر الشيء: خلاف القبل، وكني بهما عن العضوين المخصوصين.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: سهّل لهم، وزيّن، من التسويل: وهو تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: أمدّ لهم في الأمانيّ الكاذبة، والآمال الباطلة. قال الراغب: الإملاء: الإمداد، ومنه قيل للمدّة الطويلة: ملاوة من الدهر، وملوة من الدهر، وأصله: أملي، بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وهذه الياء أصلها واو، إلا أنها لمّا صارت رابعة.. قلبت ياء. ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ أصله: سنطوعكم، من الطواعية، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ.

﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ جمع ضغن: وهو الحقد: وهو إمساك العداوة في القلب، والتربص لفرصتها. وفي «المصباح»: ضغن صدره ضغناً، من باب تعب: حقد، والاسم ضغن، والجمع: أضغان، مثل: حمل وأحمال: وهو ضغن وضاغن. وفي «المصباح» أيضاً: الحقد: الانطواء على العداوة والبغضاء، وحقد

عليه من باب ضرب وتعب يجمع على أحقاد، كحمل وأحمال، وقال عمرو بن كلثوم:

وَإنِ ٱلضُّغْنُ بَعْدَ ٱلضُّغْنِ يَبْدُوْ عَلَيْكَ وَيُخْرُجُ ٱلدَّاءَ ٱلدَّفِيْنَا

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أصله: لأريناكهم، نقلت حركة الهمزة إلى الراء فسكّنت ثم حذفت للتخفيف، فوزنه أفلنا. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: بعلامتهم التي نسمهم بها. وفي «القاموس»: والسومة بالضم، والسيمة والسيماء والسيمياء بكسرهن: العلامة، وذكر في السوم. ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: في معنى القول وفحواه ومقصده وأسلوبه، وقيل: اللحن: أن تلحن بكلامك؛ أي: تميله إلى نحو من الأنحاء، ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية، قال الشاعر:

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوْا وَٱللَّحْنَ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلأَلْبَابِ

فاللحن: العدول بالكلام عن الظاهر، والمخطىء لاحن؛ لعدوله عن الصواب؛ أي: لكي تفهموا دون غيركم، فإنَّ اللحن يعرفه أرباب الألباب دون غيرهم، قال في «المصباح»: واللحن بفتحتين: الفطنة: وهو مصدر من باب تعب، والفاعل لحن، يتعدى بالهمزة، فيقال: ألحنته فلحن؛ أي: أفطنته ففطن: وهو سرعة الفهم، وهو ألحن من زيد؛ أي: أسبق فهماً، ولحن في كلامه لحناً من باب نفع: أخطأ في العربية، قال أبو زيد: لحن في كلامه لحناً بسكون الحاء لحوناً: إذا أخطأ في الإعراب، وخالف وجه الصواب، ولحنت بلحن فلان لحناً أيضاً: تكلمت بلغته، ولحنت له لحناً: قلت له قولاً فهمه عنّي، وخفي على غيره من القوم، وفهمته من لحن كلامه، وفحواه ومعاريضه بمعنى، قال الأزهري: لحن القول: كالعنوان، وهو كالعلامة تشير بها فيفطن المخاطب لغرضك. اهـ. وقد كان المنافقون يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يخاطبون بها الرسول ﷺ، ظاهرها حسن ويعنون بها القبيح، كقولهم: راعنا. اهـ «كرخي».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أصل ﴿صدوا﴾: صددوا، أدغمت الدال في الدال، وأصل ﴿شاقوا﴾: شاققوا، أدغمت القاف الأولى في الثانية، فصار شاقوا. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ أصله: يضررون بوزن يفعلون،

حذفت نون الرفع لدخول الناصب وهو ﴿لن﴾، ثم نقلت حركة الراء الأولى إلى الضاد، فسكنت فأدغمت في الراء الثانية.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ من الوهن: وهو الضعف، أصله: توهنون، حذفت نون الرفع لدخول الجازم: وهو ﴿لا﴾ الناهية، ثم حذفت فاء الفعل المثاليّ، فمضارعه: يوهن بوزن يفعل بكسر العين، ووقعت الواو بين ياء مفتوحة وكسرة فحذفت لوقوعها بين عدوّيها: الياء والكسرة. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جمع أعلى، أصله: الأعلوون بواوين، الأولى: لام الكلمة، والثانية: واو جمع المذكر السالم، فيقال: تحركت الواو الأولى وانفتح ما قبها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان فحذفت الألف.

﴿يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ مضارع وتر المثاليّ، وتحذف فاؤه في المضارع. وفي «المختار»: وتره حقَّه يتره بالكسر وتراً بالكسر أيضاً: نقصه.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ويقال في الفرق بينهما: وكل ما اشتغلت به مما ليس فيه ضرر في الحال، ولا منفعة في المآل، ولم يمنعك من مهام أمورك، فهو لعب، فإن شغلك عنها.. فهو لهو، ومن ثم يقال: آلات الملاهي؛ لأنها مشغلة عن غيرها، ويقال لما دون ذلك: لعب كاللعب بالشطرنج، والنرد والحمام.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ أصله: توتقيون استثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم لمَّا سكنت.. حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت القاف لمناسبة الواو، ثم أبدلت الواوفاء الكلمة تاءً، وأدغمت في تاء الافتعال، وحذفت نون الرفع لعطف الفعل على فعل الشرط.

﴿فَيُحْفِكُمْ﴾؛ أي: يجهدكم بطلب الكل. والإحفاء، وكذا الإلحاف: بلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة: إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح. ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وفي «السمين»: بخل، وضن يتعدَّيان بعلى تارةً، وبعن أخرى، والأجود: أن يكونا حال تعدّيهما بعن مضمنين معنى الإمساك. اهـ.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أصله: تدعوون، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ أصله: تتوليون، حذفت نون الرفع لدخول الجازم، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وحذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أسند العزم إلى الأمر إسنادا مجازياً، وهو لأهله مثل: نهاره صائم.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ لتأكيد التوبيخ، وتشديد التقريع. اهـ «أبو السعود».

وفيه أيضاً: ما يُسمَّى في البلاغة في غير القرآن بتجاهل العارف؛ أي: سلوك طريقة الاستخبار.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾؛ لأنّ قطعها كناية عن ترك صلتها.

وفيه أيضاً: الاستعارة التصريحية الأصلية في ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾؛ لأنّ الرحم في الأصل: وعاء الولد في البطن، أستعير لذوي القرابات لكونهم خارجين من رحم واحد.

ومنها: الإشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المفسدون ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إيذاناً بأنّ ذكر إهانتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ اختصر في الإصمام، حيث قال: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ وأطنب في الإعماء، حيث قال: ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخيّ في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

ومنها: تنكير ﴿قُلُوبٍ﴾ في قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ إمّا لتهويل حالها، وتفظيع شأنها، كأنه قيل: على قلوب نكرة لا يعرف حالها، وإمّا لأنّ المراد بها: قلوب بعض منهم: وهم المنافقون.

وفيه أيضاً: الاستعارة التصريحية، حيث شبّه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فهي لا تنفتح لوعظ واعظ.

ومنها: إضافة الأقفال إلى ضمير القلوب؛ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها، مناسبة لها، غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة التي من الحديد، إذ هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح. اهـ «أبو السعود».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ وهو كناية عن الكفر بعد الإيمان.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ لأنّ بلاء الأخبار كناية عن بلاء الأعمال.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، لأنّ الصدّ والمشاقة عين الكفر.

ومنها: زيادة السين في قوله: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لمجرد التأكيد.

ومنها: تكرار اللام الرابطة لجواب ﴿لو﴾ في قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ لمجرد التأكيد بعد قوله: ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ حيث عبّر بنون العظمة لإبراز العناية بالإراءة.

ومنها: حذف المضاف في قوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لن يضرّوا رسول الله بمشاقته شيئاً، فقد حذف المضاف لتعظيمه، وتفظيع مشاقّته.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ حيث

عبّر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوتر، الذي هو إضافة شيء معتدّ به من الأنفس والأموال، فاستعار الوتر الذي بمعنى إضاعة الأموال، لترك الإثابة على الأعمال، فاشتقّ من الوتر الذي بمعنى ترك الإثابة، يتر بمعنى يترك الإثابة، على طريقة الاستعارة التبعية.

ومنها: قصد العموم بقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ لأنّ الجمع المضاف من صيغ العموم. فالمراد: جميع أموالكم.

ومنها: تكرار ها التنبيه في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ للتأكيد.

ومنها: تكرار لفظ ﴿يَبْخَلُ﴾؛ استهجاناً له، وتنفيراً منه.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾؛ أي: ومنكم من يجود، وحذف هذا المقابل؛ لأنّ المراد: الاستدلال على البخل. اهـ «خطيب».

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

ومنها: الإتيان بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾؛ للدلالة على أنّ مدخولها مما يستبعده المخاطبون لتقارب الناس في الأحوال، واشتراكهم في الميل إلى المال.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على ثلاثة مقاصد:

١ ـ وصف الكافرين والمؤمنين من أوّل السورة إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

٢ ـ جزاء الفريقين في الدنيا والآخرة، من خذلان ونصر ونار وجنة، من قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾.

٣ ـ الوعد والوعيد للمنافقين والمرتدين، من قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ . . .﴾ إلى آخر السورة[1].

والله أعلم

* * *

(١) فرغت من تفسير هذه السورة عصر يوم الخميس في تاريخ ١٤١٥/٢/١٧ هـ.

سورة الفتح

قال القرطبي: سورة الفتح مدنية بالإجماع[1]، ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وقد أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سولة الفتح بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج ابن إسحاق والحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل» عن المسور بن مخرمة ومروان، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، من أولها إلى آخرها، وهذا لا ينافي الإجماع على كونها مدنية؛ لأنّ المراد بالسور المدنية: النازلة بعد الهجرة من مكة.

وهي تسع وعشرون آيةً، وخمس مئة وستون كلمةً، وألفان وأربع مئة وثمانية وثلاثون حرفاً، نزلت بعد سورة الجمعة.

تسميتها: سميت سورة الفتح؛ لأنّ الله تعالى بشّر المؤمنين بالفتح المبين، حيث قال في أولها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الآيات.

فضلها: نزلت هذه السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة. قال رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة، هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها». ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ أخرجه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب.

مناسبتها لما قبلها من ثلاثة أوجه[2]:

١ ـ أنّ الفتح المراد به النصر مرتب على القتال، وجاء في سورة محمد تعليم المؤمنين كيفية القتال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، ثم ذكر هنا بيان

---

(١) القرطبي.

(٢) المراغي.

الثمرة اليانعة لتلك الكيفية، وهي النصر والفتح.

٢ - في كلتا السورتين ذكر محمد والفتح، وذكر المؤمنين المخلصين والمشركين والمنافقين.

٣ - وفي السورة السالفة أمر النبيّ ﷺ بالاستغفار لذنبه، وللمؤمنين والمؤمنات، وافتتحت هذه السورة بذكر حصول المغفرة.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها[1]: أنه تقدم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا...﴾ الآية. وهو خطاب لكفار قريش، أخبر رسوله ﷺ بالفتح العظيم، وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال، وآمن كل من كان بها، وصارت مكة دار إيمان، ولما قفل رسول الله ﷺ من صلح الحديبية.. تكلّم المنافقون، وقالوا: لو كان محمد نبياً، ودينه حقاً.. ما صدّ عن البيت، ولكان فتح مكة، فأكذبهم الله تعالى، وأضاف عز وجل الفتح إلى نفسه؛ إشعاراً بأنه من عند الله، لا بكثرة عَدد ولا عُدد، وأكّده بالمصدر، ووصفه بأنه مبين مظهر لما تضمّنه من النصر والتأييد.

والظاهر: أنّ هذا الفتح هو فتح مكة، وقال الكلبي وجماعة: وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه، لما قال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ الآية.. بين أنه فتح لهم مكة، وغنموا، وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا، ولو بخلوا.. لضاع عليهم، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم، وأيضاً لما قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.. بيّن برهانه بفتح مكة، فإنهم كانوا هم الغالبين، وأيضاً لما قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾.. كان فتح مكة، حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى صلح، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين مسلمين.

الناسخ والمنسوخ منها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الفتح مدنية بالإجماع، فيها ناسخ وليس فيها منسوخ.

سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة، ومروان بن

---

(١) البحر المحيط.

الحكم، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة، في شأن الحديبية، من أولها إلى آخرها.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا
عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ
ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ
بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا
وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا
نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ
شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ
يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾.

المناسبة

قد تقدّم قريباً بيان مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها، ووسطها لوسطه، وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآيات، فمناسبتها لما قبلها: أنّ[1] الله سبحانه وتعالى، لما أخبر أنه سينصر رسله.. بينّ سبيل النصر بأنه رزقهم ثبات أقدام ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم، ثمّ أخبر بأنّ من سننه أن يسلّط بعض عباده على بعض، وهو العليم بالمصالح واستعداد النفوس، وقد وعد المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، وأوعد الكافرين والمنافقين الذين كانوا يتربّصون الدوائر بالمؤمنين بالعذاب الأليم، وغضب عليهم، وطردهم من رحمته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمّا أتمّ الكلام[2] على ما لكل من النبيّ ﷺ والمؤمنين من الثمرات، التي ترتّبت على عمله.. أعقبه بما يعمّهما معاً، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً على أمّته، ومبشراً لها بالثواب، ومنذراً إيّاها بالعقاب، ثمّ أبان أنّ فائدة هذا الإرسال هو الإيمان بالله، وتعظيمه وتسبيحه غدوةً وعشيًّا، ونصرة دينه، ثمّ ذكر بيعة الحديبية، وهي قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة سمّيت باسم بئر هناك، وأنّ الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله، ونصروا دينه، وأنّ من نَقَضَ منهم العهد.. فوبال ذلك عائد إليه، ولا يضرنّ إلا نفسه، ومن أوفى بهذا العهد.. فسينال الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر حال المنافقين فيما سلف، وبيّن أنّ الله غضب عليهم ولعنهم، وأعدّ لهم عذاب السعير.. أردف ذلك بذكر قبائل من العرب: جهينة ومزينة وغفار وأشجع، والديل وأسلم، تخلّفوا عن رسول الله ﷺ، لما استنفرهم عام الحديبية، حين أراد السير إلى مكة

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

معتمراً، وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً، وأعتلّوا بأنّ أموالهم وأهليهم قد شغلتهم، لكنّهم في حقيقة أمرهم كانوا ضعاف الإيمان، خائفين من مقاتلة قريش، وكنانة وثقيف والقبائل المجاورة لمكة: وهم الأحابيش، وقالوا: كيف نذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فنقاتلهم؟ وقالوا: لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذا السفر، ففضحهم الله تعالى في هذه الآية، وأخبر بأنه أعد لهؤلاء وأمثالهم ناراً موقدة، تطّلع على الأفئدة، وأعد للمؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، وهو ذو مغفرة لمن أقلع من ذنبه، وأناب إلى ربّه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] اعتذارهم عن التخلّف فيما سلف، بأنه إنما كان لمعالجة معايشهم، وصلاح أموالهم، وما كان له من سبب آخر يقعدهم عن نصرته. . أعقب ذلك بما يكذّبهم في هذه المعذرة، فإنهم قد طلبوا السير مع النبيّ ﷺ في وقعه خيبر، لما يتوقعونه من مغانم يأخذونها، ولو كانت التّعِلّة السالفة حقاً. . ما طلبوا السير معه بحال.

ثم أخبر بأن الله سبحانه رفض طلبهم الذهاب مع رسول الله إلى خيبر، فقالوا: إنّ ذلك حسد من المؤمنين لهم، أن ينالوا شيئاً من الغنيمة، فرد الله عليهم ما قالوا، وأبان أنهم قوم مادّيّون لا يسعون إلا للدنيا، ولا يفهمون ما يعلي شأن الدين، ويرفع قدره.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما رفض[2] إشراك المتخلّفين في قتال خيبر، عقاباً لهم على تقاعدهم عن نصرة الله ورسوله في الحديبية. . أردف ذلك ببيان أنّ باب القتال لا يزال مفتوحاً أمامكم، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاءٍ في ميدان القتال. . فاستعدوا، فستندبون إلى مواجهة قوم

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أولي بأس ونجدة، فإما أن يسلموا، وإما أن تبارزوهم حتى تبيدوا خضراءهم، ولا تبقوا منهم ديّاراً، ولا نافخ نار، فإن أجبتم داعي الله.. أثابكم على ما فعلتم جزيل الأجر، وإن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل.. فستجزون العذاب الأليم.

ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلّف عن الجهاد.

ومنها: ما هو لازم، كالعمى والعرج.

ومنها: ما هو عارض يطرأ ويزول، كالمرض.

ثم أعقب ذلك بالترغيب في الجهاد، والوعيد بالعذاب الأليم من مذّلة في الدنيا، ونار موقدة في الآخرة لمن نكل عنه، وأقبل على الدنيا، وترك ما يقرّبه من ربه.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة[1]: ما أخرجه البخاريّ عن أحمد بن إسحاق السلميّ، عن يعلى عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال: كنا بصفّين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله تعالى؟ فقال علي: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفكسم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية؛ يعني: الصلح الذي كان بين النبيّ ﷺ والمشركين، ولو نرى قتالاً... لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى». قال: ففيم نعطي الدنيّة في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب إنّي رسول الله، ولن يضيِّعني الله أبداً». فرجع متغيِّظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولن يضيّعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وأخرجه أحمد أيضاً.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه

---

(١) أسباب النزول.

أحمد عن قتادة عن أنس رضي الله عنه: أنها نزلت على النبيّ ﷺ مرجعه من الحديبية، وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة، وقد حيل بينهم وبين مساكنهم، ونحروا الهدي بالحديبية. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ إلى ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. قال: «لقد أنزلت عليّ آيتان، هما أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً». قال: فلمّا تلاهما.. قال رجل: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بيَّن لك ما يفعل بك، فما يفعل بنا؟ فأنزل الله عز وجل الآية التي بعدها: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ﴾ نحن ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا محمد ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾؛ أي: فتحاً ظاهراً واضحاً، لا يختلج فيه شكّ بذلك الصلح الذي تمَّ على يديك في الحديبية، إذ لم يمض إلا القليل من الزمان، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان هو السُّلَّم الذي فيه رقيت إلى فتح مكة، وتسابق العرب إلى الدخول في الدين زرافات ووحداناً.

اختلف في تعيين هذا الفتح[1]، فقال أكثر العلماء: هو صلح الحديبية، والصلح قد يسمّىٰ فتحاً، قال الفرّاء: والفتح قد يكون صلحاً، ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذّراً، حتى فتحه الله، قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام، وقال قوم: إنّه فتح مكة، وقال آخرون: إنّه فتح خيبر، والأول: أرجح، ويؤيّده ما ذكرناه قبل هذا، من أنّ السورة أنزلت في شأن الحديبية، وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح، وقيل: هو ما فتح له من النبوّة والدعوة إلى الإسلام، وقيل: فتح الروم، وقيل: المراد بالفتح في هذه الآية: الحكم والقضاء، كما في قوله:

---

(١) الشوكاني.

﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، فكأنه قال: إنا قضينا لك قضاءً مبيناً؛ أي: ظاهراً واضحاً مكشوفاً.

فإن قلت[1]: على هذه الأقوال هذه البلاد مكة وغيرها، لم تكن قد فتحت بعد، فكيف قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ بلفظ الماضي؟

قلت: وعد الله تعالى نبيَّه ﷺ بالفتح، وجيء به بلفظ الماضي، جرياً على عادة الله تعالى في أخباره؛ لأنها في تحقّقها وتيقّنها بمنزلة الكائنة الموجودة، كأنه تعالى قال: إنا فتحنا لك في حكمنا وتقديرنا أزلاً، وما قدّره وحكم به فهو كائن لا محالة.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ﴾ ربّك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؛ أي: جميع ما فُرِّط منك من الهفوات، مما يصح أن يسمىٰ ذنباً بالنظر إلى مقامك الشريف، وإن كان لا يسمىٰ بالنظر إلى سواك، ومن ثم قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والمراد: غفران الذنوب التي قبل الرسالة والتي بعدها، قاله مجاهد، وسفيان الثوريّ، وابن جرير والواحدي، وغيرهم، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما، عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبيّ ﷺ يصلّي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله ما تقدّم من ذبنك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

قال صاحب «الكشاف»: فإن قلت[2]: كيف جعل فتح مكة علّة للمغفرة؟

قلت: لم يجعله علّة للمغفرة، ولكنّه جعله علّة لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، كأنه قيل: يسّرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك؛ لنجمع لك بين عزّ الدارين، وأغراض الآجل والعاجل. اهـ.

---

(١) الخازن.

(٢) الكشاف.

وهذا كلام[1] غير جيّد، فإنّ اللام داخلة على المغفرة، فهي علّة للفتح، فكيف يصحّ أن تكون معلّلة؟. وقال الرازي في توجيه التعليل: إنّ المراد بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾: التعريف بالمغفرة، تقديره: إنا فتحنا لك؛ لتعرف أنك مغفور لك معصوم، وقال ابن عطية: المراد: أنّ الله فتح لك لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك، فكأنها لام الصيرورة.

﴿وَ﴾ لـ ﴿يُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإظهار دينك على الدين كله، وانتشاره في البلاد، ورفع ذكرك في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاج فيه، يستقيم بك إلى رضا ربّك.

والمعنى: ليثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه على من ناوأك من أعدائك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾؛ أي: نصراً غالباً منيعاً لا يتبعه ذل، ولا يدفعه دافع لما يؤيّدك به من بأس، وينيلك من ظفر.

هذا، ولمّا[2] كان لكل عامل ثمرة يجنيها من عمله، وغاية يبتغيها منه كان للنبوة نهاية مطلوبة في هذه الحياة، وثمرة تتبع هذه النهاية، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم الأمور، ويجتمع شملها، وتكمل نظمها التي تبني عليها الحياة الهنيّة، حتى يعيش العالم في طمأنينة وهدوءٍ، ولن يتم ذلك إلا بعد بث الدعوة والجهاد العلمي والعملي بقتال الأعداء، وخضد شوكتهم، ومتى تم هذا، وأنقذ المستضعفون، ودخل الناس في دين الله أفواجاً كرهاً ثم طوعاً انتظم أمر النبوة، وأدى الرسول واجبه، واستوجب أن يجني ثمرة أعماله، وهي:

١ ـ مغفرة ما فرط من ذنبه، مما يعد ذنباً بالنظر إلى مقامه الشريف.

٢ ـ تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة، بعد أن كانت له النبوة وحدها.

٣ ـ الهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة، وإقامة مراسيم الرياسة.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

٤ ـ المنعة والعزّة، ونفاذ الكلمة. ورهبة الجانب، وحمي الذمار.

فهذا الفتح كان كفيلاً بهذه الشؤون الأربعة، فكأنه سبحانه يقول لرسوله: لقد بلّغت الرسالة، ونصبت في العمل، وجاهدت بلسانك وسيفك، وجمعت الرجال والكراع والسلاح، وتلطّفت وأغلظت، وأخلصت في عملك، وفعلت في وجيز الزمن ما لم ينله مثلك في طويله، حتى تم ما ندبناك له، فلتجن ثمار عملك، ولتقر عيناً بما آل إليه أمرك في الدنيا والآخرة.

فإن قلت[1]: وصف الله تعالى النصر بكونه عزيزاً، والعزيز: هو المنصور صاحب النصر، فما معناه؟

قلت: معناه: ذا عزّة، كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: ذات رضاً، وقيل: وصف النصر بما يوصف به المنصور إسناداً مجازياً، يقال: هذا كلام صادق، كما يقال: متكلّم صادق. وقيل: معناه: نصراً عزيزاً صاحبه، فحذف المضاف إيجازاً واختصاراً، وقيل: إنما يحتاج إلى هذه التقديرات إذا كانت العزّة بمعنى الغلبة، والعزيز: الغالب، أما إذا قلنا: إنّ العزيز: هو النفيس القليل، أو العديم النظير، فلا يحتاج إلى هذه التقديرات؛ لأنّ النصر الذي هو من الله تعالى عزيز في نفسه، لكونه من الله تعالى، فصحَّ وصف كونه نصراً عزيزاً. اهـ من «الخازن».

ولمَّا قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.. بيّن وجه هذا النصر، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِي أَنزَلَ﴾ وألقى ﴿السَّكِينَةَ﴾ والطمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم: أهل الحديبية؛ أي: وهو الذي جعل السكينة التي هي الطمأنينة، والثبات، وعدم التزلزل في قلوب المؤمنين، بعد أن دهمهم فيها ما من شأنه أن يزعج النفوس، ويزيغ القلوب من صد الكفار، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم، فلم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا، ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء في الحروب وغيرها، فكان ذلك من

---

(١) الخازن.

أسباب النصر الذي وعد الله تعالى نبيَّه ﷺ؛ أي: جعل السكينة، والطمأنينة، وعدم التزلزل في قلوبهم، بسبب الصلح والأمن بعد الخوف؛ لأنهم كانوا قليلي العدة بسبب أنهم معتمرون، وكان الأعداء مستعدِّين لقتالهم، مع ما لهم من القوّة، والشوكة، وشدة البأس، فثبتوا وبايعوا على الموت بفضل الله تعالى ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ بسبب تلك السكينة ﴿إِيمَٰنًا﴾؛ أي: يقيناً وتصديقاً ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: منضمّاً إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل، قال الكلبيّ: كلما نزلت آية من السماء، فصدّقوا بها.. ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم، وقال الربيع بن أنس: خشيةً مع خشيتهم.

والمعنى[1]: هو الذي أنزل في قلوب المؤمنين طمأنينة، وثبات أقدام عند اللقاء، ومقاتلة الأعداء، ليزدادوا يقيناً في دينهم إلى يقينهم برسوخ عقيدتهم واطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث ما من شأنه أن يزعج ذوي الأحلام، ويزلزل العقائد بصدّ الكفار لهم عن المسجد الحرام، ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم، ولكن لم يرجع أحد منهم عن الإيمان، بعد أن هاج الناس وزلزلوا زلزالاً شديداً، حتى إنّ عمر بن الخطاب لم يكن راضياً عن هذا الصلح، وقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟. وكان للصديق من القدم الثابتة، ورسوخ الإيمان ما دلّ على أنه لا يجارىٰ ولا يبارىٰ. أو المعنى: ليزدادوا[2] إيماناً بشرائع الدين مع إيمانهم بالله ورسوله، وليزدادوا إيماناً بالفروع مع إيمانهم بالأصول، فإنهم آمنوا بأنّ محمداً رسول الله، وأنّ الله واحد، والحشر كائن، وآمنوا بأنّ كل ما يأمر الله به واجب، وبأنّ كلّ ما يقوله النبيّ ﷺ صدق، وهو الذي قد قال لهم: «لا بد من أن تدخلوا مكة، وتطوفوا بالبيت».

ولـمّا قال الله عز وجل:[3] ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾، وكان المؤمنون في قلّة من العَدد والعُدد.. فكأنّ قائلاً قال: كيف ينصره؟ فأجابه الله سبحانه

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

بقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو قادر على نصر رسوله ﷺ ببعض جنوده، بل هو قادر على أن يهلك عدوّه بصيحة، ورجفة، وصاعقة، ونحو ذلك، فلم يفعل، بل أنزل سكينة في قلوبكم أيّها المؤمنون، ليكون نصر رسول الله ﷺ، وإهلاك أعدائه على أيديكم، فيكون لكم الثواب، ولهم العقاب، وفي جنود السموات والأرض وجوه:

الأول: أنهم ملائكة السموات والأرض.

الثاني: أنّ جنود السموات الملائكة، وجنود الأرض جميع الحيوانات.

الثالث: أنّ جنود السموات: مثل الصاعقة، والصيحة، والحجارة، وجنود الأرض: مثل الزلازل والخسف والغرق، ونحو ذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع جنوده الذين في السموات والأرض، أو عليما بالمصالح ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: في تدبير جنوده، أو فيما يقدّر ويدبّر، وقيل: عليماً بما في قلوبكم أيّها المؤمنون، حكيماً حيث جعل النصر لكم على أعدائكم.

والمعنى[1]: أي فهو سبحانه الإله الذي يدبّر أمر العالم، ويسلّط بعض جنده على بعض، فيجعل جماعة يجاهدون لإعلاء كلمة الحق، ويجعل آخرين يقاتلون في سبيل الشيطان، ولو شاء.. لأرسل عليهم جنداً من السماء، فأباد خضراءهم، لكنّه سبحانه شرع الجهاد والقتال لما في ذلك من مصلحة هو عليم بها، وحكمة قد تغيب عنّا، وهذا ما عناه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. فهو لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ الله سبحانه ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين من الرجال ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المخلصات من النساء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: تسيل من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: أنهار الماء واللبن والخمر

---

(١) المراغي.

والعسل، حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقدّرين الخلود في الجنة لا يموتون، ولا يخرجون منها، متعلقة بمقدر يقتضيه السياق، تقديره: هو الذي[1] أنزل السكينة في قلوب المؤمنين؛ ليدخلهم جنات.. إلخ. وقيل: تقديره: إن من علمه وحكمته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية، ووعدهم الفتح والنصر، ليشكروه على نعمه، فيثيبهم ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار.

وقيل[2]: متعلقة بما يدل عليه ما ذكر من كون جنود السموات والأرض له تعالى من معنى التصرّف والتدبير؛ أي: دبّر ما دبَّر من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك، ويشكروها، فيدخلهم الجنة، وقد تقدّم ما روي عن أنس: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.. قال الصحابة: هنيئاً مريئاً، قد بيَّن الله تعالى ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله عزّ وجل الآية التي بعدها: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلخ.

﴿وَيُكَفِّرَ﴾؛ أي: يستر ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن المؤمنين ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ أي: ذنوبهم ولا يظهرها، وهذا[3] بإزاء قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يغطيها ولا يظهرها، قبل أن يدخلهم الجنة؛ ليدخلوها مطهَّرين من الآثام، وتقديم الإدخال على التكفير، مع أنّ الترتيب في الوجود على العكس، من حيث إنَّ التخلية قبل التحلية للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى. أو يقال: إنّ الواو لا تقتضي الترتيب ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره؛ لأنه منتهى ما يمتد إليه أعناق الهمم من جلب نفع، ودفع ضرّ، والفوز: الظفر بالمطلوب مع حصول السلامة، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿فَوْزًا﴾؛ لأنه صفته في الأصل، فلما قدم عليه.. صار حالاً؛ أي: كائناً عند الله تعالى؛ أي: في علمه وقضائه.

أي: وكان[4] ذلك الوعد بإدخالهم الجنة، وتكفير سيئاتهم عند الله وفي

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

حكمه فوزاً عظيماً؛ أي: ظفراً بكل مطلوب، ونجاةً من كل غمّ، وجلباً لكل نفع، ودفعاً لكل ضر، والجملة: معترضة بين جزاء المؤمنين، وجزاء المنافقين والمشركين.

والمعنى[1]: أي وإنّما دبّر ذلك؛ ليعرف المؤمنون نعمة الله، ويشكروها، فيدخلوا الجنة ماكثين فيها أبداً، وليكفرّ عنهم سيئات أعمالهم بالحسنات التي يعملونها شكراً لربهم على ما أنعم به عليهم، وكان ذلك ظفراً لهم بما كانوا يرجون ويسعون له، ونجاة ما كانوا يحذرونه من العذاب الأليم، وهذا منتهى ما يرون من منفعة مجلوبة، ومضرة مدفوعة.

ثمّ لما فرغ مما وعد به صالحي عباده.. ذكر ما يستحقه غيرهم، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ إلخ، فهو معطوف على ﴿يُدْخِلَ﴾؛ أي: وليعذّب المنافقين والمنافقات من أهل المدينة ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ من أهل مكة؛ أي: وليعذّبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم، بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من القهر، والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب جهنم.

وفي تقديم المنافقين على المشركين هنا، وفي غيره من المواضع[2]، دلالة على أنهم أشدّ منهم عذاباً، وأحق منهم بما وعدهم الله به؛ لأنّ المنافقين كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكافرين المجاهرين، لأنّ الكافر يمكن أن يحترز منه، ويجاهد؛ لأنه عدو مبين، فيتوقى المؤمن من شره، والمنافق لا يمكن أن يحترز منه، ولا يجاهد؛ لأنّه يختلطه لظنّه إيمانه فيفشي سره، فلهذا كان شره أكثر من شر الكافر، فكان تقديم المنافق بالذكر أولى.

ثم وصف الفريقين، فقال: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: صفة للفريقين: أهل النفاق، وأهل الشرك. و﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾[3]: منصوب على المصدرية،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

والإضافة فيه كالإضافة في سيف شجاع، من حيث إنّ المضاف إليه في الحقيقة هو موصوف هذا المجرور، والتقدير: سيف رجل شجاع، فكذا التقدير هنا: ظن الأمر السوء، وهو أنّ الله لا ينصر رسوله، ولا يرجعهم إلى مكة فاتحين، ولا إلى المدينة سالمين، كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

والمعنى: الذين يظنون بالله الأمر السيء الفاسد الردىء ظنّاً. وقال في «كشف الكشاف»: إنّ ظن السوء مثل رجل صدق؛ أي: يظنون الظنَّ السيء الفاسد المذموم. انتهى، وعند البصريين لا يجوز إضافة الموصوف إلى صفته ولا عكسها، لأنّ الصفة والموصوف عبارتان عن شيء واحد، فإضافة أحدهما إلى الآخر، كإضافة الشيء إلى نفسه، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ في ذاته وصفاته بالأهواء والبدع، وفي أفعاله، وأحكامه بالظلم والعبث.

﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على المشركين والمنافقين ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: الأمر السيء الرديء الذي يظنونه بالمؤمنين، ويتربّصونه بهم، دائر عليهم، حائق بهم، لا يتجاوزهم إلى غيرهم، فقد أكذب الله سبحانه ظنهم، وقلب ما يظنونه بالمؤمنين عليهم بحيث لا يتخطاهم، ولا يظفرون بالنصرة أبداً، كقوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾. وقال أبو السعود: في سورة التوبة: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض، كقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بعد قول اليهود ما قالوا. اهـ.

فإن قلت: كيف يحمل على الدعاء، وهو للعاجز عرفاً، والله منزه عن العجز؟

قلت: هذا تعليم من الله لعباده أنه يجوز الدعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾، ونحوه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ في الموضعين بفتح السين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بضمها، وهما[2] لغتان في مصدر ساء بمعنى واحد، كالكره والكره،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

والضعف والضعف، خلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء، وأما المضموم فجارٍ مجرى الشر المناقض للخير، ومن ثمة أضيف إلى المفتوح؛ لكونه مذموماً، وكانت الدائرة محمودة، فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل المذكور، وأما ﴿دائرةُ السُّوء﴾، بالضم؛ فلأنَّ الذي أصابهم مكروه وشدة، يصح أن يقع عليه اسم السوء، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾. كما في بعض التفاسير، والدائرة: عبارة عن الخطّ المحيط بالمركز، ثم استعملت في الحادثة والمصيبة المحيطة لمن وقعت هي عليه.

فمعنى الآية: يحيط بهم السوء إحاطة الدائرة بالشيء، أو بمن فيها، بحيث لا سبيل إلى الانفكاك عنها بوجهٍ، إلا أنّ أكثر استعمالها؛ أي: الدائرة في المكروه، كما أنَّ أكثر استعمال الدولة في المحبوب الذي يتداول، ويكون مرةً لهذا، ومرةً لذاك، والإضافة في ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ من إضافة العام إلى الخاص للبيان، كما في خاتم فضة؛ أي: دائر من شرّ، لا من خير.

والخلاصة: [١] أنّ الفريقين ظنّوا أنّ الله لا ينصر رسوله ولا المؤمنين على الكافرين، وقد دعا سبحانه عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنّونه بالمؤمنين من الدوائر، وأحداث الزمان، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: عليهم تدور الدوائر السيئة، والمصائب الداهية، وسيحيق بهم ما كانوا يتربَّصونه بالمؤمنين من قتل وسبيٍ، وأسرٍ لا يتخطاهم.

ثم بين ما يستحقونه من الغضب واللعنة، فقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ولمَّا بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم في الدنيا.. بيَّن ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم، وقال بعضهم[٢]: غضبه تعالى: إرادة العقوبة لهم في الآخرة، وكونهم على الشرك والنفاق في الدنيا، وحقيقته: أن للغضب صورة ونتيجة، أما صورته فتغير في الغضبان يتأذى به ويتألم، وأما نتيجته فإهلاك

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

المغضوب عليه، وإيلامه، فعبَّر عن نتيجة الغضب بالغضب على الكناية بالسبب عن المسبب، وعلى قول هذا القائل فمعنى: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أراد إصرارهم على الشرك والنفاق في الدنيا، وعقوبتهم في الآخرة، وقيل: الغضب[1]: إشارة إلى أنَّ هذا الذي نزل بهم يكون على وجه التعذيب، فإن من كان به بلاء، قد يكون مصاباً على وجه الامتحان ليصير مثاباً، وقد يكون مصاباً على وجه التعذيب، كما هنا.

والصحيح: أنَّ الغضب صفة ثابتة لله تعالى، أثرها الانتقام ممن عصاه.

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي طردهم، وأبعدهم من كل خير، فإن المغضوب عليه قد يقنع الغاضب بالعتب، والشتم أو الضرب، ولا يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه، ولا إلى طرده من بابه، وقد يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه؛ لكون الغضب شديداً ﴿وَأَعَدَّ﴾؛ أي: هيأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ أي: نارها ﴿وَسَآءَتْ﴾؛ أي: قبحت جهنم ﴿مَصِيرًا﴾؛ أي: مرجعاً لهم، والمخصوص بالذمِّ هي.

والمعنى: ونالهم غضب من الله، وأبعدهم فأقصاهم من رحمته، وأعدَّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة، وساءت منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجنّ، والشياطين والصيحة والرجفة والحجارة والزلازل والخسف والغرق، ونحو ذلك أنصاراً على أعدائه، إن أمرهم بإهلاكهم.. أهلكوهم، وسارعوا مطيعين لذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزًا﴾؛ أي: غالباً على كل شيء، فلا يرد بأسه ممن أراد الانتقام منهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّره لخلقه، فلا يفعل ما يفعل إلا على مقتضىٰ الحكمة والصواب، وكرَّر هذه الآية؛ لقصد التأكيد، أو للتنبيه[2] على أنَّ لله تعالى جنوداً للرحمة، ينزلهم ليدخل بهم المؤمنين الجنة، معظماً

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.

مكرماً، وهذا هو المراد في الآية الأولى، وأنّ له تعالى جنوداً للعذاب، يسلّطهم على الكفار، ويعذبهم بهم في جهنم. كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾. والمراد ههنا: جنود العذاب، كما ينبىء عنه التعرض لوصف العزة، فإنَّ عادته تعالى أن يصف نفسه بالعزة في مقام ذكر العذاب والانتقام، وفي «الفتوحات»: ذكر جملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ سابقاً على أنّ المراد به: أنه المدبّر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته، فلذلك ذيلّه بقوله: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. وهنا أريد به: التهديد بأنهم في قبضة قدرة المنتقم، فلذلك ذيله بقوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فلا تكرار. انتهى.

قال في «برهان القرآن»: الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد إيمان المؤمنين، فكان الموضوع موضع علم وحكمة، وأما الثاني والثالث الذي بعده، فمتصلان بالعذاب والغضب، وسلب الأموال والغنائم، فكان الموضع موضع عزّ وغلبة وحكمة، روي: أنه لمّا جرى صلح الحديبية.. قال عبد الله بن أبي رئيس المنافقين: أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها.. لا يبقى له عدوّ، فأين فارس والروم؟ فبيَّن سبحانه أن جنود السموات والأرض، أكثر من فارس والروم.

خلاصة ما سلف[1]: أنّه قد ترتَّب على هذا الفتح أربعة أشياء للنبيّ ﷺ:

١ ـ مغفرة الذنوب.

٢ ـ اجتماع الملك والنبوّة.

٣ ـ الهداية إلى الصراط المستقيم.

٤ ـ العزّة والمنعة.

وفاز المؤمنون بأربعة أشياء:

١ ـ الطمأنينة والوقار.

٢ ـ ازدياد الإيمان.

---

(١) المراغي.

٣ ـ دخول الجنّات.

٤ ـ تكفير السيئات.

وجازى الكفار بأربعة أشياء:

١ ـ العذاب.

٢ ـ العضب.

٣ ـ اللعنة.

٤ ـ دخولهم جهنم.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد إلى كافّة الناس، حالة كونك ﴿شَٰهِدٗا﴾ على أمّتك يوم القيامة بتصديق من صدّقك، وتكذيب من كذّبك كما في قوله في آية أخرىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾؛ أي: مقبولاً قوله في حقهم يوم القيامة عند الله تعالى، سواء شهد لهم أو عليهم، كما يقبل قول الشاهد العدل عند الحاكم، وهو حال مقدرة، فإنه ﷺ إنما يكون شاهداً وقت التحمل والأداء، وذلك متأخّر عن زمان الإرسال، بخلاف غيره مما عطف عليه، فإنه ليس من الأحوال المقدرة ﴿و﴾ حالة كونك ﴿مبشراً﴾ لمن آمن بك بالجنة والثواب ﴿وَنَذِيرٗا﴾؛ أي: منذراً ومخوفاً لمن كذّبك بالعذاب والعقاب ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾؛ أي: لكي تؤمن أنت وأمّتك. ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بوحدانية الله وصفاته ﴿و﴾ تؤمنوا بـ ﴿رسوله﴾ محمد ﷺ بأنه صادق مصدَّق فيما جاء به من عند الله سبحانه، والخطاب[1] في: ﴿تؤمنوا﴾ يكون للنبي ﷺ ولأمّته، فيكون تعميماً للخطاب بعد التخصيص؛ لأنّ خطاب ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ للنبيّ خاصّةً، ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خصّه ﷺ بالنداء، ثمّ عمّم الخطاب على طريق تغليب المخاطب على الغائبين وهم: المؤمنون، فدلت الآية على أنه ﷺ يجب أن يؤمن برسالة نفسه، كما ورد في الحديث: أنه كان يقول: «أشهد أنّي عبد الله ورسوله». ويجوز أن يكون الخطاب

(١) روح البيان.

للأمّة فقط.

فإن قلت: كيف يجوز تخصيص الخطاب الثاني بالأمّة في مقام توجيه الخطاب الأول إليه ﷺ بخصوصه؟.

قلت: إنّ خطاب رئيس القوم بمنزلة خطاب من معه من أتباعه، فيجوز أن يخاطب الأتباع في مقام تخصيص الرسل بالخطاب؛ لأنّ المقصود سماعهم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾؛ أي: ولكي تعزّر الله تعالى أنت وأمّتك، وتنصروه، وتقوّوه بتقوية دينه ونصرة رسوله، من التعزير: وهو النصرة مع التعظيم؛ أي: ولتنصروا الله تعالى بنصر دينه تعالى ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعالى؛ أي: ولكي توقّر الله تعالى أنت وأمّتك، وتعظّموه باعتقاد أنه متصف بجميع صفات الكمال، منزّه عن جميع سمات النقصان، من التوقير: وهو التبجيل والتعظيم. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تعالى؛ أي: ولكي تسبّح الله تعالى أنت وأمّتك، وتنزهوه عمّا لا يليق به، وعمّا لا يجوز إطلاقه عليه تعالى من الشريك والولد، أو تصلّوا له، من السبحة: وهي الدعاء وصلاة التطوع، قال في «القاموس»: التسبيح: الصلاة، ومنه قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾؛ أي: من المصلّين. ﴿بُكْرَةً﴾ وغدوة ﴿وَأَصِيلًا﴾ وعشيّا، فالبكرة: أوّل النهار، والأصيل: آخره، أو تسبّحوه دائماً، فإنه يراد بهما: الدوام، وفي «عين المعاني»: البكرة: صلاة الفجر، والأصيل: الصلوات الأربع، فتكون الآية مشتملة على جميع الصلوات المفروضة.

وجوّز[1] بعض أهل التفسير أن يكون ضمير ﴿تعزّروه وتوقّروه﴾ لرسول الله ﷺ، ولا وجه له؛ لأنه تفكيك وتشتيت للضمائر، إذ ضمير ﴿رسوله﴾ و﴿تسبحوه﴾ لله تعالى قطعاً، وعلى تقدير يكون له وجه، فمعنى تعظيم الرسول ﷺ، وتوقيره حقيقةً: اتباع سنته في الظاهر والباطن، والعلم بأنه زبدة المخلوقات، وخلاصتها وأفضلها على الإطلاق، وحينئذٍ الوقف على ﴿توقروه﴾ وقف تام، ثم يبدأ بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إنا أرسلناك أيّها الرسول شاهداً على أمّتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه، مما أرسلناك به إليهم، مبشّراً لهم بالجنة إن أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدين القيّم، ونذيراً لهم عذاب الله إن تولّوا، وأعرضوا عمّا جئتهم به من عنده، فآمنوا بالله ورسوله، وانصروا دينه، وعظّموه وسبّحوه في الغدّو والعشيّ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾ والأفعال الثلاثة بعده بتاء الخطاب، وأبو جعفر وأبو حيوة وابن كثير وأبو عمرو: بياء الغيبة فيها، والكنايات الثلاثة راجعة إلى الله تعالى؛ لتكون على وتيرة واحدة، كما جرينا عليه في حلّنا، ويصحّ رجوعها إلى رسول الله ﷺ، فحينئذٍ معنى ﴿يسبحوه﴾: ينزهوه ﷺ من كل وصمة بإخلاف وعده بدخول مكة، والطواف بالبيت الحرام، وبنحو ذلك.

وقرأ الجحدري: ﴿وتعزروه﴾ بفتح التاء وضم الزاي مخففةً، وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وتعزروه﴾ بضم التاء وكسر الزاي، وقرأ ابن عباس واليمانيّ: ﴿وتعزّزوه﴾ بزايين، من العزة، وقرىء: ﴿وتوقروه﴾ بسكون الواو.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ أي: إنّ الذين بايعوك، وعاهدوك يا محمد على أن لا يفرّوا من قتال قريش تحت شجرة السمرة في الحديبية بيعة الرضوان، وهم مقدار ألف وخمس مئة أو أربع مئة رجل، سميت[3] المعاهدة مبايعة؛ تشبيهاً بالمعاوضة الماليّة؛ أي: مبادلة المال بالمال في اشتمال كل واحد منهما على معنى المبادلة، فهم التزموا طاعة النبيّ ﷺ، والثبات على محاربة المشركين، والنبيّ ﷺ وعدهم بالثواب، ورضا الله تعالى، قال بعض الأنصار عند بيعة العقبة: تكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فقال ﷺ: «أشترط لربّي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني، ومما تمنعوني منه: أنفسكم، وأبناءكم، ونساءكم» فقال ابن رواحة رضي الله عنه: فإذا فعلنا فما لنا؟

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والمراح.

(٣) روح البيان.

فقال: «لكم الجنة». قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. وفي «الخازن»: وأصل البيعة: العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد الذي التزمه له، والمراد بهذه البيعة: بيعة الرضوان.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أنفسهم بالجنة؛ أي: إنّ[1] من بايعك بمنزلة من بايع الله، كأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾. وذلك لأنّ المقصود ببيعة رسوله: هو وجه الله، وتوثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه، قال ابن الشيخ: لمّا كان الثواب إنما يصل إليهم من قبله تعالى.. كان المقصود بالمبايعة منه ﷺ: المبايعة مع الله سبحانه، وأنه ﷺ إنما هو سفير، ومعبّر عنه تعالى، وبهذا الاعتبار صاروا كأنهم يبايعون الله تعالى.

وقرأ تمام بن العباس بن عبد المطلب: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: لأجل الله ولوجهه، والمفعول: محذوف؛ أي: إنما يبايعونك لله، ذكره في «البحر».

والمعنى: أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى، من غير تفاوت بينهما؛ لأنّ من بايع النبي ﷺ أن لا يفرّ من موضع القتال إلى أن يقتل، أو أن يفتح الله لهم، وإن كان يقصد ببيعته رضا الرسول ظاهراً، لكن إنما يقصد بها حقيقةً رضا الرحمن، فإنّ المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه، وهذا يسمى بيعة الرضوان؛ لقول الله تعالى في شأن هذه البيعة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ...﴾ الآية.

وجملة قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: مستأنفة[2] لتقرير ما قبلها على طريق التخييل في محل نصب على الحال؛ أي: نعمة[3] الله عليهم في الهداية فوق إحسانهم إلى الله، وهو ما صنعوا من البيعة، أو نصرة الله تعالى إيّاهم أعلى من نصرتهم إياه، ويقال: حفظ الله إياهم على البيعة أقوى من وضع يد ثالث على

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

أيدي المتبايعين لحفظ أيديهما إلى أنّ يتم العقد، فإنّ كل واحد من المتبايعين إذا مد يده إلى صاحبه في البيع والشراء.. يتوسط بينهما ثالث، فيضع يده على يديهما، فيحفظ يديهما إلى أنّ يتم العقد، لا يترك واحداً منهما أن يقبض يده إلى نفسه، ويتفرق عن صاحبه قبل انعقاد البيع، فيكون وضع الثالث يده على يديهما سبباً لحفظ البيعة، فلذلك قال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ يحفظهم، ويمنعهم عن ترك البيعة، كما يحفظ المتوسّط أيدي المتبايعين.

فيد الله في هذه التأويلات: إما بمعنى النعمة، أو بمعنى النصرة، أو بمعنى الحفظ، وقال سعدي المفتي: الظاهر: والله أعلم أنَّ المعنى على التشبيه؛ أي: كأنهم يبايعون الله، وكذا الحال في قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾؛ أي: كأنَّ يد الله حين المبايعة فوق أيديهم، حذف أداة التشبيه للمبالغة في التأكيد، وذكر اليد لأخذهم بيد رسول الله ﷺ حين البيعة على ما هو عادة العرب عند المعاهدة والمعاقدة، وفيه تشريف عظيم ليد رسول الله ﷺ، التي تعلوا أيدي المؤمنين المبايعين، حيث عبَّر عنها بيد الله، كما أنَّ وضعه ﷺ يده اليمنى على يده اليسرى لبيعة عثمان رضي الله عنه تفخيم لشأن عثمان، حيث وضعت يد رسول الله ﷺ موضع يده، ولم ينل تلك الدولة العظمى أحد من الأصحاب، فكانت غيبته رضي الله عنه في تلك الواقعة خيراً له من الحضور، وقيل غير ذلك من الأقوال المتلاطمة، وقيل: إنّ في الكلام حذف مضاف؛ أي: يد رسول الله ﷺ فوق أيديهم عند المبايعة.

تنبيه هام: وهذا الذي ذكرناه من الأقاويل: مذهب أهل التأويل، وكلامهم في هذه الآية، ومذهب أهل السلف، وهو الأصحّ الصحيح، والأسلم السليم: السكوت عن التأويل، وإمرار آيات الصفات كما جاءت وتفسيرها قراءتها، والإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، والله أعلم بمعنى كلامه وأسرار كتابه.

وعن يزيد بن عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أيّ شيءٍ بايعتم رسول الله ﷺ؟ قال: على الموت. متفق عليه.

وعن معقل بن يسار قال: لقد رأيتني يوم الشجرة، والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفرَّ. أخرجه مسلم.

قال العلماء: لا منافاة بين الحديثين، ومعناهما صحيح، فيقال في الجمع بينهما: بايعه جماعة، منهم: سلمة بن الأكوع على الموت، فلا يزالون يقاتلون بين يديه حتى يقتلوا، أو ينتصروا، وبايعه جماعة، منهم: معقل بن يسار على أن لا يفرّوا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنّ الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية، تفرَّقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ، فقال ـ يعني: عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس أحدقوا بالنبي ﷺ، فذهب، فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر، فخرج فبايع. أخرجه البخاري.

بيعة الرضوان بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة: أنّ رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعيّ حين نزل الحديبية، فبعثه إلى قريش بمكة ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش، واحدهم أحبوش: وهو الفوج من قبائل شتّى، فخلّوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه، فقال: إنيّ أخافهم على نفسي لما أعرف من عداوتي إياهم، وما بمكة عدويٌّ، قبيلته بنو عدي، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها، وأحبّ إليهم: عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان، وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظّماً لحرمته، فلقيه أبان بن سعيد بن العاصي حين دخل مكة، فجعله في جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش، ثمّ احتبسوه عندهم، فشاع بين المسلمين أنّ عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وبايعه القوم على أن لا يفرّوا أبداً إلا جدَّ بن قيس الأنصاري، فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا داعين إلى الموادعة والصلح،

وكان قد أتى رسول الله ﷺ أنَّ الذي بلغه من أمر عثمان كذب، فتم الصلح، ومشى بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله ﷺ في العام القابل، ويدخل مكة.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾؛ أي: فمن نقض العهد الذي عقده مع النبيّ ﷺ، وبيعته معه، وأزال إبرامه وإحكامه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾ وينقض إدخالاً للضرر ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه، ولا يضر بنقضه إلا نفسه؛ لأنّ الناكث هو لا غير؛ لأنّه فوت على نفسه الإحسان الجزيل، على العمل القليل، فقد خسر. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾؛ أي: ومن وفىٰ ﴿بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ بضم الهاء؛ فإنه[1] أبقى الضم بعد حذف الواو، إذ أصله: عليه والله توصلاً بذلك إلى تفخيم لام الجلالة؛ أي: ومن أوفىٰ بعهده مع الله، وثبت عليه، وأتمّه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ الله سبحانه وتعالى في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً: هو الجنة وما فيها من رضوان الله العظيم، والنظر إلى وجهه الكريم، وسيدخله جنات يجد فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويحتمل أن يراد بنكث العهد: ما يتناول عدم مباشرته ابتداءً، ونقضه بعد انعقاده؛ لما روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت، وعلى أن لا نفرّ، فما نكث أحد منّا البيعة إلا جُدَّ بن قيس، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط بعيره، ولم يصر مع القوم؛ أي: إلى المبايعة حين دعوا إليها.

وقرأ زيد بن عليّ[2]: ﴿يَنْكِثْ﴾ بكسر الكاف، وقرىء: ﴿بما عَهِدَ﴾ ثلاثياً، وقرأ الجمهور: ﴿عليه﴾ بكسر الهاء والترقيق لوقوعها بعد ياءٍ ساكنةٍ، كما هو الغالب، وقرأ حفص والزهري: بضمها والتفخيم على الأصل في بناء هاء الضمير على الضمّ؛ لأنّها هاء هو، وهي مضمومة، فاستصحب ذلك، كما في له وضربه، وقرأ الجمهور: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ بالياء التحتية، وقرأ نافع وابن كثير، وابن عامر

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وزيد بن عليّ: بالنون.

﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ السين فيه: للاستقبال ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ من خلّفته بالتشديد تركته خفي، وخلفوا أثقالهم تخليفاً خلّوها وراء ظهورهم؛ أي: سيقول لك يا محمد، الأحياء الذين خلّفتهم وتركتهم وراءك في المدينة، حين سافرت إلى مكة ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين خلَّفهم الله تعالى عن صحبتك، إذا رجعت إليهم من عمرتك هذه، وعاتبتهم على التخلف عنك: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن المسافرة والخروج معك ﴿أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ أي: نساؤنا وذرارينا؛ يعني: لم يكن لنا من يخلفنا فيهم، فلذا تخلفنا عنك، قال ابن عباس ومجاهد: يعني: أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والنخع، وذلك أنّ رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً.. استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأحرم بالعمرة، وساق الهدي؛ ليعلم الناس أنه لايريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، وتخلّفوا، واعتلّوا بالشغل، فأنزل الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، إذا رجعت إليهم من عمرتك: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ أي: منعنا عن الخروج معك مالنا، من الأموال والنساء والذراريّ، وليس لنا من يقوم بهم، ويخلفنا عليهم، فإنا لو تركناهم.. لضاعوا، وأنت قد نهيت عن ضياع المال، وعن التفريط في العيال، وقرىء[1]: ﴿شَغَّلَتْنا﴾ بتشديد الغين، حكاه الكسائي، وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة.

ولمّا علموا أنّ ذلك التخلُّف عن الرسول الله ﷺ كان معصية.. سألوا أن يستغفر لهم ﴿فـ﴾ قالوا: ﴿استغفر لنا﴾ الله يا رسول الله بتأخرنا عنك عن الخروج إلى الحديبية؛ أي: فاطلب لنا المغفرة من الله، إذ لم يكن تخلَّفنا عن عصيان لك، ولا مخالفة لأمرك؛ ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب.

ولمّا كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد، بل على طريقة الاستهزاء،

---

(١) البحر المحيط.

وكانت بواطنهم مخالفةً لظواهرهم.. فضحهم الله سبحانه بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾؛ يعني: أنهم في طلب الاستغفار كاذبون؛ لأنّهم لا يبالون أستغفر لهم النبيّ ﷺ أم لا، وهذا صنيع المنافقين، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوي عليه بواطنهم، ويجوز أن تكون بدلاً من الجملة الأولىٰ؛ أي: إنهم لم يكونوا صادقين في اعتذارهم بأنَّ الامتناع كان لهذا السبب؛ لأنّهم إنّما تخلّفوا اعتقاداً منهم أنّ النبيّ ﷺ والمؤمنين يغلبون، بدليل قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾. فإنهم[1] قالوا: أهل مكة يقاتلون في باب المدينة، فكيف يذهب إلى قوم قد غزوا في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه في أحد؟ وكيف يكون حالهم إذا دخل عدوّهم بلادهم، وأحاطوا بهم؟.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردّاً لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾؛ أي: فمن يقدر لأجلكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من مشيئة الله، وقضائه أن يجلب ﴿شَيْـًٔا﴾ من النفع ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أو من يحفظكم من مشيئته وقضائه، إن أراد بكم ضرّاً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ضَرًّا﴾ بفتح الضاد، وهو مصدر ضررته ضرّاً، وقرأ حمزة والكسائي: بضمها، وهو اسم ما يضر، وقيل: هما لغتان في المصدر؛ أي: إن أراد بكم ما يضركم، كقتل وهزيمة، وخلل في المال والأهل، وعقوبة على التخلف من هلاك الأهل والأموال، وضياعهما حتى تتخلّفوا عن الخروج لحفظهما، ودفع الضرر عنهما. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ﴾؛ أي: ومن يقدر على شيء من الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهليكم؛ فأيُّ حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما.

أي: قل لهم[3]: إنكم بعملكم هذا تحترسون من الضر، وتتركون أمر الله ورسوله، وتقعدون طلباً للسلامة، ولكن لو أراد الله بكم ضرًا.. لا ينفعكم

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

قعودكم شيئاً، أو أراد بكم نفعاً، فلا راد له، إذ من الذي يمنع من قضائه، وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنهم الضر، ويجلب لهم النفع.

ثم أبان لهم أنه عليم بجميع نواياهم، وأنّ ما أظهروه من العذر هو غير ما أبطنوه من الشك والنفاق، فقال: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: عليماً بجميع ما تعملونه بواطنه وظواهره، فيعلم أنَّ تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير، بل كان شكًّا ونفاقاً، كما فصَّل ذلك بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ...﴾ إلخ: بدل[1] من ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ مفسِّرٌ لما فيه من الإبهام؛ أي: بل ظننتم أيها المخلفون ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾؛ أي: أنه لن ينقلب، ولن يرجع، فـ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين معه: وهم ألف وأربع مئة ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾ في المدينة ﴿أَبَدًا﴾ لظنكم أن يستأصلهم المشركون بالكلية، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلأجل ذلك الظنّ تخلَّفتم، لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة.

وقرأ عبد الله[2]: ﴿إلى أهلهم﴾ بغير ياءٍ، وأهلون:[3] جمع أهل، كأرضون جمع أرض، وقد يجمع على أهلات كأرضات على أنّ أصله: أهلة، وأما أهال فاسم جمع، كليال.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ الظن المذكور ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: زيَّنه الشيطان في قلوبكم، وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بهم، وقرأ الجمهور: ﴿وَزُيِّنَ﴾ مبنياً للمفعول، وقرىء: مبنياً للفاعل، والفاعل الله حقيقةً، أو الشيطان مجازاً ﴿وَظَنَنتُمْ﴾ في الرسول والمؤمنين ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: ظننتم فيهم الأمر السّيء الفاسد الرديء ظنًّا، وهو عدم انقلابهم إلى أهاليهم، وعدم نصر الله إياهم، والظنّ: منصوب على المصدرية، مضاف إلى موصوف محذوف، كما مرّ، وهذا

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البيضاوي.

الظنّ: إنما هو الظنّ الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء، وإلا فهو من عطف الشيء على نفسه، أو ما يعمّه وغيره من الظنون الفاسدة التي من جملتها: الظنّ بعدم صحة رسالته ﷺ، فإن الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ما ذكر من الاستئصال، فبهذا التعميم لا يلزم التكرار. ﴿وَكُنتُمْ﴾ بذلك الظن ﴿قَوْمًا بُورًا﴾؛ أي: قوماً هالكين عند الله سبحانه، مستوجبين سخطه وعقابه، على أنه جمع بائر، من بار بمعنى هلك، كعائذ وعوذ، وهي من الإبل والخيل الحديثة النتاج، أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم، ونيّاتكم لا خير فيكم، فإنَّ البور: الفاسد في بعض اللغات، قال الجوهري: البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه.

والمعنى[1]: أي أن تخلفكم لم يكن لما أبديتم من الأسباب، بل إنكم اعتقدتم أنّ الرسول والمؤمنين سيقتلون، وتستأصل شأفتهم، فلا يرجعون إلى أهليهم أبداً، وزيّن لكم الشيطان ذلك الظنَّ، حتى قعدتم عن صحبته، وظننتم أنّ الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين على أعدائهم، بل سيغلبون، ويقتلون، وبلغ الأمر بكم أن قلتم: إنّ محمداً وأصحابه أكلة رأس، قليلوا العدد، فأين يذهبون؟ وقد صرتم بما قلتم قوماً هلكىٰ، لا تصلحون لشيء من الخير، مستوجبين سخط الله وشديد عذابه.

ثم أخبر سبحانه عما أعده للكافرين به، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا كلام مستأنف من جهته تعالى، غير داخل تحت ما أمر الله به رسوله ﷺ أن يقوله، مقرر لبوارهم، ومبين لكيفيته. و﴿مَنْ﴾: شرطية أو موصولة، جوابها أو خبرها: محذوف، دلَّ عليه قوله: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾؛ أي: ومن لم يصدق بما أخبر الله به، ويقر بصدق ما جاء به رسوله من الحق من عنده، كهؤلاء المخلفين.. فهو كافر مستوجب لسخط الله وعذابه، لأنّا أعتدنا وهيأنا للكافرين ناراً ملتهبة متقدة عليه يوم القيامة جزاء كفره، وإنما[2] وضع الكافرين موضع

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

الضمير العائد إلى ﴿مَن﴾ الشرطية أو الموصولة؛ إيذاناً بأنّ من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله هو كافر مستوجب للسعير؛ أي: النار الملتهبة، وتنكير ﴿سَعِيرًا﴾ للدلالة على أنها سعير لا يكتنه كنهها، أو لأنها نار مخصوصة، كما قال: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾. فالتنكير للتنويع.

ثمّ بيّن سبحانه قدرته على ذلك، وأنه يفعل ما يشاء، لا رادّ لحكمه، ولا معقّب لقضائه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه، لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وما فيهما، يتصرف في الكل كيف يشاء، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وإنما تعبدهم بما تعبدهم ليثيب من أحسن، ويعاقب من أساء، ولهذا قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له، وهو فضل منه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ أن يعذّبه، وهو عدل منه من غير دخل لأحد في شيء منهما وجوداً وعدماً، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وفيه حسم لأطماعهم الفارغة في استغفاره ﷺ لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة بليغهما، يخصّ بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده، ولا يشاء إلا لمن تقتضي الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله، وأما من عداه من الكافرين، فهو بمعزل من ذلك قطعاً.

ومعنى الآية[1]: أي ولله السلطان والتصرف في السموات والأرض، فلا يقدر أحد أن يدفعه عمّا أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه، أو منعه من العفو عنكم إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم، وهذا حسم لأطماعهم في استغفاره ﷺ لهم، وهم على هذه الحال، ثمّ أطمعهم في مغفرته وعفوه إن تابوا وأنابوا إليه، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن يشاء المغفرة والرحمة دون من عداه.

وفي الآية حث لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله ﷺ على التوبة، والمراجعة إلى أمر الله في طاعة رسوله ﷺ، وطلب المبادرة بها، فإنّ الله يغفر للتائبين، ويرحمهم إذا أنابوا إليه، وأخلصوا العمل له.

---

(١) المراغي.

﴿سَيَقُولُ﴾ لك يا محمد، و﴿السين﴾: يدل على القرب ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون؛ أي: سيقول لك الذين تخلّفوا عنك في عمرة الحديبية، واعتلُّوا بشغلهم بأموالهم وأهليهم: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿سَيَقُولُ﴾؛ أي: سيقولون عند انطلاقكم وذهابكم أيها المؤمنون ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وتحوزوها حسبما وعدكم إياها، وخصَّكم بها عوضاً عمّا فاتكم من غنائم مكة إذا انصرفتم منها على صلح، ولم تصيبوا منها شيئاً ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾؛ أي: اتركونا نتبعكم، ونشهد معكم غزوة خيبر، وأصل القصة:[1] أنه لما انصرف النبيّ ﷺ ومن معه من المسلمين من الحديبية.. وعدهم الله سبحانه فتح خيبر، وخصَّ بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها.. قال هؤلاء المخلّفون: ذرونا نتبعكم، ونسر معكم إلى غزوة خيبر حين توقعوا ما سيكون فيها من مغانم، وفي هذا وعد للمبايعين الموافقين بالغنيمة، وللمتخلفين المخالفين بالحرمان.

فإن قيل: كيف[2] يصح هذا الكلام، وقد ثبت أنه ﷺ أعطى من قدم مع جعفر رضي الله عنه من مهاجري الحبشة، وكذا الدوسيين والأشعريين من مغانم خيبر، ولم يكونوا ممن حضر الحديبية؟.

قلنا: كان ذلك باستنزال أهل الحديبية عن شيء من حقهم.

فقال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: يريد أولئك المخلفون بقولهم: ﴿ذَرُونَا﴾ ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟﴾ ويغيِّروا ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: مواعيد الله لأهل الحديبية، حيث وعدهم غنيمة خيبر لهم خاصة، وهذا قول جمهور المفسرين، وقال مقاتل: يعني: أمر الله تعالى نبيه ﷺ حيث أمره أن لا يسير منهم أحد إلى خيبر. وقال ابن زيد: هو قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾. والقول الأول أصوب.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ بألف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كَلِمَ الله﴾ بلا ألف: جمع كلمة مثل: نبق ونبقةٍ، فالمراد بتبديلهم كلام الله تعالى: قصد مشاركتهم في المغانم التي خصّها بأهل الحديبية، فإنه ﷺ رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية، ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة، فخصَّها بهم حسبما أمره الله تعالى، فالمراد بكلام الله: ما ذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصةً، لا قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ فإنّ ذلك نزل في غزوة تبوك مرجع رسول الله ﷺ من تبوك في آخر عمره، وهذه السورة نزلت عام الحديبية.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم إقناطاً وتيئيساً من الذهاب معه إلى خيبر، بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المخلّفين الذين يريدون تبديل كلام الله إقناطاً لهم: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ في المسير إلى خيبر، ولن تذهبوا معنا؛ أي: لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة. وقال سعدي المفتي: ﴿لَّن﴾ ليس[2] للتأبيد، سيّما إذا أريد النهي.

والمراد: لن تتبعونا في خيبر، أو ديمومتهم على مرض القلوب، وقال أبو الليث: لن تتبعونا في المسير إلى خيبر، إلا متطوعين من غير أن يكون لكم شركة في الغنيمة.

﴿كَذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: قولاً مثل ما قلته لكم ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿مِن قَبْلُۖ﴾؛ أي: من قبل رجوعنا من الحديبية إليكم؛ أي: قال عند انصرافنا من الحديبية: إنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبيّة خاصةً، ليس لغيرهم فيها نصيب. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾؛ أي: فسيقول المنافقون للمؤمنين عند سماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾؛ أي: ليس ذلك النهي حكم الله، بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم؛ أي: بل ما يمنع من خروجنا معكم إلا الحسد منكم؛ لئلاّ نشارككم في الغنيمة، وليس ذلك

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

بقول الله سبحانه كما تزعمون. والحسد: تمنّي زوال النعمة عمّن يستحق لها، وربّما يكون من ذلك سعي في إزالتها.

ثم رد الله سبحانه عليهم اتهام رسوله وصحبه بالحسد، بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا﴾؛ أي: أولئك المخلفون ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: إلا فهماً قليلاً، وهو فطنتهم لأمور الدنيا، وهو وصف لهم بالجهل المفرط وسوء الفهم في أمور الدين، وعن علي رضي الله عنه: «أقل الناس قيمةً أقلهم علماً».

ومعنى الآية: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾؛ أي:[1] لا تأذن لهم في الخروج معك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإنَّ امتناعهم عن الخروج إلى الحديبية ما حصل إلا لأنّهم كانوا يتوقعون المغرم: وهو جلاد العدو، ومصاولته، ولا يتوقعون المغنم، فلمّا انعكست الآية في خيبر.. طلبوا ذلك، فعاقبهم الله بطردهم من المغانم، ثمّ أكد هذا المنع بقوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مثل هذا القول الصادر منّي قال الله سبحانه من قبل مرجعنا من الحديبية إليكم؛ أي: حكم الله بأن لا تتبعونا، وبأنَّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا، ولستم ممن شهدها، فليس لكم أن تتبعونا؛ لأنّ غنيمتها لغيركم، ثم أخبر بأنهم سيردُّون مقالك السابق: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾. فقال: فسيقولون: إنّ الله ما قال ذلك من قبل، بل أنتم تحسدوننا أن نصيب معكم مغنماً، ومن ثم منعتمونا، فردّ الله عليهم اتهام الرسول وصحبه بالحسد، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا﴾ إلخ؛ أي: ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب، من أنكم تمنعونهم عن اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنماً، بل إنما كان؛ لأنّهم لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً، ولو فقهوا.. ما قالوا ذلك لرسوله وللمؤمنين بعد أن أخبرهم بأنّ الله منعهم غنائم خيبر، وفي هذا إشارة إلى أن ردهم حكم الله، وإثبات الحسد لرسوله وللمؤمنين ناشىء من الجهل، وقلة التدبر، فإن حب الدنيا ليس من شيمة

---

(١) المراغي.

العالم العاقل.

واعلم: أيها الأخ الكريم، أنّ العلم إنما يزداد بصحبة أهله، ولمّا تخلف المنافقون عن صحبة رسول الله ﷺ.. وصفهم الله سبحانه بعدم الفقه، فلا بدَّ من مجالسة العلماء العاملين، حتى تكون الدنيا وراء الظهر، ويجعل الرغبة في الآخرة. وقدورد في الأخبار: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

وعن بعضهم قال: رأيت في الطواف كهلاً قد أجهدته العبادة، وبيده عصا، وهو يطوف معتمداً عليها، فسألته عن بلده، فقال: خراسان، ثم قال لي: في كم تقطعون هذا الطريق؟ قلت: في شهرين أو ثلاثة، فقال: أفلا تحجون كلّ عام؟ فقلت له: وكم بينكم وبين هذا البيت؟ قال: مسيرة خمس سنين، قلت: هذا والله هو الفضل المبين، والمحبّة الصادقة، فضحك وأنشأ يقول:

زُرْ مَنْ هَوَيْتَ وَإنْ شَطَّتْ بِكَ الدَّارُ ... وَحَالَ مِنْ دُوْنِهِ حُجْبٌ وَأَسْتَارُ
لاَ يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ عَنْ زِيَارَتِهِ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ المذكورين من الأعراب، كرّر ذكرهم بهذا العنوان؛ لذمّهم مرّة بعد أخرى، فإنّ التخلّف عن صحبة الرسول ﷺ شناعة أي شناعة: إنكم ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ وتندبون ﴿إِلَىٰ﴾ قتال ﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: أصحاب قوّة شديدة في الحرب، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين: إما السيف، وإما الإسلام، وهذا حكم عام في مشركي العرب والمرتدين، يجب اتباعه، كما بيّن الأمرين بقوله: إما ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾ أبداً ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾: كلام مستأنف، كأنّه قيل: لماذا يدعون؟ فأجيب: ليكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أبداً، أو الإسلام لا غير، وأما من عدا المرتدين والمشركين من العرب فينتهي قتالهم بالجزية، كما ينتهي بالإسلام.

يعني: أنّ المراد بـ ﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: المرتدّون والمشركون مطلقاً، سواء كانوا مشركي العرب أو العجم، بناءً على أنّ من عدا الطائفتين المذكورتين، وهم: أهل الكتاب والمجوس، ليس الحكم فيهم أن يقتلوا إلى أن يسلموا، بل تقبل منهم الجزية، بخلاف المرتدّين، ومشركي العرب والعجم، فإنه لا تقبل منهم

الجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا، وهذا عند الشافعي، وأما عند أبي حنيفة: فمشركوا العجم تقبل منهم الجزية، كما تقبل من أهل الكتاب والمجوس، والذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف إنما هم مشركوا العرب والمرتدون فقط عنده.

واختلف العلماء في تعيين هؤلاء القوم، فقال الزهريّ ومقاتل وجماعة: المراد بالقوم أولي البأس شديد: بنو حنيفة، أصحاب مسيلمة الكذّاب، وقال قتادة: هم هوازن وغطفان، وقال ابن عباس، ومجاهد: هم أهل فارس، وقال الحسن: هم فارس والروم، قال ابن جرير: إنه لم يقم دليل من نقل، ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين. اهـ.

أي: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام، لا ثالث لهما.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ مرفوعاً، وقرأ أبيّ وزيد بن عليّ: بحذف النون منصوباً بإضمار أن بعد ﴿أَوۡ﴾ العاطفة لمصدر متصيد، على مصدر متوهّم؛ أي: يكون قتال أو إسلام، والرفع على العطف على: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ﴾ أو على القطع؛ أي: أو هم يسلمون دون قتال.

ثمّ وعدهم إذا أجابوا بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾؛ أي: فإن تستجيبوا وتنفروا أيّها المخلّفون للجهاد، وتؤدُّوا ما طلب منكم أداؤه.. ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يعطكم ربّكم ﴿أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ وثواباً جزيلاً، فتنالوا المغانم في الدنيا، وتدخلوا الجنة في الآخرة، كما وعد من نكص على عقبه بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: تعرضوا عن الدعوة، وتعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته، وتخالفوا أمره، فتتركوا قتال أولي النجدة والبأس الشديد إذا دعيتم إلى قتالهم ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ في الحديبية؛ أي: كما عصيتموه في أمره إياكم بالمسير مع رسوله ﷺ إلى مكة ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ أي: عذاباً شديداً بالمذلّة في الدنيا بالقتل والأسر والقهر والنار في

---

(١) البحر المحيط.

الآخرة لتضاعف جرمكم.

وبيان المقام[1]: أنه ﷺ لمّا قال لهم: «لن تتبعونا».. دعت الحاجة إلى بيان قبول توبة من رجع منهم عن النفاق، فجعل تعالى لهذا القبول علامة، وهو أنهم يدعون بعد وفاته ﷺ إلى محاربة قوم أولي بأس وقوة في الحرب، فمن أجاب منهم دعوة إمام ذلك الزمان، وحاربهم.. فإنه يقبل توبته، ويعطى الأجر الحسن، فلولا هذا الامتحان.. لاستمرّ حالهم على النفاق، كما استمرت حالة ثعلبة عليه، فإنه قد امتنع من أداء الزكاة، ثمّ أتى بها، ولم يقبل منه النبي ﷺ، واستمر عليه الحال، ولم يقبل منه أحد من الصحابة، فلعلّه تعالى علم من ثعلبة أنَّ حاله لا تتغيّر، فلم يبيّن لتوبته علامةً، وعلم من أحوال الأعراب أنها تتغيّر، فبيّن لتغيُّرها علامةً. والله أعلم.

روي: أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية.. قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية، فبيَّن فيها الأعذار المبيحة للتخلف عن القتال بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: فاقد البصر ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: إثم في التخلف عن الغزو؛ لأنّه كالطائر المقصوص الجناح لا يمتنع على من قصده، والتكليف يدور على الاستطاعة ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾؛ أي: على فاقد منفعة الرجل ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ذنب في التخلّف عن الجهاد لما به من العلّة اللازمة إحدى الرجلين أو كلتيهما، وقد سقط عمّن ليس له رجلان غسلهما في الوضوء، فكيف بالجهاد؟! ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ مرضاً يمنع من الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ لأنّه لا قوّة به، وفي نفي الحرج عن كلّ من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم، وتوسيع لدائرة الرخصة.

والمعنى: أي ليس[2] على من في عضوه أو قوّته خلل مأثم في التخلّف عن الغزو، وكذا فقير لا يمكن له استصحاب ما يحتاج إليه من مصالح الجهاد، وإنما قدّم الأعمى على الأعرج؛ لأنَّ عذره مستمر، لا يمكن الانتفاع به في حراسة

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

وغيرها، ولا يعود بصيراً، أما الأعرج، فإنه يمكن الانتفاع به في الحراسة ونحوها، وقد يقدر على القتال بالرمي وغيره، وقدم الأعرج على المريض؛ لأنّ عذره أشدّ من عذر المريض؛ لإمكان زوال المرض عن قرب، فالعذر في محل الآلة أتم من الآفة في القوّة.

ومجمل المعنى[1]: أي لا إثم على ذوي الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد، وشهود الحرب مع المؤمنين إذا هم لاقوا عدوَّهم للعلل التي بهم، والأسباب التي تمنعهم من شهودها، كالعمىٰ والعرج والمرض، قال مقاتل: عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية.

ثم رغب سبحانه في الجهاد، وطاعة الله ورسوله، وأوعد على تركه بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي في السر والعلن من المعذورين وغيرهم، فيجب الداعي إلى حرب أعدائه أهل الشرك، دفاعاً عن دينه، وإعلاءً لكلمته ﴿يُدْخِلْهُ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ خالدين فيها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن طاعتهما، ويعص الله ورسوله، فيتخلّف عن الجهاد إذا دعي إليه.. ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: يدخله عذاباً موجعا في نار جهنم لا يقادر قدره.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ و﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بالياء، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد، وقرأ نافع وابن عامر والحسن وقتادة وأبو جعفر والأعرج وشيبة: بالنون فيهما.

تتمة: وهذه الأعذار[3] المذكورة هنا أعذار ظاهرة في ترك الجهاد؛ لأنَّ أصحابها لا يقدرون على الكر والفرّ؛ لأنّ الأعمى لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب، ولا يمكنه الهرب، وكذلك الأعرج والمريض، وفي معنى المريض: صاحب السعال الشديد، والطحال الكبير، والذين لا يقدرون على الكرّ والفرّ: كأصحاب السمن المفرط، فهذه أعذار، وهناك أعذار أخر دون ما ذكر، كالفقر

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الفتوحات.

الذي لا يمكن صاحبه أن يستصحب ما يحتاج إليه من مصالح الجهاد، والأشغال التي تعوق عن الجهاد، كتمريض المريض الذي ليس معه من يقوم مقامه عليه، ونحو ذلك، كعدم إذن الوالدين له.

وقد غزا ابن أم مكتوم، وكان أعمى في بعض حروب القادسية، وكان رضي الله عنه يمسك الراية. ذكره في «البحر».

الإعراب

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿فَتَحْنَا﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ ﴿فَتَحْنَا﴾. ﴿فَتْحًا﴾: مفعول مطلق. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له. ﴿لِّيَغْفِرَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يغفر﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ ﴿يغفر﴾. ﴿اللَّهُ﴾: فاعل، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿تَقَدَّمَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾. ﴿مِن ذَنۢبِكَ﴾: متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تَقَدَّمَ﴾. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: معطوف على ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾، وجملة ﴿يغفر﴾: صلة أن المضمرة، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿اللام﴾. تقديره: لغفران الله لك، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿فَتَحْنَا﴾. ﴿وَيُتِمَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يغفر﴾، ﴿نِعْمَتَهُۥ﴾: مفعول به. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ ﴿يُتمَّ﴾. ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿يغفر﴾، و﴿الكاف﴾: مفعول أول. ﴿صِرَٰطًا﴾: مفعول ثان، أو منصوب بنزع الخافض. ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾: صفة ﴿صِرَٰطًا﴾.

﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يغفر﴾. ﴿نَصۡرًا﴾: مفعول مطلق. ﴿عَزِيزًا﴾: صفة له. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، صلة الموصول. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يزدادوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿إِيمَٰنٗا﴾: مفعول به، أو تمييز. ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿إِيمَٰنٗا﴾، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿اللام﴾، والجار والمجرور: متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾؛ أي: لزيادتهم إيماناً مع إيمانهم. ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لله﴾: خبر مقدم. ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾. ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾. فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿حَكِيمٗا﴾ خبر ثان له، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يدخل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: مفعول أول. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ﴿جَنَّٰتٖ﴾: مفعول ثان على السعة، وجملة ﴿يدخل﴾ مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور ﴿باللام﴾: الجار والمجرور: متعلق بمحذوف، تقديره: أمر بالجهاد لإدخال المؤمنين والمؤمنات إلخ. ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب صفة لـ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ ولكنها سببيّة. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿وَيُكَفِّرَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يدخل﴾. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿يُكَفِّرَ﴾. ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾: مفعول به. ﴿وَكَانَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كان ذلك﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿فَوۡزًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿فَوۡزًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿عَظِيمٗا﴾: صفة لـ ﴿فَوۡزًا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة استئنافاً بيانياً، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ

﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يدخل﴾. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: معطوفات على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾. ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾: نعت لـ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وما بعده. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾؛ ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾: مفعول مطلق مضاف إلى ما بعده مؤكد لعامله، والسوء، بضم السين وفتحها: صفة لموصوف محذوف، تقديره: الظانّين بالله الأمر السوء ظنًّا، فحذف المضاف إليه الذي هو الأمر، وأقيمت صفته مقامه، وسيأتي بقية البحث فيه. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خبر مقدم. ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: دعائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿غَضِبَ﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾: عطف فعلية على اسمية. ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿غَضِبَ﴾، ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل وفاعل مستتر، معطوف على ﴿غَضِبَ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿أعدَّ﴾، ﴿جَهَنَّمَۖ﴾: مفعول به. ﴿وَسَآءَتْ﴾: فعل ماض لإنشاء الذم، وفاعل مستتر يعود على ﴿جَهَنَّمَۖ﴾. ﴿مَصِيرًا﴾: تمييز، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لله﴾: خبر مقدم. ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَزِيزًا﴾: خبره. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان له، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿شَٰهِدًا﴾: حال مقدرة من مفعول ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾: معطوفان على ﴿شَٰهِدًا﴾. ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تؤمنوا﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿تؤمنوا﴾ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ أي: أرسلناك لإرادة إيمانكم بالله

ورسوله ﷺ. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾: أفعال وفواعل ومفاعيل معطوفات على ﴿تؤمنوا﴾. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: منصوبان على الظرفية الزمانية، متعلقان بـ ﴿تسبحوه﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ ناصب واسمه. ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول. ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة. ﴿يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿يَدُ اللَّهِ﴾: مبتدأ. ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ثان. لـ ﴿إِنَّ﴾. ويجوز أن تكون حالية من ضمير الفاعل في ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿نَّكَثَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لشبه الجواب جملة اسمية لاشتماله على ﴿إنّ﴾ المكفوفة. ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة. ﴿يَنكُثُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنكُثُ﴾، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الجواب. ﴿أَوْفَىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أَوْفَىٰ﴾، وجملة ﴿عَاهَدَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿عَلَيْهُ﴾: متعلق بـ ﴿عَاهَدَ﴾، وضمت الهاء، مع أنها تكسر بعد الياء؛ لمجيء سكون بعدها، فيجوز الضمّ إن أريد تفخيم لام الجلالة، والكسر إن أريد ترقيقها، ولفظ الجلالة: مفعول به. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لاشتمال الجواب على حرف

التنفيس، و﴿الهاء﴾: مفعول أول، وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال ﴿يقول﴾: فعل مضارع. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ ﴿يقول﴾، ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾: فاعل ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: حال من ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾. والجملة: مستأنفة. ﴿شَغَلَتْنَآ﴾: فعل ومفعول به. ﴿أَمْوَٰلُنَا﴾: فاعل ﴿وَأَهْلُونَا﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول القول. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استغفر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ ﴿استغفر﴾ ومفعول ﴿استغفر﴾: محذوف؛ أي: الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿شَغَلَتْنَآ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِأَلْسِنَتِهِم﴾: متعلق به، والجملة: حال من ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها: ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾. والجملة: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَمْلِكُ﴾: خبره. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ ﴿يَمْلِكُ﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿شَيْـًٔا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿بِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿أَرَادَ﴾. ﴿ضَرًّا﴾: مفعول به، وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية: محذوف دلّ عليه ما قبلها؛ أي: إن أراد بكم ضرًّا، فمن يملك لكم دفعه، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾: معطوف على ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف

إضراب للإضراب الانتقالي من موضوع إلى آخر. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿خَبِيرًا﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾: جملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب أيضاً، أضرب عن بيان بطلان اعتذارهم إلى بيان الحامل لهم على التخلّف. ﴿ظَنَنتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جملة إضرابية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: مخفّفة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن، ﴿لَّن﴾: حرف نفي ونصب. ﴿يَنقَلِبَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَّن﴾. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: فاعل. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَنقَلِبَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يَنقَلِبَ﴾، وجملة ﴿يَنقَلِبَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخفّفة، وجملة ﴿أَن﴾ المخفّفة: سدّت مسدّ مفعولي ﴿ظَنَنتُمْ﴾. ﴿وَزُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ نائب فاعل. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿زُيِّن﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ظَنَنتُمْ﴾. ﴿وَظَنَنتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ظَنَنتُمْ﴾ الأول، ﴿ظَنَّ﴾: مفعول مطلق. ﴿ٱلسَّوْءِ﴾: مضاف إليه، والسوء في الأصل: صفة لمفعول ﴿ظَنَنتُمْ﴾ المحذوف، والتقدير: وظننتم الأمر السّيء بالمؤمنين ظنًّا. ﴿وَكُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًا﴾: خبر ﴿كان﴾، ﴿بُورًا﴾: نعت ﴿قَوْمًا﴾. وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على ما قبلها. وبوراً: جمع بائر، اسم فاعل من بار يبور: إذا هلك. ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم أو موصولة، في محل الرفع. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، وجواب الشرط: محذوف، تقديره: ندخله ناراً، وجملة الجواب المحذوف: خبر لـ ﴿مَن﴾

الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: مستأنفة من جهته تعالى، مبيّنة لكيفية بوارهم. ﴿فَإِنَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿أَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ ﴿أَعْتَدْنَا﴾، ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَعْتَدْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾: جملة تعليلية معلّلة للجواب المحذوف، لا محل لها من الإعراب، هذا إن كانت ﴿مَن﴾ شرطية، وإن كانت موصولة.. فخبرها جملة ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾، ودخلت ﴿الفاء﴾ لما في الموصول من معنى الشرط. ﴿وَلِلَّهِ﴾: خبر مقدم. ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وجملة ﴿يَغْفِرُ﴾: حال من الجلالة. ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ ﴿يَغْفِرُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَيُعَذِّبُ﴾: معطوف على ﴿يَغْفِرُ﴾. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُعَذِّبُ﴾. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ أيضاً صلة لـ﴿مَن﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يَغْفِرُ﴾ أو مستأنفة.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿سَيَقُولُ﴾. ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾: متعلق بـ ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾، ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تأخذوها﴾: فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لأخذكم إياها، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾. ﴿ذَرُونَا﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول لـ ﴿سَيَقُولُ﴾. ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، مجزوم بالطلب السابق، والجملة الفعلية: جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب،

حال من ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ أو من مفعول ﴿ذَرُونَا﴾ أو مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يُبَدِّلُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أَن﴾، ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريدون تبديل كلام الله ومواعيده للمؤمنين.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿لَّن﴾: حرف نصب واستقبال. ﴿تَتَّبِعُونَا﴾ ﴿تتبعوا﴾: فعل مضارع، منصوب بـ ﴿لَّن﴾ وعلامة نصبه: حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿نا﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿كَذَٰلِكُمْ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً مثل هذا القول الصادر عنّي. وهو ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾. ﴿قَالَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿قال﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قُل﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب. ﴿تَحْسُدُونَنَا﴾: فعل مضارع مرفوع بثبات النون، و﴿الواو﴾: فاعل و﴿نا﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب مقول لـ ﴿سيقولون﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، جملة ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: إلا فقهاً قليلاً، وجملة ﴿كان﴾: جملة إضرابية مستأنفة، أو معطوفة على ﴿يقولون﴾. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾: متعلق بـ ﴿قُل﴾، ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: حال من ﴿المخلّفين﴾. ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال. ﴿تُدْعَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بالنون، و﴿الواو﴾: نائب فاعل. ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿أُولِي بَأْسٍ﴾: صفة لـ ﴿قَوْمٍ﴾، مجرور بالياء؛ لأنه

ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿شَدِيدٍ﴾ صفة ﴿بَأْسٍ﴾، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب حال من واو ﴿تدعون﴾، أو في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿قَوْمٍ﴾ أو مستأنفة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يُسْلِمُونَ﴾: معطوف على ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾، أو مستأنف، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: أو هم يسلمون. ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُطِيعُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، و﴿الكاف﴾: مفعول به أول، ولفظ الجلالة: فاعل. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان. ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿تدعون﴾. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَتَوَلَّوْا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف. و﴿ما﴾: مصدرية. ﴿تَوَلَّيْتُم﴾: فعل وفاعل صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿مِّن قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿تَوَلَّيْتُم﴾. وبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظاً لا معنى، والتقدير: وإن تتولّوا تولّيا مثل تولّيكم من قبل. ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾: فعل مضارع وفعل مستتر ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جوابا لها. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق. ﴿أَلِيمًا﴾: نعت لـ ﴿عَذَابًا﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾: خبرها مقدم. ﴿حَرَجٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة: مستأنفة، مسوقة لبيان حكم الزمني وذوي العاهات بالنسبة إلى الجهاد، ونفي الحرج عنهم في التخلف عنه. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ﴿لَيْسَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ﴿حَرَجٌ﴾: معطوف على ﴿حَرَجٌ﴾ الأول، وكذا قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في

محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُطِعِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف عليه. ﴿يُدْخِلْهُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه جواب شرط لها، و﴿الهاء﴾: مفعول به. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على التوسّع، وجملة ﴿مَن﴾: الشرطية، معطوفة على جملة ﴿لَّيْسَ﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية. في محل النصب صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ولكنها سببية. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَتَوَلَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه: حذف حرف العلّة. ﴿يُعَذِّبْهُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ ومفعول به مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه جواب شرط لها. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾: فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة أو صلحاً، بحرب أو بدونه، فإنه ما لم يظفر منغلق، مأخوذ من فتح باب الدار، قال في «عين المعاني»: الفتح: هو الفجر المزيل للهمّ؛ لأنّ المطلوب كالمنغلق، فإذا نيل.. انفتح، وفي «المفردات»: الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال، وذلك ضربان:

ضرب: يدرك بالبصر، نحو: فتح الباب والغلق والقفل، والمتاع نحو قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾.

والثاني: ما يدرك بالبصيرة، كفتح الهمّ: وهو إزالة الغمّ، وذلك ضربان:

أحدهما: في الأمور الدنيوية كغمّ يفرج، وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه.

والثاني: فتح المستغلق من العلوم، نحو: قولك: فلان فتح من العلم باباً مغلقاً. انتهى.

والمراد بالفتح هنا في رأي الجمهور: هو صلح الحديبية، وسمّي هذا الصلح فتحاً؛ لأنّه كان سبباً لفتح مكة، من قبيل المجاز المرسل، بإطلاق السبب على المسبّب، وقال جماعة: المراد: فتح مكة، وهو المرويّ عن أنس رضي الله عنه: بشر به رسول الله ﷺ عند انصرافه من الحديبية والتعبير عنه حينئذٍ بصيغة الماضي؛ للإيذان بتحققه لا محالة، كسائر الأخبار الربانية.

﴿مُّبِينًا﴾؛ أي: بيّناً، ظاهر الأمر مكشوف الحال.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾ أصله: يتمم، نقلت حركة الميم الأولى إلى التاء، فسكنت فأدغمت في الميم الثانية.

﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾؛ أي: خلقها، وأوجدها، قال الراغب: إنزال الله تعالى نعمته على عبده: إعطاؤه إياها إما بإنزال الشيء نفسه: كإنزال القرآن، أو بإنزال أسبابه بالهداية إليه: كإنزال الحديد ونحوه. اهـ. السكينة: الطمأنينة والثبات، من السكون.

﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أوجد السكينة في القلوب في مواضع القلق والاضطراب.

قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟﴾ أصله: ليزتيدوا بوزن يفتعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثمّ أبدلت تاء الافتعال دالًا لوقوعها بعد الزاي، فصار ليزدادوا، وهذا على حدّ قول ابن مالك في باب التصريف:

طَا تَا ٱفْتِعَالِ رُدَّ إِثْرَ مُطْبَقِ ... فِيْ ٱدَّانَ وَٱزْدَدْ وَٱدَّكِرْ دَالاً بَقِيْ

﴿إِيمَٰنًا﴾ أصله: إءماناً، أبدلت الهمزة الثانية الساكنة حرف مدٍّ مجانساً لحركة الأولى، فصارت ياءً؛ أي: ليزدادوا يقيناً.

﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: مع يقينهم. أو ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالله، وباليوم الآخر، قال ابن عباس: إنّ أوّل ما أتاهم به النبيّ ﷺ التوحيد، فلّما آمنوا بالله وحده.. أنزل الصلاة، ثمّ الزكاة، ثم الجهاد، ثم الحج.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الجنود: جمع جند بالضم، وهو جمع معدّ للحرب؛ أي: الأسباب السماويّة والأرضيّة.

﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾: جمع ظانّ، أصله: ظانن، أدغمت النون الأولى في الثانية.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ لفظ دائرة فيه إعلام بالإبدال، أصله: داورة، اسم فاعل من دار يدور، كقال يقول، أبدلت الواو في الوصف حملاً له في الإعلال على فعله، والدائرة في الأصل: عبارة عن الخطّ الميحط بالمركز، ثمّ استعملت في الحادثة والمصيبة المحيطة بمن هي وقعت عليه.

فمعنى الآية: يحيط بهم السوء إحاطة الدائرة بالشيء أو بمن فيها، بحيث لا سبيل إلى الانفكاك عنها بوجه، إلا أن أكثر استعمالها؛ أي: الدائرة في المكروه، كما أنّ أكثر استعمال الدولة في المحبوب الذي يتداول، ويكون مرةً لهذا، ومرةً لذاك، والإضافة في ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ من إضافة العام إلى الخاص، فهي للبيان، كخاتم فضة؛ أي: دائرة من شرّ لا من خير.

والمراد: الإحاطة والشمول، بحيث لا يتخطّاهم السوء ولا يتجاوزهم، اهـ. «روح».

وقال ابن الشيخ: السوء بالفتح صفة مشبهة، من ساء يسوء بضم العين في المضارع، سوءاً فهو سوء، ويقابله من حيث المعنى قولك: حسن يحسن حسناً، فهو حسن، وهو فعل لازم بمعنى: قبح، وصار فاسداً رديئاً، بخلاف ساءه يسوءه سوءاً ومساءةً؛ أي: أحزنه، نقيض سرَّه، فإنه متعدٍّ، ووزنه في الماضي فعل بفتح العين، ووزن ما كان لازماً فعل بضم العين، وفعل يأتي فعله على فعل، كصعب صعوبة فهو صعب، والسوء بضم السين: مصدر لهذا اللازم، والسوء بالفتح: مشترك بين اسم الفاعل من اللازم، وبين مصدر المتعدّي، وقيل: السوء بالفتح والضم لغتان، من ساء بمعنى كالكره والكره. كما مرّ.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾؛ أي: تنصروه، قال في «المفردات»: التعزير: النصرة، من التعظيم، قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾. والتعزير ما دون الحد، وذلك يرجع إلى الأول، فإنّ ذلك تأديب، والتأديب نصرة بقهر عدوّه، فإنّ أفعال الشر عدوّ الإنسان، فمتى قمعته عنها.. فقد نصرته، وعلى هذا الوجه قال النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تكفّه

عن الظلم». انتهى.

وقال في «القاموس»: التعزير: ضرب دون الحد، أو هو أشد الضرب. والتفخيم والتعظيم ضدٌ، والإعانة كالعزر والتقوية والنصر. انتهى.

وقال بعضهم: أصله: المنع ومنه التعزير، فإنه منع من معاودة القبيح؛ يعني: وتمنعوه تعالى؛ أي: دينه ورسوله، حتى لا يقوى عليه عدو.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾؛ أي: تعظّموه تعالى، باعتقاد أنه متصف بجميع صفات الكمال، منزّه عن جميع وجوه النقصان، قال في «القاموس»: التوقير: التبجيل، والوقار بوزن سحاب: الرزانة. انتهى يعني: السكون والحلم، فأصله من الوقر الذي هو الثقل في الأذن.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تعالى عمّا لا يليق به من الشريك والصاحبة والولد، وسائر صفات المخلوقين، أو تصلّوا له، من السبحة: وهي الدعاء، وصلاة التطوّع، وقال في «القاموس»: التسبيح: الصلاة، ومنه قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾؛ أي: من المصلّين.

﴿بُكْرَةً﴾؛ أي: أول النهار. ﴿وَأَصِيلًا﴾؛ أي: آخر النهار.

والمراد: جميع النهار، إذ من سنن العرب: أن يذكروا طرفي الشيء، ويريدوا جميعه، كما يقال: شرقاً وغرباً لجميع الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ أي: يعاهدونك يوم الحديبية تحت الشجرة، سمّيت المعاهدة بالمبايعة التي هي مبادلة المال بالمال تشبيهاً لها بالمبايعة في اشتمال كل واحد منهما على معنى المبادلة؛ لأنّ المعاهدة أيضاً مشتملة على المبادلة بين التزام الثبات في محاربة الكافرين، وبين ضمانه ﷺ لمرضاة الله عنهم، وإثابته إيّاهم بجنات النعيم في مقابلة محاربة الكافرين، وسيأتي مزيد بسط في مبحث البلاغة، إن شاء الله تعالى.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ النكث: نقضُ نحوِ: الحبل والغزل، استعير لنقض العهد.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾؛ أي: وفي، فالرباعيّ بمعنى الثلاثي، يقال: وفي بالعهد وأوفى به، وهي لغة تهامة.

﴿شَغَلَتْنَآ﴾ والشغل: العارض الذي يذهل الإنسان، وقد شغل فهو مشغول. ﴿أَمْوَٰلُنَا﴾ جمع مال: وهو كل ما يتملّكه الإنسان من دراهم أو دنانير أو ذهب أو فضة أو حنطة أو خبز أو حيوان أو ثياب أو سلاح أو غير ذلك، والمال: العين هو المضروب، وسمّي المال مالاً؛ لكونه بالذات تميل القلوب إليه، وفي «التلويح»: المال: ما يميل إليه الطبع، ويدّخر لوقت الحاجة، أو ما خلق لمصالح الآدميّ، ويجري فيه الشحّ والضنة. انتهى.

﴿وَأَهْلُونَا﴾ والأهلون: جمع أهل، وأهل الرجل: عشيرته، وذووا قرباه، وقد يجمع الأهل على إهالٍ وآهالٍ وأهلاتٍ، ويحرك كأرضات، على تقدير تاء التأنيث؛ أي على أنّ أصله: أهلة، كما في أرض، فحكمه حكم تمرة، حيث يجوز في تمرات تحريك الميم.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ و(السين): للاستقبال، يقال: خلّفته بالتشديد: تركته خلفي، وخلفوا أثقالهم تخليفاً: خلوها وراء ظهورهم، وقال ابن الشيخ في سورة التوبة: العرب: هو الصنف الخاص من بني آدم، سواء سكن البوادي أم سكن القرى، وأمّا الأعراب فإنه لا يطلق إلا على من يسكن البوادي، فالأعراب جمع أعرابيّ، كما أنّ العرب: جمع عربيٍّ، والمجوس: جمع مجوسيّ، واليهود: جمع يهودي، بحذف ياء النسبة في الجمع، ويدل على الفرق بين العرب والأعراب، قوله ﷺ: «حب العرب من الإيمان» وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، حيث مدح العرب، وذم الأعراب الذين هم سكان البادية، فعلى هذا يكون العرب أعم من الأعراب.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: إنّ كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في القلب، فهو كذب صراح. ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ والملك: إمساك بقوّة وضبطٍ، تقول: ملكت الشيء: إذا دخل تحت ضبطك دخولاً تامًّا، ومنه: لا أملك رأس بعيري: إذا لم تستطع إمساكه إمساكاً تامًّا.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ والمراد بالضر: ما يضرّ من هلاك الأهل والمال وضياعهما، وبالنفع: ما ينفع من حفظ المال والأهل.

﴿بُورًا﴾؛ أي: هالكين لفساد عقائدكم، وسوء نياتكم، على أنه جمع بائر، من بار بمعنى هلك، كعائذٍ وعوذٍ: الحديثة النتاج من الإبل أو الخيل، وقيل: البور: مصدر من بار، كالهلك من هلك بناء، ومعنى؛ ولذا وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، فيقال: رجل بور، وقوم بور.

﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾؛ أي: ذهبتم، يقال: انطلق فلان إذا مرَّ متخلفاً، وأصل الطلاق: التخلية من وثاق، كما يقال: حبس طلقاً، ويضم؛ أي: بلا قيد ولا وثاق، والمغانم: جمع مغنم بمعنى الغنيمة.

﴿ذَرُونَا﴾؛ أي: دعونا، يقال: ذره دعه، وهو يذره؛ أي: يدعه، وأصله وذره يذره، كوسعه، وقد أماتوا ماضيه، ومصدره واسم فاعله، فلم ينطقوا بها، فلا يقال: وذره ماضياً، ولا يقال: وذر مصدراً، كوعد، ولا واذر بكسر الذال اسم فاعل، بل يقال: تركه تركاً فهو تارك. اهـ من «القرطبي» و«القاموس».

﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ والحسد: تمني زوال النعمة عمّن يستحق لها. كما مرّ.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون، قال الراغب: الفقه: هو التوصل إلى علم غائبٍ بعلم شاهدٍ، فهو أخص من العلم، والفقه: العلم بأحكام الشريعة، وفقه فقهاً؛ أي: فهم فهماً، والمراد بالفقه القليل: فهمهم لأمور الدنيا، دون أمور الدين.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ﴾ وهو فاقد البصر. ﴿حَرَجٌ﴾ وأصل الحرج والحراج: مجتمع الشيء، كالشجر وتصوُّر منه ضيق ما بينهما، فقيل للضيق: حرجٌ، وللإثم: حرج. ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ من العروج؛ لأنّ الأعرج ذاهب في صعود بعد هبوط، وعرج كفرح: إذا صار ذلك خلقة له، وقيل للضبع: عرجاء؛ لكونها في خلقتها ذات عرج، وعرج كدخل: ارتقى وأصابه شيء في رجليه، فمشىٰ مشي العارج؛ أي: الذاهب في صعود، وليس ذلك بخلقةٍ، أو يثلث في غير الخلقة.

كما في «القاموس».

قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ أصله: ستدعوون، قلبت الواو الأولى ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير بالماضي عمّا في المستقبل في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فقد جاء الإخبار بالفتح بلفظ الماضي؛ لأنها نزلت حين رجع ﷺ من الحديبية قبل عام الفتح؛ إيذاناً بأنّ أخبار الله تعالى لمّا كانت محقَّقة لا محالة.. نزلت منزلة المحققة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر، وصدقه ما لا يخفىٰ على من له مسكة من عقل.

ومنها: تصدير الكلام بحرف التحقيق تأكيداً للتبشير.

ومنها: حذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل، والإيذان بأنَّ مناط التبشير: نفس الفتح الصادر عنه سبحانه، لا خصوصية المفتوح.

ومنها: الالتفات من التكلّم إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات كالمغفرة والإنعام والنصر، في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾؛ لأجل الإشعار بأنّ كل واحد من الأمور الأربعة الداخلة تحت لام الغاية صادر عنه تعالى، من حيثيّةٍ غير الحيثية الأخرى، مترتب على صفة من صفاته تعالى. اهـ «أبو السعود». فمغفرة الذنوب من حيث إنه تعالى غفار، وهداية الصراط من حيث إنه هاد، وهكذا، ويجمع الكل لفظ الله، فإنه اسم للذات المستجمع للصفات. اهـ شيخنا.

قال ابن الشيخ: في إظهار فاعل قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ﴾ إشعار بأنّ كل واحد من المغفرة والنصرة متفرع على الألوهية، وكونه معبوداً بالحق، والمغفرة: ستر الذنوب ومحوها.

ومنها: الطباق بين: ﴿ما تقدم﴾ و﴿ما تأخر﴾ وبين: ﴿مبشراً﴾ و﴿نذيراً﴾، وبين: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وبين: ﴿نكث﴾ و﴿أَوْفَىٰ﴾، وبين ﴿أراد بكم ضراً﴾ و﴿أراد بكم نفعاً﴾، وبين: ﴿يَغْفِرُ﴾ و﴿يعذب﴾.

ومنها: المقابلة بين: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية، وبين: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ...﴾ الآية.

ومنها: التعليل في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ حيث جعل تعالى فتح مكة علة للمغفرة؛ لأنَّ الفتح من حيث كونه جهاداً وعبادة سبب للغفران، وقيل: السرّ فيه: اجتماع ما عدد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، والهداية والنصر العزيز، كأنَّه قيل: يسّرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك لنجمع لك عزّ الدارين، وأغراض العاجلة والآجلة.

ومنها: الإسناد المجازيّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ فقد أسند العزّ والمنعة إلى النصر، وهو للمنصور، فإنَّ صيغة فعيل هنا للنسبة، العزيز بمعنى ذي العزّة.

ومنها: التكرير في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ حيث قال ثانياً: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ لأنّه ذكر قبل الآية الأولى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولما كان فيهم من هو أهل للرحمة، ومن هو أهل للعذاب.. ناسب أن يكون خاتمة الأولى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ولمّا بالغ تعالى في تعذيب المنافق والكافر، وشدته.. ناسب أن يكون خاتمة الثانية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فالأولى: دلّت على أنه المدبّر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته، والثانية: دلّت على التهديد والوعيد، وأنهم في قبضة المنتقم.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

ومنها: الإتيان بالواو في الفعلين الأخيرين في قوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ مع أنّ حقّهما الإتيان بالفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها، إذ اللعن سبب الإعداد، والغضب سبب اللعن؛ للإيذان باستقلال كل منهما في الوعيد،

وأصالته من غير استتباع بعضهما لبعض.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ حيث شبّه المعاهدة على التضحية بالأنفس في سبيل الله طلباً لمرضاته، بدفع السلع في نظير الأموال، بجامع اشتمال كل منهما على معنى المبادلة، واستعير اسم المشبه به للمشبّه، واشتق من المبايعة بمعنى المعاهدة: يبايعون: بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، على طريق الاستعارة التصريحية التبعيّة.

ومنها: الاستعارة المكنيّة في قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث شبّه اطلاع الله على مبايعتهم، ومجازاته على طاعتهم، بملك وضع يده على يد أميره ورعيّته، وطوى ذكر المشبّه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو اليد، على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، فتلخّص أنّ في هذا التركيب استعارة تصريحية تبعيّة في الفعل، ومكنية في الاسم الكريم، وتخييلية في إثبات اليد له، وفيه مشابهة في مقابلة يده بأيديهم، وقيل: الكلام على التشبيه البليغ، الأصل: كأنّ يد الله حين المبايعة فوق أيديهم، حذف أداة التشبيه؛ للمبالغة في التأكيد.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾؛ لأنّ النكث حقيقة في نقض، نحو: الحبل والغزل وفكّه، فاستعير لنقض العهد، فاشتق من النكث بمعنى: نقض العهد نكث، بمعنى: نقض العهد، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: فنّ اللفّ في قوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ لأنّ الأصل: فمن يملك لكم من الله شيئاً، إن أراد بكم ضرًّا، ومن يحرمكم النفع، إن أراد بكم نفعاً.

ومنها: تكرير الظنّ في قوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ بعد قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلخ، لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾؛

لأن مقتضى السياق أن يقال: فإنا أعتدنا له سعيراً، بالضمير العائد على ﴿مَنْ﴾؛ إيذاناً بأنّ من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله كافر، مستوجب السعير.

ومنها: تنكير ﴿سَعِيرًا﴾؛ للتهويل للدلالة على أنه سعير لا يكتنه كنهها، ولا يعرف قدرها.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالإضراب الأول معروف، وهو ديدنهم، ودليل لجاجهم وتماديهم في التعنّت والإصرار على السفه، أمّا الإضراب الثاني.. فهو الذي تتجسد فيه بلادتهم وغباوتهم؛ لأنّ الإضراب الأول: فيه نسبة إلى جهل في شيء مخصوص: وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين، والثاني: فيه نسبة إلى جهل عامّ على الإطلاق.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان؛ لذمّهم مرّةً بعد أخرى، فإنّ التخلّف عن صحبة الرسول ﷺ شناعةٌ أيُّ شناعة.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا[1] بين حال المخلّفين فيما سلف.. عاد إلى بيان

---

(١) المراغي.

حال المبايعين، الذين ذكرهم فيما تقدم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فأبان رضاه عنهم؛ لأجل تلك البيعة، لما علم من صدق إيمانهم، وإخلاصهم في بيعتهم، وأنزل عليهم طمأنينة ورباطة جأش، وجازاهم بمغانم كثيرة أخذوها من خيبر بعد عودتهم من الحديبية، وكان الله عزيزاً؛ أي: غالباً على أمره، موجداً أفعاله وأقواله على مقتضى الحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا[1] وعدهم فيما سلف بمغانم خيبر.. أردف ذلك ببيان: أنّ ما آتاهم من الفتح والمغانم، ليس هو الثواب وحده، بل الجزاء أمامهم، وإنّما عجّل لهم هذه؛ لتكون علامة على صدق رسوله ﷺ وحياطته له، وحراسته للمؤمنين، وليثبتكم على الإسلام، وليزيديكم بصيرةً، وسيؤتيكم مغانم أخرى من فارس والروم، وغيرهما ما كنتم تقدرون عليها لولا الإسلام، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول، فأقدرهم الله تعالى عليها بعزّ الإسلام.

ثم ذكر أنه لو قاتلكم أهل مكة، ولم يصالحوكم.. لانهزموا ولم يجدوا وليّاً ولا نصيراً يدافع عنهم، وتلك هي سنة الله تعالى من غلبة المؤمنين، وخذلان الكافرين، ثمّ امتن على عباده المؤمنين أنه كفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعافية لهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا بيّن فيما سلف أنّ الله كفّ أيدي المؤمنين عن الكافرين، وكفّ أيدي الكافرين عن المؤمنين.. عيَّن هنا مكان الكفّ، وهو البيت الحرام، الذي صدّوا المؤمنين

---

(١) المراغي.

عنه، ومنعوا الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه، والسبب الذي لأجله كفوهم هو كفرهم بالله.

ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين، ونساء مؤمنات لا علم لهم بهم، فيلزمهم العار والإثم.. لأذن لهم في دخول مكة، ولقد كان الكف ومنع التعذيب عن أهل مكة؛ ليُدخل الله في دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل دخولها، وليمنعنّ الأذى عن المؤمنين منهم، ولو تفرّقوا وتميّز بعضهم من بعض.. لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما بالقتل والسبي، حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية، التي تمنع من الإذعان للحق، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله، وعلى المؤمنين، فامتنعوا أن يبطشوا بهم، وألزمهم الوفاء بالعهد، وكانوا أحق بذلك من غيرهم، إذ اختارهم الله لدينه، وصحبة نبيّه ﷺ.

ورأى النبي ﷺ في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبيّة أنه يدخل المسجد الحرام، هو وأصحابه آمنين، منهم من يحلق، ومنهم من يقّصر، فأخبر ذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا، فلمّا انصرفوا لم يدخلوا.. شقَّ ذلك عليهم، وقال المنافقون: أين رؤياه التي رآها؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ ودخلوا في العام المقبل.

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر[1] أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام، ليعلي شأنه على سائر الأديان.. أردف هذا ببيان حال الرسول، والمرسل إليهم، فوصفهم بأوصاف كلها مدائح لهم، وذكرى لمن بعدهم، وبها سادوا الأمم، وامتلكوا الدول، وقبضوا على ناصية العالم أجمع، وهي:

١ ـ أنهم غلاظ على من خالف دينهم، وناوأهم العداء رحماء فيما بينهم.

٢ ـ أنهم جعلوا الصلاة والإخلاص لله ديدنهم في أكثر أوقاتهم.

(١) المراغي.

٣ ـ أنهم يرجون بعملهم الثواب من ربهم، والزلفى إليه، ورضاه عنهم.

٤ ـ أنهم لهم سيماء، يعرفون بها، فلهم نور في وجوههم، وخشوع وخضوع يعرفه أولو الفطن.

٥ ـ أن الإنجيل ضرب بشأنهم المثل، فقال: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

ذاك أنهم في بدء الإسلام كانوا قليلي العدد، ثمّ كثروا واستحكموا، وترقى أمرهم يوماً فيوماً، حتى أعجب الناس بهم، فإنّ النبي ﷺ قام وحده، ثمّ قوّاه الله بمن معه، كما يقوّي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتوالد منها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع، قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيّها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي، عن أنس رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم الحديبية. . هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم، يريدون غرّة رسول الله ﷺ، فأُخذوا فأعتقهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم. . .﴾ الآية. وأخرج مسلم نحوه من حديث سلمة بن الأكوع وأحمد والنسائي نحوه من حديث عبد الله بن مغفل المزني، وابن إسحاق نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه

---

(١) لباب النقول.

الآية: ما أخرجه الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال: قاتلت النبيّ ﷺ أوّل النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنّا ثلاثة رجال، وسبع نسوة، وفينا نزل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ. . .﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في «الدلائل» عن مجاهد قال: أري النبيّ ﷺ وهو بالحديبية: أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين، محلّقين رؤوسهم ومقّصرين، فلمّا نحر الهدي بالحديبية.. قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد باعد الله السخط عن المؤمنين بواسطة إيجاد الرضا لهم؛ لأنَّ من معنى ﴿عَنِ﴾ المجاوزة، والمجاوزة لغةً: البعد، واصطلاحاً: بعد الشيء عن المجرور بها بواسطة إيجاد مصدر ذلك العامل، كما هو مقرّر في محلّه، ورضوا عنه.

ومعنى رضا العبد عن ربه[1]: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه.

ومعنى رضا الله عن العبد: هو أن يراه مؤتمرا لأمره، منتهياً عن نهيه، وهم الذين ذكر شأن مبايعتهم، وكانوا ألفاً وأربع مئة على الصحيح، وقيل: ألفاً وخمس مئة وخمسةً وعشرين؛ أي:[2] رضي عن المؤمنين الراسخين في الإيمان؛ أي: فعل بهم فعل الراضي بما جعل لهم من الفتح، وما قدر لهم من الثواب، وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين، فخذلهم في الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة، فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور شاهدة.

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿رَضِيَ﴾، وصيغة المضارع؛ لاستحضار صورتها؛ أي: رضي الله عنهم وقت تلك المبايعة، وبهذه الآية سمّيت: بيعة

---

(١) روح البيان. (٢) خطيب.

الرضوان، وقوله: ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: إما متعلق بـ ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ أو بمحذوف حال من المفعول؛ أي: حال كونك تحت الشجرة، وهذه الشجرة المذكورة هي شجرة كانت بالحديبية، وهي السمرة؛ أي: أمّ غيلان، وهي كثيرة في بوادي الحجاز، وقيل: هي سدرة، قال في «إنسان العيون»: صارت تلك الشجرة التي وقعت عندها البيعة، يقال لها: شجرة الرضوان، وبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمان خلافته: أنّ ناساً يصلّون عندها، فتوعّدهم، وأمر بها فقطعت خوف ظهور البدعة. انتهى.

وروىٰ الإمام النسفيّ رحمه الله في «التيسير»: إنها عمّيت عليهم من قابل، فلم يدروا أين ذهبت، ويمكن التوفيق بين الروايتين بأنها لما عميت عليهم.. ذهبوا يصلون تحت شجرة على ظنّ أنها هي شجرة البيعة، فأمر عمر بقطعها، فقطعت.

وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً، ولا يفرّوا، وروي: أنه بايعهم على الموت، والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير، فراجعها إن شئت.

﴿فَعَلِمَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: معطوف على ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك، لا على ﴿رَضِيَ﴾، فإنّ رضاه تعالى عنهم مرتّب على علمه تعالى بما في قلوبهم من الصدق والإخلاص، عند مبايعتهم له ﷺ، قال الفرّاء: علم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، وقال قتادة وابن جريج: من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفرّوا، وقال مقاتل: من كراهة البيعة على الموت.

﴿فَأَنزَلَ﴾ سبحانه ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾؛ أي: الطمأنينة، وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على قلوبهم، معطوف على ﴿رَضِيَ﴾؛ يعني: أنزل السكينة على قلوب المؤمنين المخلصين حتى ثبتوا، وبايعوك على الموت، وعلى أن لا يفرّوا ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾؛ أي: وجازاهم على الطاعة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ أي: فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية في ذي الحجة، فأقام ﷺ بالمدينة بقيته وبعض المحرم، ثم خرج إلى خيبر في بقية المحرم، سنة سبع.

وقرأ الحسن ونوح القارىء: ﴿وآتاهم﴾؛ أي: أعطاهم، والجمهور:

﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ من الثواب.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي مغانم خيبر، وكانت ذات عقار وأشجار أخذوها من اليهود مع فتح بلدتهم، فقسمت عليهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ بالياء على الغيبة في ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ وما قبله من ضمير الغيبة، وقرأ الأعمش، وطلحة، ورويس عن يعقوب ودلبة عن يونس عن ورش، وأبو دحية عن نافع والأنطاكي عن أبي جعفر: بالتاء على الخطاب، كما جاء بعد ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ بالخاطب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزًا﴾؛ أي: غالباً منيعاً كامل العزّة غنياً عن إعانتكم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّره لخلقه، حيث حكم لكم بالنصرة والفتح والغنائم، ولأهل خيبر بالسبي والهزيمة ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أيّها المؤمنون ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ من الكفار في أوقاتها المقدّرة لكل واحدة منها، والالتفات لتشريفهم بالخطاب، وفي هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة، يأخذونها في أوقاتها التي قدّر وقوعها فيها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: غنائم خيبر، قاله مجاهد، وقيل: صلح الحديبية، فليست كل الثواب، بل الجزاء قدامكم ﴿وَكَفَّ﴾ سبحانه ومنع ﴿أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ أي: كفّ[2] الله سبحانه أيدي بني أسد وغطفان: وهم حلفاء أهل خيبر عنكم، حيث جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فنكصوا عن عيالكم لما خرجتم إلى خيبر، فإنّ النبيّ ﷺ لمّا قصد خيبر، وحاصر أهلها.. همّت قبائل من بني أسد وغطفان، أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريّهم بالمدينة، فكفّ الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، فنكصوا، وقال قتادة: كفّ أيدي يهود خيبر عن المدينة بعد خروج النبيّ ﷺ إلى الحديبية، ورجح هذا ابن جرير، أما كفّ أيدي أهل مكة بالحديبية.. فمذكور بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ...﴾ إلخ.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

وقال سعدي المفتي[1]: إن كان نزولها بعد فتح خيبر، كما هو الظاهر.. لا تكون السورة بتمامها نازلة في مرجعه ﷺ من الحديبية، وإن كان قبله، على أنها من الإخبار بالغيب.. فالإشارة بهذه لتنزيل المغانم منزلة الحاضرة المشاهدة، والتعبير بالمضي للتحقق.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف على علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين؛ أي: فعجّل لكم هذه، أو كفّ أيدي الناس عنكم لتغتنموها، ولتكون هذه الكفة أمارةً للمؤمنين يعرفون بها صدق الرسول ﷺ في وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية ما ذكر من الغنائم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام؛ أي[2]: لتنفعكم في الظاهر، وتنفعكم في الباطن، حيث يزداد يقينكم إذا رأيتم صدق الرسول في إخباره عن الغيوب، فيكمل اعتقادكم؛ أي: عجّل الله فتح خيبر ليكون ذلك الفتح وهو هزيمة أهل خيبر وسلامتكم عبرةً للمؤمنين؛ لأنكم كنتم ثمانية آلاف، وأنّ أهل خيبر كانوا سبعين ألفاً، وكفّ أيدي الناس عنكم، وعن عيالكم؛ ليكون ذلك الكف علامة للمؤمنين، فيعلموا أنّ الله يحرسهم في مشهدهم ومغيبهم.

ويجوز[3] أن تكون ﴿الواو﴾: اعتراضية على أن تكون اللام متعلقة بمحذوف مؤخرٍ؛ أي: ولتكون آيةً لهم فعل ما فعل من التعجيل، وقيل: إنّ ﴿الواو﴾: زائدة، و﴿اللام﴾: لتعليل ما قبلها؛ أي: كفّ أيدي الناس عنكم؛ لتكون لتلك الكفّة آية للمؤمنين.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: طريق التوكّل عليه تعالى، والثقة بفضله تعالى في كلّ ما تأتون وما تذرون، أو يزيدكم بتلك الآية هدى، أو يثبّتكم بها على الهداية إلى طريق الحق.

ومعنى الآية: أي[4] وعدكم الله سبحانه مغانم كثيرة من غنائم أهل الشرك

---

(1) روح البيان.

(2) المراح.

(3) روح البيان.

(4) المراغي.

إلى يوم القيامة، ولكن عجّل لكم مغانم خيبر، وكفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي ﷺ إلى الحديبية وخيبر، وقال قتادة، واختاره ابن جرير الطبريّ: لتشكروه، ولتكون أمارة للمؤمنين، يعلمون بها أنّ الله حافظهم، وناصرهم على أعدائهم على قلّة عددهم، وليهديكم صراطاً مستقيماً بانقيادكم لأمره، وموافقتكم رسوله ﷺ، ويزيدكم يقيناً بصلح الحديبية وفتح خيبر.

روى إياس بن سلمة، قال: حدّثني أبي قال: خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ، فجعل عمّي عامر يرتجز بالقوم، ثمّ قال:

تَـاللهِ لَـوْلاَ ٱلـلَّـهُ مَـا ٱهْـتَـدَيْـنَـا وَلاَ تَـصَـدَّقْـنَـا وَلاَ صَـلَّـيْـنَـا
وَنَـحْـنُ عَـنْ فَـضْـلِـكَ مَـا ٱسْـتَـغْـنَـيْـنَـا فَـثَـبِّـتِ ٱلأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَـيْـنَـا
وَأَنْـزِلَـنْ سَـكِـيْـنَـةً عَـلَـيْـنَـا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» قال: أنا عامر، قال: «غفر لك ربّك» وما استغفر لأحد إلا استشهد، قال: فنادىٰ عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبيّ الله، لو امتعتنا بعامر، فلمّا قدمنا خيبر.. خرج قائدهم مرحب يخطر سيفه، ويقول:

قَـدْ عَـلِـمَـتْ خَـيْـبَـرُ أَنِّـيْ مَـرْحَـبُ شَـاكِـيْ ٱلـسِّـلاَحِ بَـطَـلٌ مُـجَـرَّبُ
إِذِ ٱلْـحُـرُوْبُ أَقْـبَـلَـتْ تَـلْـتَـهِـبُ

فبرز له عامر بن عثمان، فقال:

قَـدْ عَـلِـمَـتْ خَـيْـبَـرُ أَنِّـيْ عَـامِـرُ شَـاكِـيْ ٱلـسِّـلاَّحِ بَـطَـلٌ مُـغَـامِـرُ

أي: تام السلاح معروف بالشجاعة، وقهر الفرسان، فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، فرجع سيف عامر على نفسه، فقطع أكحله الأكحل: عرق في اليد، فكانت فيها نفسه، قال: فأتيت النبيّ ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، بطل عمل عامر، فقال: «من قال ذلك؟» قلت: ناس من أصحابك، قال: «من قال ذلك؟ بل له أجره مرتين». ثمّ أرسلني إلى عليّ وهو أرمد، وقال: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله» فأتيت

علياً فجئت به أقوده، وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فتفل في عينيه فبرىء، وأعطاه الراية، فخرج مرحب، وقال:

أَنَا ٱلَّذِيْ سَمَّتْنِيْ أُمِّيْ مَرْحَبُ   شَاكِيْ ٱلسِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

فقال عليّ كرّم الله وجهه:

أَنَا ٱلَّذِيْ سَمَّتْنِيْ أُمِّيْ حَيْدَرَهْ   كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيْهِ ٱلْمَنْظَرَهْ

أَكِيْلُكُمْ بِٱلسَّيْفِ كَيْلَ ٱلسَّنْدَرَهْ[1]

قال: فضرب رأس مرحب، فقتله، ثم كان الفتح على يديه كرم الله وجهه.

نبذة من قصة خيبر

ثم إن خيبر حصن معروف قرب المدينة، على ما في «القاموس». وقال في «إنسان العيون»: هو على وزن جعفر، سمّيت باسم رجل من العماليق نزلها، يقال له: خيبر، وهو أخو يثرب الذي سمّيت باسمه المدينة، وفي كلام بعضهم: خيبر بلسان اليهود الحصن، ومن ثمّ قيل لها: خيابر؛ لاشتمالها على الحصون، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، ونخل كثير، بينها وبين المدينة الشريفة ثمانية برد، والبريد: أربعة فراسخ، وكل فرسخ ثلاثة أميال.

يقول الفقير: وكل ميلين ساعة واحدة بالساعات النجومية؛ لأنّه عدّ من المدينة إلى قبّاء ميلان، وهي ساعة واحدة، فتكون الثمانية البرد ثماني وأربعين ساعة بتلك الساعات.

ولمّا رجع ﷺ من الحديبية.. أقام بالمدينة شهراً؛ أي: بقية ذي الحجة وبعض المحرم من سنة سبع، ثمّ خرج إلى خيبر، وقد استنفر من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه، وجاء المخلّفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقال ﷺ: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، أما الغنيمة فلا»؛ أي: لا تعطون منها شيئاً، ثمّ أمر منادياً ينادي بذلك، فنادى به، وأمر أيضاً أنه

---

(١) السندرة: مكيال واسع وكيلهم بها قتلهم قتلا واسعاً ذريعاً، اهـ.

لا يخرج الضعيف، ولا من له مركب صعب، حتى إنّ بعضهم خالف هذا الأمر، فنفر مركوبه فصرعه، فاندقت فخذه فمات. فأمر عليه السلام بلالاً رضي الله عنه أن ينادي في الناس: الجنة لا تحل لعاص، ثلاثاً. وخرج معه ﷺ من نسائه أمّ سلمة رضي الله عنها ولمّا أشرف على خيبر، وكان وقت الصبح.. رأى عمّالها وقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، وهي القفف الكبيرة، قالوا: محمد والخميس؛ أي: الجيش العظيم معه، قيل له: الخميس؛ لأنه خمسة أقسام: المقدمة، والساقة والميمنة والميسرة، وهما الجناحان، والقلب، وأدبروا؛ أي: العمّال هرباً إلى حصونهم، وكانوا لا يظنّون أنّ رسول الله ﷺ يغزوهم، وكان بها عشرة آلاف مقاتل، فقال ﷺ: «الله أكبر، خَرِبَت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم.. فساء صباح المنذرين».

وابتدأ من حصونهم بحصن النطاة، وأمر بقطع نخلها فقطعوا أربع مئة، ثم نهاهم عن القطع، ومكث ﷺ سبعة أيَّام يقاتل أهل حصون النطاة، فلم يرجع من أعطى له الراية بفتح، ثمّ قال: «لأُعطين الراية غداً إلى رجل يحبّ الله ورسوله، ويحبّانه، يفتح الله على يديه» فتطاولها أبو بكر وعمر، وبعض الصحابة من قريش، فدعا ﷺ عليًّا رضي الله عنه وبه رمد، فتفل في عينيه، ثم أعطاه الراية، وكانت تلك الراية بيضاء مكتوب فيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله بالسواد، فقال: عَلَامَ أقاتلهم يا رسول الله؟ قال: «أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك.. فقد حقنوا دماءهم وأموالهم» وألبسه ﷺ درعه الحديد، وشدّ سيفه ذا الفقار في وسطه، ووجهه إلى الحصن، وقال: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم»؛ أي: من الإبل النفيسة التي تصدَّق بها في سبيل الله، فخرج عليّ بالراية يهرول، حتى ركزها تحت الحصن، فخرج الحارث أخو مرحب، وكان معروفاً بالشجاعة، فتضاربا فقتله عليّ، وانهزم اليهود إلى الحصن، ثمّ خرج إليه مرحب سيد اليهود، وهو يرتجز ويقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّيْ مَرْحَبُ ... شَاكِيْ ٱلسِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

وارتجز عليّ رضي الله عنه وقال:

أَنَا ٱلَّذِيْ سَمَّتْنِيْ أُمِّيْ حَيْدَرَهْ ضِرْغَامُ آجَامٍ وَلَيْثٌ قَسْوَرَهْ

وضرب عليًّا، فطرح ترسه من يده، فتناول عليّ باباً كان عند الحصن، فتترس به عن نفسه، فلم يزل في يده يقاتل حتى قتل مرحباً، وفتح الله عليه الحصن، وهو حصن ناعم من حصون النطاة، وألقى الباب من يده وراء ظهره ثمانين شبراً، وذلك بالقوّة القدسيَّة، وفيه بيان شجاعة عليّ، حيث قتل شجيعاً بعد شجيع.

ثم انتقل النبي ﷺ من حصن ناعم إلى حصن العصب من حصون النطاة، فأقاموا على محاصرته يومين، حتى فتحه الله، وما بخيبر حصن أكثر طعاماً منه: كالشعير، والسمن والتمر والزيت، والشحم والماشية والمتاع، ثم انتقلوا إلى حصن قلة، وهو حصن بقلة، وهو آخر حصون النطاة، فقطعوا عنهم ماءهم، ففتحه الله، ثمّ سار المسلمون إلى حصار الشقّ، بفتح الشين المعجمة، وهو أعرف عند أهل اللغة من الكسر، ففتحوا الحصن الأول من حصونه. ثمّ حاصروا حصن البراء: وهو الحصن الثاني من حصون الشقّ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى فتحه الله، ثمّ حاصروا حصون الكثيبة، وهي ثلاثة حصون: القموص بوزن صبور، والوطيح، وسلالم بضم السين المهملة، وكان أعظم حصون خيبر القموص، وكان منيعاً حاصره المسلمون عشرين ليلةً، ثم فتحه الله على يد عليّ رضي الله عنه ومنه سبيت صفية بنت حيي رضي الله عنها. وانتهى المسلمون إلى حصار الوطيح، بالحاء المهملة، سمي باسم الوطيح بن مارن رجل من اليهود، وسلالم آخر حصون خيبر، ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوماً، وهذان الحصنان فتحا صلحاً؛ لأنَّ أهلهما لمّا أيقنوا بالهلاك.. سألوا رسول الله ﷺ الصلح على حقن دماء المقاتلة، وترك الذريّة لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريِّهم، وأن لا يصحب أحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره، فصالحهم عليه، ووجدوا في الحصنين المذكورين مئة درع، وأربع مئة سيف، وألف رمح، وخمس مئة قوس عربية بجعابها، وأشياء أخر غالية القيمة، وهي ما في خزانة أبي الحقيق - مصغراً - وأرسل ﷺ إلى أهل فدك، وهي محرّكة: قرية بخيبر، يدعوهم إلى الإسلام ويخوّفهم، فتصالحوا معه ﷺ على أن يحقن دماءهم ويخلِّيهم ويخلون

بينه وبين الأموال، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، وقيل: تصالحوا معه على أن يكون لهم النصف في الأرض، ولرسول الله النصف الآخر، وكان فدك على الأول لرسول الله، وعلى الثاني كان له نصفها؛ لأنها لم تؤخذ بمقاتلة، وكان ﷺ ينفق منها، ويعود منها على صغير بني هاشم، ويزوج منها أيمهم، ولمّا مات ﷺ وولي أبو بكر رضي الله عنه الخلافة.. سألته فاطمة رضي الله عنها أن يجعل فدك أو نصفها لها، فأبى، وروي لها أنه ﷺ قال: «إنا ـ معاشر الأنبياء ـ لا نورث»؛ أي: لا نكون مورّثين «ما تركناه صدقة»؛ أي: على المسلمين.

ثمّ إنّ النبي ﷺ أمر بالغنائم التي غنمت قبل الصلح فجمعت، وأصاب رسول الله ﷺ سبايا، منها: صفية بنت ملكهم حيي بن أخطب، من سبط هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، فهداها الله، فأسلمت، ثمّ أعتقها رسول الله ﷺ وتزوّجها، وكانت رأت أن القمر وقع في حجرها، فكان ذلك رسول الله ﷺ وجعل وليمتها حيساً في نطع، الحيس: تمر وأقط وسمن، ودخل بها رسول الله ﷺ في منزل الصهباء في العود، والصهباء: موضع قرب خيبر، كما في «القاموس».

ونهى النبيّ ﷺ عن إتيان الحبالى حتى تضع، وعن غير الحبالى حتى تستبرأ بحيضة، ونهى عن إتيان المسجد لمن أكل الثوم والبصل، وعن بعضهم: ما أكل نبيّ قطّ ثوماً ولا بصلاً.

يقول الفقير: يدخل فيه الدخان الشائع شربه في هذا الزمان، بل رائحته أكره من رائحة الثوم والبصل، فإذا كان دخول المسجد ممنوعاً مع رائحتهما دفعاً لأذى الناس والملائكة.. فمع رائحة الدخان أولى، وظاهر: أنَّ الثوم والبصل من جنس الأغذية، ولا كذلك الدخان، ومحافظة المزاج بشربه إنما عرفت بعد الإدمان المولد للأمراض الهائلة، فليس لشاربه دليل في ذلك أصلاً، فكما أنَّ شرب الخمر ممنوع أولاً وآخراً، حتى لو تاب منها ومرض.. لا يجوز أن يشربها، ولو مات من ذلك.. يؤجر ولا يأثم، فكذا شرب الدخان، وليس استطابته إلا من خباثة الطبع، فإنّ الطباع السليمة تستقذره لا محالة، فتب إلى

الله، وعد حتى لا يراك حيث نهاك.

ولمّا قدم رسول الله ﷺ خيبر.. كان الثمر أخضر، فأكثر الصحابة من أكله، فأصابتهم الحمى، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ وسلم، فقال: «برِّدوا لها الماء في الشنان؛ أي: في القرب، ثم صبوا منه عليكم بين أذاني الفجر، واذكروا اسم الله عليه» ففعلوا فذهبت عنهم، وفي هذه الغزوة أراد ﷺ أن يتبَّرز، فأمر إلى شجرتين متباعدتين، حتى اجتمعتا فاستتر بهما، ثمّ قام فانطلقت كل واحدة إلى مكانها.

وفي خيبر كان أكله من الشاة المسمومة، وذلك أنَّ زينب ابنة الحارث أخي مرحب سمتها، وأكثرت في الذراعين والكتف، لمّا عرفت أنه ﷺ كان يحب الذراع والكتف لكونهما أبعد من الأذى، وأهدتها له معه، وهو بشر بن البراء، واحتجم رسول الله ﷺ بين الكتفين في ثلاثة مواضع، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى تلك اليهوديّة، فقال: «أسَمَمْت هذه الشاة؟» فقالت من أخبرك؟ قال: «أخبرتني هذه التي في يدي»؛ أي: الذراع، قالت: نعم. قال: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت، فقلت: إن كان ملكاً.. استرحنا منه، وإن كان نبياً فسيخبر، فعفا عنها، فلمّا مات بشر.. أمر بها، فقتلت وصلبت.

وقوله: ﴿أُخْرَىٰ﴾: معطوف[1] على هذه، أي: فعجَّل لكم هذه الغنائم ومغانم أخرى: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ وهي الفتوح التي فتحها الله على المسلمين من بعد: كفارس والروم ونحوهما، كذا قال الحسن ومقاتلٌ، وابن أبي ليلى، وقال الضحاك وابن زيد وابن أبي إسحاق: هي خيبر، وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها، ولم يكونوا يرجونها، وقال قتادة: فتح مكة، وقال عكرمة: حنين، والأول: أولى.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: صفة ثانية لـ ﴿أُخْرَىٰ﴾ قال الفرّاء: أحاط الله بها

(١) روح البيان.

لكم حتى تفتحوها، وتأخذوها.

والمعنى: أنه أعدّها لهم، وجعلها كالشيء الذي قد أحيط به من جميع جوانبه، فهو محصور لا يفوت منه شيء، فهم وإن لم يقدروا عليها في الحال، فهي محبوسة لهم لا تفوتهم، وقيل: معنى: ﴿أحاط﴾: علم أنها ستكون لهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء، ولا تختصّ قدرته ببعض المقدورات دون بعض.

والمعنى[1]: أي ووعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تقدروا عليها، قد حفظها لكم، حتى تفتوحها، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها: كفارس والروم، أقدركم عليهم بعزّ الإسلام، وقد كنتم قبل ذلك مستضعفين أمامهم، لا تستطيعون دفعهم عن أنفسكم، وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء من فتح القرى والبلدان لكم، وغير ذلك، ذا قدرة لا يتعذّر عليه شيء منها.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولم يصالحوكم، قال قتادة: يعني: كفار قريش بالحديبية، وقيل: أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر، والأول: أولى. ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾؛ أي: لانهزموا عنكم، ولم يكن قتال، فإنّ تولية الأدبار كناية عن الانهزام ﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامهم ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يواليهم ويحرسهم وينفعهم باللطف ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم، ويدفع عنهم بالعنف، بل الهلاك لاحقٌ بهم بعد الانهزام؛ يعني: من تولى الله خذلانه فلا ناصر له ولا مساعد.

والمعنى: ولو ناجزكم المشركون بالقتال.. لنصركم عليهم، ولانهزم جيش الكفر فارًّا مدبراً، لا يجد وليًّا يتولّىٰ رعايته، ويكلؤه، ويحرسه، ولا نصيراً يساعده؛ لأنّه محارب لله ولرسوله، ولحزبه المؤمنين.

وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لفعله المحذوف؛ أي: سنَّ الله سبحانه

---

(١) المراغي.

وتعالى غلبة أنبيائه وأوليائه، سنّته ﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الأمم الماضية؛ أي: سنَّ ذلك سنَّةً قديمةً فيمن خلا ومضى من الأمم، وهو قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾. ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد، أو أيّها المخاطب ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ وعادته ﴿تَبْدِيلًا﴾؛ أي: تغيّراً بنقل الغلبة من الأنبياء إلى غيرهم.

أي: ما تقابل الكفر والإيمان في موطن إلا نصر الله المؤمنين على الكافرين، ورفع الحق، ووضع الباطل، كما نصر يوم بدر أولياءه المؤمنين، على قلة عددهم وعددهم، وكثرة المشركين وكثرة عددهم.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِى كَفَّ﴾ ومنع ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: أيدي كفّار مكة ﴿عَنكُمْ﴾ أيّها المؤمنون؛ أي: بأن حملهم على الفرار منكم، مع كثرة عددهم، وكونهم في بلادهم بصدد الذّب عن أهليهم وأولادهم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ بأن حملكم على الرجوع عنهم وتركهم ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾؛ أي: في داخلها؛ أي: في داخل الحرم، وهو الحديبية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾؛ أي: من بعد أن جعلكم ظافرين غالبين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مع أنّ العادة المستمرّة فيمن ظفر بعدوّه أن لا يتركه، بل يستأصله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ الله تعالى أظهر المسلمين عليهم بالحجارة، حتى أدخلوهم البيوت؛ يعني: أنّ جماعة من أهل مكة خرجوا يوم الحديبية يرمون المسلمين، فرماهم المسلمون بالحجارة، حتى أدخلوهم بيوت مكة، فلمّا كان الكفّ على الوجه المذكور في غاية البعد.. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ إلخ. على طريق الحصر، استشهاداً به على ما تقدم من قوله: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ﴾.

وقيل: هم ثمانون رجلاً، طلعوا على رسول الله ﷺ من قبل التنعيم عند صلاة الصبح ليأخذوه بغتة، ويقتلوا الأصحاب، فأخذهم رسول الله ﷺ، فخلّى سبيلهم، فيكون[1] المراد ببطن مكة: وادي الحديبية؛ لأنّ بعضها من الحرم.

---

(١) روح البيان.

يقول الفقير: لا شكّ أنّ وادي الحديبية واقع في الجهة السفلىٰ من مكة؛ لأنّه في جانب جدّة المحروسة، فيكون المراد بالبطن: تلك الجهة، لا داخل مكة.

والمعنى - والله أعلم -: أنّ الله هو الذي كفّ أيديهم عنكم، وأيديكم عنهم في الحديبية التي هي الجهة السفلى من مكة، من بعد أن أقدركم عليهم، بحيث لو قاتلتموهم.. غلبتم عليهم بإذنه تعالى على ما كان في علمه، كما قال: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ﴾ إلخ؛ أي: إنّ الله[1] سبحانه هو الذي كفّ أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية، يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم، فبعث رسول الله ﷺ سريةً، فأتي بهم أسرى، ثم خلى سبيلهم، ولم يقتلهم منةً منه وفضلاً.

روى أحمد وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي في آخرين عن أنس قال: لمّا كان يوم الحديبية.. هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه، ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من جبل التنعيم، التنعيم: موضع بين مكة وسرف، فدعا عليهم، فأخذوا، فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ...﴾ إلخ.

وروى أحمد عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنهما قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وكان عليّ بن أبي طالب، وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»: فأخذ سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيّتنا ما نعرف قال: «اكتب باسمك اللهم» وكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة، فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيّتنا ما نعرف، فقال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله»،

---

(١) المراغي.

فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً، عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ وهل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ أي: بأعمالكم وأعمالهم، بصيراً لا يخفىٰ عليه شيء منها، وهو مجازيكم، ومجازيهم بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على الخطاب؛ أي: من مقاتلتكم وهزمكم إياهم أولاً طاعة لرسوله، وكفّكم عنهم ثانياً؛ لتعظيم بيته الحرام، وصيانة أهل الإسلام. ﴿بَصِيرًا﴾؛ أي: عالماً لا يخفى عليه شيء، فيجازيكم بذلك، وقرأ أبو عمرو: بالياء، وهو تهديد للكفّار.

﴿هُمُ﴾؛ أي: قريش الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾؛ أي: منعوكم ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: عن أن تطوفوا بالبيت ﴿و﴾ صدّوا ﴿الهدي﴾ وهو بالنصب عطف على الضمير المنصوب في ﴿صدّوكم﴾ والهدي بسكون الدال:[2] جمع هدية، كتمر وتمرة، وجدي وجدية، وهو: مختص بما يهدىٰ إلى البيت تقرّباً إلى الله تعالى من النعم، أيسره: شاة، وأوسطه: بقرة، وأعلاه: بدنة، ويجوز تشديد الياء، فيكون جمع هديّة.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿الهدي﴾ بالنصب، عطفاً على الضمير في: ﴿صدّوكم﴾، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه. ﴿الهدي﴾ بالجر عطفاً على ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: وعن نحر الهدي، وقرىء: بالرفع على تقدير: وصد الهدي، وقرأ الجمهور: ﴿الهدي﴾ بفتح الهاء وسكون الدال، وهي لغة قريش، وقرأ ابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤيّ وخارجة عن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

أبي عمرو: ﴿الهدي﴾ بكسر الدال، وتشديد الياء، وهم لغتان، وانتصاب ﴿مَعۡكُوفًا﴾ على الحال من ﴿الهدي﴾؛ أي: وصدّوا الهدي عن دخول الحرم، حال كونه محبوساً عن ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾؛ أي: مكانه الذي يحلّ فيه نحره؛ أي؛ يصح ويجب فيه نحره، وهو الحرم، فالمحل: اسم للمكان الذي ينحر فيه الهدي، وقوله: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾: بدل اشتمال من ﴿الهدي﴾ أو منصوب بنزع الخافض.

قال في «بحر العلوم»: الحديبية: طرف الحرم على تسعة أميال من مكة، وروي: أنّ خيامه ﷺ كانت في الحلّ، ومصلاه في الحرم، وهناك نحرت هداياه ﷺ، وهي سبعون بدنة.

والمراد: صدّها عن محلّها المعهود الذي هو منى للحاج، وعند الصفا للمعتمر، وعند الشافعي لا يختص دم الإحصار بالحرم، فيجوز أن يذبح في الموضع الذي أحصر فيه.

والمعنى: أي هم الذين جحدوا توحيد الله، وصدّوكم أيّها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام، وصدّوا الهدي محبوساً أن يبلغ محلّ نحره، وهو الحرم عناداً منهم وبغياً، وكان رسول الله ﷺ ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك سبعين بدنة.

واعلم(١): أنه تعالى بيّن استحقاق كفّار مكة للعقوبة بثلاثة أشياء: كفرهم في أنفسهم، وصدِّ المؤمنين عن إتمام عمرتهم، وصدّ هديهم عن بلوغ المحلّ، فهم مع هذه الأفعال القبيحة كانوا يستحقّون أن يقاتلوا أو يقتلوا، إلا أنه تعالى كفّ أيدي كل فريق عن صاحبه، محافظةً على ما في مكة من المؤمنين المستضعفين ليخرجوا منها، أو يدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾؛ أي: لم تعرفوهم أيّها المؤمنون بأعيانهم؛ لاختلاطهم بالمشركين،

---

(١) روح البيان.

وقيل: لم تعلموا أنهم مؤمنون، وهو صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نساء﴾ جميعاً، وكانوا بمكة. وهم اثنان وسبعون نفساً، يكتمون إيمانهم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾: بدل اشتمال من ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نساء﴾ ولكنّه غلّب الذكور، أو بدل من الضمير المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾. والتقدير على الأول: ولولا وطء رجال ونساء غير معلومين، وعلى الثاني: لم تعلموا وطأهم، والخبر: محذوف؛ أي: ولولا رجال ونساء موجودون؛ أي: لم تعلموا أن تطؤوهم، وتدوسوهم بالقتل، وتهلكوهم؛ لأنّ الوطء؛ عبارة عن الإيقاع والإهلاك والإبادة ﴿فَتُصِيبَكُم﴾؛ أي: فيتسبب عن هذا الوطء أن تصيبكم ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من جهتهم وبسببهم معطوف على قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾؛ أي: مشقة ومكروه، كوجوب الدية، والكفارة بقتلهم، والتأسّف عليهم، وتعيير الكفار لكم بذلك، والإثم بالتقصير في البحث عنهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: متعلق بـ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾؛ أي: أن تطؤوهم غير عالمين بهم، فيصيبكم بذلك مكروه لما كفّ أيديكم عنهم، وفي الحذف دليل على شدة غضب الله تعالى على كفار مكة، كأنه قيل: لولا حق المؤمنين موجود.. لفعل بهم ما لا يدخل تحت الوصف.

والمعنى[1]: لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين، بين أظهر الكافرين، غير معروفين لكم، كالوليد وسلمة بن هشام وعيّاش بن ربيعة وأبي جندلٍ، حال كونكم جاهلين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقّة.. لأذن لكم في دخول مكة عنوةً، أو لما كفّ أيديكم عنهم. اهـ «بيضاوي».

أي[2]: ولولا هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم، وهم بين أظهرهم.. لسلّطناكم عليهم، فقتلتموهم، وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات من لا تعرفونهم حين القتل، ولو قتلتموهم.. للحقتكم المعرة والمشقة بما يلزمكم في قتلهم من كفارة وعيب.

والخلاصة: أنه لولا وجود المؤمنين مختلطين بالمشركين، غير متميزين

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

منهم.. لوقع ما كان جزاءهم لصدِّهم وكفرهم، ولو حصل ذلك.. لزمكم العيب، إذ يقول المشركون: إنّ المسلمين يقتلون أهل دينهم.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: متعلِّقة بما يدل عليه الجواب المقدّر؛ أي: ولكن لم يأذن لكم، أو كف أيديكم ليدخل الله سبحانه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده المؤمنين في رحمته بتوفيقه لزيادة الخير والطاعة، أو من المشركين بدخوله في الإسلام، والمراد بمن يشاء من عباده: هم[1] المؤمنون والمؤمنات، الذين كانوا في مكة، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار، ويفكّ أسرهم، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب، وقيل: إنّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ عباده ممن رغب في الإسلام من المشركين، وقيل: ﴿اللام﴾: متعلقة بمحذوف غير ما ذكر، تقديره: لو قتلتموهم.. لأدخلهم الله في رحمته، والأول: أولى.

والمعنى[2]: أي هم الذين كفروا، الذين استحقوا التعجيل في إهلاكهم، ولولا مؤمنون مختلطون بهم.. لعجّل الله بهم، ولكن كفَّ الله أيديكم عنهم لكي يكرم الله المؤمنين، بزيادة الخير والطاعة لله تعالى، والمشركين بدخولهم في دين الإسلام؛ أي: ليخرج المؤمنين من مكة، ويهاجروا إلى المدينة، وليؤمن من المشركين من علم الله أنه يؤمن في تلك السنة؛ لأنّهم إذا شاهدوا رحمة الله في شأن طائفة من المؤمنين، بأن منع الله من تعذيب أعداء الدين بعد الظفر بهم؛ لأجل اختلاطهم بهم، رغبوا في مثل هذا الدين.

والخلاصة: قد حال بينكم وبين دخول مكة لقتالهم، إخراج المؤمنين من بين أظهرهم، وليدخل في دينه من يشاء منهم قبل أن تدخلوها.

والضمير في قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ عائد إلى الفريقين المؤمنين والمشركين؛ أي: لو تميز المؤمنون عن المشركين، وتفرَّقوا عنهم، وخرجوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتل والأسر والقهر؛ أي: لعذَّبنا كفار مكة بتسليط المؤمنين عليهم بقتلهم، وسبي ذراريهم.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾، وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم وأبو حيوة وابن عون: ﴿لو تزايلوا﴾ بوزن تفاعلوا، والتزايل: التباين.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد، قصّة إذ ألقى الذين كفروا من أهل مكة ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾؛ أي: الأنفة والتكبر، من حمي من كذا حمية إذا أنف منه، والجار والمجرور[2]: إما متعلق بالجعل على أنه بمعنى الإلقاء، أو بمحذوف هو مفعول ثان على أنه بمعنى التصيير؛ أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل من ﴿الْحَمِيَّةَ﴾؛ أي: حمية الملة الجاهلية، وهي ما كانت عليه قبل البعثة، أو الحميَّة الناشئة من الجاهلية التي تمنع إذعان الحق، قال الزهري: حميتهم أنفسهم من الإقرار بالرسالة للنبيّ ﷺ، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، أو منعهم من دخول مكة، وقال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان: قال أهل مكة: قد قتلوا أبنائنا وإخواننا، ثم يدخلون علينا، فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللات والعزّى، لا يدخلون علينا! فهذه حميَّة الجاهلية التي دخلت في قلوبهم.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ﴾.

والمراد[3]: تذكير حسن صنيع الرسول والمؤمنين بتوفيق الله تعالى، وسوء صنيع الكفرة؛ أي: فأنزل الله تعالى عليهم الثبات والوقار والطمأنينة، فلم يلحق بهم ما لحق الكفار، فصالحوهم، ورضوا أن يكتب الكتاب على ما أرادوا، ويروى: أنه لمَّا أبى سهيل بن عمرٍو ومن معه أن يكتب في عنوان كتاب الصلح البسملة، وهذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة، بل قالوا لعليّ: اكتب باسمك اللهم، وهذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة.. قال النبيُّ ﷺ لعليّ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

رضي الله عنه: أكتب ما يريدون، فهمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك، ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقَّروا، وحلموا مع أنّ أصل الصلح لم يكن عندهم بمحلٍّ من القبول في أول الأمر، حين قالوا: علام نعطي الدنيَّة في ديننا، وهم مشركون ونحن مسلمون؟ كما سبق، وقيل: ثبتهم على الرضا والتسليم.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾؛ أي: ألزم الله تعالى رسوله والمؤمنين ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾؛ أي: اختار لهم كلمة يُتّقى بها من الشرك؛ أي: كلمة لا إله إلا الله، كذا قال الجمهور، وزاد بعضهم: محمد رسول الله، وزاد بعضهم: وحده لا شريك له، حتى قالوها، وهذا إلزام الكرم واللطف، لا إلزام الإكراه والعنف، وأضيفت إلى التقوى؛ لأنها سببها، إذ بها يتقى من الشرك ومن النار، فإنَّ أصل التقوى: الاتقاء عنها، وقد وصف الله تعالى هذه الأمة بالمتقين في مواضع من القرآن العظيم، باعتبار هذه الكلمة، وقال الزهري: هي: بسم الله الرحمن الرحيم، وذلك أنَّ الكفار لم يقروا بها، وامتنعوا من كتابتها في كتاب الصلح الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في كتب الحديث والسير، فخصَّ الله بهذه الكلمة المؤمنين، وألزمهم بها، وهي من شعار هذه الأمة وخواصّها، اختارها لهم، وصار المشركون محرومين منها، حيث لم يرضوا بأن يكتب في كتاب الصلح، والأول: أولى، وعن الحسن: كلمة التقوى: هي الوفاء بالعهد، فإنَّ المؤمنين وفوا بالعهد، حيث نقضوا وعاونوا من حارب حليف المؤمنين.

والمعنى على هذا: وألزمهم كلمة أهل التقوى: وهي العهد الواقع في ضمن الصلح، ومعنى إلزامها إياهم: تثبيتهم عليها، وعلى الوفاء بها.

﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: وكان المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾؛ أي: بكلمة التوحيد من الكفار في سابق علمه ﴿وَأَهْلَهَا﴾؛ أي: مستأهلين لها، ومختصين بها في الدنيا دونهم؛ لأنَّ الله تعالى اختارهم لصحبة نبيّه ﷺ، وهو عطف تفسير لما قبله.

قيل: إنّ الذين كانوا قبلنا، لا يمكن لأحد منهم أن يقول: لا إله إلا الله في اليوم والليلة إلا مرةً واحدة، لا يستطيع أن يقولها أكثر من ذلك، وكان قائلها يمدُّ بها صوته حتى ينقطع النفس؛ التماس بركتها وفضلها، وجعل الله لهذه الأمة

أن يقولها متى شاؤوا، وهو قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ من الأمم السالفة، وقال مجاهد: ثلاث لا يحجبن عن الربّ: لا إله إلا الله من قلب مؤمن، ودعوة الوالدين، ودعوة المظلوم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من شأنه أن يتعلق به العلم ﴿عَلِيمًا﴾؛ أي: بليغ العلم، فيعلم حق كل شيء، فيسوقه إلى مستحقه، ومن معلوماته: أنهم أحقُّ بها؛ أي: من جميع الأمم؛ لأنَّ النبيّ ﷺ أفضل المخلوقات، وأمته خير الأمم، وهذه الكلمة من أفضل الأذكار، فأُعطوها لأنّها اللائقة بهم.

والمعنى[1]: أي واذكر يا محمد إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم أنفة الجاهلية، فامتنع سهيل بن عمرو أن يكتب في كتاب الصلح الذي بين رسول الله ﷺ والمشركين بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب فيه محمد رسول الله، وامتنع هو وقومه أن يدخل رسول الله ﷺ عامه هذا المسجد الحرام، فأنزل الله الصبر والطمأنينة على رسوله، ففهم عن الله مراده، وجرى على ما يرضيه، وأنزله على المؤمنين فألزمهم أمره، وقبلوه، وحماهم من همزات الشياطين، وألزمهم كلمة التوحيد والإخلاص لله في العمل، وكانوا أحق بها، وكانوا أهلها، إذْ هم أهل الخير والصلاح، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ سواء كان من المؤمنين أم من المشركين، فيجازي كلًّا بما عمل.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾؛ أي: لقد[2] جعل الله سبحانه رؤيا رسوله صادقةً، ولم يجعلها أضغاث أحلام، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إما صفة لمصدر محذوف؛ أي: صدقاً متلبساً بالحق والحكمة البالغة: وهي التمييز بين الراسخ في الإيمان، والمتزلزل فيه، أو حال من الرؤيا؛ أي: متلبسةً بالصدق ليست من نوع أضغاث الأحلام؛ لأنّ ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر له: وهو العام القابل.

والمعنى: أراه الرؤيا الصادقة المتلبسة بالحق والحكمة، حيث قال النبيّ ﷺ

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

لأصحابه وقت خروجه إلى الحديبية: والله ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعالى حالة كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العدوّ، فلا تخافون عدوّكم من أن يخرجكم في المستقبل، وهو حال من فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾. والشرط: معترض، وكذا قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾؛ أي: جميع شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعض شعورها؛ أي: محلّقاً بعضكم، ومقصّراً آخرون، وإلا فلا يجتمع الحلق والتقصير في كل واحد منهم، فالنظم من نسبة حال البعض إلى الكل؛ يعني: أنّ الواو ليست لاجتماع الأمرين في كل واحد منهم، بل لاجتماعهما في مجموع القوم، ثمّ إنّ قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ و﴿مقصرين﴾ من الأحوال المقدرة، فلا يرد أنّ حال الدخول هو حال الإحرام، وهو لا يجامع الحلق والتقصير، وقدّم الحلق على التقصير: وهو قطع أطراف الشعر؛ لأنّ الحلق أفضل من التقصير، وقد حلق رسول الله ﷺ بمنى، وأعطى شعر شق رأسه أبا طلحة الأنصاري، وهو زوج أمّ سليم: وهي والدة أنس بن مالك، فكان آل أنس يتهادون به بينهم، وروي: أنه ﷺ حلق رأسه أربع مرّات، والعادة في هذا الزمان في أكثر البلاد حلق الرأس للرجل، عملاً بقوله ﷺ: «تحت كل شعرة جنابة، فخلّلوا الشعر، وأنقوا البشرة». وإنما قلنا: للرجل؛ لأنّ حلق شعر المرأة مثلة، وهي حرام، كما أنَّ حلق لحية الرجل كذلك، فقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ إشارة إلى أداء الحج، و﴿مُحَلِّقِينَ﴾ إشارة إلى تمام الحج، فقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ من العدوّ، فيبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام، حال مؤكدة من فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أو استئناف جواباً عن سؤال أنه كيف يكون الحال بعد الدخول؟ أي: لا تخافون بعد ذلك من أحد.

وتلك الرؤيا أنه ﷺ رأى عام الحديبية قبل خروجه إلى الحديبية: كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رؤوسهم وقصروا، فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوا مكة في عامهم، فلمّا خرجوا معه ﷺ، وصدّهم الكفار بالحديبية، ورجعوا، وشقّ عليهم ذلك.. قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحارث: والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت هذه الآية المذكورة، ولمّا نزلت هذه الآية.. علم المسلمون أنهم يدخلونها فيما يستأنف، واطمأنت قلوبهم، ودخلوها معه ﷺ في

ذي القعدة سنة سبع، وذلك ثلاثة أيام هو وأصحابه، وصدقت رؤياه ﷺ.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ﴾ الله سبحانه ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ في الصلح في الحديبية من المصلحة المتجدّدة، فإنّ دخولكم في سنتكم هذه سبب لهلاك المؤمنين والمؤمنات، معطوف على ﴿صَدَقَ﴾. و﴿الفاء﴾[1]: للترتيب الذكري، فالتعرض لحكم الشيء إنما يكون بعد جري ذكره.

والمراد بعلمه تعالى: العلم الفعليّ المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه؛ أي: فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة، ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً. ﴿فَجَعَلَ﴾ سبحانه ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من قبل ذلك الدخول في مكة؛ أي: من قبل تحقق مصداق ما أراه من دخول المسجد الحرام ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، فيقويكم به، فإنه كان سبباً لإسلام كثير من الناس تقوّى بهم المسلمون، فتكون تلك الكثرة سبباً لهيبة الكفار، ولمنعهم من قتال المسلمين، حين رجعوا إلى مكة في العام المقبل، وهم عشرة آلاف، وكانوا في عام الحديبية ألفاً وأربع مئة.

والمعنى[2]: أي لقد صدق الله رسوله محمداً ﷺ رؤياه التي أراها إياه، أنه يدخل هو وأصحابه البيت الحرام، آمنين لا يخافون أهل الشرك، محلّقاً بعضهم ومقصّراً بعضهم الآخر، فعلم جلّ ثناؤه ما لم تعلموا، وذلك علمه تعالى ما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين، الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها هذا العام.. لوطئوهم بالخيل والرجل، فأصابتهم منهم معرّة بغير علم، فردّهم الله تعالى عن مكة من أجل ذلك، فجعل من دون دخولهم المسجد فتحاً قريباً: هو صلح الحديبية، وفتح خيبر؛ لتستروح إليه قلوب المؤمنين، إلى أن يتيسّر اليوم الموعود.

ثمّ أكّد صدق الرسول في الرؤيا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِيٓ﴾؛ أي: هو سبحانه وتعالى الإله الذي ﴿أَرْسَلَ﴾ وبعث ﴿رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ؛ أي؛ اختصّ بإرسال

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

رسوله الذي لا رسول أفضل منه، حال كونه متلبساً ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بالقرآن أو بالتوحيد، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله، فيكون الجار متعلقاً بمحذوف حال من الرسول، أو بسببه، أو لأجله فيكون متعلقاً بـ ﴿أَرْسَلَ﴾ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وبدين الإسلام، وهو[1] من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته مثل: عذاب الحريق، والأصل: الدين الحق، والعذاب المحرق.

ومعنى الحق: الثابت الذي هو ناسخ لجميع الأديان ومبطلها.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: ليظهر الله سبحانه الدين الحق، ويعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: على جنس الدين بجميع أفراده التي هي الأديان المختلفة، بنسخ ما كان حقًّا منها من بعض الأحكام المتبدّلة بتبدّل الأعصار، وإظهار بطلان ما كان باطلاً منها، أو بتلسيط المسلمين على أهل سائر الأديان.

والمعنى: أي هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام؛ ليبطل به الملل كلها، بنسخ سائر الديانات، وإظهار فساد العقائد الزائفات، حتى لا يكون دين سواه، ولقد أنجز الله وعده، حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، ولا يبقى إلا مسلم أو ذمّة للمسلمين، وكم ترى من فتوح أكثر البلاد، وقهر الملوك الشداد، ما تعرف به قدرة الله تعالى، وقيل: ليظهره الرسول على الدين كلّه، والأول: أولى.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال، و﴿الباء﴾: زائدة، كما تقدم في غير موضع؛ أي: كفى الله سبحانه ﴿شَهِيدًا﴾ على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به، وعلى صحة نبوّة محمد ﷺ، بإظهار المعجزات، وإن لم يشهد الكفار، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شهد له بالرسالة بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فـ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبره، وهو وقف تام، والجملة: مبيّنة للمشهود به، وقيل: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، وقوله: ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾: بدل أو عطف بيان أو نعت؛ أي: ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق،

---

(١) روح البيان.

محمد رسول الله.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ أي: مع رسول الله ﷺ، قيل: هم أصحاب الحديبية، والأولى[1]: الحمل على العموم، وهو مبتدأ، خبره: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾؛ أي: غلاظ عليهم، كما يغلظ الأسد على فريسته، وهو جمع شديد. ﴿رُحَمَآءُ﴾؛ أي: متعاطفون، جمع رحيم ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فيما بينهم، كالوالد مع ولده؛ أي: متوادون متعاطفون فيما بينهم.

والمعنى: أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرأفة والرحمة، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلو اكتفى[2] بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾.. لربما أوهم الفظاظة والغلظة، فكمّل بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ فيكون من أسلوب التكميل، وعن الحسن: بلغ من تشدّدهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمسّ أبدانهم، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم: أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

وقرأ ابن عامر في رواية[3]: ﴿رسول الله﴾ بالنصب على المدح، وقرأ الجمهور: ﴿أَشِدَّآءُ﴾، ﴿رُحَمَآءُ﴾ بالرفع على أنه خبر للموصول، وقرأ الحسن: بنصبهما على الحال، والعامل فيهما: العامل في ﴿مَعَهُ﴾ ويكون الخبر عن المبتدأ المتقدم ﴿تَرَاهُمْ﴾ وقيل: على المدح، وقرأ[4] يحيى بن يعمر: ﴿أَشِدًّا﴾ بالقصر، وهي شاذّة؛ لأنّ قصر الممدود إنما يكون في الشعر، نحو قوله:

لاَ بُدَّ مِنْ صَنْعَا وَإِنْ طَالَ السَّفَرْ

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ جمع راكع وساجد؛ أي: تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، لمواظبتهم على الصلوات، فهما حالان؛ لأنّ الرؤية بصرية، وأريد بالفعل الاستمرار، والجملة: خبر آخر أو استئناف، وجملة قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾: إما خبر آخر، أو استئناف، مبنيّ على سؤال نشأ عن بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾؛ أي: ثواباً من الله ورضى منه، وقال بعض الكبار: قصدهم في الطاعة والعبادة، الوصول والوصال، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قال الراغب: الرضوان: الرضا الكثير.

والمعنى: يطلبون ثواب الله لهم، ورضاه عنهم. وقرأ عمرو بن عبيد: ﴿ورضوانا﴾ بضم الراء.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ فعلى من سامه: إذا أعلمه؛ أي: جعله ذا علامة. وقرىء: ﴿سيمياؤهم﴾ بالياء بعد الميم والمد، وهما لغتان، وفيها لغة ثالثة هي: السيماء، وهو مبتدأ، خبره: قوله: ﴿فِي وُجُوهِهِم﴾؛ أي: علامتهم التي تميزهم عن غيرهم ثابتة في وجوههم؛ أي: في جباههم حالة كون تلك السيماء كائنة ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فالجار والمجرور: حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبر المبتدأ، وأثر الشيء: حصول ما يدلّ على وجوده. كما في «المفردات»؛ أي:[1] من التأثير الذي تؤثّر كثرة السجود في جباههم، وما روي عن النبيّ ﷺ: «لاَ تُعْلِمُوا صُوركم»؛ أي: لا تسموها، إنما هو فيما إذا اعتمد بجبهته على الأرض ليحدث فيها تلك السمة، وذلك محض رياءٍ ونفاقٍ، والكلام هنا فيما حدث في جبهة السُّجَّاد الذين لا يسجدون إلا خالصاً لوجه الله تعالى؛ أي: تظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة، وكثرة التعبّد بالليل والنهار، وقال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفرًّا، فجعل هذا هو السيما، وقال ﷺ: «من كثر صلاته بالليل.. حسن وجهه بالنهار». ألا ترى أنَّ من سهر بالليل، وهو مشغول بالشراب واللعب.. لا يكون وجهه في النهار كوجه من سهر وهو مشغول بالطاعة، وقال الزهري: مواضع السجود أشد وجوههم بياضاً يوم القيامة.

وقرأ ابن هرمز: ﴿إِثْر﴾ بكسر الهمزة وسكون الثاء، والجمهور: بفتحهما،

---

(١) روح البيان.

وقرأ قتادة: ﴿من آثار السجود﴾ بالجمع، وقال عطاء الخراساني رحمه الله ودخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من نعوتهم الجليلة ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ أي: وصفهم العجيب الشأن، الجاري من الغرابة مجرى الأمثال، حال كون ذلك المثل مكتوباً ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حال من ﴿مَثَلُهُمْ﴾ والعامل فيه: معنى الإشارة، والتوراة: اسم لكتاب موسى عليه السلام، سمّي بالتوراة؛ لأنه يظهر منه النور والضياء لبني إسرائيل ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾: معطوف على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأول، كأنه قيل: ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وتكرير ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ لتأكيد غرابته، وزيادة تقريرها، والإنجيل: كتاب عيسى عليه السلام، سمّي بالإنجيل؛ لأنّه أظهر الدين بعد ما درس؛ أي: عفا رسمه.

ومعنى الآية: أي[1] إنّ محمداً ﷺ رسول الله، بلا شكّ ولا ريب، مهما أنكر المنكرون، وافترى الجاحدون، وإنّ صحابته الذين معه غليظة قلوبهم على الكفار، رقيقة قلوب بعضهم على بعض، ليّنة أنفسهم لهم، هيّنة عليهم، تراهم دائبين على الصلاة، مخلصين لله، محتسبين فيها الأجر وجزيل الثواب عنده، طالبين رضاه عنهم، لهم سمت حسن، وخشوع وخضوع يظهر أثره على الوجوه، ومن ثمّ قيل: إنّ للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس.

والخلاصة: أنّ كل ما يفعله المرء، أو يتصوّره، يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سيرته وسريرته صحيحة مع الله.. أصلح الله عزّ وجلّ ظاهره للناس، ثمّ أخبر سبحانه: أنه نوّه بفضلهم في الكتب المنزّلة، والأخبار المتداولة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ أي: هذه الصفة التي وصفت لكم من صفات أتباع محمد ﷺ، هي صفتهم في التوراة، وصفتهم في الإنجيل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ...﴾ إلخ، تمثيل مستأنف[2]؛ أي: هم كزرع أخرج أفراخه؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

أي: فروعه وأغصانه، وذلك أنّ أوّل ما نبت من الزرع بمنزلة الأمّ، وما تفرّع وتشعّب منه بمنزلة أولاده وأفراخه، ولا يكون الشطأ إلا في البرّ والشعير، وفي «المفردات»: شطأه: فروع الزرع، وهو: ما خرج منه، وتفرّع في شاطئيه؛ أي: جانبيه، وجمعه: أشطاء، وقوله: ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾؛ أي: أفراخه. انتهى، وقيل: هو تفسير لقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدّم من الأوصاف، وقيل: هو خبر لقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ على أنّ الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

وقال الفرّاء: قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ فيه وجهان: إن شئت.. قلت: ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل؛ يعني: كمثلهم في القرآن، فيكون الوقف على الإنجيل، وإن شئت.. قلت: ذلك مثلهم في التوراة، ثم تبتدىء: ومثلهم في الإنجيل كزرع، وعلى هذا فيكون ﴿كَزَرْعٍ﴾: خبراً عن قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾. قال قتادة: مثل أصحاب النبيّ ﷺ في الإنجيل مكتوب: أنه سيخرج من أمة محمد ﷺ قوم ينبتون نباتاً كالزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

قال ابن عطية: قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾: هو على كل الأقوال، وفي أيّ كتابٍ أنزل، فرض مثل للنبيّ ﷺ وأصحابه، في أنَّ النبيَّ ﷺ بعث وحده، فكان كالزرع حبّةً واحدةً، ثم كثر المسلمون، فهو كالشطأ: وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ بإسكان الطاء وبالهمزة، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان: بفتحهما، وكذلك وبالمدّ أبو حيوة وابن أبي عبلة وعيسى الكوفي، وقرأ أنس وزيد بن عليّ ونصر بن عاصم ويحيى بن وثاب: ﴿شطاه﴾ كعصاه، فاحتمل أن يكون مقصوراً، وأن يكون أصله الهمزة، فنقل الحركة وأبدل الهمزة ألفاً، كما قالوا في المرأة والكمأة: المراه والكماه، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين، وهو عند البصريين شاذٌّ لا يقاس عليه، وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق: ﴿شَطَه﴾

(١) البحر المحيط.

بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء، رويت عن شيبة ونافع والجحدريّ، وعن الجحدريّ أيضاً: ﴿شطوه﴾ بإسكان الطاء وواو بعدها، وقال أبو الفتح: هي لغة أو بدل من الهمزة، وهذه كلّها لغات.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: فقوّاه وأعانه وشدّه، قال الإمام النسفيّ:[1] الضمير المستتر في ﴿آزره﴾: يعود على الشطأ، والبارز على الزرع؛ أي: فقوّىٰ الشطأ أصل الزرع بالتفافه عليه وتكاثفه، وهو من الموازرة بمعنى المعاونة، فيكون وزن آزر فاعل، من الأزر: وهو القوّة. وخطّأه أبو حيان لأنّه لم يسمع في مضارعه إلا يؤزر على وزن يكرم، أو من الإيزار: وهي الإعانة، فيكون وزنه أفعل، وهو الظاهر؛ لأنه لم يسمع في مضارعه يوازر.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ على وزن أفعله، وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحميد بن قيس: ﴿فأزره﴾ بالقصر ثلاثياً، وقرىء: ﴿فأزّره﴾ بتشديد الزاي.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ ذلك الزرع؛ أي: صار ذلك الزرع الأصل غليظاً، بعد أن كان دقيقاً، فهو من باب استحجر الطين؛ يعني: أنّ السين للتحوّل، فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا أقلّة ضعفاء، فلمّا كثروا، وتقوّوا.. قاتلوا المشركين ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ ذلك الزرع، واستقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾؛ أي: تمّ نباته على سوقه؛ أي: على أصوله، سوق جمع ساق، ساق: أصل الزرع، وساق فروعه.

وقرأ ابن كثير وقنبل: ﴿سؤقه﴾ بالهمزة الساكنة، قيل: وهي لغة ضعيفة يهمزون الواو التي قبلها ضمة، ومنه قول الشاعر:

أَحَبُّ ٱلْمُؤْقِدِيْنَ إِلَيَّ مُؤْسَىٰ

ذكره في «البحر».

وقوله: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: حال من ﴿زرع﴾؛ أي: حال كون ذلك الزرع

---

(١) النسفيّ.
(٢) البحر المحيط.

يعجب زرّاعه الذين زرعوه؛ أي: يسرَّهم بقوته، وكثافته وغلظه، وحسن منظره، وطول قامته، وهنا[1] تمَّ المثل، وهو مثل ضربه الله لأصحاب رسول الله ﷺ، قلوا في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرهم يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس أمرهم.

ثم ذكر سبحانه علّة تكثيره لأصحاب نبيّه ﷺ، وتقويته لهم، فقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ الغيظ: أشدّ الغضب، وهو علّة لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه؛ أي: كثرهم الله سبحانه، وقوّاهم وجعلهم كالزرع في النماء والقوّة؛ ليغيظ ويغضب بهم مشركي مكة، وسائر كفّار العرب والعجم؛ أي: فعل بهم ذلك؛ ليكونوا غيظاً للكافرين، ومما يغيظ الكفار قول عمر رضي الله عنه لأهل مكة بعد ما أسلم: لا نعبد الله سرّاً بعد اليوم.

وقيل: قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾: علّة لما بعده من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فرائضها وسننها، و﴿من﴾، في قوله: ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من أصحاب محمد ﷺ، للبيان؛ أي: لبيان الجنس كلّهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ فلا حجّة فيه للطاعنين في الأصحاب؛ لأنّ كلّهم مؤمنون، وقيل: الضمير للكفار فمن للتبعيض. ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ وثواباً جزيلاً؛ أي: وعد الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين مع محمد ﷺ، أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم، بإدخالهم الجنة التي هي أكبر نعمة، وأعظم منّة؛ ليغيظ بهم الكفار، فإنّ الكفار[2] إذا سمعوا بما أعدّ للمؤمنين في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من العزّة.. غاظهم ذلك أشدّ الغيظ، والأول: أولى.

يقول الفقير: نظر الكفار مقصور على ما في الدنيا مما يتنافس فيه ويتحاسد، وكيف لا يغيظهم ما أعدّ للمؤمنين في الآخرة وليسوا بمؤمنين باليوم الآخر؟!

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي وعد الله سبحانه هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم، بإدخالهم جنات النعيم، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة.. فهو في حكمهم، ولهم السبق والفضل، والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد.

روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً.. ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» رضي الله عنهم وأرضاهم.

تنبيه: هذه أوصاف الأمة الإسلامية أيّام عزّها، فانظر الآن، وتأمّل في تخاذلها وجهلها، حتى أصبحت مثلاً في الخمول والجهل، وأصبحت زرعاً هشيماً تذروه الرياح، فكيف يجتمع عصفه وتبنه؟! ولعل الله يبدل الحال غير الحال، ويخضر الزرع بعد ذبوله، وتعود الأمة سيرتها الأولى، مهيبة مرعية الجانب، مخشية القوة.

الإعراب

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَّقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ ﴿رَضِيَ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿رَضِيَ﴾. ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به مرفوع بثبات النون، وأتى بصيغة المضارع؛ لاستحضار صورة المبايعة، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، ﴿فَعَلِمَ﴾

---

(١) المراغي.

﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿علم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لما علمت أنه بمعنى الماضي. ﴿مَا﴾: موصول مفعول به. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿فَأَنزَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنزل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿رَضِيَ﴾. كما في «أبي السعود». ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: مفعول به، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿أنزل﴾، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول، معطوف على ﴿أنزل﴾، ﴿فَتْحًا﴾: مفعول ثان. ﴿قَرِيبًا﴾: صفة له. ﴿وَمَغَانِمَ﴾: معطوف على ﴿فَتْحًا﴾. ﴿كَثِيرَةً﴾ صفة لـ ﴿مَغَانِمَ﴾، وجملة ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾: صفة ثانية لـ ﴿مَغَانِمَ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبران له، والجملة: مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿أثابهم﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض ومفعول أول وفاعل. ﴿مَغَانِمَ﴾: مفعول ثان، ﴿كَثِيرَةً﴾: صفة لـ ﴿مَغَانِمَ﴾، وجملة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾: صفة ثانية لـ ﴿مَغَانِمَ﴾، وجملة ﴿وَعَدَكُمُ﴾: مستأنفة على طريق الالتفات. ﴿فَعَجَّلَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿عجل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿عجل﴾. ﴿هَٰذِهِۦ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿وَعَدَكُمُ﴾. ﴿وَكَفَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة: معطوفة على جملة ﴿عجل﴾. ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿كف﴾، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ ﴿الواو﴾: مقحمة عند الكوفين، وعاطفة على مقدر عند البصريين، تقديره: وكفّ أيدي الناس عنكم لتشكروه. ﴿وَلِتَكُونَ﴾ و﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، واسمها: ضمير مستتر يعود على خصلة الكفّ لأيدي الناس، ﴿ءَايَةً﴾: خبرها، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ ﴿ءَايَةً﴾، وجملة ﴿تكون﴾ مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة المحذوفة،

تقديره: وكفّ أيدي الناس عنكم لشكركم إياه، ولكونها آيةً للمؤمنين، والجار والمجرور: معطوف على الجار والمجرور المقدر، وذلك المقدر متعلق بـ ﴿كَفَّ﴾. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: معطوف على ﴿وَلِتَكُونَ﴾ وفاعله: ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ و﴿الكاف﴾: مفعول أول. ﴿صِرَاطًا﴾: مفعول ثان. ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾: صفة ﴿صِرَاطًا﴾، ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أخرى﴾: صفة لموصوف محذوف، هو مفعول لفعل محذوف، تقديره: ووعدكم مغانم أخرى، والجملة المحذوفة: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾. وفي المقام أوجه أخر من الإعراب، أعرضنا عنها صفحاً خوف الإطالة، وجملة ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾: صفة أولى لـ ﴿أخرى﴾، وجملة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾: صفة ثانية لها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿قَدِيرًا﴾، و﴿قَدِيرًا﴾: خبره، والجملة: مستأنفة.

﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿قَـٰتَلَكُمُ﴾: فعل ومفعول به. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿لَوَلَّوُا۟﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿ولّوا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾: مفعول به، والجملة: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على جواب ﴿لو﴾، ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: معطوف عليه، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: سنّ الله سبحانه غلبة أنبيائه سنّته التي قد خلت، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿خَلَتْ﴾. فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿خَلَتْ﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَن﴾: حرف نفي ونصب واستقبال. ﴿تَجِدَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أيّ مخاطب. ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾:

متعلق بـ ﴿تَبْدِيلًا﴾. و﴿تَبْدِيلًا﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿سنة الله﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿كَفَّ﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾. ﴿عَنْهُم﴾ متعلق بـ ﴿كَفَّ﴾. ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: حال كونهم كائنين ببطن مكة. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَفَّ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾: فعل ماض ومفعول به وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿أظفر﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من بعد إظفاره إياكم عليهم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: متعلق بـ ﴿بَصِيرًا﴾، و﴿بَصِيرًا﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة. ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ﴾: متعلق بـ ﴿صدوكم﴾ ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾. ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾: معطوف على الضمير المنصوب في ﴿صدوكم﴾. وهو ﴿الكاف﴾؛ أي: وصدّوا الهدي، ويجوز أن يكون مفعولاً معه، و﴿الواو﴾: للمعية. ﴿مَعْكُوفًا﴾: حال من ﴿الهدي﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يَبْلُغَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿الهدي﴾، ﴿مَحِلَّهُۥ﴾: منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بـ ﴿يَبْلُغَ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: وصدّوا الهدي بلوغه محلّه؛ أي:

عن بلوغه محلّه، والجار المقدر: متعلق بـ ﴿صدوا﴾. ﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿رِجَالٌ﴾: مبتدأ، ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾: صفته. ﴿وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾: معطوف على ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ وخبر المبتدأ: محذوف، تقديره: موجودون. وجملة ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾: في محل الرفع صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نساء﴾ جميعاً. ﴿أَن﴾: حرف مصدر ونصب، ﴿تَطَـُٔوهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به، منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه: حذف النون، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدل اشتمال من ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نساء﴾؛ أي: ولولا خوف وطئكم إيّاهم، أو منصوب على كونه بدل اشتمال من الضمير المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾؛ أي: لم تعلموا وطأكم إياهم. ﴿فَتُصِيبَكُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببيّة. ﴿تصيبكم﴾: فعل مضارع ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد ﴿الفاء﴾ السببية. ﴿مِّنْهُم﴾: متعلق بـ ﴿تصيبكم﴾ ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾: فاعل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿الكاف﴾ في ﴿تصيبكم﴾، أو صفة لـ ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها، تقديره: لم تعلموا وطأكم إياهم، فإصابة معرة إياكم منهم، وجواب ﴿لولا﴾: محذوف، تقديره: لما كفَّ أيديكم عنهم، أو لأذن لكم في دخول مكة، وجملة ﴿لولا﴾: مستأنفة.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لِّيُدْخِلَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يدخل الله﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يدخل﴾ ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلته، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿اللام﴾، تقديره: لإدخال الله في رحمته من يشاء، الجار والمجرور: متعلق بمحذوف، دلّ عليه جواب ﴿لولا﴾ المقدّر، تقديره: ولكن كفّكم عنهم لإدخال الله في رحمته من يشاء. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَزَيَّلُوا۟﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة: فعل شرط لـ

﴿لو﴾. ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿عذبنا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة: جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مِنْهُمْ﴾: حال من فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق لـ ﴿عذّبنا﴾، ﴿أَلِيمًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿عذّبنا﴾ أو بـ ﴿صدوكم﴾ أو بمحذوف، تقديره: واذكر إذ جعل الذين كفروا، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿جَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿كَفَرُوا۟﴾ من فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾: متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى ألقى أو بمحذوف: مفعول ثان لـ ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى صيّر، كما مر. ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾: مفعول به لـ ﴿جَعَلَ﴾ أو مفعول أول له، ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾: بدل كل من كل. ﴿فَأَنزَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنزل الله﴾: فعل وفاعل، ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: مفعول به لـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، والجملة الفعلية: معطوفة على محذوف معلوم من السياق، والتقدير: فهمّ المسلمون مخالفة الرسول في أمر الصلح، فأنزل الله سكينته عليهم، والجملة المحذوفة: معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ومفعول أول معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: مفعول ثان. ﴿وَكَانُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَحَقَّ﴾: خبره. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ ﴿أَحَقَّ﴾. ﴿وَأَهْلَهَا﴾: معطوف على ﴿أَحَقَّ﴾: عطف تفسير، وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة ﴿ألزمهم﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿عَلِيمًا﴾. و﴿عَلِيمًا﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَّقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿رَسُولَهُ﴾: مفعول به. ﴿ٱلرُّءْيَا﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: في رؤياه؛ أي: جعله صادقاً في رؤياه. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: صدقاً متلبساً بالحق، أو حال من الرؤيا؛ أي: حالة كونها متلبسةً بالحق. ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿تدخلنّ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه: ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾ المحذوفة، لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل. ﴿ٱلْمَسْجِدَ﴾: مفعول به على السعة. ﴿ٱلْحَرَامَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية: جواب القسم، وجملة القسم: مقول لقول محذوف، تقديره: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، حيث قال الرسول: لتدخلنّ المسجد الحرام. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، وهو فعل شرط لـ﴿إن﴾ الشرطية، وجوابها: معلوم مما قبلها؛ أي: إن شاء الله.. لتدخلن المسجد الحرام، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: معترضة. ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿تدخلن﴾، ﴿مُحَلِّقِينَ﴾: حال ثانية متداخلة. ﴿رُءُوسَكُمْ﴾: مفعول به لـ ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾: معطوف على ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، وجملة ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أو من الضمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾ أو في ﴿مُحَلِّقِينَ﴾. ﴿فَعَلِمَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿علم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة: معطوفة على ﴿صَدَقَ﴾، وجملة ﴿لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما لم تعلموه. ﴿فَجَعَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿جعل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿علم﴾، ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿جعل﴾ ﴿فَتْحًا﴾: مفعول به. ﴿قَرِيبًا﴾ صفة ﴿فَتْحًا﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: حال من ﴿رَسُولِهِۦ﴾؛ أي: حال كونه متلبساً بالهدى. ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾: معطوف على ﴿الهدى﴾، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿يظهره﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ومفعول به. ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ ﴿يظهر﴾. ﴿كُلِّهِۦۚ﴾: توكيد لـ﴿ٱلدِّينِ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإظهاره دين الحق على الدين كلّه، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿أَرۡسَلَ﴾. ﴿وَكَفَىٰ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كفى﴾: فعل ماض. ﴿بِٱللَّهِ﴾: فاعل و﴿الباء﴾: زائدة. ﴿شَهِيدٗا﴾: تمييز، والجملة: مستأنفة، مسوقة للتعجب.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿مَعَهُۥٓ﴾: متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿أَشِدَّآءُ﴾: خبر. ﴿عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾: متعلق به. ﴿رُحَمَآءُ﴾: خبر ثان. ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ متعلق بـ ﴿رُحَمَآءُ﴾، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة قوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾. ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على من يصلح للخطاب، و﴿الهاء﴾: ضمير الغائبين مفعول به. ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾: حالان من مفعول ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾؛ لأنّ الرؤية هنا بصرية، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ثالث للموصول أو مستأنفة. ﴿يَبۡتَغُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فَضۡلٗا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَبۡتَغُونَ﴾، ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾: معطوف على ﴿فَضۡلٗا﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا يريدون بركوعهم وسجودهم؟ فقيل: ﴿يَبۡتَغُونَ﴾.. إلخ. ﴿سِيمَاهُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿فِي وُجُوهِهِم﴾ خبر. ﴿مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفيّ؛ أي: سيماهم

كائنة هي في وجوههم، حالة كونها من أثر السجود، والجملة: مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿مَثَلُهُمْ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: حال من ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ أي: حال كون ذلك المثل مكتوباً في التوراة. ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾: حال. ﴿كَزَرْعٍ﴾: خبر ﴿مَثَلُهُمْ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز أن يكون ﴿مَثَلُهُمْ﴾: معطوفاً على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأول، ﴿فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾: حال من ﴿مَثَلُهُمْ﴾. وإن شئت.. قلت: ﴿كَزَرْعٍ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم كزرع، والجملة: مستأنفة. ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في محل الجر صفة لـ ﴿زرع﴾. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿آزره﴾. فعل ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الشطأ، والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَخْرَجَ﴾.

﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استغلظ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الزرع، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿آزره﴾. ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استوى﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الزرع، والجملة: معطوفة على جملة ﴿استغلظ﴾. ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿استوى﴾ أو حال من فاعله؛ أي: كائناً على سوقه، قائماً عليها. ﴿يُعْجِبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الزرع، ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿استوى﴾: أي: حال كون ذلك الزرع المستوي معجباً الزرّاع. ﴿لِيَغِيظَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرف وتعليل. ﴿يغيظ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِهِمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور: متعلق بمعلول محذوف، تقديره: كثرهم الله تعالى، وقوّاهم كالزرع المذكور، لإغاظته الكفار بهم، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾:

معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿مِنْهُم﴾: حال من فاعل ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿مَّغْفِرَةً﴾. مفعول ثان لـ ﴿وَعَدَ﴾، ﴿وَأَجْرًا﴾: معطوف عليه. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ﴾ الرضا: ما يقابل السخط، يقال: رضي عنه، ورضي به، ورضيته، ورضي الله عن العبد: هو أن يراه مؤتمراً لأمره، منتهياً عن نهيه، وأصله: رضو، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة، والمراد بالمؤمنين: أهل الحديبية، ورضاه عنهم؛ لمبايعتهم رسول الله ﷺ.

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ والشجرة: واحد الشجر، والشجر من النبت: ما له ساق، والمراد بالشجرة: السمرة؛ أي: أمّ غيلان، وهي كثيرة في بوادي الحجاز، وقيل: السدرة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: من الصدق والإخلاص في المبايعة.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ السكينة: الطمأنينة والأمن وسكون النفس.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ أصله: أثوبهم، بوزن أفعل نقلت حركة الواو إلى الثاء فسكّنت، لكنها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها في الحال، والثواب: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء عمله، يستعمل في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير، والإثابة تستعمل في المحبوب، وقد قيل ذلك في المكروه، نحو: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ على طريق الاستعارة.

﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية.

﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي مغانم خيبر، وكانت خيبر أرضاً ذات عقار وأموال، فقسمها رسول الله ﷺ بين المقاتلة، فأعطي الفارس سهمين، والراجل سهماً واحداً.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ أي: أيدي أهل خيبر، وهم سبعون ألفاً، وحلفاؤهم من بني أسد وغطفان، حيث جاءوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم

الرعب فنكصوا، والحلفاء بالحاء المهملة: جمع حليف، وهو المعاهد للنصر، فإنّ الحلف: العهد بين القوم، وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح، وقال في «المفردات»: الكفّ: كفّ الناس، وهي ما بها يقبض ويبسط، وكففته دفعته بالكفّ، وتعورف الكفّ بالدفع على أيّ وجه كان بالكف أو بغيرها، حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما وعد به المؤمنون إلى يوم القيامة.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: مغانم خيبر.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ أي: أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها إلى الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أمارة للمؤمنين يعرفون بها.

١ - وصدق الرسول ﷺ.

٢ - حياطة الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وحراسته لهم في مشهدهم ومغيبهم.

٣ - معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد: أنَّ كلاءته تعالى ستعمهم أيضاً ما داموا على الجادّة الصراط المستقيم، وهي الثقة بالله تعالى، والتوكّل عليه فيما يأتون ويذرون.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾؛ أي: مغانم أخرى: هي مغانم فارس والروم.

﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: أعدّها لكم، وهي تحت قبضته يظهر عليها من أراد.

﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾؛ أي: لانهزموا، فإنّ تولية الأدبار كناية عن الانهزام، أصله: لوليو، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، والأدبار جمع دبر، ودبر الشيء: خلاف القبل: كالظهر والخلف.

﴿وَلِيًّا﴾ والوليّ: الحارص الحامي.

﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ والنصير: المعين والمساعد.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سنَّ سبحانه وتعالى غلبة أنبيائه على أعدائه، سنّةً قديمةً فيمن مضى وخلا من الأمم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ من الظفر: وهو الفوز، وأصله: من ظفر؛ أي: نشب ظفره.

﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ بسكون الدال: جمع هدية، كتمر وتمرة، وجدي وجدية، وهو ما يقدم قرباناً لله تعالى من النعم حين أداء مناسك الحج أو العمرة، كما مرّ، يقال: أهديت له، وأهديت إليه، وحكي ابن خالويه فيه ثلاث لغات: الهدي بسكون الدال: وهي الشهيرة لغة قريش، والهديّ بكسر الدال، وتشديد الياء: جمع هديّة، والهداء بالمدّ.

﴿مَعۡكُوفًا﴾؛ أي: محبوساً، يقال: عكفت الرجل عن حاجته: إذا حبسته عنها، وأنكر الفارسيّ تعدية عكف بنفسه، وأثبتها ابن سيده والأزهري وغيرهما، وهو ظاهر القرآن لبناء اسم المفعول منه. اهـ «سمين». وفي «المختار»: عكفه حبسه ووقفه، وبابه: ضرب ونصر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا﴾ ومنه الاعتكاف في المسجد: وهو الاحتباس، وعكف على الشيء: أقبل عليه مواظباً، وبابه: دخل وجلس، قال الله تعالى: ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾، اهـ.

﴿مَحِلَّهُۥۚ﴾ اسم مكان على وزن مفعل بكسر العين، أصله: محلل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الحاء فسكنت، فأدغمت في اللام الثانية؛ أي: المكان الذي يسوغ فيه نحره، وهو منى في حقّ الحاج، والمروة في حق المعتمر.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ من الوطء: وهو الدوس، وهو عبارة عن الإيقاع، والإهلاك والإبادة؛ لأنّ الوطء تحت الأقدام مستلزم للإهلاك.

﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ مفعلة من عرّه: إذا عراه ودعاه بما يكرهه ويشقّ عليه، وفي «المفردات»: العرّ: الجرب الذي يعرّ البدن؛ أي: يعترضه، ومنه قيل للمضرّة:

معرة تشبيهاً بالعرّ الذي هو الجرب، وفي «القاموس» و«اللسان»: المعرة: المساءة والإثم والأذى والجناية والعيب والأمر القبيح والشدة والمسبة، وتلون الوجه غضباً، وكوكب دون المجرة، وبلد معروف. انتهى.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ التزيّل: التفرق والتميز، من زاله يزيله فرَّقه، وزيلته فتزيل؛ أي: فرَّقته فتفرق.

﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الحمية: الأنفة والتكبر، وهي: مصدر على وزن فعيلة، من حمي من كذا حميّة: إذا أنف منه، وداخله منه عارٌ، وفي «المفردات»: عبّر عن القوّة الغضبيّة إذا ثارت وكثرت بالحمية، يقال: حميت على فلان؛ أي: غضبت عليه. انتهى. وذلك لأنّ في الغضب ثوران دم القلب وحرراته وغليانه، وحميّة الجاهلية: حمية في غير موضعها لا يؤيّدها دليل ولا برهان، بل مدارها مطلق المنع، سواء، كان بحق أم بباطل، فتمنع من الإذعان والقبول للحق، ومبناها التشفّي على مقتضى الغضب لغير الله، فتوجب تخطّي حدود الشرع، ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواءٌ، وأصل الحميّة: حمييّة على وزن فعيلة، أدغمت ياء فعيل في ياء لام الكلمة.

﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ التاء فيه مبدلة من واو، والواو مبدلة من ياء، فأصله: وقيا.

﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أصله: أحقق بوزن أفعل، نقلت حركة القاف الأولى إلى الحاء فسكنت، فأدغمت في القاف الثانية.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ هي رؤيا منام وحلم؛ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه.

﴿مُحَلِّقِينَ﴾ والحلق: العضو المخصوص، وحلقه قطع حلقه، ثم جعل الحلق لقطع الشعر وجزه، فقيل: حلق شعره وحلق رأسه: إذا أزال شعره ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ والقصر: خلاف الطول، وقصر شعره: جز بعضه.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان حقها وباطلها، وأصل الإظهار: جعل الشيء بادياً ظاهراً للرائي، ثمّ شاع استعماله في الإعلاء.

﴿أَشِدَّآءُ﴾ أصله: أشدداء بوزن أفعلاء، جمع شديد، نقلت حركة الدال الأولى إلى الشين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية.

﴿رُحَمَآءُ﴾ جمع رحيم. ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: جمع راكع وساجد، كفضل جمع فاضل، وكمل جمع كامل. ﴿سِيمَاهُمْ﴾ فيه ثلاث لغات: السيما والسيماء والسيمياء، وهي لغة فصيحة كثيرة في الشعر، قال الشاعر:

غُلاَمٌ رَمَاهُ ٱللهُ بِٱلْحُسْنِ يَافِعاً ... لَهُ سِيْمِيَاءٌ لاَ تَشُقُّ عَلَىٰ ٱلْبَصَرْ

وقوله: ﴿سيماهم﴾ الياء فيه مبدلة من واو؛ لأنه من الوسم، قلبت الواو ياءً؛ لسكونها إثر كسرة، فأصله: سومىٰ بوزن عفلى، إذ فيه قلب مكاني بتقديم العين على الفاء، والأصل: وسمى بوزن فعلى.

﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ من جوز أن تكون التوراة عربية، يقول: إنها مشتقة من ورىٰ الزند حينما تقدح به النار، فأصل التوراة: تورية بوزن تفعلة، بفتح العين، وأصل تورية وورية؛ لأنه من وري، قلبت الواو الأولى تاءً، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وقيل: أصله تورية بوزن تفعلة، بكسر العين، ثمّ فتحت راؤه توصّلاً لقلب الياء ألفاً.

﴿فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ من نجل الشيء: إذا أظهره. ﴿كَزَرْعٍ﴾ يقال: زرع كمنع: طرح البذر، وزرع الله: أنبت، والزرع: الولد، والمزروع، والجمع: زروع، وموضعه المزرعة مثلثة الراء. ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ وفي «القاموس»: الشطء: فراخ النخل والزرع أو ورقه، وشطأ كنمع شطأً وشطوءاً: أخرجها، ومن الشجر: ما خرج حول أصله، والجمع: أشطاء، وأشطأ الزرع، وشطأ: إذا أخرج فراخه، وهو في الحنطة والشعير والنخل وغيرها.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: أعانه وقوّاه، من المؤازرة: وهي المعاونة، فيكون وزن آزر فاعل من الأزر: وهو القوّة أو من الإيزار: وهي الإعانة، فيكون وزنه أفعل، وهو

الظاهر؛ لأنه لم يسمع في مضارعه يؤازر، بل يؤزر بوزن يكرم، كما مرّ.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾؛ أي: استقام. ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساقٍ؛ أي: على قضبانه وأصوله.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين، أصله: ليغيظ بوزن يفعل، نقلت حركة الياء إلى الغين فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مدّ، من الغيظ، والغيظ: أشدُّ الغضب: وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه، يقال: غاظه يغيظه بوزن باع فاغتاظ، وغيظه فتغيظ وأغاظه وغايظه، كما في «القاموس».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذۡ يُبَايِعُونَكَ﴾ مع كون المقام للماضي لاستحضار صورة المبايعة؛ **لأنّها** جديرة بالتجسيد لتكون عبرة الأجداد للأحفاد.

ومنها: تكرار المغانم إشعاراً بكثرتها وتنوّعها.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ لأنّ تولية الأدبار كناية عن الهزيمة لأنّ المنهزم يدبر ظهره لعدوّه للهرب.

ومنها: الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب، في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ بعد قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وذلك لتشريف المؤمنين في مقام الامتنان.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾؛ لأنّ الوطأ عبارة عن الإهلاك والإبادة، على طريق ذكر الملزوم وإرادة اللازم؛ لأنّ الوطأ تحت الأقدام مستلزم للإهلاك.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾؛ لأنّ المعرّة والعرّ، حقيقة في الجرب الذي يعرّ البدن؛ أي: يعترضه. فاستعير للمضرّة على طريق الاستعارة التصريحية.

ومنها: البلاغات المعنوية في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الآية. قال الإمام الرازي: ففي هذه الآية لطائف معنوية: وهو أنّه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن، باين بين الفاعلين، إذ فاعل ﴿جَعَلَ﴾ هو الكافر، وفاعل ﴿أَنزَلَ﴾ هو الله تعالى، وبين المفعولين، إذ تلك حميّة وهذه سكينة، وبين الإضافتين أضاف الحميّة إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى الله تعالى، وبين الفعل ﴿جَعَلَ﴾ و﴿أَنزَلَ﴾ فالحميّة مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها، والحميّة قبيحة مذمومة في نفسها، وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينة حسنة في نفسها، وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى، والعطف في ﴿فأنزل بـ ﴿الفاء﴾ لا بالواو: يدلّ على المقابلة، تقول: أكرمني زيد فأكرمته، فدلّت على المجازاة للمقابلة، ولذلك جعل ﴿فَأَنزَلَ﴾.

ولمّا كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أوّلاً إلى الصلح، وكان المؤمنون عازمين على القتال، وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر، وأبوا إلا أن يكتبوا: محمد رسول الله ﷺ، وباسم الله.. قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ ولمّا سكن هو ﷺ للصلح.. سكن المؤمنون، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولمّا كان المؤمنون عند الله تعالى.. ألزموا تلك الكلمة قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وفيه تلخيص، وهو كلام حسن.

ومنها: أسلوب التكميل في قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، لأنه لو اكتفى بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ لربّما أوهم الفظاظة والغلظة فيما بينهم، فكمّل بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ رفعاً لذلك الوهم، فيكون من أسلوب التكميل.

ومنها: تكرير ﴿مَثَلُهُمْ﴾ لتأكيد غرابته، وزيادة تقريرها.

ومنها: التشبيه التمثيليّ في قوله: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ الآية؛ لأنّ وجه الشبه منتزع من أمور متعدّدة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

خاتمة: قال في «فتح الرحمن»: وقد اجتمعت حروف الهجاء التسعة والعشرون في هذه الآية، وهي ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ إلى آخر السورة، أول حرف المعجم فيها ميم من محمد، وآخرها صاد من الصالحات، وتقدّم نظير ذلك في سورة آل عمران في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا...﴾ الآية، وليس في القرآن آية جمعت فيها حروف المعجم غيرهما، من دعا الله بهما.. استجيب له، وفي ذلك بشارة تلويحيّة مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم، وعلى نصرهم رضي الله عنهم وأحشرنا معهم نحن ووالدينا ومحبّينا، وجميع المسلمين بمنه وكرمه، وهذا آخر القسم الأول من القرآن، وهو المطوّل، وقد ختم كما ترى بسورتين هما في الحقيقة للنبيّ ﷺ.

وحاصلهما: الفتح بالسيف والنصر على من قاتله ظاهراً، كما ختم القسم الثاني المفصل بسورتين هما نصرة له ﷺ بالحال على من قصده بالضر باطناً. اهـ «خطيب».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ بشارة النبيّ ﷺ بالفتح، وإعزاز دين الله تعالى.

٢ ـ وعد المؤمنين، ووعيد الكافرين والمنافقين.

٣ ـ ذمّ المخلّفين من عرب أسلم وجهينة ومزينة وغفار.

٤ ـ رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، ووعده إياهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في الآخرة.

٥ ـ البشرى بتحقّق رؤيا رسول الله ﷺ أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، وقد تمّ لهم ذلك في العام المقبل.

٦ ـ وصف النبي ﷺ، والذين آمنوا معه بالرحمة والشدة.

٧ ـ وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة، والأجر العظيم[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) وقد فرغت من تفسير هذه السورة الكريمة أوائل ليلة الأربعاء العاشر من شهر ربيع الأول من شهور ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة ١٠/ ٣/ ١٤١٥ هـ.

سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنيّة، قال القرطبي: بالإجماع، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس وابن الزبير: أنها نزلت بالمدينة بعد سورة المجادلة، وهي ثماني عشرة آيةً، وثلاث مئة وثلاث وأربعون كلمةً، وألف وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً، وكلها محكمة لا ناسخ ولا منسوخ فيها، كما قاله ابن حزم، وسمّيت بالحجرات؛ لذكر لفظ الحجرات فيها.

ومناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ ذكر في هذه قتال البغاة، وفي تلك قتال الكفار.

٢ ـ أنّ السابقة ختمت بالذين آمنوا، وافتتحت هذه بهم.

٣ ـ أنّ كلًّا منهما تضمّن تشريفاً وتكريماً للرسول ﷺ، ولا سيما في مطلعيهما.

قال أبو حيان[2]: مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ لأنه ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه، ثمّ قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فربما صدر من مؤمن عمل الصالحات بعض شيء ممّا ينبغي أن يجتنب عنه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وكانت عادة العرب وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كل بما شاء، ويفعل ما أحبّ، فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك، قال قتادة: فربّما قال قوم: ينبغي أن يكون كذا لو أنزل في كذا.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال؛ لأنّ الأولى كالمقدمة، والثانية كالنتيجة، وذكرت هذه بعد الفتح لأنّ الأمّة إذا جاهدت ثم فتح الله عليها، والنبي ﷺ بينها، واستتب الأمر.. وجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبيّ ﷺ وأصحابه، وكيف يعاملونه، وكيف يعامل بعضهم بعضاً، فطلب إليهم أن لا يقطعوا أمراً دون أن يحكم الله ورسوله به، وأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبيّ ﷺ، وأن لا يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض، لما في ذلك من الاستخفاف الذي قد يؤدّي إلى الكفر المحبط للأعمال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا نهى عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ.. أردفه بذمّ الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، وهو في بيوت نسائه، كما يفعل أجلاف الأعراب، ثمّ أرشدهم إلى ما فيه الخير والمصلحة لهم في دينهم ودنياهم، وهو أن ينتظروا حتى يخرج إليهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذمّ المنادين من وراء الحجرات.. أردفه بتأديب عباده المؤمنين بأدب نافع لهم في دينهم ودنياهم، وهو أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأيّ خبر.. لا يصدّقونه بادىء ذي بدءٍ، حتى يتثبّتوا ويتطلّبوا انكشاف الحقيقة، ولا يعتمدوا على قوله، فإنّ من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذي هو من فصيلته كراهة أن يصيبوا بأذى قوماً هم جاهلون حالهم، فتندموا على ما فرّط منكم، وتتمنّوا أنه لم يكن قد وقع.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا[2] حذر المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق.. بيَّن

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

هنا ما ربّما ترتب على خبره من النزاع بن فئتين، وقد يؤول الأمر إلى الاقتتال، فطلب من المؤمنين أن يزيلوا ما نتج من كلامه، وأن يصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى.. فقاتلوا التي تبغي حتى ترجع إلى الصلح بدفعها عن الظلم مباشرةً إن أمكن، أو باستعداء الحاكم عليها، وإن كان الباغي هو الحاكم.. فالواجب على المسلمين دفعه بالنصيحة فما فوقها، بشرط أن لا تثير فتنة أشد من الأولى، ثمّ تمم الإرشاد، وأبان أنَّ الصلح كما يلزم بين الفئتين يجب بين الأخوين، ثم أمرهم بتقوى الله، ووجوب اتباع حكمه، وعدم الإهمال فيه رجاء أن يرحمهم إذا هم أطاعوه ولم يخالفوا أمره.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى، ومع رسوله ﷺ، ومع من يخالفهما ويعصيهما، وهو الفاسق.. بيّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، فذكر أنه لا ينبغي أن يسخر منه، ولا أن يعيّبه بالهمز واللمز، ولا أن يلقبه باللقب الذي يتأذى منه، فبئس العمل هذا، ومن لم يتب بعد ارتكابه.. فقد أساء إلى نفسه، وارتكب جرماً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه أدّب عباده المؤمنين بآداب، إن تمسّكوا بها.. دامت المودّة والوئام بينهم، منها: ما تقدم قبل هذا، ومنها: ما ذكره هنا من الأمور العظام، التي تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامي قوّةً، وهي:

١ ـ البعد عن سوء الظن بالناس، وتخوينهم في كل ما يقولون ويفعلون؛ لأنّ بعض ذلك قد يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه، وقد روي عن عمر رضي الله عنه: أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

٢ ـ عدم البحث عن عورات الناس ومعايبهم.

٣ ـ عدم ذكر بعضهم بعضا بما يكرهون في غيبتهم، وقد مثّل الشارع المغتاب بآكل لحم الميتة استفظاعاً له، قال قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة

ممدودة أن تأكل منها، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حيّ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ. . .﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا نهى فيما سلف عن السخرية بالناس، والازدراء بهم، وعن اللمز والتنابز بالألقاب. . ذكر هنا ما يؤكّد النهي، ويؤيّد ذلك المنع، فبين أنّ الناس جميعاً من أب واحد وأمّ واحدة، فكيف يسخر الأخ من أخيه، إلى أنه تعالى جعلهم شعوباً وقبائل مختلفة ليحصل بينهم التعارف والتعاون في مصالحهم المختلفة، ولا فضل لواحد على آخر إلاّ بالتقوى والصلاح وكمال النفس لا بالأمور الدنيويّة الزائلة.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا. . .﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا حث[1] الناس على التقوى. . وبّخ من في إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة، لأنّهم كانوا يريدون المغانم، وعرض الدنيا إذ جاؤوا في سنة مجدبة، وكانوا يقولون لرسوله ﷺ: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان؛ يريدون بذكر ذلك: الصدقة والمنّ على النبيّ ﷺ، فأطلع الله نبيّه ﷺ على مكنون ضمائرهم، وأنهم لم يؤمنوا إيماناً حقيقيًّا، وهو الذي وافق القلب فيه اللسان، وأمرهم أن يقولوا: استسلمنا وخضعنا.

ثمّ أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حقّ تقاته. . وفّاهم أجورهم كاملة غير منقوصة.

ثمّ بيّن أنّ من علامة الإيمان الكامل: التضحية بالنفس والمال في سبيل الله، ببذلهما في تقوية دعائم الدين، وإعلاء شأنه، وخضد شوكة العدوّ بكل السبل الممكنة.

ثمّ أعقب هذا: بأنّ الله يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قويّ، إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأنه لا ينبغي للمؤمن أن يمتّن على

---

(١) المراغي.

الرسول بإيمانه، بل من حق الرسول أن يمتن عليه بأن وفق للهداية على يديه، إن كان صادق الإيمان.

ثم ختم الآيات بالإخبار عن واسع علمه، وإحاطته بمكنون سرّ خلقه في السموات والأرض، لا يعزب عنه مثقال ذرّة فيهما، وهو البصير بما يعمل عباده من خير أو شرّ.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما أخرجه البخاري وغيره[1]، من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة، أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن: أنّ أناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم أن يعيدوا ذبحاً، فأنزل الله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾.

وأخرج ابن أبي الدنيا في «كتاب الأضاحي» بلفظ: ذبح رجل قبل الصلاة.. فنزلت.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن عائشة: أنّ ناساً كانوا يتقدّمون الشهر، فيصومون قبل النبيّ ﷺ، فأنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟...﴾.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أنّ ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا، فأنزل الله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج عنه قال: كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ...﴾ الآية.

وأخرج أيضاً عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ... ٱلنَّبِيِّ﴾ قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، فمرّ به عاصم بن عديّ بن العجلان، فقال: ما يبكيك؟ قال: هذه الآية، أتخوّف أن تكون نزلت في، وأنا صيّت رفيع الصوت، فرفع عاصم ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا به، فقال: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» قال: رضيت، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما أخرجه الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم، قال: جاء ناس من العرب إلى حجر رسول الله ﷺ، فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ...﴾ الآية. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا محمد إنّ مدحي لزين، وإنّ شتمي لشين، فقال النبيّ ﷺ: «ذاك هو الله» فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ...﴾ الآية. مرسل له شواهد مرفوعة من حديث البراء، وغيره عند الترمذي بدون نزول الآية، وأخرج ابن جرير نحوه عن الحسن، وأخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس: أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فلم يجبه، فقال: يا محمد إنّ حمدي لزين، وإنّ ذمّي لشين، فقال: «ذلك الله». وقال قتادة: نزلت في وفد تميم، وكانوا سبعين رجلاً منهم: الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم، جاؤوا إلى النبيّ ﷺ للمفاخرة، فنادوا على الباب: اخرج إلينا يا محمد، فإنّ مدحنا لزين، وإنّ ذمّنا لشين، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وهو يقول: «إنما ذلكم الله الذي مدحه زين، وذمّه شين» فقالوا: نحن ناس من تميم، جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بالشعر بعثت، ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا» فقام

شابّ منهم، فذكر فضله وفضل قومه، فقال ﷺ لثابت بن قيس بن شمّاس، وكان خطيب النبيّ ﷺ: «قُمْ فأجبه» فأجابه، وقام الزبرقان بن بدر فقال. . . . إلى أن قال:

نَحْنُ ٱلْكِرَامُ فَلاَ حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا ٱلْمُلُوْكُ وَفِيْنَا تُنْصَبُ ٱلبِيَعُ

فَلاَ تَرَانَا إِلَىٰ حَيٍّ يُفَاخِرُهُمْ ... إِلاَّ ٱسْتَفَادُوْا فَكَانُوْا ٱلرَّأْسَ يُقْطَتَعُ

فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فِيْ ذَاكَ نَعْرِفُهُ ... فَيَرْجِعُ ٱلْقَوْمُ وَٱلأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ

فقال رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت: «أجبه» فقال:

إِنَّ ٱلذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

يَرْضَىٰ بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيْرَتُهُ ... تَقْوَىٰ ٱلإِلَهِ وَكُلُّ ٱلْخَيْرِ يُصْطَنَعُ

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوْا عَدُوَّهُمْ ... أَوْ حَاوَلُوْا النَّفْعَ فِيْ أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوْا

سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ ... إِنَّ ٱلْخَلاَئِقَ فَٱعْلَمْ شَرُّهَا ٱلْبِدَعُ

في قصيدة طويلة.

فلمّا فرغ حسان من قوله.. قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمؤتّىٰ له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم دنا من رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «ما يضرُّك ما كان من قبل هذا» ثم جوزهم فأحسن جوائزهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان قد بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ليأخذ الصدقات، فلمَّا أتاهم الخبر.. فرحوا به، وخرجوا يستقبلونه، فلمّا حدث بذلك الوليد.. حسب أنهم جاؤوا لقتاله، فرجع قبل أن يدركوه، وأخبر رسول الله ﷺ أنهم منعوا الزكاة، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، وبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم، إذ أتاه الوفد، فقالوا: يا رسول الله إنّا حدثنا أن

رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أنه إنما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله عذرهم في الكتاب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ...﴾ الآية. أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، وقال ابن كثير: وهذا من أحسن ما روي في سبب نزول هذه الآية.

وقال الرازي: هذه الرواية ضعيفة؛ لأنّ إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد؛ لأنّه توهم وظن فأخطأ، والمخطىء لا يسمى فاسقاً، كيف والفاسق في أكثر المواضع يراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك: أنّ النبيّ ﷺ ركب حماراً وانطلق إلى عبد الله بن أبيّ، فقال: إليك عنّي، فقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فنزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن أبي مالك قال: قال: تلاحى رجلان من المسلمين، فغضب قوم هذا لهذا، وهذا لهذا، فاقتتلوا بالأيدي والنعال، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ...﴾ الآية، روي: أنّ الآية نزلت في وفد تميم، إذ كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ: كعمار وصهيب وبلال وخبّاب وابن فهيرة، وسلمان الفارسي وسالم مولى أبي حذيفة في آخرين غيرهم، لما رأوا من رثاثة حالهم، وروي: أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: إنّ النساء يقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها: «هلاّ قلت: أبي هارون وعمي موسى، وزوجي محمد ﷺ».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه أصحاب «السنن» الأربعة، عن أبي جبير بن الضحاك، قال: كان الرجل منّا يكون له الاسمان والثلاثة، فيدعى ببعضها، فعسى أن يكرهه، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. قال الترمذي: حسن. وأخرج الحاكم وغيره من حديثه أيضاً قال: كانت الألقاب في الجاهلية، فدعا النبيّ ﷺ رجلاً منهم بلقبه، فقيل له: يا رسول الله، إنّه يكرهه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسيّ، أكل ثم رقد فنفخ، فذكر رجل أكله ورقاده، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه أبو داوود: أنّ هذه الآية نزلت في أبي هند، وكان حجّام النبيّ ﷺ، قال: إنّ رسول الله ﷺ أمر بني بياضة أنّ يزوّجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوّج بناتنا موالينا، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ...﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة، قال: لمّا كان يوم الفتح.. رقى بلال على ظهر الكعبة فأذّن، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذّن على ظهر الكعبة وقال بعضهم: إن يرد الله شيئاً يغيّره فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى: أنّ ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك، وقاتلك بنو فلان، فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾ الآية، وأخرج البزّار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله، وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه، فسلّموا وقال متكلّمهم: يا رسول الله إنّا شهدنا أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله، ولم تبعث إلينا بعثا، ونحن لمن وراءنا سلم، فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ

أَنْ أَسْلَمُواْ. . .﴾ الآية، وأخرج سعيد بن منصور في «سننه» عن سعيد بن جبير قال: أتى قوم من الأعراب من بني أسد النبيّ ﷺ، فقالوا: جئناك ولم نقاتلك، فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ. . .﴾ الآية، وقال مجاهد: نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة، وكانوا يجاورون المدينة، قدموا على رسول الله ﷺ، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين حقاً، وقال السدّي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح، أعراب مزينة وجهينة، وأسلم وغفار والديل، وأشجع، قالوا: آمنا، ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى المدنية. . تخلّفوا.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: تصدير[1] الخطاب بالنداء؛ لتنبيه المخاطبين على أنّ ما في حيّزه أمر خطير، يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه، وفرط اهتمامهم بتلقّيه، ومراعاته ووصفهم بالإيمان؛ لتنشطيهم والإيذان بأنّه داع إلى المخاطبة، ورادع عن الإخلال به.

﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أمرا من الأمور ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولا تقطعوه ولا تقولوه، ولا تعجلوا به، إلا بعد أن يحكما به، ويأذنا فيه، فتكونوا إمّا عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين بالنبيّ المرسل؛ لأنَّ المعنى: لا تقدموا قبل أمرهما ونهيهما، ولفظ اليدين بمعنى الجهتين الكائنتين في سمت يدي الإنسان اليمين واليسار، وبين اليدين بمعنى: بين الجهتين، والجهة التي بينهما هي جهة الأمام والقدَّام، فقولك: جلست بين يديه، بمعنى: جلست أمامه، وبمكان يحاذي يديه قريباً منه، وإذا قيل: بين يدي الله. . امتنع أن يراد الجهة والمكان، فيكون استعارة تمثيلية، شبَّه ما وقع من بعض الصحابة من القطع في أمر من الأمور الدينية، قبل أن يحكم الله به ورسوله، بحال من يتقدم في المشي في الطريق مثلاً لوقاحته، على من يجب أن يتأخر عنه، ويقفو أثره تعظيماً له، فعبَّر عن الحالة

---

(١) روح البيان.

المشبَّهة بما يعبر به عن المشبه بها، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ بضم التاء وفتح القاف وكسر الدال المشددة، من قدّم المضاعف، فاحتمل أن يكون متعدّياً، وحذف مفعوله؛ ليتناول كل ما يقع في النفس مما تقدم: كالصوم والأضحية، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل، كقولهم: هو يعطي ويمنع، فلم يقصد لشيء معين، بل النهي متعلق بنفس الفعل دون تعرّض لمفعول معيّن، واحتمل أن يكون لازماً بمعنى: تقدم، نحو: وجَّه بمعنى: توجَّه، ويكون المحذوف مما يوصل إليه بحرف؛ أي: لا تتقدموا في شيء ما من الأشياء، ويعضد هذا الوجه قراءة ابن عباس وأبي حيوة والضحاك ويعقوب، وابن مقسم: ﴿لا تقدموا﴾ بفتح التاء والقاف والدال على اللزوم، وحذفت التاء تخفيفاً؛ إذ أصله: لا تتقدموا. وقرأ بعض المكيين: ﴿تقدّموا﴾ بشدّ التاء، أدغم تاء المضارعة في التاء بعدها: كقراءة البزي، وقرىء: ﴿لا تقدموا﴾ مضارع قدم بكسر الدال، من القدوم؛ أي: لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها، ولا تعجلوا عليها، وقرىء: ﴿لا تقدموا﴾ بضم التاء وكسر الدال، من أقدم الرباعي؛ أي: لا تقدموا على شيء، وقال مجاهد: لا تفتئتوا على الله شيئاً حتى يقصه الله على لسان رسوله ﷺ، وفي هذا النهي توطئة لما يأتي بعد من نهيهم عن رفع أصواتهم.

فائدة: ذكر في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خمس مرات، والمخاطبون فيها المؤمنون، والمخاطب به أمر أو نهي، وذكر فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مرةً، والمخاطبون فيها يعمّ المؤمنين والكافرين، كما أنّ المخاطب به وهو قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعمهما. فناسب فيها ذكر الناس. انتهى. «فتح الرحمن».

ولمّا نهى من التقدّم.. أمر بالتقوى؛ لأنّ من التقوى اجتناب المنهي عنه، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله، وراقبوه في كل ما تأتون وما تذرون من

---

(١) البحر المحيط.

الأقوال والأفعال، ثمّ علل ما أمر به من التقوى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، فمن حقّه: أن يُتقى ويُراقب.

ويجوز[1] أن يكون معنى ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾: لا تفعلوا التقديم بالكلية على أنّ الفعل لم يقصد تعلّقه بمفعوله، وإن كان متعدياً. قال المولى أبو السعود: وهو أوفى بحق المقام؛ لإفادة النهي عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكليّة، المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهانيّ، وقد جوَّز أن يكون التقديم لازماً، بمعنى: التقدم، ومنه: مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة منهم، ومنه: وجه بمعنى: توجه. كما مرّ آنفاً.

وقال مجاهد والحسن[2]: نزلت الآية في النهي عن الذبح يوم الأضحى قبل الصلاة، كأنه قيل: لا تذبحوا قبل أن يذبح النبيّ ﷺ، وعن عائشة: أنها نزلت في النهي عن صوم يوم الشك، فكأنه قيل: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيّكم، وقال قتادة: إنّ ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا، أو صنع في كذا، ولو نزل كذا وكذا في معنى كذا، ولو فعل الله كذا، وينبغي أن يكون كذا، فكره الله ذلك، فنزلت، وعن الحسن: لمَّا استقر رسول الله ﷺ بالمدينة.. أتته الوفود من الآفاق، فأكثروا عليه بالمسائل، فنهوا عن أن يبتدئوا بالمسألة حتى يكون هو المبتدىء.

والظاهر: أنّ الآية عامة في كل قول وفعل، ولذا حذف مفعول ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾؛ ليذهب ذهن السامع كل مذهب، مما يمكن تقديمه من قول أو فعل، مثلاً إذا جرت مسألة في مجلسه ﷺ.. لا تسبقوه بالجواب، وإذا حضر الطعام.. لا تبدؤوا بالأكل قبله، وإذا ذهبتم إلى موضع.. لا تمشوا أمامه إلا لمصلحة دعت إليه، ونحو ذلك مما يمكن فيه التقديم.

قيل: لا يجوز تقدّم الأصاغر على الأكابر، إلا في ثلاثة مواضع: إذا ساروا ليلاً أو رأوا خيلاً؛ أي: جيشاً، أو دخلوا سيلاً، أي: ماء سائلاً، وكان

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

في الزمان الأول، إذا مشى الشابّ أمام الشيخ.. يخسف الله به الأرض، ويدخل في النهي المشي بين يدي العلماء، فإنهم ورثة الأنبياء، دليله ما روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: رآني رسول الله ﷺ أمشي أمام أبي بكر رضي الله عنه فقال: «تمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة، ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين خير أو أفضل من أبي بكر الصديق». كما في «كشف الأسرار».

وأكثر هذه[1] الروايات يشعر بأنّ المراد من الآية: بين يدي رسول الله ﷺ، وذكر الله لتعظيمه والإيذان بجلالة قدره عنده، حيث ذكر اسمه تعالى توطئةً وتمهيداً لذكر اسمه ﷺ؛ ليدل على قوّة اختصاصه ﷺ بربّ العزة، وقرب منزلته من حضرته تعالى، فإنّ إيقاع ذكره تعالى موقع ذكره ﷺ بطريق العطف تفسيراً للمراد، يدلّ عليها لا محالة، كما يقال: أعجبني زيد وكرمه، في موضع أن يقال: أعجبني كرم زيد؛ للدلالة على قوّة اختصاص الكرم به. والله أعلم.

ومعنى الآية[2]: أي يا أيها المؤمنون، لا تعجلوا بالقضاء في أمر قبل أن يقضي الله ورسوله لكم فيه، إذ ربّما تقضون بغير قضائهما، وراقبوا الله أن تقولوا ما لم يأذن لكم الله ورسوله به، إنّ الله سميع لما تقولون، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم.

وبنحو هذا أجاب معاذ بن جبل رضي الله عنه رسول الله ﷺ، حين بعثه إلى اليمن، قال له: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: «فإن لم تجد» قال: بسنّة رسوله، قال ﷺ: «فإن لم تجد» قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفّق رسول رسوله، لما يرضي رسوله». رواه أحمد وأبو داود والترمذي، فتراه قد أخّر رأيه واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدّمه.. لكان من المتقدّمين بين يدي الله ورسوله.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والخلاصة[1]: أنّه طلب إليهم أن ينقادوا لأوامر الله ونواهيه، ولا يعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول الرسول أو يفعل، ولا يذبحوا يوم عيد الأضحى قبل أن يذبح، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهي عنه.

والحاصل: أنّ الله سبحانه قد أدّب المؤمنين إذا قابلوا الرسول بأدبين:

أحدهما: فعل.

وثانيهما: قول.

وأشار إلى أوّلهما بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وأشار إلى ثانيهما بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ إذا نطقتم، وتحدّثتم مع النبي ﷺ ﴿فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ﷺ إذا نطق، وتكلّم معكم؛ أي: إذا نطق ونطقتم في المحادثة معه.. فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم حدًّا يبلغه صوته، بل يكون كلامكم دون كلامه؛ ليتميز منطقه عن منطقكم بكونه عالياً رفيعاً على منطقكم.

والمعنى[2]: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدّ يبلغه ﷺ بصوته، والصوت: هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين، كما سيأتي البسط فيه إن شاء الله تعالى، وقال في «المفردات»: تخصيص الصوت بالنهي؛ لكونه أعم من النطق والكلام، ويحتمل أنّه خصّه لأنّ المكروه رفع الصوت لا رفع الكلام.

وكرر النداء[3]؛ ليعلم أنّ كلّ واحد من الكلامين مقصود ليس الثاني منهما تأكيداً للأول، كقولك: يا زيد، لا تنطق ولا تتكلّم إلا بالحق، فإنه لا يحسن أن تقول: يا زيد لا تنطق، يا زيد لا تتكلّم، كما يحسن عند اختلاف المطلوبين. كما في «الخطيب».

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ﴾ ﷺ؛ أي: لا تنادوه ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ والكلام إذا كلّمتوه وهو

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الخطيب.

صامت، جهراً كائناً ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ﴾ ورفعه صوته عند مكالمته ﴿لِبَعْضٍ﴾ آخر منكم؛ أي[1]: لا تجهروا، ولا ترفعوا صوتكم عند مكالمته وهو صامت جهراً، كالجهر الجاري فيما بينكم في عدم المبالاة، وقلة الاحترام، بل اجعلوا صوتكم أخفض، وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس والسر، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظَّم، وحافظوا على مراعاة جلالة النبوّة، فنهوا عن جهر مخصوص مقيد: وهو الجهر المماثل لجهر اعتادهوه فيما بينهم، لا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلّموه بالهمس والمخافتة.

والمفهوم من «الكشاف» في الفرق بين النهي عن رفع الصوت، والنهي عن الجهر له: أنّ معنى النهي الأول: أنه ﷺ إذا نطق ونطقتم.. فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم فوق الحد الذي يبلغ إليه صوته ﷺ، وأن تغضوا من أصواتكم، بحيث يكون صوته عالياً على أصواتكم، ومعنى الثاني: أنكم إذا كلمتوه وهو ﷺ ساكت.. فلا تبلغوا بالجهر في القول الجهر الدائر بينكم، بل ليِّنوا القول ليناً يقارب الهمس الذي يضادّ الجهر.

وفي «الشهاب على البيضاوي»[2]: لمَّا رأى أنّ تخصيص الأول بمكالمته معهم، والثاني بسكوته خلاف الظاهر؛ لأنّ الأول نهي عن أن يكون جهرهم أقوى من جهره، كما هو صريح قوله: ﴿فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذا نهي عن مساواة جهرهم لجهره.. عدل عنه، فحمل الأول على النهي عن زيادة صوتهم على صوته، والثاني على مساواة صوتهم لصوته، فحصل التغاير بين النهيين بهذا الاعتبار أيضاً. اهـ من «الشهاب».

وقيل المعنى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: لا تدعوه، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾؛ أي: كدعاء بعضكم لبعض باسمه، ولكن عظّموه ووقروه وشرّفوه، وقولوا له: يا نبيّ الله، ويا رسول الله، ويا أبا القاسم.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشهاب.

وقوله: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ تنازع[1] فيه ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾ ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾ فيكون مفعولاً لأجله للثاني عند البصريين، وللأول عند الكوفيين، والأول أصح؛ لأنّ إعمال الأول يستلزم الإضمار في الثاني، وهو[2]: إما علّة للنهي على طريق التنازع، فكأنه قيل: انتهوا عمّا نهيتم عنه لخشية حبوط أعمالكم أو كراهته، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ فحذف المضاف ولام التعليل، وإمّا علة للفعل المنهي عنه، كأنه قيل: انتهوا عن الفعل الذي تفعلونه لأجل حبوط أعمالكم، فاللام فيه، لام العاقبة، فإنهم لم يقصدوا بما فعلوه من رفع الصوت والجهر حبوط أعمالهم، إلا أنه لمّا كان بحيث قد يؤدي إلى الكفر المحبط.. جعل كأنّه فعل لأجله، فأدخل عليه لام العلّة تشبيهاً لمؤدىٰ الفعل بالعلة الغائية، وليس المراد بما نهي عنه من الرفع والجهر: ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة بشأنه ﷺ، وعدم المبالاة به، فإنّ ذلك كفر، وكذا ليس المراد: ما يقع من الرفع والجهر في حرب أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدوٍ أو نحو ذلك، فإنّه لا بأس به، إذ لا يتأذى به النبي ﷺ، فلا يتناوله النهي، ففي الحديث: أنّه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب، لمّا انهزم الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس»، وكان العباس أجهر الناس صوتاً، وروي: أنَّ غارة أتتهم يوماً؛ أي: في المدينة، فصاح العباس: يا صباحاه، فأسقط الحوامل لشدّة صوته، وكان يسمع صوته من ثمانية أميال.

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿تَحۡبَطَ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تشعرون بحبوطها، ولا تعلمونه، وفيه تحذير شديد، ووعيد عظيم، قال الزجّاج: وليس المراد: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾: يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم، قال أبو حيان: قوله: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ إن كانت[3] الآية معرّضة بمن يجهر استخفافاً.. فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقةً، وإن

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

كانت للمؤمن الذي فعل ذلك غفلةً، وجرياً على عادته.. فإنّما يحبط عمله البرّ في توقير النبيّ ﷺ، وغضّ الصوت عنه أن لو فعل ذلك كأنه قال: مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها.

وقرأ عبد الله وزيد بن عليّ: ﴿فتحبط﴾ بالفاء، وهو مسبب عما قبله.

وفي «فتح الرحمن»: فإن قلت:[1] كيف قال ذلك مع أنّ الأعمال إنّما تحبط بالكفر، ورفع الصوت على صوت النبيّ ليس بكفر؟.

قلت: المراد به: الاستخفاف بالنبيّ ﷺ؛ لأنّه ربّما يؤدّي إلى الكفر، وقيل: حبوط العمل هنا مجاز عن نقصان المنزلة، وانحطاط الرتبة. اهـ.

ومعنى الآية[2]: إذا نطق ونطقتم.. فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، ولا تبلغوا به وراء الحدّ الذي يبلغه؛ لأنّ ذلك يدل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، وإذا كلّمتوه وهو صامت.. فإيّاكم أن تبلغوا به الجهر الذي يدور بينكم، أو أن تقولوا: يا محمد، يا أحمد، بل خاطبوه بالنبوّة مع الإجلال والتعظيم، خشية أن يؤدّي ذلك إلى الاستخفاف بالمخاطب، فتكفروا من حيث لا تشعرون.

قال البقلي في «العرائس»: أعلمنا الله سبحانه بهذا التأديب، أنّ خاطر حبيبه من كمال لطافته، ومراقبة جمال ملكوته، كان يتغير من الأصوات الجهرية، وذلك من غاية شغله بالله، وجمع همومه بين يدي الله، فكان إذا جهر أحد عنده.. يتأذى قلبه، ويضيق صدره من ذلك، كأنه يتقاعد سرّه لحظةً عن السير في ميادين الأزل، فخوَّفهم الله من ذلك، فإنَّ تشويش خاطره ﷺ سبب بطلان الأعمال.

يقول الفقير: ولكمال لطافته ﷺ، كان الموت عليه أشدَّ، إذ اللطيف يتأثر مما لا يتأثر به الكثيف، كما قال بعضهم: قد شاهدنا أقواماً من عرب البوادي، يسلخ الحكام جميع جلد أحدهم ولا يظهر ضجراً، ولو سلخ أكبر الأولياء...

---

(١) فتح الرحمن.

(٢) المراغي.

لصاح، إلا أن يؤخذ عقله بمشاهدة تمنع إحساسه. اهـ.

وقد كره[1] بعض العلماء رفع الصوت عند قبره ﷺ، وكذا القرب منه عليه السلام في المواجهة عند السلام، بحيث كان بينه وبينه ﷺ أقلَّ من أربعة أذرع، وكره بعضهم رفع الصوت في مجالس الفقهاء؛ تشريفاً لهم، إذ هم ورثة الأنبياء، قال سليمان بن حرب: ضحك إنسان عند حمّاد بن زيد، وهو يحدث بحديث عن رسول الله ﷺ، فغضب حمّاد، وقال: إنّي أرى رفع الصوت عند حديث رسول الله ﷺ وهو ميت، كرفع الصوت عنده وهو حيّ، وقام وامتنع من الحديث ذلك اليوم.

ثم رغب سبحانه في امتثال ما أمر به، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾؛ أي: يخفضون ﴿أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ؛ مراعاةً للأدب، وخشية من مخالفة النهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قُلُوبَهُمۡ﴾؛ أي: شرح قلوبهم، ووسعها ﴿للتقوى﴾ وصفّاها، وأخلصها للتقوى، والجملة الابتدائية. خبر ﴿إِنَّ﴾. وعن عمر رضي الله عنه: أذهب عنها الشهوات؛ أي: نزع عنها محبّة الشهوات، وصفَّاها عن دنس سوء الأخلاق، وحلاَّها بمكارمها، حتى انسلخوا عن عادات البشرية. ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ التنكير للتعظيم؛ أي: ثابت لهم غفران، وأجر عظيم لا يقادر قدره لغضّهم، وسائر طاعاتهم، فهو استئناف لبيان جزاء الغاضين مدحاً لحالهم، وتعريضاً بسوء حال من ليس مثلهم، أو خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾.

وروى أحمد في «الزهد» عن مجاهد قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟. فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم.

---

(١) روح البيان.

والتقوى: هي امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وقال بعضهم: التقوى: كل عمل يقيك من النار، وإذا وقاك من النار.. وقاك من الحجاب، وإذا وقاك من الحجاب.. شاهدت العزيز الوهّاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ ويدعونك يا محمد ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾؛ أي[1]: من خارج حجرات نسائك من خلفها أو قدّامها؛ لأنّ وراء الحجرة عبارة عن الجهة التي يواريها شخص الحجرة بجهتها من أيّ ناحية كانت من نواحيها، ولا بدّ أن تكون تلك الجهة خارج الحجرة؛ لأنّ ما في داخلها لا يتوارى عمن فيها بجثة الحجرة، فاشتراك الوراء في تينك الجهتين معنوي لا لفظي، لكن جعله الجوهري وغيره من الأضداد، فيكون اشتراكه لفظيًّا، و﴿مِن﴾: ابتدائية دالة على أن المناداة نشأت من جهة الوراء، وأنَّ المنادى داخل الحجرة؛ لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة، ولو جرِّد الكلام عن حرف الابتداء.. جاز أن يكون المنادىٰ أيضاً في الخارج؛ لانتفاء مقتضى اختلافهما بالجهة.

والمراد: حجرات أمّهات المؤمنين، وكانت لكل واحد منهنّ حجرة، فتكون تسعاً عددهنّ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ بضم الجيم إتباعاً للضمّة قبلها، وقرأ أبو جعفر وشيبة: بفتحها، وابن أبي عبلة: بإسكانها ثلاثتها جمع حجرة: كغرفات جمع غرفة، وظلمات جمع ظلمة، وقبضات جمع قبضة بمعنى محجورة كقبضة بمعنى مقبوضة، وهي الموضع الذي يحجره الإنسان لنفسه بحائط ونحوه، ويمنع غيره من أن يشاركه فيه من الحجر، وهو المنع، وقيل للعقل: حجر لكون الإنسان في منع منه ممّا تدعو إليه نفسه.

ومناداتهم من ورائها: إما بأنّهم أتوها حجرة حجرة، فنادوه عليه السلام من ورائها، أو بأنهم تفرّقوا على الحجرات متطلّبين له ﷺ، لأنّهم لم يتحقّقوا مكانه،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، فأسند فعل الأبعاض إلى الكل مجازاً.

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: كلهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا يفقهون أمر الله وتوحيده، ولا حرمة رسوله ﷺ؛ لغلبة الجهل عليهم، وكثرة الجفاء في طباعهم، قال في «بحر العلوم»: في قوله: ﴿أكثر﴾ دلالة على أنّه كان فيهم من قصد بالمحاشاة، وعلى قلة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، إذ القلة تجري مجرى النفي في كلامهم، فيكون المعنى: كلهم لا يعقلون، إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب، بل تأدَّبوا معه بأن يجلسوا على بابه، حتى يخرج إليهم، كما قال تعالى آنفاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾، الصبر: حبس النفس عن شهواتها. و﴿لو﴾[1] مختص بالفعل على ما ذهب إليه المبرّد والزجاج والكوفيون، فما بعد ﴿لو﴾ مرفوع على الفاعلية، لا على الابتداء على ما قاله سيبويه.

والمعنى: ولو تحقق صبرهم وانتظارهم ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ و﴿حَتَّىٰ﴾ تفيد أنّ الصبر ينبغي أن يكون مغيّاً بخروجه ﷺ، فإنها مختصّة بما هو غاية للشيء في نفسه، ولذلك تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولا تقول: حتى نصفها وثلثها، بخلاف إلى فإنها عامّة، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إشعار بأنّه لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم. ﴿لَكَانَ﴾؛ أي: الصبر المذكور ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الأدب مع الرسول ﷺ.

والمعنى: أنهم لو انتظروا خروجك، ولم يعجلوا بالمناداة.. لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، ورعاية جنابه الشريف، والعمل بما يستحقه من التعظيم والتبجيل، الموجبين للثواب والثناء، والإسعاف بالمسؤول، وقيل: إنّهم جاؤوا شفعاء في أسارى، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى نصفهم، ولو صبروا.. لأعتق الجميع.

---

(١) روح البيان.

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ النبيّ ﷺ بعث سريّة إلى قوم من بني عنبر جماعة من خزاعة، وأمّر عليهم عيينة بن حصن الفزاريّ، فسار إليهم، فلمّا بلغهم أنه خرج إليهم.. فرّوا وهربوا، وتركوا عيالهم وأموالهم، فسبىٰ ذراريَّهم، وجاء بهم إلى النبيّ ﷺ، فجاء بعد ذلك رجالهم ليفادوا ذراريهم، فدخلوا المدينة عند القيلولة، ووافقوا النبي ﷺ قائلاً عند أهله، فلمّا رأتهم الذراريّ.. أجهشوا يبكون، فنادوا النبيّ ﷺ: يا محمد أخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد فادنا عيالنا، فنزل جبريل عليه السلام فقال: إنّ الله تعالى يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أترضون أن يكون بيني وبينكم شبرمة بن عمرو، وهو على دينكم» فقالوا: نعم. فقال شبرمة: أنا لا أحكم بينهم وعمي شاهد، وهو أعور بن بسَّامة بن ضرار، فرضوا بالأعور، فقال الأعور: فأنا أرى أن تفادي نصفهم، وتعتق نصفهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد رضيت» ففادى نصفهم وأعتق نصفهم، ولو صبروا.. لأعتق جميعهم بغير فداء، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: بليغ المغفرة والرحمة واسعهما، فلن تضيق ساحته عن هؤلاء المسيئين للأدب إن تابوا وأصلحوا.

ومعنى الآية[1]: أي ولو أنَّ هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات صبروا، ولم ينادوك حتى تخرج إليهم.. لكان خيراً لهم عند الله تعالى؛ لأنّه قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، والله ذو عفو عمّن ناداك من وراء الحجاب، إن هو تاب من معصيته بندائك كذلك، وراجع أمر الله في ذلك وفي غيره، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه.

والخلاصة[2]: أنّ الله تعالى هجَّن الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه إلى فظاعة ما جسروا عليه؛ لأنَّ من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، يكون صنيع مثل هؤلاء معه من

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

المنكر الذي يبلغ من التفاحش مبلغاً لا يقدر قدره.

تنبيه[1]: وفي هذا المقام أمور:

الأول: أنّ في هذه الآية تنبيهاً على قدره ﷺ، والتأدب معه بكل حال، فهم إنّما نادوه لعدم عقل يعرفون به قدره، ولو عرفوا قدره.. لكانوا كما في الخبر يقرعون بابه بالأظافير، وفي المناداة إشارة إلى أنهم رأوه من وراء الحجاب، ولو كانوا من أهل الحضور والشهود.. لما نادوه.

قال أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى: الأدب عند الأكابر، وفي مجلس السادات من العلماء والأولياء، يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير في الأولى والعقبى، فكما لا بد من التأدّب معه ﷺ، فكذا مع من استنّ بسنته: كالعلماء العاملين، وكان جماعة من العلماء يجلسون على باب غيرهم، ولا يدقّون عليه بابه حتى يخرج لقضاء حاجته احتراماً، قال أبو عبيدة القاسم بن سلاّم: ما دققت الباب على عالم قط، كنت أصبر حتى يخرج إليّ، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ الآية.

قال بعضهم: من الحكمة توقير الكبير، ورحمة الصغير، ومخاطبة الناس باللّين. وقال: إن كان خليلك فوقك.. فاصحبه بالحرمة، وإن كان كفأك ونظيرك.. فاصحبه بالوفاء، وإن كان دونك.. فاصحبه بالمرحمة، وإن كان عالماً.. فاصحبه بالخدمة والتعظيم، وإن كان جاهلاً.. فاصحبه بالسياسة، وإن كان غنيّاً.. فاصحبه بالزهد، وإن كان فقيراً.. فاصحبه بالجود، وقال بعض الحكماء: عاشروا الناس معاشرة، إن متّم.. بكوا عليكم، وإن رغبتم.. حنّوا إليكم.

والثاني: ذم الجهل، ومدح العقل والعلم، فإن شرف العقل مدرك بضرورة العقل والعلم والحس، حتى إنّ أكبر الحيوانات شخصاً، وأقواها بدناً، إذا رأى الإنسان.. احتشمه وخاف منه؛ لإحساسه بأنّه مستول عليه بحيلته، قال بعضهم:

---

(١) روح البيان.

العاقل كلامه وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم به.. أمّره على قلبه، فينظر فيه، فإن كان له؛ أي: لنفعه.. أمضاه، وإن كان عليه؛ أي: لضرّه.. أمسكه، والأحمق كلامه على طرف لسانه، وعقله في حجره إذا قام سقط، قال عليّ كرم الله وجهه: لسان العاقل في قلبه، وقلب الأحمق في فمه، والأدب صورة العقل، ولا شرف مع سوء الأدب، ولا داء أعيا من الجهل، وإذا تم العقل.. نقص الكلام.

والثالث: ما قاله بعضهم: تدبر سر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى﴾ ولا تنظر إلى سبب النزول، وانتظر خروجه مرةً ثانية لقيام الساعة لفتح باب الشفاعة، وقد ثبت أنّ الناس يلتجئون يوم القيامة إلى الأنبياء، ثمَّ، وثمَّ إلى أن يصلوا إليه ﷺ، فلا يصلون إلى المراد إلا عنده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿إِنْ جَاءَكُمْ﴾ وأتاكم ﴿فَاسِقٌ﴾ أيَّ فاسقٍ كان ﴿بِنَبَإٍ﴾ وخبر أيَّ نبأ كان، والنبأ: الخبر الخطير، والتنكير[1] في الموضعين للتعميم، وفيه إيذان بالاحتراز عن كل فاسق، وإنما قال: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ﴾ بحرف الشك دون إذا؛ ليدل على أنّ المؤمنين ينبغي أن يكونوا على هذه الصفة، لئلا يطمع فاسق في مكالمتهم بكذب، وقال ابن الشيخ: إخراج الكلام بلفظ الشرط المحتمل الوقوع؛ لندرة مثله فيما بين أصحابه ﷺ؛ أي: إن جاءكم فاسق بخبر يعظم وقعه في القلوب.. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾؛ أي: فتعرّفوا وتفّحصوا، حتى يتبين لكم ما جاء به، أصدق هو أم كذب، ولا تعتمدوا على قوله المجرّد؛ لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق.. لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه.

قرأ الجمهور[2]: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من التبين، وقرأ حمزة والكسائيّ: ﴿فتثبتوا﴾ من التثبت، والمراد من التبيّن: التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد، حتى يتّضح ويظهر.

قال المفسرون: كما مر إنّ هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أخي عثمان رضي الله عنه لأمه، وهو الذي ولاّه عثمان الكوفة بعد سعد بن

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

أبي وقّاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً، ثم قال: هل أزيدكم؟ فعزله عثمان عنهم، بعثه ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق، إلى آخر ما سبق في أسباب النزول.

وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ مفعول لأجله على تقدير مضاف؛ أي: حذار أن تصيبوا ﴿قَوْمًا﴾ بريئين بقتل وأسر وجرح، حال كونكم متلبسين ﴿بِجَهَلَةٍ﴾ بحالهم، وكنه قصتهم؛ لأنَّ الخطأ ممن لم يتبين الأمر، ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة؛ لأنّه لم يصدر عن علم. ﴿فَتُصْبِحُوا﴾؛ أي: فتصيروا بعد ظهور براءتهم مما أسند إليهم ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ في حقهم ﴿نَدِمِينَ﴾؛ أي: مهتمين به مغتمّين له غمًّا لازماً، متمنّين أنه لم يقع، فإنّ تركيب[1] هذه الأحرف الثلاثة: ن د م، يدور مع الدوام، مثل: أدمت الأمر: إذا أدامه، ومدن المكان: إذا أقام به، ومنه المدينة؛ يعني: أنَّ الندم غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام على ما وقع، مع تمني أنه لم يقع، ولزومه قد يكون لقوته من أول الأمر، وقد يكون لعدم غيبة موجبه وسببه عن الخاطر، وقد يكون لكثرة تذكره، ولغير ذلك من الأسباب.

وفي الآية[2]: دلالة على أنَّ الجاهل لا بد أن يصير نادماً على ما فعله بعد زمان، وفي ترتيب الأمر بالتبين على فسق المخبر: إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل في بعض المواد، وفي الآية أيضاً إشارة إلى ترك الاستماع إلى كلام الساعي والنمام، والمغتاب للناس، فلا بدّ من التبين والتفحص؛ لتظهر حقيقة الحال، ويسلم المرء من الوبال، ويفتضح الكذاب الدجال، وفي الحديث: «التبيُّن من الله، والعجلة من الشيطان».

ومعنى الآية: أي[3] يا أيها الذين آمنوا، إن جاءكم الفاسق بأيّ نبأ، فتوقّفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا على قوله، فإنّ

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

من لا يبالي بالفسق.. فهو أجدر بأن لا يبالي بالكذب ولا يتحاماه، خشية إصابتكم بالأذى قوماً أنتم جاهلون حالهم، فتندموا على ما فرط منكم، وتتمنّوا أن لو لم تكونوا فعلتم ذلك.

ثم وعظهم سبحانه بعظة هم أحرى الناس باتباعها، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيّها المؤمنون، وفائدة الأمر الدلالة على أنهم نزّلوا منزلة الجاهلين، لمكانه ﷺ؛ لتفريطهم فيما يجب عليهم من تعظيم شأنه، وجملة ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾: سادّة مسدّ مفعولي ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ أي: واعلموا أنّ فيكم رسول الله، وهو مرشد لكم، فارجعوا إليه، واعتمدوا عليه، فلا تقولوا قولاً باطلاً، ولا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبيّن، وجملة ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ أي: لوقعتم في العنت والفساد والهلاك، في محل نصب على الحال من ضمير ﴿فِيكُمۡ﴾؛ أي: كائنين[1] على حالة.. إلخ. وهي أنكم تريدون أن يتبع الرسول ﷺ رأيكم في كثير من الحوادث، ولو فعل ذلك.. لوقعتم في الجهد والهلاك، فعلى هذا يكون قوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ إلخ. دليل وجوب تغيير تلك الحال أقيم مقام الحال، وفيه إيذان بأنّ بعضهم زيّنوا لرسول الله الإيقاع ببني المصطلق، تصديقاً لقول الوليد، وأنه ﷺ لم يطع رأيهم، أو مستأنفة.

والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تخبرونه من الأخبار الباطلة، وتشيرون به عليه من الآراء التي ليست بصواب.. لوقعتم في العنت، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه، وقد يوافق الناس، ويفعل بمقتضى مصلحتهم؛ تحقيقاً لفائدة قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾.

وصيغة المضارع في قوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾: للدلالة على أنّ امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته ﷺ لأن عنتهم، إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعنُّ لهم

---

(١) روح البيان.

من الأمور، إذ فيه اختلال أمر الرياسة، وانقلاب الرئيس مرؤساً، لا من إطاعته في بعض ما يرونه نادراً، بل فيها استمالتهم بلا معرةٍ؛ يعني: أنّ امتناع عنتكم بسبب امتناع استمراره على إطاعتكم، فإنّ المضارع يفيد الاستمرار، ودخول ﴿لو﴾ عليه، يفيد امتناع الاستمرار.

والمعنى[1]: أي واعلموا أيّها المؤمنون، أن بين أظهركم رسول الله، فعظّموه ووقّروه، وتأدّبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، ثم بين أن رأيه أنفع لهم، وأجدر بالرعاية، فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ إلخ؛ أي: لو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر، وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء.. لوقعتم في الجهد والإثم، ولكنّه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه، عن أبي سعيد الخدري: أنّه قرأ هذه الآية، وقال: هذا نبيُّكم يوحى إليه، وخيار أئمتكم، لو أطاعهم في كثير من الأمر.. لعنتوا، فكيف بكم اليوم؟! أخرجه الترمذي.

ثمّ استدرك على ما سلف لبيان براءة بعضهم من أوصاف الأولين، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾؛ أي: جعل الإيمان أحبّ الأشياء إليكم، أو جعله محبوباً لديكم، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه، ويقتضيه من الأمور الصالحة، وترك التسرّع في الأخبار، وعدم التثبت فيها.

وقيل: هذا تجريد للخطاب[2] وتوجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك، بياناً لبراءتهم من أوصاف الأولين، وإحماداً لأفعالهم، وهم الكاملون الذين لا يعتمدون على كل ما سمعوه من الأخبار؛ أي: ولكن جمعاً منكم براء مما أنتم عليه من تصديق الكاذب، وتزيين الإيقاع بالبريء، وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم؛ لأنّ الله تعالى جعل الإيمان أحبَّ الأشياء إليهم، فلا يقع منهم إلا ما يوافقه، ويقتضيه من الأمور الصالحة، وترك التسرع في الأخبار.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

والظاهر: أنّه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان.

﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾؛ أي: زيّن الإيمان، وحسّنه ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حتى رسخ حبه فيها، ولذلك أتيتم بما يليق به من الأقوال والأفعال، وفي «عين المعاني»: في قلوبكم دون ألسنتكم مجرّدةً ردًّا على الكرامية القائلين: بأنَّ الإيمان لا يكون بالقلب، ولكن باللسان، وقيل: دون جوارحكم ردًّا على الشعوبية بضم الشين: وهم قوم يتعلقون بظاهر الأعمال.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾؛ أي: جعل هذه الأمور الثلاثة: الكفر والفسوق والعصيان مكروهة عندكم، ولذلك اجتنبتم ما يليق بها، مما لا خير فيه من آثارها وأحكامها، والتكريه هنا بمعنى التبغيض، والبغض: ضد الحب، فالبغض: نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، والحب: انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه، ولما كان في التحبيب والتكريه معنى إنهاء المحبّة والكراهة، وإيصالهما إليهم.. استعملا بكلمة إلى.

قال في «فتح الرحمن»: معنى تحبيب الله وتكريهه: اللطف والإمداد بالتوفيق، والكفر تغطية نعم الله بالجحود والفسوق الخروج عن القصد؛ أي: العدل بظلم نفسه، والعصيان: الامتناع عن الانقياد، وهو شامل لجميع الذنوب، والفسوق مختص بالكبائر، قال شيخ الإسلام: إن قلت: ما فائدة الجمع بين الفسق والعصيان؟.. قلت: الفسوق: الكذب، كما نقل عن ابن عباس، والعصيان: بقية المعاصي، وإنما أفرد الكذب بالذكر؛ لأنّه سبب نزول الآية، وقيل: الفسوق: الكبيرة، والعصيان: الصغيرة. انتهى.

والخلاصة[1]: أنّ الإيمان الكامل: إقرارٌ باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان، فكراهة الكفر في مقابلة محبّة الإيمان، وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان، والفسوق: هو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان: في مقابلة العمل بالأركان.

---

(١) المراغي.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المستثنون بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ إلخ. ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾؛ أي: السالكون إلى الطريق السويّ الموصل إلى الحق، والرشد: الاستقامة على طريق الحق، مع تصلبٍ من الرشادة: وهي الصخرة، وفي الآية[1] عدول وتلوين، حيث ذكر أولها على وجه المخاطبة، وآخرها على المغايبة، حيث قيل: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ليعلم أنّ من كان حاله هكذا، فقد دخل في هذا المدح، كما قاله أبو الليث.

وقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾؛ أي: تفضلاً منه تعالى، وإنعاماً منه تعليل لـ ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾ وما بينهما اعتراض.

والمعنى: أنه تعالى حبّب إليكم ما حبّب، وكرّه إليكم ما كرّه؛ لأجل فضله وإنعامه، لا للراشدين، فإنّ الفضل فعل الله، والرشد وإن كان مسبّباً عن فعله، وهو التحبيب والتكريه مسند إلى ضمير ﴿هُمُ﴾؛ يعني: أنّ المراد بالفاعل: من قام به الفعل، وأسند هو إليه، لا من أوجده، ومن المعلوم: أنّ الرشد قائم بالقوم، والفضل والإنعام قائمان به تعالىٰ، فلا اتحاد في الفاعل، وقيل: علّة لمحذوف؛ أي: جعلكم راشدين لأجل فضله وإنعامه، وقيل: النصب بتقدير فعل؛ أي: تبتغون فضلاً ونعمةً.

والخلاصة[2]: أنّ رسول الله بين أظهركم، وهو أعلم بمصالحكم، لو أطاعكم في جميع ما تختارونه.. لأدّى ذلك إلى عنتكم ووقوعكم في مهاوي الردى، ولكنّ بعضاً منكم حبّب إليهم الإيمان، وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأولئك هم الذين أصابوا الحق، وسلكوا سبيل الرشاد.

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الغواية ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤون خلقه، وصرفهم فيما شاء من قضائه، فيفعل كل ما يفعل بموجب الحكمة.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وفي الآية دليل على أنّ من كان مؤمناً، لا يحبّ الفسق والمعصية، وإذا ابتلي بالمعصية.. فإنّ شهوته وغفلته تحمله على ذلك، لا لحبّه للمعصية، بل ربّما يعصي حال الحضور؛ لأنّ فيه نفاذ قضائه تعالى.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾؛ أي: تقاتلوا، والجمع حيث لم يقل: اقتتلتا على التثنية والتأنيث باعتبار المعنى؛ لأنّ كل طائفة جمع، فهي بمعنى القوم، نظير قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾، وبه قرأ الجمهور[1]. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿اقتتلتا﴾ بالتثنية والتأنيث اعتباراً بلفظ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير: ﴿اقتتلا﴾ بالتثنية، وتذكير الفعل باعتبار الفريقين والرهطين، والطائفة من الناس: جماعة منهم، لكنها دون الفرقة، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾. و﴿طَآئِفَتَانِ﴾: فاعل فعل محذوف وجوباً؛ لا مبتدأ؛ لأنّ حرف الشرط لا يدخل إلا على الفعل لفظاً أو تقديراً، والتقدير: وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فحذف الأول؛ لئلا يلزم اجتماع المفسّر والمفسّر، وأصل القتل: إزالة الروح عن الجسد بأيّ طريق كان.

﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بين تينك الطائفتين بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى، وثنّى الضمير باعتبار لفظ الطائفتين، والصلاح: الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والإصلاح: جعل الشيء على تلك الحالة، والإصلاح بين الناس إذا تفاسدوا من أعظم الطاعات، وأتمّ القربات، وكذا نصرة المظلوم، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: من وصل أخاه بنصيحة في دينه، ونظر له في صلاح دنياه.. فقد أحسن صلته، وقال مطرّف: وجدنا أنصح العباد لله الملائكة، ووجدنا أغشّ العباد لله الشياطين، ويقال: من كتم السلطان نصحه، والأطبّاء مرضه، والأخوان بثّه.. فقد خان نفسه.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ﴾؛ أي: تعدّت واستطالت ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾؛ أي: إحدى الطائفتين وكانت مبطلة ﴿عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وكان محقّة، ولم تتأثّر الباغية بالنصيحة ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى

---

(١) البحر المحيط.

﴿تَبۡغِي﴾؛ أي: قاتلوا الطائفة الباغية ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾؛ أي: حتى ترجع عن بغيها، فإنّ الفيء: الرجوع إلى حالة محمودة. ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إلى حكمه الذي حكم به في كتابه العزيز، وهو المصالحة، ورفع العداوة، أو إلى ما أمر به، وهو الإطاعة المدلول عليها بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾. فأمر الله على الأول واحد الأمور، وعلى الثاني واحد الأوامر.

وإنّما أطلق[1] الفيء على الظل؛ لرجوعه بعد نسخ الشمس؛ أي: إزالتها إيّاه، فإنّ الشمس كلما ازدادات ارتفاعاً.. ازداد الظل انسلاخاً وزوالاً، وذلك إلى أن توازي الشمس خطّ نصف النهار، فإذا زالت عنه، وأخذت في الانحطاط.. أخذ الظل في الرجوع والظهور، فلمّا كان الزوال سبباً لرجوع ما انتسخ من الظل.. أضيف الظل إلى الزوال، فقيل: فيء الزوال.

ومرَّ الأصمعي بحيّ من أحياء العرب، فوجد صبياً يلعب مع الصبيان في صحراء، ويتكلّم بالفصاحة، فقال الأصمعي: أين أباك يا صبيّ؟ فنظر إليه الصبي ولم يجب، ثم قال: أين أبيك؟ فنظر إليه ولم يجب كالأول، ثمّ قال: أين أبوك؟ فقال: فاء إلى الفيفاء لطلب الفيء، فإذا فاء الفيء.. فاء؛ أي: رجع.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ مضارع فاء بفتح الهمزة، وقرأ الزهريّ ﴿حتى تفى﴾ بغير همزة وفتح الياء، وهذا شاذّ، كما قالوا في مضارع جاء: يجي بغير همز، فإذا أدخلوا عليه الناصب.. فتحوا الياء، وأجروه مجرى يفي مضارع وفىٰ شذوذاً.

﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ الباغية، ورجعت إليه، وأقلعت عن القتال حذاراً من قتالكم ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ أي: بين الطائفتين: الباغية والمحقّة ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ والإنصاف بفصل ما بينهما على حكم الله، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما، عسى أن يكون بينهما قتال في وقت آخر.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى[1]: أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين.. فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم، ويدعوهم إلى حكم الله، فإن حصل بعد ذلك التعدّي من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، ولا دخلت فيه.. كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله، وحكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه.. فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة، حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى.

ثمّ أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم، بعد أمرهم بهذا العدل الخاصّ بالطائفتين المقتتلتين، فقال: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾؛ أي: واعدلوا في كلّ ما تأتون وما تذرون، من أقسط، وهمزته للسلب إذا أزال القسط بالفتح؛ أي: الجور، يقال: إذا جاء القسط بالكسر؛ أي: العدل.. زال القسط بالفتح؛ أي: الجور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: العادلين الذين يؤدُّون لكل ذي حق حقه، فيجازيهم بأحسن الجزاء؛ لأنّ محبته تعالى لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء، وفي «الصحيح»: عن أنس رضي الله عنه: أنّ النبيّ ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قلت: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إيّاه».

وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، جمع الأخ[2]، وأصله: المشارك لأخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما، أو من الرضاع، ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودّة، أو في غير ذلك من المناسبات، والفرق بين الخلة والأخوة: أنّ الصداقة إذا قويت.. صارت أخوة، فإن ازدادات.. صارت خلّة، كما في «إحياء العلوم». قال بعض أهل اللغة:

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الإخوة جمع الأخ من النسب، والإخوان جمع الأخ من الصداقة، ويقع أحدهما موقع الآخر، وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخواناً».

والمعنى: إنّما المؤمنون منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، كما أنّ الإخوة من النسب منتسبون إلى أصل واحد هو الأب الموجب للحياة الفانية، فالآية من قبيل التشبيه البليغ المبني على تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبب الحياة كالأب.

وفي الحديث: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يعيّبه، ولا يخذله، ولا يتطاول عليه في البنيان، فيستر عليه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره، إلا أن يغرف له غرفة، ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها». ثم قال: «احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل». وفي «الصحيح» أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب.. قال الملك: آمين، ولك مثله».

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولا بد.. تسبب عن ذلك قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ في الدين، كما تصلحون بين أخويكم في النسب، و﴿الفاء﴾ فيه: للإيذان بأنّ الأخوّة الدينية موجبة للإصلاح، ووضع[1] المظهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح، والتحضيض عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى في كل ما تأتون، وما تذرون من الأمور التي من جملتها ما أمرتم به من إصلاح ذات البين، وفي «التأويلات النجمية»: واتقوا الله في إخوتكم في الدين بحفظ عهودهم، ورعاية حقوقهم، في المشهد والمغيب، والحياة والممات.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: راجين أن ترحموا على تقواكم كما ترحمون، أو رجاء أن يرحمكم ربّكم، ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، والترجّي باعتبار المخاطبين.

---

(١) روح البيان.

واعلم: أنّ أخوّة الإسلام أقوى من أخوّة النسب، بحيث لا تعتبر أخوّة النسب إذا خلت عن أخوّة الإسلام، ألا ترى أنه إذا مات المسلم، وله أخ كافر.. يكون ماله للمسلمين، لا لأخيه الكافر، وكذا إذا مات أخ الكافر، وذلك لأنّ الجامع الفاسد لا يفيد الأخوّة، وأنّ المعتبر الأصليّ الشرعيّ، ألا ترى أنّ ولدي الزنا من رجل واحد لا يتوارثان، وهذا المعنى يستفاد من الآية أيضاً؛ لأنّ ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، فكأنه قيل: لا أخوة إلا بين المؤمنين، فلا أخوّة بين المؤمن والكافر.

وفي هذه الآية[1]: دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرر بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز، مستدلاً بقوله ﷺ: «قتال المسلم كفر». فإنّ المراد بهذا الحديث، وما ورد في معناه: قتال المسلم الذي لم يبغ، قال ابن جرير: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل.. لما أقيم حق ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ولكفّ المسلمين أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله ﷺ: «خُذوا على أيدي سفهائكم».

قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، وعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملّة، وإياها عنى النبيّ ﷺ بقوله: «تقتل عمارا الفئة الباغية». وقوله ﷺ في شأن الخوارج: «يخرجون على حين فرقة من الناس، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بالتثنية؛ لأنّ أقلّ من يقع بينهما الشقاق اثنان، فإذا كان الإصلاح لازماً بين اثنين.. فهو ألزم بين أكثر من اثنين، وقيل: المراد بالأخوين: الأوس والخزرج، وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن: بخلاف عنه، والجحدري وثابت البنانيّ وحماد بن سلمة، وابن سيرين: ﴿بين

---

(١) الشوكاني.　　(٢) البحر المحيط.

إخوانكم﴾ جمعاً بالألف والنون، وقرأ الحسن أيضاً وابن عامر في روايةٍ، وزيد بن عليّ ويعقوب: ﴿بين إخوتكم﴾ جمعاً على وزن غلمة، وروى عبد الوهاب عن أبي عمرو القراءات الثلاث، قال أبو علي الفارسي في توجيه قراءة الجمهور: أراد بالأخوين: الطائفتين؛ لأنّ لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة، وقال أبو عبيدة: أي: أصلحوا بين كل أخوين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿لَا يَسْخَرْ﴾ والسخرية: أن يحقر الإنسان أخاه، ويستخفه، ويسقطه عن درجته، ويعده ممن لا يلتفت إليه؛ أي: لا يستهزىء ﴿قَوْمٌ﴾؛ أي: منكم. وهو اسم جمع لرجل، وهو مختص بالرجال؛ لأنهم قوامون على النساء، ولهذا عبّر عن الإناث بما هو مشتق من النسوة بفتح النون، وهو ترك العمل، حيث قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾. ويؤيده قول زهير:

وَمَا أَدْرِيْ وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِيْ ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وقال الزمخشري: وهو في الأصل: جمع قائم، كصوم جمع صائم، وزور جمع زائر. انتهى. وليس فعل من أبنية الجموع إلا على مذهب أبي الحسن في قوله: إنّ ركبا جمع راكب. ﴿مِّن قَوْمٍ﴾ آخرين أيضاً منكم، والتنكير إما للتعميم أو للتبعيض. والقصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض؛ لما أنّها مما يجري بين بعض وبعض.

فإن قلت[1]: المنهيّ عنه هو أن يسخر جماعة من جماعة، فيلزم أن لا يحرم سخرية واحد من واحد.

قلت: اختيار الجمع ليس للاحتراز عن سخرية الواحد من الواحد، بل هو لبيان الواقع؛ لأنّ السخرية وإن كانت بين اثنين؛ إلا أنَّ الغالب أن تقع بمحضر جماعة يرضون بها، ويضحكون بسببها، بدل ما وجب عليهم من النهي والإنكار، ويكونون شركاء الساخر في تحمّل الوزر، ويكونون بمنزلة الساخرين حكماً، فنهوا

---

(١) روح البيان.

عن ذلك؛ يعني: أنه من نسبة فعل البعض إلى الجمع لرضاهم به في الأغلب، أو لوجوده فيما بينهم.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟﴾ تعليل للنهي؛ أي: عسى أن يكون المسخور منهم ﴿خَيْرًا﴾ عند الله تعالى ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من الساخرين، ولا خبر لـ ﴿عَسَىٰٓ﴾ لإغناء الاسم عنه، ولمّا كان لفظ ﴿قَوْمٌ﴾ مختصّاً بالرجال، لأنّهم القُوَّمُ على النساء.. أفرد النساء بالذكر، فقال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾؛ أي: ولا تسخر نساء من المؤمنات، وهم اسم جمع لامرأة. ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾ منهنّ، وإنما لم يقل: امرأة من رجل، ولا بالعكس للإشعار بأنّ مجالسة الرجل المرأة مستقبح شرعاً، حتى منعوها عن حضور الجماعة، ومجلس الذكر؛ لأنّ الإنسان إنّما يسخر ممن يلابسه غالباً، وقيل: أفرد النساء بالذكر؛ لأنّ السخرية منهن أكثر. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾؛ أي: المسخور منهن ﴿خَيْرًا﴾ عند الله تعالى ﴿مِّنْهُنَّ﴾؛ أي: من الساخرات، فإنّ مناط الخيرية في الفريقين ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال، ولا الأوضاع والأطوار التي عليها يدور أمر السخرية غالباً، بل إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، فلا يجترىء أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى، فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله، واستهانة من عظمه الله تعالى. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب.. لخشيت أن أحول كلباً، وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أنّه لا عبرة بظاهر الخلق، فلا تنظر إلى أحد بنظر الإزدراء، والاستهانة والاستخفاف والاستحقار، لأنّ في استحقار أخيك عجب نفسك مودع، كما نظر إبليس بنظر الحقارة إلى آدم عليه السلام، فأعجبته نفسه، فقال: أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين، فلعن إلى الأبد لهذا المعنى، فمن حقر أخاه المسلم، وظنَّ أنه خير منه.. يكون إبليسَ وقته، وأخوه آدمَ وقته.

وقرأ عبد الله وأبيٌّ[1]: ﴿عسوا أن يكونوا﴾ و﴿عَسِيْنَ أن يكن﴾، فـ ﴿عَسَىٰٓ﴾

---

(١) البحر المحيط.

على هذه القراءة ناقصة، لها خبر، و﴿عَسَىٰٓ﴾ في الموضعين على قراءة الجمهور: تامّة لا خبر لها، وفيها لغتان: الإضمار لغة تميم، وتركه لغة الحجاز.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: ولا يعب[1] بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية، فإن المؤمنين كنفس واحدة، والأفراد المنتشرة بمنزلة أعضاء تلك النفس، فيكون ما يصيب واحداً منهم كأنه يصيب الجميع، إذا اشتكى عضو واحد من شخص.. تداعى سائر الأعضاء إلى الحمى والسهر، فمتى عاب مؤمناً.. فكأنما عاب نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، وفي قوله: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾: تنبيه إلى أنَّ العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيره؛ لأنّه كنفسه.

وفي «التأويلات النجمية»: إنما قال: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ لأنّ المؤمنين كنفس واحدة، إن عملوا شرًّا إلى أحد، فقد عملوا إلى أنفسهم، وإن عملوا خيراً إلى أحد.. فقد عملوا إلى أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾، انتهى.

ويجوز أن يكون معنى الآية: ولا تفعلوا ما تلمزون به، فإن من فعل ما يستحق به اللمز.. فقد لمز نفسه؛ أي: تسبب للمز نفسه، وإلا فلا طعن باللسان لنفسه منه، فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب، وقال سعدي المفتي: ولا يبعد أن يكون[2] المعنى لا تلمزوا غيركم، فإنَّ ذلك يكون سبباً لأن يبحث الملموز عن عيوبكم فيلمزكم، فتكونوا لامزين أنفسكم، فالنظم حينئذٍ نظير ما ثبت في «الصحيحين» من قوله ﷺ: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

يقول الفقير: هو مسبوق في هذا المعنى، فإنَّ الإمام الراغب قال في

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

«المفردات»: اللمز: الإغتياب، وتتبع المعايب؛ أي: لا تلمزوا الناس فيلمزوكم، فتكونوا في حكم من لمز نفسه. انتهى.

والمعنى: ولا تلمزوا الناس فيلمزوا أنفسكم؛ أي؛ لا تعيبوهم فيعيبوكم، وقال النبيّ ﷺ: «يبصر أحدكم القذاة ـ ما يقع في العين والماء من تراب أو وسخ ـ في عين أخيه، ويدع الجذع في عينه». وقيل: من سعادة المرء: أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

لاَ تَكْشِفَنْ مِنْ مَسَاوِيْ النَّاسِ مَا سَتَرُوا ... فَيَهْتِكَ اللَّهُ سِتْراً عَنْ مَسَاوِيْكَا
وَاْذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيْهِمْ إِذَا ذُكِرُوْا ... وَلاَ تَعِبْ أَحَدَاً مِنْهُمْ بِمَا فِيْكَا

وفي الحديث: «طوبى لمن يشغله عيبه عن عيوب الناس». ولا يدخل في الآية ذكر الفاسق؛ لقوله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه، كي يحذره الناس».

يقول الفقير: أشار التعليل في الحديث إلى أنّ ذكر الفاجر بما فيه من العيوب، إنما يصحّ بهذا الغرض الصحيح، وهو أن يحذر الناس منه، وإلا فالإمساك، مع أنّ في ذكره تلويث اللسان الطاهر؛ ولذا نقل عن بعض المشايخ: أنه لم يلعن الشيطان، إذ ليس فيه فائدة سوى اشتغال اللسان بما لا ينبغي، فإنّ العداوة له إنما هي بمخالفته، لا بلعنته فقط.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن، والأعرج وعبيد عن أبي عمرو: بضمها، وقال أبو عمرو: هي عربية، وقال ابن جرير: اللمز باليد والعين واللسان والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان. اهـ.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟﴾ وتدعوا أنفسكم ﴿بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ السيئة؛ أي: لا يدع بعضكم بعضاً باللقب الذي يسوؤه ويكرهه، كأن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهوديُّ أو يا نصرانيُّ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل قد عمل السيئات، ثمّ تاب وراجع الحق،

(١) البحر المحيط.

فنهى الله تعالى أن يعيّر بما سلف من عمله، أما[1] الألقاب التي تكسب حمداً ومدحاً، وتكون حقاً وصدقاً.. فلا تكره، كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعليّ: أبو تراب، ولخالد: سيف الله، من[2] النبز بسكون الباء، مصدر نبزه بمعنى لقبه، والنبز بفتحها: اللقب مطلقاً؛ أي: حسناً كان أو قبيحاً، ومنه قيل في الحديث: «قومٌ نبْزهم الرافضة»؛ أي: لقبهم، ثم خص في العرف باللقب القبيح، وهو ما يكره المدعو أن يدعى به، واللقب: ما سمي به الإنسان بعد اسمه العلم، من لفظ يدل على المدح، كزين العابدين، أو الذم كأنف الناقة، لمعنى فيه.

والمعنى[3]: ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، قالوا: وليس من هذا قول المحدثين لسليمان الأعمش، وواصل الأحدب، ولعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، ونحوه مما تدعو إليه الضرورة، وليس قصد استخفاف، ولا أذى، وفيه إشارة إلى أنّ اللقب الحسن لا ينهى عنه، مثل: محيي الدين وشمس الدين، وبهاء الدين، وفي الحديث: «من حق المؤمن على أخيه: أن يسميه بأحب أسمائه إليه».

﴿بِئْسَ﴾ وقبح ﴿ٱلِاسْمُ﴾ أي[4]: التسمية لأخيك ﴿ٱلْفُسُوقُ﴾؛ أي: الدال على فسق الأخ وكفره، ونفاقه ﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: بعد ما آمن ذلك الأخ، وترك ذلك؛ أي: بئست التسمية الدالة على فسق المسمى بها، وكفره بعد إيمانه، كقولك للمؤمن: يا يهودي ويا نصرانيّ، ويا مجوسي بعد ما أسلم، أو يا فاسق؛ ويا سارق، ويا شارب، ويا زاني بعد ما تاب، نظراً لما قبل إسلامه وتوبته.

وقيل معناه[5]: أنَّ من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز.. فهو

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) تنوير المقباس.
(٥) الخازن.

فاسق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، فلا تفعلوا ذلك، فتستحقوا اسم الفسوق، وقيل: المعنى: بئس الاسم واللقب هو اسم الفسوق، ولقب السوء حال كونه واقعاً بعد إيمان المقول له، وقيل: الاسم بمعنى الذكر المرتفع؛ لأنّه من السمو، يقال: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم؛ أي: ذكره، والفسوق هو المخصوص بالذمّ، وفي الكلام مضاف مقدر، وهو اسم الفسوق؛ أي: ذكره.

والمعنى: بئس الذكر والقول للمؤمنين؛ أي: أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم في الإيمان، واشتهارهم به، والمخصوص بالذم اسم الفسوق، وذكره بعد الإيمان، وقال ابن زيد: أي بئس أن يسمى الرجل كافراً أو فاسقاً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته.

وفي «التأويلات النجمية»: بئس الاسم اسم يخرجهم من الإيمان، والمراد به: إما تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين خصوصاً، إذ روي: أنَّ الآية نزلت في صفية بنت حيّي رضي الله عنها أتت رسول الله ﷺ باكيةً، فقالت: إنَّ النساء يقلن لي ـ وفي رواية: قالت لي عائشة رضي الله عنها ـ: يا يهودية بنت يهوديين، فقال النبي ﷺ: هلا قلت: «إنَّ أبي هارون، وعمّي موسى، وزوجي محمد ﷺ». أو الدلالة على أنَّ التنابز مطلقاً، لا بالكفر والفسوق خصوصاً فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح، فدخل فيه زيد اليهودي، وعمرو النصراني وبكر الكافر وخالد الفاسق، ونحو ذلك.

والعجب من العرب، يقولون للمؤمنين من أهل الروم: نصارى! فهم داخلون في الذم، ولا ينفعهم الافتخار بالأنساب، فإنّ التفاضل بالتقوى، كما سيجيء.

ونعم ما قيل:

وَمَا يَنْفَعُ ٱلأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ ... إِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ

وفي الفقه: لو قال رجل لصالح: يا فاسق، ويا ابن الفاسق، ويا فاجر، ويا خبيث، ويا مخنث، ويا مجرم، ويا جيفة، ويا بليد، ويا ابن الخبيثة، ويا سارق، ويا زاني، ويا لص، ويا كافر، ويا زنديق، وهو بريء منه.. يعزر في

هذا كله.

والخلاصة: بئس الاسم الفسوق مع الإيمان، وفي هذا إيماء إلى استقباح الجمع بين الأمرين، كما تقول: بئس الصبوة بعد الشيخوخة؛ أي: معها.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عمّا نهى الله عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب، والظالم أعم من الفاسق، والفاسق أعم من الكافر. أو المعنى[1]: ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بعصيانهم إياه.

وفيه[2] دلالة بينة على أنَّ الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظلمة، فلا بدّ من توبة نصوح من جميع القبائح والمعاصي، لا سيما ما ذكر في هذا المقام، ومن أصرّ.. أخذ سريعاً، لأنّ أقرب الأشياء صرعة الظلوم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ أي: كونوا على جانب منه، وابعدوا عنه ولا تقربوه، والظنّ هنا هو مجرد التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، فالمراد به: ظن السوء بأهل الخير والصلاح، وأمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنّه، حتى يعلم أنه من أيّ القبيل، فإنّ من الظنّ ما يجب اتباعه، كالظنّ حيث لا قاطع فيه من العمليات، فإنّ أكثر الأحكام الشرعية مبنيّة على الظنّ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم، ولكن هذا الظنّ الذي يجب العمل به قد قوي بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به، فارتفع عن الشك والتهمة وكحسن الظنّ بالله تعالى، وفي الحديث: «إنّ حسن الظنّ من الإيمان». ومن الظنّ ما يحرم: كالظنّ في الإلهيات؛ أي: بوجود الإله وذاته وصفاته، وما

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

يليق به من الكمال، وفي النبوات، فمن قال: آمنت بجميع الأنبياء، ولا أعلم آدم نبي أم لا.. يكفر، وكذا من آمن بأنَّ نبينا محمداً ﷺ رسول، ولم يؤمن بأنه خاتم الرسل لا نسخ لدينه إلى يوم القيامة.. لا يكون مؤمناً، وكالظن حيث يخالفه قاطع: كالظن بنبوة علي كرم الله وجهه أو بنبوة واحد من خلفاء هذه الأمة مع وجود قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّـنَ﴾ وقوله ﷺ: «لا نبيّ بعدي». فإنَّ مثل هذا الظنّ حرام، ولو قطع كان كفراً، وكظنّ السوء بالمؤمنين، خصوصاً بالرسول ﷺ، وبورثته الكمَّل: كالعلماء بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، وقال ﷺ: «إنّ الله حرّم من المسلم: عرضه، ودمه، وأن يظنَّ به ظن السوء». ومن الظنّ ما يباح: كالظنّ في الأمور المعاشية، وفي «كشف الأسرار»: ومن المباح: الظن في الصلاة، والصوم، والقبلة، أمر صاحبه بالتحريّ فيها، والبناء على غلبة الظن، فلا يدخل[1] في الظن المأمور باجتنابه شيء من الظنّ المأمور باتباعه في مسائل الدين، فإنَّ الله قد تعبَّد عباده باتباعه، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كياداً للدين، وشذوذاً عن جمهور المسلمين، وقد جاء التعبد بالظن في كثير من الشريعة المطهرة، بل في أكثرها.

والمعنى[2]: أي يا أيّها الذين آمنوا ابتعدوا عن كثير من الظن بالمؤمنين، بأن تظنوا بهم السوء ما وجدتم إلى ذلك سبيلاً، ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة، أما من يجاهر بالفجور: كمن يدخل أو يصاحب الغواني الفواجر.. فلا يحرم سوء الظنّ به، وحكى القرطبي عن أكثر العلماء: أنَّ الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظنّ القبيح بمن ظاهره القبيح.

وجملة قوله[3]: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾؛ أي: ذنب فيه عقوبة، تعليل لما

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير، والإثم: هو ما يستحق الظانّ به العقوبة، قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءاً، فأمّا أهل السوء والفسوق، فلنا أنّ نظنّ بهم مثل الذي ظهر منهم، قال مقاتل بن سلمان ومقاتل بن حيان: هو أن يظن بأخيه المسلم سوءاً، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظن، وأبداه.. أثم.

قال سفيان الثوري: الظنّ ظنّان[1]:

أحدهما: إثم: وهو أن يظنّ ويتكلم به.

والآخر: ليس بإثم: وهو أن يظنّ ولا يتكلم به، وقيل: الظنُّ أنواع: واجبٌ ومأمورٌ به، وهو الظنّ الحسن بالله عز وجل، ومنه: مندوب إليه، وهو الظنّ الحسن بالأخ المسلم الظاهر العدالة، ومنه: حرام محذور، وهو سوء الظن بالله عز وجل، وسوء الظن بالأخ المسلم.

ودلت الآية على أنّ أكثر الظنون من قبيل الإثم؛ لأنّ الشيطان يلقي الظنون في النفس، فتظنّ النفس الظن الفاسد، ودلت أيضاً على أن بعض الظن ليس بإثم، بل هو حقيقة، وهو الذي لم يكن من قبيل النفس، بل كان بالفراسة الصحيحة، بأن يرى القلب بنور اليقين ما جرى في الغيب فيظنه. اهـ من «الروح».

ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن.. نهاهم عن التجسس، فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ أي: ولا تبحثوا أيها المؤمنون عن عورات المسلمين ومعايبهم، نهى الله سبحانه عن البحث عن المستور من أمور الناس، وتتبع عوراتهم، حتى لا يظهر على ما ستره الله منها.

والمعنى[2]: أي ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا، أو ذموا لا على ما لا تعلمون به من الخفايا.

وفي «الصحيحين»: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ قال: «إياكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ بالجيم، وقرأ الحسن وأبو رجاء، وابن سيرين: ﴿تحسسوا﴾ بالحاء، وهما متقاربان، لأنَّ التجسس بالجيم: البحث عما يكتم عنك، والتحسس بالحاء: طلب الأخبار والبحث عنها، وقيل:[1] إن التجسس بالجيم: هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس: إذا كان يبحث عن الأمور، وبالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه، وقيل: إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره. قاله ثعلب، والتناجش: الشراء على شراء غيرك بالزيادة، والتدابر: الهجر والقطيعة.

وعن أبي برزة الأسلميّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّ من اتبع عوراتهم.. يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته.. يفضحه في عقر بيته».

وروىٰ الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن»، فقال رجل: وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «إذا حسدت.. فاستغفر الله، فإذا ظننت فلا تحقّق، وإذا تطيرت.. فامض».

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة، إذ تبيّن لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

مرتفعة ولغطٌ، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أميّة بن خلف، وهم الآن شرب، فما ترى؟ قلت: أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر، وتركهم.

وقال أبو قلابة: حُدِّث عمر بن الخطاب: أنَّ أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: إنَّ هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه.

وقيل لابن مسعود: هل لك في فلان تقطر لحيته خمراً؟ فقال: إنّا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شيء.. أخذنا به، وفي الحديث: «إنّ الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس.. أفسدهم».

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي[1]: ولا يذكر بعضكم أيها المؤمنون بعضاً بما يكرهه في غيبته وخلفه، والمراد بالذكر: الذكر صريحاً، أو إشارةً، أو نحو ذلك مما يؤدّي مؤدَّى النطق لما في ذلك من أذى المغتاب، وإيغار الصدور، وتفريق شمل الجماعات، فهي النار تشتعل فلا تبقي ولا تذر، والمراد بما يكره: ما يكرهه في دينه أو دنياه، أو خلقه أو خلقه، أو ماله أو ولده أو زوجته، أو خادمه أو ملبسه، أو غير ذلك مما يتعلق به.

قال الحسن: الغيبة ثلاثة أوجه، كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك، والبهتان، فأمّا الغيبة بالكسر، وفتح الغين غلط، كما سيأتي. فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه، وأما الإفك: فأن تقول فيه ما بلغك عنه، وأمّا البهتان: فأن تقول فيه ما ليس فيه، وهو الذي يترك الديار بلاقع، كما في حديث أبي هريرة الثابت في «الصحيح»: أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره». فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، فقال: «إن كان فيه ما تقول.. فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه.. فقد بهتّه».

---

(١) المراغي.

ولا خلاف[1] بين العلماء في أنّ الغيبة من الكبائر، وأنّ على من اغتاب أحداً التوبة إلى الله تعالى، أو الاستغفار لمن اغتابه أو الاستحلال منه، وعن شعبة قال: قال لي معاوية بن قرّة: لو مرّ بك رجل أقطع ـ مقطوع اليد ـ فقلت هذا أقطع.. كان غيبة، قال شعبة: نعم، فذكرته لأبي إسحاق، فقال: صدق.

ثم ضرب سبحانه مثلاً للغيبة للتنفير والتحذير منها، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ حال كون الأخ ﴿مَيْتًا﴾ وقرأ نافع: بتشديد الياء، وهو حال من اللحم أو من الأخ، والاستفهام للإنكار، فهو بمعنى النفي؛ أي: لا يحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴿فـ﴾ لو عرض عليكم لحمه ﴿كرهتموه﴾؛ أي: كرهتم أكله، فكما تكرهون أكل لحمه ميتاً.. فاكرهوا أكل لحمه حيًّا، وهو اغتيابه، وقرىء: ﴿كرهتموه﴾ بغير فاء؛ أي: جبلتم على كراهته، فـ ﴿الفاء﴾ فيه: عاطفة على منفيّ مقدر معلوم من الاستفهام الإنكاري، كما قدّرنا، وقيل: لفظه خبر، ومعناه: الأمر، ولذلك عطف عليه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. و﴿الفاء﴾ حينئذٍ: فصيحية؛ أي: فإذا كرهتم أكل لحمه ميتاً.. فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه، وبالندم على ما صدر منكم من قبل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ بفتح الكاف وتخفيف الراء، وقرأ أبو سعيد الخدري وأبو حيوة: ﴿فكرِّهْتموه﴾ بضم الكاف وتشديد الراء المكسورة، ورواها أبو سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ. ذكره أبو حيان في «البحر».

والمعنى: أي أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته، فإذا كنتم لا تحبون ذلك، بل تكرهونه؛ لأنَّ النفس تعافه.. فاكرهوا أن تغتابوه في حياته.

والخلاصة: أنكم كما تكرهون ذلك طبعاً، فاكرهوا ذلك شرعاً، لما فيه من

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

شديد العقوبة.

وقد شبهت[1] الغيبة بأكل اللحم؛ لما فيها من تمزيق الأعراض، المشابه لأكل اللحم وتمزيقه، وقد جاء هذا على نهج العرب في كلامهم، قال المقنع الكندي:

فَإِنْ أَكَلُوْا لَحْمِيْ وَفَرْتُ لُحُوْمَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوْا مَجْدِيْ بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

وقد زادت الآية، فجعلت اللحم لحم أخ ميت تصويراً له بصورة بشعة تستقذرها النفوس جميعاً، وقد ثبت في «الصحيح» من غير وجه: أنّ النبي ﷺ قال حين خطب في حجة الوداع: «إنّ دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». وقوله: ﴿واتقوا الله﴾: معطوف على مقدر، كما مر؛ أي: فاكرهوا الغيبة، واتقوا الله فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وراقبوه، واخشوه حقَّ خشيته.

ثم علَّل هذا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿تَوَّابٌ﴾ يتوب على من تاب إليه عمّا فرط منه من الذنب. ﴿رَّحِيمٌ﴾ به أن يعذّبه بعد توبته.

وعبارة «الروح» هنا: قوله ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾[2]: لترتيب ما بعدها على ما قبلها من التمثيل، كأنه قيل: وحيث كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه، فأضمر كلمة قد لتصحيح دخول الفاء في الجزاء، فالمقصود من تحقيق استكراههم، وتقذّرهم من المشبه به: الترغيب، والحث على استكراه ما شبّه به، وهو الغيبة، كأنه قيل: إذا تحققتم كراهتكم له.. فليتحقق عندكم كراهة نظيره الذي هو الاغتياب، وتمثيل الغيبة بأكل لحم الميت من جهة أنّ الحيّ المغتاب لا يعلم بغيبة من اغتابه، كما أنَّ الميت لا يعلم بأكل من أكل لحمه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باجتناب ما نهيتم عنه، وهو معطوف على ما تقدم من الأوامر والنواهي. ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث يجعل التائب

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

كمن لم يذنب، ولا يخص ذلك بتائب دون تائب، بل يعم الجميع، وإن كثرت ذنوبهم، فصيغة المبالغة باعتبار المتعلقات. انتهى.

واعلم[1]: أنّ الاغتياب كأكل لحم الآدميّ ميتاً، ولا يحل أكله إلا لمضطر بقدر الحاجة، فالمغتاب إن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب، ففي هذه الآية نهي عن اغتياب المؤمن دون الكافر، أما الفاسق، فيجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة، فمن نقص مسلماً أو ثلم عرضه.. فهو كآكل لحمه حيًّا. ومن اغتابه.. فهو كآكل لحمه ميتاً؛ لأنَّ الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أنّ الحيّ لا يعلم بغيبة من اغتابه.

واعلم: أنّ الله سبحانه ذكر في هذه الآية أموراً ثلاثاً مرتبة، فكأنّه تعالى قال: لا تقولوا في حقّ المؤمنين ما لم تعلموه فيهم، بناء على الظن، ثم إذا سئلتم عن المظنونات.. فلا تقولوا: نحن نكشف أمورهم لنستيقنها قبل ذكرها، ثم إن علمتم منها شيئاً من غير تجسس.. فلا تقولوه، ولا تفشوه عنهم.

ففي الأول نهى عن التكلم بما لم يعلم، ثم نهى عن طلب علم عيب الناس، ثمّ نهى عن ذكر ما علم منه، روي: أنّ رجلين من الصحابة بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ، يطلب منه لهما طعاماً، فقال له: انطلق إلى أسامة بن زيد، واطلب منه فضل طعام وإدام إن كان عنده، وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ على رحله وطعامه، فأتاه، فقال: ما عندي شيء، فرجع سلمان إليهما، فأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة شيء ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى بعض الصحابة، فلم يجد عندهم شيئاً، فلمّا رجع.. قالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سحيمة.. لغار ماؤها، وسحيمة بوزن جهينة بالحاء المهملة: بئر بالمدينة، غزيرة الماء، على ما في «القاموس». ثمّ انطلقا يتجسّسان، هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ من الطعام؟ فلمّا راحا إلى رسول الله ﷺ.. قال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما، فقالا: ما تناولنا لحماً في يومنا هذا، فقال ﷺ

---

(١) المراح.

اغتبتما سلمان وأسامة، فنزلت هذه الآية.

ويجب[1] على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه، بأن يقلع عنها، ويندم على ما فرط منه، ويعزم عزماً مؤكّداً على أن لا يعود إلى مثل ما فرط منه، ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعاً لا يتوصّل إليه إلا بها، وينحصر ذلك في ستة أمور:

الأول: التظلم، فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته.

الثالث: الاستفتاء، فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي: ظلمني فلان بكذا، فهل يجوز له ذلك؟

الرابع: تحذير المسلمين من الشرّ، كجرح الشهود والرواة، والمتصدين للإفتاء مع عدم أهليّتهم لذلك، وكأن يشير وإن لم يستشر على مريد التزوج، أو مخالطة غيره في أمر دينيّ أو دنيوي، ويقتصر على ما يكفي، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين.. ذكر ذلك.

الخامس: أن يجاهروا بالفسق، كالمدمنين على شرب الخمور، وارتياد محالّ الفجور، ويتباهوا بما يفعلون.

السادس: التعرف بلقب أو نحوه، كالأعور والأعمش والأعرج والأعلم، ونحو ذلك، إذا لم تمكن المعرفة بغيره.

والأمة مجمعة على قبح الغيبة، وعظم آثامها مع ولوع الناس بها، حتى إنّ بعضهم ليقولون: هي صابون القلوب، وإنّ لها حلاوةً كحلاوة التمر، وضرارةً كضرارة الخمر، وفي الحديث: «الغيبة أشدّ من الزنا» قالوا: وكيف؟ قال: «إنّ الرجل يزني، ثمّ يتوب فيتوب الله عليه، وإنّ صاحب الغيبة لا يغفر له، حتى يغفر

---

(١) المراغي.

له صاحبه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس.

وممّا يجب التنبيه عليه[1]: أنّ مستمع الغيبة كقائلها، فوجب على من سمعها أن يردّها، كيف وقد قال النبيّ ﷺ: «من ردّ عن عرض أخيه.. ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة». وقال النبيّ ﷺ: «المغتاب والمستمتع شريكان في الإثم».

وفي الحديث: «خَمْسٌ يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة». رواه أنس. وأول من اغتاب إبليس، اغتاب آدم، وفي «المقاصد الحسنة»: ثلاثة ليست لهم غيبة: الإمام الجائر، والفاسق المعلن بفسقه، والمبتدع الذي يدعو إلى بدعته. انتهى. وعن الحسن: لا حرمة لفاجر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ يعني: بني آدم ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ أي: من آدم وحواء عليهما السلام، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء في الانتساب إلى ذكر وأنثى أيًّا كانا، فلا وجه للتفاخر بالنسب؛ أي: خلقناكم من ذكر واحد، وأنثى واحدة، فلا موضع للتفاخر بالأنساب، لأنّكم متساوون في الانتساب إليهما، قال إسحاق الموصلي:

ٱلنَّاسُ فِيْ عَالَمِ ٱلتَّمْثِيْلِ أَكْفَاءُ ... أَبُوْهُمُ آدَمٌ وَٱلأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُوْ فِيْ أَصْلِهِمْ شَرَفٌ ... يُفَاخِرُوْنَ بِهِ فَٱلطِّيْنُ وَٱلْمَاءُ

نزلت هذه الآية حين أمر النبي ﷺ بلالاً رضي الله عنه ليؤذّن بعد فتح مكة، فعلا ظهر الكعبة، فأذّن، فقال عتَّاب بن أسيد، وكان من الطلقاء: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد رسول الله سوى هذا الغراب الأسود مؤذنا: يعني: بلالاً، وقيل: نزلت في غير ذلك، كما مرّ.

والمعنى: أي إنا أنشأنا جميعاً من آدم وحواء، فكيف يسخر بعضكم من

---

(١) روح البيان.

بعض، ويلمز بعضكم بعضاً، وأنتم إخوة في النسب، وبعيد أن يعيب الأخ أخاه أو يلمزه أو ينبزه، وروى الطبري قال: خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق، وهو على بعير، فقال: «يا أيها الناس، ألا إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «فليبلغ الشاهد الغائب».

وعن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح.. تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم».

وفيه[1] إشارة إلى أنّ الكفاءة في الحقيقة إنما هي بالديانة؛ أي: الصلاح والحسب والتقوى والعدالة، ولو كان مبتدعاً، والمرأة سنّية.. لم يكن كفوءاً لها.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ جمع شعب بفتح الشين وسكون العين: وهو الجمع العظيم، المنتسبون إلى أصل واحد سموا شعوباً؛ لتشعب القبائل منهم كتشعب أغصان الشجرة منها، وقيل لتشعبهم؛ أي: تجمعهم، وهي رؤوس القبائل، مثل: ربيعة ومضر، وأما الشعب بكسر الشين.. فهو الطريق في الجبل. ﴿وَقَبَآئِلَ﴾: جمع قبيلة، سميت بها؛ لأنها يقبل بعضها على بعض من حيث كونها من أب واحد، وهي دون[2] الشعوب: كبكر من ربيعة وتميم من مضر، ودون القبائل العمائر، واحدتها عمارة بفتح العين على الصحيح، كما في «القاموس». كشيبان من بكر، ودارم من تميم، ودون العمائر البطون، واحدتها بطن: وهم كبني غالب، ولؤي من قريش، ودون البطون الأفخاذ، واحدتها فخذ: وهم كبني هاشم، وبني أمية من لؤي، ودون الأفخاذ الفصائل، واحدتها فصيلة بالصاد

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

المهملة: كبني العباس من بني هاشم، ثم بعد ذلك العشائر، واحدتها عشيرة، وليس بعد العشيرة شيء يوصف به، وكون الشعوب أعلى من القبائل هو ما عليه الجمهور، ويؤيده قول الشاعر:

قَبَائِلُ مِنْ شُعُوْبٍ لَيْسَ فِيْهِمْ ... كَرِيْمٌ قَدْ يُعَدُّ وَلاَ نَجِيْبُ

وقيل: الشعوب للعجم، والقبائل للعرب، والأسباط من بني إسرائيل، وقيل: الشعوب الذين لا ينسبون إلى أحد، بل ينسبون إلى المدائن والقرى، والقبائل: العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾؛ أي: ليعرف بعضكم بعضاً في قرب النسب وبعده، لا للتفاخر بالأنساب متعلقة بـ ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾؛ أي: خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً بحسب الأنساب، فلا يعزىٰ أحد إلى غير آبائه، لا لتفاخروا بالآباء والقبائل، وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب، أو متعلقة بـ ﴿جعلنا﴾؛ أي: رتبناكم كذلك لتعارفوا.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾: مضارع تعارف، محذوف التاء، أصله: لتتعارفوا، فحذفت إحدى التاءين، وقرأ الأعمش: بتاءين، وقرأ مجاهد وابن كثير في رواية، وابن محيص والبزي: بتشديدها؛ أي: بإدغام التاء في التاء، وابن عباس وأبان عن عاصم: ﴿لتعرفوا﴾ مضارع عرف الثلاثيّ.

وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: تعليل[2] للنهي عن التفاخر بالأنساب، المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقي، كأنه قيل: إنّ الأكرم عنده تعالى هو الأتقى، وإن كان عبداً حبشياً أسود، مثل: بلال رضي الله عنه فإن فاخرتم.. ففاخروا بالتقوى؛ أي: إنَّ الأكرم عند الله الأرفع منزلة لديه عز وجل في الآخرة والدنيا، هو الأتقى، فإن فاخرتم.. ففاخروا بالتقوى، فمن رام نيل الدرجات العلا في الدنيا والآخرة.. فعليه بها، فمن تلبس بها.. فهو المستحق؛ لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

بالأنساب، فإنّ ذلك لا يوجب كرماً، ولا يثبت شرفاً، ولا يقتضي فضلاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ ابن عباس: بفتحها، وكان قرأ: ﴿لتعرفوا﴾ مضارع عرف، فاحتمل أن تكون ﴿أنَّ﴾: معمولة لـ ﴿تَعْرِفُوا﴾ وتكون ﴿اللام﴾ في ﴿لتعرفوا﴾: لام الأمر، وهو أجود من حيث المعنى، وأمَّا إن كانت لام كي.. فلا يظهر المعنى أن جعلهم شعوبا وقبائل؛ لأن تعرفوا أن الأكرم هو الأتقى، فإن جعلت مفعول ﴿لتعرفوا﴾ محذوفاً؛ أي: لتعرفوا الحق؛ لأنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ساغ في لام ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أن تكون لام كي.

قيل: أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور، وقال ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، وروى ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ النبي ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، وهو على راحلته، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أيها الناس، إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية، وتكبرها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى، إن الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. ثم قال: «أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم». قوله: «عيبة الجاهلية»، يعني: كبرها وفخرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطن أحوالكم، فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم، وقال[2] ابن الشيخ في «حواشيه»: والنسب وإن كان معتبراً عرفاً وشرعاً، حتى لا تتزوج الشريفة بالنبطي ـ نسبة إلى نبط محركاً، جيل ينزلن بالبطائح بين العراقين ـ إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم منه قدراً وأعز، وهو الإيمان والتقوى، كما لا يظهر الكواكب عند طلوع الشمس فالفاسق وإن كان قرشي النسب، وقارون النشب[3].. لا قدر له عند المؤمن التقي، وإن كان عبداً حبشياً، والأمور التي يفتخر بها في الدنيا،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) قارون النشب: مثل قارون في الغِنى.

وإن كانت كثيرةً، لكن النسب أعلاها، من حيث إنه ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك، بخلاف غيره، كالمال مثلاً، فإنه قد يحصل للفقير مال، فيبطل افتخار المفتخر به عليه، وكذا الأولاد والبساتين ونحوها؛ فلذلك خصَّ الله النسب بالذكر، وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى؛ ليعلم منه بطلان اعتبار غيره بطريق الأولى. انتهى.

وسئل عيسى عليه السلام: أي الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب، ثم قال: أي هذين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه:

أَبِـــيْ ٱلإِسْـــلاَمُ لاَ أَبَ لِـــيْ سِـــوَاهُ إِذَا ٱفْـتَـخَـرُوْا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَـمِـيْـمِ

ولما ذكر الله سبحانه أنَّ أكرم الناس عند الله أتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان.. ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان؛ ليثبت لهم الشرف والفضل، فقال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ وهم أهل البادية بنو أسد، أظهروا الإسلام في سنة مجدبة يريدون الصدقة، وإلحاق التاء بالفعل المسند إليهم مع خلوه عنها في قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ للدلالة على نقصان عقلهم، بخلافهنّ، حيث لُمن امرأة العزيز في مرادوتها فتاها، وذلك يليق بالعقلاء. ﴿ءَامَنَّا﴾؛ أي: صدقنا بالله ورسوله، ونحن له مؤمنون، فرد الله عليهم مكذباً لهم مع عدم التصريح بذلك، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ردّاً عليهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ أنتم، إذ الإيمان: هو التصديق بالله وبرسوله، المقارن لثقة بحقيقة المصدق، وطمأنينة القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لما مننتم علي ما ذكرتم من الإسلام، وترك المقاتلة، كما ينبىء عنه آخر السورة؛ يعني: أن التصديق الموصوف مسبوق بالعلم بقبح الكفر، وشناعة المقاتلة، وذلك يأبى المن وترك المقاتلة، فإنّ العاقل لا يمن بترك ما يعلم قبحه.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: دخلنا في السلم والصلح والانقياد، مخافة على أنفسنا من القتل والسبي، أو للطمع في الصدقة، فإنَّ الإسلام: انقياد، ودخول في السلم، وإظهار الشهادة، وترك المحاربة مشعر به؛ أي: بالانقياد والدخول المذكور، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿قُولُوٓاْ﴾؛ أي:

ولكن قولوا: أسلمنا، حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم، وما في ﴿وَلَمَّا﴾ من معنى التوقع، مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

فإن قلت[1]: مقتضى نظم الكلام أن يقال: قل: لا تقولوا: آمنّا، ولكن قولوا: أسلمنا، أو قل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم.

قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلاً، فقيل: لم تؤمنوا مع أدب حسن، فلم يقل: كذبتم تصريحاً ووضع ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ عن أن يقال: لا تقولوا: آمنّا؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان، ولم يقل: ولكن أسلمتم؛ ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، كذلك لو قيل: ولكن أسلمتم.. لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتدّ به، وليس قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ تكريراً لمعنى قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾. فإنَّ فائدة قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ تكذيب لدعواهم، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه، فكأنه قيل لهم: ولكن قولوا: أسلمنا، حيث لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قُولُوا﴾ وما في ﴿لَمَّا﴾ من معنى التوقع: دال على أنَّ هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

وحاصل الجواب: أنه تكرار، لكنه مستقل بفائدة زائدة؛ لأنّه علم من الأول نفي الإيمان عنهم، ومن الثاني نفيه مع توقع حصوله. اهـ «كرخي».

وقال سعدي المفتي: والظاهر[2]: أنَّ النظم القرآني من الاحتباك حذف من الأول ما يقابل الثاني، ومن الثاني ما يقابل الأول، والأصل: قل: لم تؤمنوا، فلا تقولوا: آمنَّا، ولكن أسلمتم، فقولوا: أسلمنا، وهذا من اختصارات القرآن الكريم.

واعلم[3]: أنّ الإسلام: هو الدخول في السلم، وهو الانقياد والطاعة، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان؛ لقوله

---

(١) النسفيّ.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

لإبراهيم: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومنه: ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾، وقيل: الإيمان: هو التصديق بالقلب مع الثقة، وطمأنينة النفس عليه، والإسلام: هو الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حرباً للمسلمين، مع إظهار الشهادتين.

فإن قلت: المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة، فكيف يفهم ذلك مع هذا القول؟

قلت: بين العام والخاص فرق، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب، والانقياد قد يحصل بالقلب، وقد يحصل باللسان، فالإسلام أعمّ، والإيمان أخصّ، لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص، ولا يكون أمراً غيره، فالعام والخاص مختلفان في العموم والخصوص، متحدان في الوجود، فكذلك المؤمن والمسلم، قال الزجاج: الإسلام: إظهار الخضوع، وقبول ما أتى به النبي ﷺ، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب.. فذلك هو الإيمان، وصاحبه المؤمن. اهـ.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ظاهراً وباطناً، سرًّا وعلانية، وتخلصوا له في العمل، وتتركوا النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم﴾؛ أي: لا ينقصكم ﴿مِّنْ﴾ أجور ﴿أَعْمَٰلِكُمْ﴾ وثوابها ﴿شَيْـًٔا﴾ من النقص، لا قليلاً ولا كثيراً، بل يضاعف ذلك أضعافاً كثيرةً، من لات يليت ليتاً من باب باع: إذا نقص، قال الإمام[1]: معنى قوله: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾: إنكم إن أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة المقرونة بالإخلاص، وترك النفاق.. فهو تعالى يؤتكم بما يليق بفضله من الجزاء، لا ينقص منه نظراً إلى ما في حسناتكم من النقصان والتقصير، وهذا لأن من حمل إلى ملك فاكهةً طيّبةً، يكون ثمنها في السوق درهماً مثلاً، وأعطاه الملك درهماً أو ديناراً.. انتسب الملك إلى قلة العطاء بل إلى البخل، فليس معنى الآية: أن يعطي من الجزاء مثل عملكم من غير نقص، بل المعنى: يعطي ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص،

---

(١) روح البيان.

ويؤيد ما قاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم، وعبارة المراغي: ولمّا كان الإنسان كثير الهفوات مهما اجتهد.. ذكر أنه غفور رحيم؛ أي: إنه ستار للهفوات، غفّار لزلّات من تاب وأناب وأخلص لربّه، رحيم به أن يعذّبه بعد التوبة، بل يزيد في إكرامه، ويصفح عن آثامه، انتهى. وهذا فتح لباب التوبة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ من لاته يليته، كباعه يبيعه، وهي لغة الحجاز، وقرأ الحسن والأعرج وأبو عمرو: ﴿لا يألتكم﴾ بالهمز من ألته يألته، بالفتح في الماضي، وبالكسر في المضارع، وهي لغة غطفان وأسد، واختار أبو حاتم قراءة أبي عمرو؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾. وعليها قول الشاعر:

أَبْلِغْ بَنِيْ أَسَدٍ عَنِّيْ مُغَلْغَلَةً ... جَهْرَ الرِّسَالَةِ لاَ أَلْتاً وَلاَ كَذِبَاً

واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، وعليها قول رؤبة بن العجّاج:

وَلَيْلَةٍ ذَاتِ نَدَىً سَرَيْتُ ... وَلَمْ يَلِتْنِيْ عَنْ سُرَاهَا لَيْتُ

وهما لغتان فصيحتان.

ثم لما ذكر سبحانه أنَّ أولئك الذين قالوا: آمنّا لم يؤمنوا، ولا دخل الإيمان في قلوبهم، بيَّن المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حق الإيمان، هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً، صادراً عن مواطأة القلب واللسان. ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾؛ أي: لم يدخل قلوبهم شيء من الريب، ولا خالطهم شك من الشكوك، بل ثبتوا على حالة واحدة، ولم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهام لمن صدقوه، واعترفوا بأن الحق معه، و﴿ثُمَّ﴾ للإشعار[2] بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط، بل وفيما يستقبل، فهي كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾. ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: في طاعته،

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) روح البيان.

وابتغاء مرضاته على كثرة فنونها من العبادات البدنية المحضة، والمالية الصرفة، والمشتملة عليها معاً، كالحج والجهاد. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا غيرهم، فهو قصر إفراد، وتكذيب لأعراب بني أسد، حيث اعتقدوا الشركة، وزعموا أنهم صادقون أيضاً في دعوى الإيمان.

أي: أولئك الجامعون بين الأمور المذكورة هم الصادقون في الاتصاف بصفة الإيمان، والدخول في عداد أهله، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه، وادّعى أنه مؤمن ولم يطمئن بالإيمان قلبه، ولا وصل إليه معناه، ولاعمل بأعمال أهله، وهم الأعراب الذين تقدم ذكرهم، وسائر أهل النفاق.

ثم أمر الله سبحانه أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لمّا ادّعوا أنهم مؤمنون، فقال: ﴿قُلْ﴾ روي: أنه لما نزلت الآية السابقة.. جاء الأعراب، وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون، فنزل لتكذيبهم قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؛ أي: أتخبرون الله سبحانه بدينكم الذي أنتم عليه بقولكم: آمنّا، والتعبير[1] عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم، ودخلت الباء؛ لأنَّ هذا التعليم بمعنى الإعلام والإخبار، والاستفهام فيه للتوبيخ والإنكار؛ أي: لا تعرفوا الله بدينكم، فإنه عالم به لا يخفى عليه شيء، وفيه إشارةٌ إلى أنّ التوقيف في الأمور الدينية معتبر واجب، وحقيقتها موكولة إلى الله، فالأسامي منه تؤخذ، والكلام منه يطلب، وأمره يتبع.

أي: قل: أتخبرون[2] الله بما في ضمائركم، وما تنطوي عليه جوانحكم من صادق الإيمان بقولكم: آمنّا حقاً. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه مثقال ذرّة فيهما، والجملة: حال من مفعول ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾: مؤكدة لتشنيعهم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يحتاج إلى إخباركم،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وهذا[1] تذييل مقرّر لما قبله؛ أي: مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان، وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم، حيث كانوا يجتهدون في ستر أحوالهم وإخفائها؛ أي: والله بكل شيء عليم، فاحذروا[2] أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم، فتنالكم عقوبته، إذ لا يخفى عليه شيء، وقد علم ما تبطنونه من الكفر، وتظهرونه من الإسلام لخوف الضراء، ورجاء النفع. وفي «التأويلات النجمية»: والله يعلم ما في سموات القلوب من استعدادها في العبودية، وما في أرض النفوس من تمرّدها عن العبودية والله بكل شيء جبلت القلوب والنفوس عليه عليم، لأنّه تعالى أودعه فيها عند تخمير طينة آدم بيده. انتهى.

قال بعض الكبار: لا تضف إلى نفسك حالاً ولا مقاماً، ولا تخبر أحداً بذلك، فإنّ الله تعالى كل يوم هو في شأن في تغيير وتبديل يحول بين المرء وقلبه، فربّما أزالك عمّا أخبرت به، وعزلك عمّا تخيلت ثباته، فتخجل عند من أخبرته بذلك، بل احفظ ذلك، ولا تعلمه إلى غيرك؛ فإن كان الثبات والبقاء علمت أنّه موهبة من الله فلتشكر الله، ولتسأله التوفيق للشكر، وإن كان غير ذلك كان فيه زيادة علم ومعرفة ونور وتيقظ وتأديب. انتهى.

فظهر من هذا[3]: أنّ الإنسان يخبر غالباً بما ليس فيه، أو بما سيزول عنه، والعياذ بالله من سوء الحال، ودعوى الكمال، قال بعضهم: إيّاكم ثمّ إيّاكم والدعوات الصادقة والكاذبة، فإنّ الكاذبة تسوّد الوجه، والصادقة تطفىء نور الإيمان أو تضعفه، وإياكم والقول بالمشاهدات، والنظر إلى الصور المستحسنات، فإنَّ هذا كله نفوس وشهوات، ومن أحدث في طريق التعبّد ما ليس فيها فليس هو منّا ولا فينا، فاتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا، وصدقوا الحق ولا تشكوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

ولا تتفرقوا، وأسألوا ولا تسأموا، وانتظروا ولا تيأسوا، وتواخوا ولا تعادوا، واجتمعوا على الطاعة ولا تفرقوا، وتطهروا من الذنوب ولا تلطخوا، وليكن أحدكم بواب قلبه، فلا يدخل فيه إلا ما أمره الله به، وليحذر أحدكم ولا يركن، وليخف ولا يأمن، وليفتش ولا يغفل.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾؛ أي: يعدون إسلامهم منة عليك، حيث قالوا: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، والمنة: هي النعمة التي لا يطلب موليها ثواباً ممن أنعم عليه بها من المنّ بمعنى القطع؛ لأنّ المقصود به: قطع حاجته مع قطع النظر أن يعوضه المحتاج بشيء؛ أي: يعدون إسلامهم، ومتابعتهم لك، ونصرتهم إياك منة يطلبون منك أجرها، فقد قالوا جئناك بالأثقال.. إلخ.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بما يقوله لهم عند المنّ عليه بما يدّعونه من الإسلام، فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾؛ أي: لا تعدوا إسلامكم منّة عليّ، أو لا تمنّوا عليّ بإسلامكم، فنصبه بنزع الخافض، فإنّ الإسلام هو المنّة التي لا يطلب موليها ثواباً ممن أنعم بها عليه، ولهذا قال: ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ سبحانه هو الذي ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾؛ أي: أرشدكم إليه، وأراكم بتوفيقه على ما زعمتم من أنكم أرشدتم إليه، وجملة ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ أي: يمن عليكم هدايته إياكم، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: بهدايته إياكم.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾ بفتح ﴿أن﴾، وقرأ عاصم: بكسرها، وقرأ عبد الله وزيد بن عليّ: ﴿إذ هداكم﴾ جعلا إذ مكان ﴿أن﴾ وكلاهما تعليل. انتهى من «البحر المحيط».

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه: محذوف، دلّ عليه ما قبله؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم.. فلله المنّة عليكم، وفي هذا إيماء إلى أنهم كاذبون في ادّعائهم الإيمان، وفي سياق النظم الكريم من اللطف ما لا يخفى، فإنهم لما سمّوا ما صدر عنهم إيماناً، ومنّوا به نفي كونه إيماناً، وسمّاه

إسلاماً، فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ بما هو في الحقيقة إسلام؛ أي: دخول في السلم، وليس بجدير بالمنّ؛ لأنّه ليس له اعتداد شرعاً، ولا يعدّ مثله نعمة، بل لو صحّ ادّعاؤهم للإيمان، فلله المنّة عليهم بالهداية إليه لا لهم، قال الجنيد رحمه الله: المنّ من العباد تقريع، وليس من الله تقريعاً، وإنما هو من الله تذكير النعم، وحثّ على شكر المنعم.

روي: أنّ النبيّ ﷺ قال للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل.

والخلاصة[1]: أنّ الله سبحانه وتعالى سمّىٰ ما كان منهم إسلاماً وخضوعاً، لا إيماناً؛ إظهاراً لكذبهم في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾. ثمّ لما منّوا على رسول الله ﷺ بما كان منهم قال سبحانه لرسوله: أيعتدون عليك بما ليس جديراً أن يعتد به من إسلامهم الذي سموه إيماناً، وليس بذاك، بل الله هو الذي يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا، فهو قد أمدهم بهديه وتوفيقه.

ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سرّكم وعلانتكم، فكيف يخفىٰ عليه ما في ضمائركم؟!

قرأ الجمهور[2]: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب نظراً لقوله: ﴿لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾، وقرأ ابن كثير وأبان عن عاصم: ﴿يعملون﴾ بياء الغيبة؛ نظراً لقوله: ﴿يَمُنُّونَ﴾. وفي ذلك رمز إلى أنهم كاذبون في إيمانهم، وإعلان للنبيّ ﷺ، وأتباعه من المؤمنين بما في أنفسهم، فمن لاحظ[3] شيئاً من أعماله وأحواله.. فإن رآها من نفسه.. كان شركاً، وإن رآها لنفسه.. كان مكراً، وإن رآها من ربّه

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

بربّه لربّه.. كان توحيداً، وفّقنا الله لذلك بمنّه، وجوده وكرمه.

قال البقليّ: ليس لله غيب، إذ الغيب شيء مستور، وجميع الغيوب عيان له تعالى، وكيف يغيب عنه وهو موجده، يبصره ببصره القديم، والعلم والبصر هناك واحد. انتهى.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيّ﴾ منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عمّا فات؛ أيّ: من الإضافة، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أيّ﴾ أو عطف بيان له وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلته. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُقَدِّمُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والواو: فاعل، والجملة الفعلية: جواب النداء لا محل لها من الإعراب. وفي ﴿تُقَدِّمُوا۟﴾ وجهان:

أحدهما: أنه متعدّ حذف مفعوله لقصد التعميم اقتصاراً، كقولهم: هو يعطي ويمنع، وكلوا واشربوا، أو اختصاراً للدلالة عليه؛ أيّ: لا تقدّموا ما لا يصلح تقديمه عليهما من الأقوال والأفعال.

والثاني: أنه لازم، نحو: وجّه وتوجّه، كما مرّ، ويؤيّده قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب ﴿تقدّموا﴾ بفتح التاء والقاف والدال. ﴿بَيْنَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ ﴿تُقَدِّمُوا۟﴾. ﴿يَدَىِ ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، مجرور بالياء؛ لأنّه مثنى، ولفظ الجلالة: مضاف إليه. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ على كونه جواب النداء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان له، والجملة: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيّ﴾: منادىٰ نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أي﴾ وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿لَا تَرْفَعُوٓا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿أَصْوَٰتَكُمْ﴾: مفعول به، وجملة النهي، واقعة في جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَرْفَعُوٓا﴾، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية معطوف على ﴿لَا تَرْفَعُوٓا﴾. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ ﴿تَجْهَرُوا﴾. ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾: متعلق بـ ﴿تَجْهَرُوا﴾ أيضاً. ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ﴾ ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره؛ أي: لا تجهروا له جهرا كائناً كجهر بعضكم، أو جهراً مثل جهر بعضكم لبعض. و﴿لِبَعْضٍ﴾: متعلق بـ ﴿جهر﴾؛ لأنه مصدر. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: ناصب وفعل مضارع وفاعل، والجملة: في تأويل مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله، ولكنّه على تقدير مضاف؛ أي: خشية حبوط أعمالكم، أو كراهية حبوطها، والخشية منهم، وقد تنازع فيه ﴿لَا تَرْفَعُوٓا﴾ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب على الحال من الكاف في ﴿أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول. ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَغُضُّونَ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة الابتدائية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿ٱمْتَحَنَ﴾؛ لأنّه بمعنى: شرح أو أخلص أو صفّىٰ. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَأَجْرٌ﴾: معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿أجر﴾، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُنَادُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يُنَادُونَكَ﴾، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾. مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: خبره، والجملة الإبتدائية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿صَبَرُوا۟﴾ من الفعل والفاعل: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، تقديره: ولو ثبت صبرهم على رأي المبرد والزجاج والكوفيين، أو مرفوع على أنه مبتدأ لا يحتاج إلى خبر؛ لأنّ الخبر يحذف وجوباً بعد لو ولولا علىٰ رأي سيبويه، وجمهرة البصريين. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، متعلق بـ ﴿صَبَرُوا۟﴾. ﴿تَخْرُجَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿تَخْرُجَ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾؛ أي: إلى خروجك إليهم؛ أي: ولو ثبت صبرهم إلى خروجك إليهم. ﴿لَكَانَ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمها: ضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿صَبَرُوا۟﴾؛ أي: لكان صبرهم. و﴿خَيْرًا﴾: خبرها. ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾ وجملة ﴿كان﴾: جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أو مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة: مستأنفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أيّ﴾، وجملة النداء: مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: صلة الموصول. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ماض ومفعول به، في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَاسِقٌۢ﴾: فاعل.

﴿بِنَبَإٍ﴾: متعلق بـ ﴿جاء﴾. ﴿فتبيَّنوا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً لكونه جملة طلبية. ﴿تبيّنوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿أن﴾ حرف نصب. ﴿تُصِيبُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية، والواو: فاعل. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿تُصِيبُوا﴾؛ أي: حال كونكم متلبسين بجهالة أو جاهلين، وجملة ﴿تُصِيبُوا﴾ مع ﴿أن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على أنّه مفعول من أجله، ولكنّه على تقدير مضاف؛ أي: خشية إصابتكم أو كراهية إصابتكم. ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿تصبحوا﴾: فعل ناقص واسمه. معطوف على ﴿تُصِيبُوا﴾. ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾: متعلق بـ ﴿نَٰدِمِينَ﴾. و﴿نَٰدِمِينَ﴾: خبر ﴿تصبحوا﴾ منصوب بالياء.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَاعْلَمُوا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِيكُمْ﴾: خبر مقدم؛ لـ ﴿أَنَّ﴾: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿اعلموا﴾. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿يُطِيعُكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الرسول. ﴿فِي كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُطِيعُكُمْ﴾. ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾: صفة لكثير، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿عنتم﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: في محل النصب حال من ضمير المخاطبين في قوله: ﴿فِيكُمْ﴾؛ أي: حالة كونكم عانتين لو أطاعكم في كثير من الأمر. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿حَبَّبَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾. ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ

﴿حَبَّبَ﴾. ﴿ٱلْإِيمَٰنَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿حَبَّبَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لكنّ﴾، وجملة ﴿لكن﴾: معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوفِ على ﴿حَبَّبَ﴾. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿زين﴾. ﴿وَكَرَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿حَبَّبَ﴾، ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿كره﴾. ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مفعول به لـ ﴿كرّه﴾. ﴿وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْكُفْرَ﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معترضة. ﴿فَضْلًا﴾: مفعول لأجله لـ ﴿حَبَّبَ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: صفة لـ ﴿فَضْلًا﴾. ﴿وَنِعْمَةً﴾: معطوف على ﴿فَضْلًا﴾، ويجوز أن تكون ﴿فَضْلًا﴾ ﴿وَنِعْمَةً﴾ مفعولاً لفعل محذوف؛ أي: تبتغون فضلاً من الله ونعمة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة: مستأنفة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إنْ﴾: حرف شرط. ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ فاعل بفعل محذوف وجوبا يفسّره المذكور بعده، تقديره: وإن اقتتلت طائفتان. اقتتلت: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾. ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مفسّرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿أصلحوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، والجملة: في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف متعلق بـ ﴿أصلحوا﴾، ﴿فَإِنۢ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿بَغَتْ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبنيّ بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة للتخلّص من التقاء الساكنين، والتاء: علامة تأنيث الفاعل. ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: فاعل ﴿بَغَتْ﴾. ﴿عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿بغت﴾. ﴿فَقَٰتِلُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً.

﴿قاتلوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو فاعل. ﴿ٱلَّتِي﴾: اسم موصول للمفردة المؤنثة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾. ﴿تَبۡغِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر صلة الموصول. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَفِيٓءَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، وفاعله: ضمير يعود على الطائفة الباغية. ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: متعلق بـ ﴿تَفِيٓءَ﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره: إلى فيئها إلى أمر الله الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿قاتلوا﴾. ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿فَآءَتۡ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الباغية، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿أصلحوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿بَيۡنَهُمَاۚ﴾: متعلق بـ ﴿أصلحوا﴾، ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ متعلق بـ ﴿أصلحوا﴾ أيضاً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾. ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾: فعل أمر وفاعل معطوف على ﴿أصلحوا﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: مبتدأ. ﴿إِخۡوَةٞ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أخوّة المؤمنين، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم من النصيحة.. فأقول: لكم أصلحوا. ﴿أصلحوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿أصلحوا﴾. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أصلحوا﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿تُرۡحَمُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: تقدّم إعرابه مراراً. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿مِّن قَوْمٍ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْخَرْ﴾، والجملة الفعلية، جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، وهي هنا تامّة. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يَكُونُواْ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، والواو: اسمها. ﴿خَيْرًا﴾: خبرها. ﴿مِّنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾، وجملة ﴿يَكُونُواْ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿عَسَىٰٓ﴾، تقديره: عسى وحق كونهم خيراً منهم، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل النهي قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد النهي السابق. ﴿نِسَآءٌ﴾: معطوف على ﴿قَوْمٌ﴾، ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾، متعلق بـ ﴿يَسْخَرْ﴾. ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض تامّ. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَكُنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، مبني بسكون على النون المدغمة في نون النسوة؛ لاتصاله بنون الإناث، ونون النسوة: اسمها. ﴿خَيْرًا﴾: خبرها. ﴿مِّنْهُنَّ﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾: مسوقة لتعليل النهي.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾، ناهية جازمة. ﴿تَلْمِزُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، معطوف على جملة قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ﴾. ﴿أَنفُسَكُمْ﴾. مفعول به. ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ﴾ أيضاً. ﴿بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾: متعلق بـ ﴿تَنَابَزُواْ﴾، ﴿بِئْسَ﴾: فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ، ﴿ٱلِٱسْمُ﴾: فاعله، ﴿ٱلْفُسُوقُ﴾: هو المخصوص بالذمّ، وهو مبتدأ، خبره: الجملة قبله، ولك أن تعربه خبراً لمبتدأ محذوف، وأن تجعله بدلاً من ﴿ٱلِٱسْمُ﴾. و﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلِٱسْمُ﴾، وجملة ﴿بِئْسَ﴾: جملة

إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم ونفي. ﴿يَتُبْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾. وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْخَرْ﴾ على كونها جواب النداء أو مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: تقدم إعرابه. ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ صفة لـ ﴿كَثِيرًا﴾، والجملة الفعلية، جواب النداء. ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ﴾ ناصب واسمه. ﴿إِثْمٌ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، معطوف على ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾. ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿يحب أحدكم﴾: فعل وفاعل، والجملة: جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْكُلَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿مَيْتًا﴾: حال من الأخ أو من اللحم، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أكل لحم أخيه. ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة لجملة لو المحذوفة، على الجملة المفهومة من الاستفهام الإنكاري، تقديره: لا يحبّ أحدكم أكل لحم أخيه، فلو عرض عليكم.. كرهتموه، كما مر بسطه في مبحث

التفسير. ﴿كرهتموه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والواو: لإشباع ضمة الميم، والجملة الفعلية: جواب للو المحذوفة، لا محل لها من الإعراب، أو هو خبر بمعنى الأمر على كونه جواباً لشرط محذوف، تقديره: فإذا عرض عليكم.. فاكرهوه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿كرهتموه﴾ إذا كان خبراً بمعنى الأمر. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَوَّابٌ﴾: خبره. ﴿رَحِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿والهاء﴾: حرف تنبيه. ﴿النَّاسُ﴾: بدل من ﴿أيّ﴾، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿إنّ﴾: جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِنْ ذَكَرٍ﴾: متعلق بـ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾. ﴿وَأُنْثَى﴾: معطوف على ﴿ذَكَرٍ﴾، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾، ﴿وَقَبَائِلَ﴾: معطوف على ﴿شُعُوبًا﴾، ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل. ﴿تعارفوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتعارف بعضكم بعضاً، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿خلقنا﴾، أو بـ ﴿جعلنا﴾. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿أَكْرَمَكُمْ﴾ ﴿أَتْقَاكُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)﴾.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿آمَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على

محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تُؤْمِنُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿ولكنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدارك مهمل. ﴿قُولُوا﴾: فعل أمر وفاعل، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾. ﴿أَسْلَمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة، في محل النصب مقول ﴿قُولُوا﴾. ﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لمَّا﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لمَّا﴾. ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَدْخُلِ﴾، والجملة: في محل النصب حال من ضمير ﴿قُولُوا﴾؛ أي: ولكن قولوا أسلمنا حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُطِيعُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾: مفعول به. ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف عليه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَلِتْكُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾ ومفعول به مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها. ﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ﴾: حال من ﴿شَيْئًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة قوله: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾، على كونها مقولاً لـ ﴿قُل﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبره. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: مبتدأ، ﴿الَّذِينَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول، ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿آمَنُوا﴾، ﴿وَرَسُولِهِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للتراخي. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَرْتَابُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾ معطوف على ﴿آمَنُوا﴾. ﴿وَجَاهَدُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿آمَنُوا﴾. ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿جاهدوا﴾، ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ﴿أموالهم﴾. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق

بـ ﴿جاهدوا﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ خبر، والجملة. مستأنفة. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة، مستأنفة. ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخيّ. ﴿تعلمون الله﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾، ﴿بِدِينِكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿تعلمون﴾؛ لأنه بمعنى التعريف. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره، والجملة، الاسمية: في محل النصب حال من مفعول ﴿تعلمون﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾: متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾. و﴿عَلِيمٌ﴾، خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة مقرّرة لما قبلها.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَمُنُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿عَلَيۡكَ﴾: متعلق بـ ﴿يَمُنُّونَ﴾، ﴿أَنۡ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿أَسۡلَمُواْۖ﴾: فعل ماض وفاعل في محل النصب بـ ﴿أَنۡ﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أَنۡ﴾ المصدرية، في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: يمنّون عليك بإسلامهم؛ أي: إسلامهم. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿لَّا﴾ ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَمُنُّواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿عَلَيَّ﴾ متعلق بـ ﴿تَمُنُّواْ﴾، ﴿إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾: مفعول به أو منصوب بنزع الخافض، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَمُنُّ﴾: خبره. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿يَمُنُّ﴾، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَّا تَمُنُّواْ﴾. ﴿أَنۡ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿هَدَىٰكُمۡ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ومفعول به في محل النصب بـ ﴿أَنۡ﴾ المصدرية، ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿هَدَىٰكُمۡ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَنۡ﴾ المصدرية:

في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: بل الله يمنّ عليكم بهدايته إيّاكم للإيمان. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف يدل عليه ما قبلها؛ أي: إن كنتم صادقين.. فهو المانُّ عليكم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية. مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبره، والجملة الابتدائية: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾. ويحتمل كون ﴿ما﴾: موصولة أو مصدرية، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف؛ أي: بالذي تعملونه، أو صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية، أي: بعملكم، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾؛ أي: لا تتقدموا، من قولهم: مقدمة الجيش لمن تقدم منهم، قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدم بين يدي الإمام، وبين يدي الأب؛ أي: لا تعجل بالأمر دونه، وقيل: إنّ المراد: لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة، ورُجّح هذا.

﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾؛ أي: إذا كلمتموه، ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، والصوت: هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين، فإن الهواء الخارج من داخل الإنسان إن خرج بدفع الطبع يسمى نفساً، بفتح الفاء، وإن خرج بالإرادة، وعرض له تموج بتصادم الجسمين يسمىٰ صوتاً، والصوت الاختياري الذي يكون للإنسان ضربان: ضرب باليد: كصوت العود، وما يجري مجراه، وضرب بالفم، فالذي بالفم ضربان: نطق وغيره، فغير النطق كصوت الناي، والنطق إما مفرد من الكلام، وإما مركب، كأحد الأنواع الثلاثة من الكلام.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ والجهر يقال: لظهور الشيء بإفراط لحاسة البصر، نحو: رأيته جهاراً، أو حاسة السمع، نحو: ﴿سَوَاءٌ مِنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ في «المختار»: حبط عمله بطل ثوابه، وبابه فهم، وحبوطاً أيضاً. اهـ. وحبط عمله كسمع وضرب حبطاً وحبوطاً: بطل عمله، وأحبطه الله: أبطله. كما في «القاموس»، وقال الراغب: أصل الحبط من الحبط: وهو أن تكثر الدابة من الكلأ، حتى تنتفخ بطنها، فلا يخرج منها شيء.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والشعور: العلم والفطنة، والشعر: العلم الدقيق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ أصله: يغضضون بوزن يفعلون، نقلت حركة الضاد الأولى إلى الغين، فسكنت فأدغمت في الثانية، من الغضّ: وهو النقصان من الطرف أو الصوت، وما في الإناء، يقال: غض طرفه: خفضه، وغض السقاء: نقص مما فيه، وغض الصوت خفضه.

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الامتحان، افتعال، من محنت الأديم محناً: مددته حتى أوسعته، فمعنى امتحن قلوبهم للتقوى: وسّعها، وشرحها للتقوى؛ اهـ «قرطبي».

وفي «القاموس»: محنه كمنعه اختبره كامتحنه، والاسم المحنة بالكسر. اهـ.

وقيل معناه: أخلصها للتقوى، من امتحن الذهب: إذا أذابه، وميز إبريزه من خبثه، فهو من إطلاق المقيد، وهو إخلاص الذهب، وإرادة المطلق. اهـ. «روح».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أصله: ينادويونك، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلمّا سكنت.. التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الدال لمناسبة الواو.

﴿مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾؛ أي: من خارجها، سواء كان من خلفها أو من

قدامها، إذ إنها من المواراة: وهي الاستتار، فما استتر عنك.. فهو وراء خلفاً كان أو قدّاماً، فإذا رأيته.. لا يكون وراءك، ويرى بعض أهل اللغة: أنّ وراء من الأضداد، فتطلق تارةً على ما أمامك وأخرى على ما خلفك، والحجرات بضم الجيم وفتحها وتسكينها، واحدها حجرة: وهي القطعة من الأرض المحجورة؛ أي: الممنوعة عن الدخول فيها بحائط ونحوه، فهي فعلة بمعنى مفعولة: كالغرفة، والقبضة. اهـ «بيضاوي».

والمراد بها: حجرات نسائه ﷺ، وكانت تسعة، لكل منهنّ حجرة من جريد النخل، على أبوابها المسوخ من شعر أسود، وكانت غير مرتفعة، يتناول سقفها باليد، وقد أدخلت في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجد رسول الله ﷺ، فبكى الناس لذلك، وقال سعيد بن المسيب يومئذٍ: لوددت أنهم لو تركوها على حالها، لينشأ ناس من أهل المدينة، ويقدم القادم من أهل الآفاق، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر فيها.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾؛ أي: ولو ثبت صبرهم وانتظارهم إلى خروجك إليهم.. لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال، والصبر: هو حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها.

﴿فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ الفاسق: هو الخارج عن حدود الشرع من قولهم: فسق الرطب: إذا خرج من قشره، والنبأ: الخبر، قال الراغب: ولا يقال للخبر: نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة، وبه يحصل علم أو غلبة ظنّ.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ والتبين: طلب البيان والوضوح.

﴿لَعَنِتُّمْ﴾ والعنت محركة: الفساد والإثم والهلاك، ودخول المشقة على الإنسان. كما في «القاموس»، يقال: عنت فلان: إذا وقع في أمر يخاف منه التلف. كما في «المفردات». فهو من الباب الرابع مثل: طرب يطرب طرباً، ومعنى لعنتم؛ أي: لوقعتم في الجهد والهلاك.

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ والحب: انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه، والتحبيب: إيقاع محبة الشيء في القلب.

﴿وَكَرَّهَ﴾ من التكريه، بمعنى التبغيض، والبغض ضدّ الحب، فالبغض: نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، والتكريه: إيقاع كراهة الشيء، وبغضه في القلب.

﴿ٱلْكُفْرَ﴾: تغطية نعم الله تعالى بالجحود لها.

﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ الخروج عن الحدّ، كما علمت، والعصيان: عدم الانقياد، من قولهم: عصت النواة؛ أي: صلبت واشتدت.

﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ والرشاد: إصابة الحق، واتباع الطريق السويّ.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ مثنى طائفة، والطائفة من الناس: جماعة منهم، لكنّها دون الفرقة، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾. وفيه إعلال بالإبدال، أصله: طاوفتان؛ لأنّه من الطوف، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على فعله في الإعلال.

﴿ٱقْتَتَلُوا﴾: افتعال من القتل، وأصل القتل: إزهاق الروح عن الجسد بأيّ سبب كان.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: فكفوهما عن القتال بالنصحية، أو بالتهديد والتعذيب.

﴿بَغَتْ﴾؛ أي: تعدت وجارت، أصله: بغي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة.. التقى ساكنان، فحذفت الألف، يقال: بغى عليه بغياً: علا وظلم، وعدل عن الحق، واستطال. كما في «القاموس». وأصل البغي: طلب ما ليس بمستحق، فإنّ البغي الطلب.

﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾؛ أي: ترجع، فإن الفيء: الرجوع إلى حالة محمودة، وفيه إعلال بالنقل، أصله: تفيء بوزن تفعل، نقلت حركة الياء إلى الفاء، فسكنت إثر

كسرة فصارت حرف مدّ.

﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وأمر الله: هو الصلح؛ لأنّه مأمور به في قوله: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾. ﴿فَآءَتۡ﴾ أصله: فيأ بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ من الصلاح، والصلاح: الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والإصلاح: جعل الشيء على تلك الحالة.

﴿بِٱلۡعَدۡلِۖ﴾؛ أي: بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات، بحيث يكون الحكم عادلاً، حتى لا يؤدي النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى. ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾؛ أي: واعدلوا في كل شأن من شؤونكم، وأصل الإقساط: إزالة القسط بالفتح: وهو الجور، والقاسط: الجائر، كما قال: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ والإخوة في النسب، والإخوان في الصداقة، واحدهم أخ، وقد جعلت الأخوة في الدين كالأخوة في النسب، وكأنَّ الإسلام أب لهم، كما قال قائلهم:

أَبِـيْ الإِسْـلاَمُ لاَ أَبَ لِـيْ سِـوَاهُ ... إِذَا ٱفْـتَـخَـرُوْا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَـمِـيْـمِ

وأصل الأخ: المشارك لآخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من الرضاع.

﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ السخرية: الاحتقار، وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، يقال: سخر به، وسخر منه، ضحك به، ومنه، وهزىء به ومنه، والاسم: السخرية، والسخري بالضم والكسر، وقد تكون بالمحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه، أو على صنعته، أو على قبح صورته، والقوم شاع إطلاقه على الرجال دون النساء، كما في الآية، وقول زهير:

وَمَـا أَدْرِيْ وَسَـوْفَ إِخَـالُ أَدْرِيْ ... أَقَـوْمٌ آلُ حِـصْـنٍ أَمْ نِـسَـاءُ

والقوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوّام بأمور لنساء، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ

﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وقال النبي ﷺ: «النساء لحم على وضم، إلا ما ذبّ عنه الذابّون» والذابّون: هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم كصوم وزور، جمع صائم وزائر، وسمع تسميته بالمصدر عن بعض العرب: إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً، وأبغضت قوماً؛ أي: قياماً، وقال بعضهم: القوم: الجماعة من الناس، والجمع أقوام وأقاوم وأقائم وأقاويم، وقوم الرجل: أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جدٍّ واحد.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أصله: يكْونون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت بعد ضمّ، فصارت حرف مدّ، ثم حذفت نون الرفع لدخول أداة النصب.

﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾ اسم جمع لامرأة من النسوة بالفتح: وهو الضعف، الهمزة فيه مبدلة من واوٍ لظهورها في نسوة.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أصله: يكْونن بوزن يفعلن، النون الأولى لام الفعل، الثانية نون النسوة، أُدغمت النون الساكنة في المتحركة، ثم نقلت حركة الواو إلى الكاف قبله فسكنت الواو، فالتقى ساكنان: الواو والنون المدغمة، فحذفت الواو لذلك، فوزنه يفلن.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة باليد أو بالعين أو نحوهما، والمؤمنون كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن المؤمن.. فكأنما عاب نفسه، من اللمز: وهو الطعن، والضرب باللسان، وفي «المصباح»: لمزه لمزاً من باب ضرب: عابه، وقرأ بها السبعة، ومن باب قتل لغة.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ والتنابز: التعاير والتداعي بما يكرهه الشخص من الألقاب، من النبز بسكون الباء مصدر نبزه بمعنى لقبه، وأصل تنابزوا: تتنابزوا بتائين، حذفت إحداهما. وفي «السمين»: التنابز تفاعل من النبز: وهو التداعي باللقب، والنزب مقلوب منه لقلة هذا وكثرة ذاك، ويقال: تنابزوا وتنازبوا: إذا دعا بعضهم بعضاً بلقب سوء. اهـ.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ﴾ والاسم: الذكر، والصيت من قولهم: طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم، وليس المراد بالاسم هنا: ما يقابل اللقب والكنية، ولا ما يقابل الفعل والحرف، بل المراد به: الذكر المرتفع؛ لأنّه من السمو. اهـ «كرخي».

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أصله: يتْوب بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى التاء فسكنت فالتقى ساكنان؛ لأن آخر الفعل ساكن لمناسبة دخول الجازم، فحذفت الواو لذلك فوزنه يفل.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أصله: تتجسسوا، حذفت نون الرفع للجازم، ثم حذفت إحدى التائين للتخفيف، من التجسس: وهو البحث عن العورات والمعايب والكشف عمّا ستره الناس، تفعل من الجس لما فيه من معنى الطلب، فإن جس الخبر: طلبه، والتفحص عنه، فإذا نقل إلى باب التفعل.. يحدث معنى التكلف منضماً إلى ما فيه من معنى الطلب، يقال: جسست الأخبار؛ أي: تفحصت عنها، وإذا تجسستها يراد به معنى التكلف كالتلمس، فإنه تفعل من اللمس: وهو المسّ باليد لتعرف حال الشيء، وفي «المفردات»: أصل الجس: مس العرق، وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم، ومن لفظ الجس اشتق الجاسوس، وهو أخص من الحس؛ لأنه تعرف ما يدرك الحس، والجس: تعرف حال ما من ذلك، وفي «الإحياء»: التجسّس بالجيم في: تطلع الأخبار، وبالحاء المهملة: في المراقبة بالعين، وفي «القاموس»: الجس: تفحص الأخبار كالتجسس، ومنه الجاسوس، والجسيس لصاحب سر الشر، ولا تجسسوا؛ أي: خذوا ما ظهر، ودعوا ما ستر الله تعالى، أو لا تفحصوا عن بواطن الأمور، أو لا تبحثوا عن العورات، والحاسوس: هو الجاسوس أو في الخير، وبالجيم في الشر. انتهى.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ أصله: يغتيب، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثمّ حذفت لالتقاء الساكنين، من الاغتياب، والغيبة بالكسر: اسم من الاغتياب، وفتح الغين غلط، إذ هو بفتحها مصدر بمعنى الغيبوبة، والغيبة والاغتياب: هو أن يتكلم إنسان خلف إنسان مستورٍ بما فيه من عيب، كما تقدم.

﴿وَقَبَآئِلَ﴾ جمع قبيلة، والهمزة فيه مبدلة من ياء فعيلة المجودة في اسم

مؤنث، وهي حرف مدّ زائد ثالث.

﴿شُعُوبًا﴾ جمع شعب بفتح الشين: وهو أعلى طبقات النسب، كما مرّ، وسميت الشعوب؛ لأنَّ القبائل تشعبت منها، ومنه: اشتقت الشعوبية بضم الشين: وهم قوم يصغرون شأن العرب، سموا بذلك؛ لتعلّقهم بظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾. وقال ابن هبيرة: في «المحكم»: غلبت الشعوبية بلفظ الجمع على جيلٍ من العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب: شعوبيٌّ، وإن لم يكن منهم، وأضافوا إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد، كقولهم؛ أنصاريّ.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أصله: تتعارفوا، حذفت منه إحدى التائين. ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ اسم تفضيل من الفعل الثلاثيّ وقى، والتاء فيه: مبدلة من واو، والألف فيه مبدلة من واو المبدلة من الياء في الأصل؛ لأنّ مادّة وقي فاؤها واو، ولامها ياء، أُبدلت الواو تاءً، والياء واواً.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ هم سكان البادية. ﴿لَا يَلِتْكُم﴾؛ أي: لا ينقصكم، من لاته يليته، كباعه يبيعه، وقيل هو من ولته يلته، كوعده يعده، وعلى هذا فيه إعلال بحذف فاء الفعل المثاليّ، أصله: ولت، وقياس المضارع يولت، حذفت الواو لوقوعها بين ياءٍ مفتوحة وكسرة.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ من ارتاب مطاوع رابه: إذا أوقعه في الشكّ في الخير مع التهمة للمخبر، فظهر الفرق بين الريب والشك، فإنَّ الشك تردد بين نقيضين لا تهمة فيه، أصله: يرتيبون بوزن يفتعلون، حذفت نون الرفع لدخول أداة الجزم، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾؛ أي: يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة، وأسدى إليك نعمة، أصله: يمننون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الميم، فسكنت فأدغمت في الثانية، وكذلك القول في: ﴿تَمُنُّواْ﴾ وفي ﴿يَمُنُّ﴾.

وقوله: ﴿هَدَىٰكُمْ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: هديكم، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ شبه ما وقع من بعض الصحابة من القطع في أمر من الأمور الدينيّة، قبل أن يحكم الله ورسوله به بحال من يتقدم في المشي في الطريق مثلاً لوقاحته على من يجب أن يتأخَّر عنه، ويقفو أثره تعظيماً له، فعبر عن الحالة المشبهة بما يعبر به عن المشبه بها على طريق الاستعارة التمثيلية.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل، في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لوجود أداة التشبيه.

ومنها: حذف مفعول ﴿تُقَدِّمُوا﴾. كقوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. وقولهم: هو يعطي ويمنع، وفي الحذف من البلاغة ما ليس في الذكر؛ لأنّ الخيال فيه يذهب كل مذهب.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنَّ في تكريره فائدة بلاغية لطيفة: وهي إظهار الشفقة على المسترشد، وإبداء المناصحة له على آكد وجه؛ ليقبل على استماع الكلام، ويعيره باله، ولتحديد المخاطبين بالذات، وأنهم هم المعنيون بالمناصحة. وفيه أيضاً: استدعاء لتجديد الاستبصار والتيقظ، والتنبه عند كل خطاب.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ فإنه كناية من موضع خلوته ﷺ، ومقيله مع بعض نسائه، وقد ازدادت الكناية بإيقاع الحجرات معرفة بالألف واللام، دون الإضافة إليه، وفي ذلك من حسن الأدب ما لا يخفى.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ للدلالة على عظمهما.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ لإفادة الشمول والعموم، لأنّ النكرة إذا وقعت في سياق الشرط.. عمّت، كما تعمّ إذا وقعت في سياق النفي،

وفي هذا التنكير ردّ على من زعم أنها نزلت في الوليد بن عقبة، وهو من كبار الصحابة؛ لأنّ إطلاق الفسوق عليه بعيد، ذلك أنّ الفسوق هو الخروج من الشيء والانسلاخ منه، والوليد كما يذكرون ظنّ فأخطأ، والمخطىء كما قاله الرازي: لا يسمَّىٰ فاسقاً، فالعموم هنا هو المراد، كأنه قال: أيّ فاسق جاءكم بأي نبأ فمّحصوه، وابحثوا عنه، واعرضوه على محك التصويب والتخطئة قبل البتّ في الحكم، ولا تستعجلوا الأمور.

ومنها: الإتيان بصيغة الأمر في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ دلالة على أنهم نزّلوا منزلة الجاهلين لمكانه؛ لتفريطهم فيما يجب من تعظيم شأنه.

ومنها: التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ ولم يقل: لو أطاعكم لإفادة الديمومة والاستمرار على أن يعمل ما يرونه صواباً.

ومنها: الطباق بين ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾، وبين الإيمان والكفر في، قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

ومنها: أيضاً صيغة المضارع في قوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ للدلالة على أنّ امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته ﷺ؛ لأنّ عنتهم إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعنّ لهم من الأمور.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بعد قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

ومنها: الطباق بين: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ و﴿أصلحوا﴾ في قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾.

ومنها: مراعاة المعنى، حيث قال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ بواو الجمع؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس، والقياس؛ اقتتلتا بالتثنية، ثمّ مراعاة اللفظ، حيث قال: ﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾ بألف التثنية.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ أصل الكلام: إنما المؤمنون كالإخوة في وجوب التراحم والتناصر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه،

فأصبح بليغاً مع إفادة الجملة الحصر؛ أي: فالآية من التشبيه البليغ المبتنى على تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبب الحياة كالأب.

ومنها: وضع الظاهر مقام المضمر، مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح، والتحضيض عليه؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بينهم.

ومنها: تخصيص الاثنين بالذكر، في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية؛ لتضاعف الفتنة والفساد فيه.

ومنها: جناس الاشتقاق، في قوله: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ومنها: الإتيان بالجمع في قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ حيث لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة؛ إيذاناً بإقدام غير واحد من رجالهم، وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهّي ويستضحك، على قوله: ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار، فيكون شريك الساخر، وتلْوه في تحمّل الوزر، وكذلك كل من يستطيبه ويضحك منه، فيؤدّي ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثير السخرة، وانقلاب الواحد جماعة وقوماً.

ومنها: تنكير ﴿قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ و﴿نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ إمّا للتعميم أو للتبعيض، والقصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض.

ومنها: عطف الخاص على العامل في، قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ لأنّه داخل في السخرية، بجعل الخاصّ كأنه جنس آخر للمبالغة، ولهذا قيل:

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامٌ ... وَلاَ يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

فالسخرية تكون باللسان وبالعين والإشارة، واللمز إنّما يكون باللسان فقط.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ إيذاناً بأنّ من الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيّن لذلك، ولا تعيين؛ لئلا يجترىء أحد على ظنّ إلا بعد تأمّل، وبعد نظر وتمحيص.

ومنها: الاستعارة التمثيلية الرائعة، في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فقد شبّه من يغتاب غيره بمن يأكل لحم أخيه ميتاً.

وفيها مبالغات شتّى:

أوّلها: الاستفهام الذي معناه التقرير، كأنه أمر مفروغ منه، مبتوت فيه.

وثانيها: جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة.

وثالثها: إسناد الفعل إلى كل أحد للإشعار بأنّ أحداً من الأحدين لا يحبّ ذلك.

ورابعها: أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعله أكره اللحوم، وأبعثها على التقزز.

وخامسها: أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً، ومن ثم فَصُحَتْ هذه الآية، وأكبرها أصحاب البيان.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ لأنّه حذف من الأول ما يقابل الثاني، ومن الثاني ما يقابل الأول، والأصل: فإن لم تؤمنوا.. فلا تقولوا: آمنّا، ولكن أسلمتم، فقولوا أسلمنا، كما مر.

ومنها: الإتيان بـ: ثُمَّ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ للإشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان، ليس في حال إنشائه فقط، بل وفيما يستقبل، فهي كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

ومنها: قصر إفراد وتكذيب، في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾؛ لأنّ فيه تكذيباً لأعراب بني أسد، حيث اعتقدوا الشركة، وزعموا أنهم صادقون أيضاً في دعوى الإيمان.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

ومنها: تذييل مقرر لما قبله بقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ في: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛

لأنّه تقرير لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾. وفيه أيضاً: مزيد تجهيل وتوبيخ لهم، حيث كانوا يجتهدون في ستر أحوالهم وإخفائها.

ومنها: في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ...﴾ الآية. فن سماه صاحب «الصناعتين» الاستدراك، وغيره يسميه الاستثناء، وهو يتضمن ضرباً من المحاسن زائداً على ما يدل عليه المدلول اللغويّ، فإن الكلام لو اقتصر فيه على ما دون الاستدراك.. لكان منفّرا لهم؛ لأنّهم ظنّوا الإقرار بالشهادتين من غير اعتقادهما إيماناً، فأوجبت البلاغة تبيين الإيمان، فاستدرك ما استدركه من الكلام، ليعلم أنّ الإيمان موافقة القلب للسان، ولأنّ انفراد اللسان بذلك يسمّى إسلاماً لا إيماناً، وزاده إيضاحاً بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾. وبعضهم يدخل هذا النوع في نطاق فنّ يقال له: جمع المختلفة والمؤتلفة، فإنّهم ظنّوا أنّ الإيمان العمل باللسان ودن العمل بالجنان، فجاء قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ مؤتلفاً لقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ وهم يعتقدون أنّ الإيمان مجرد الإقرار باللسان، وخالف ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ وائتلف به قوله مبيّناً حقيقة الإيمان، وأنه خلاف ما ظنّوا: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) فرغت من تفسير هذه السورة الكريمة، تمام الساعة الرابعة من يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر الربيع الأول المبارك، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة، من سني الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات، ١٤١٥/٣/٢٥ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، آمين يا ربّ العالمين آمين.

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

مباحث هذه السورة قسمان:

قسم: بين النبيّ ﷺ وأمته.

وقسم: يخصّ أمّته، وهو: إما ترك للرذائل، وإما تحلية بالفضائل.

والقسم الأول:

١ ـ أن لا يقضي المؤمنون في أمر قبل أن يقضي الله ورسوله فيه.

٢ ـ الهيبة والإجلال لرسول الله ﷺ، وأن لا تتجاوز أصواتهم صوته.

٣ ـ أن لا يخاطبوه باسمه وكنيته. كما يخاطب بعضهم بعضاً، بل يخاطبونه بالنبيّ والرسول.

٤ ـ أنّ الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم المتقون.

٥ ـ أنّ من نادوه من وراء الحجرات: كعيينة بن حصن، ومن معه أكثرهم لا يعقلون.

٦ ـ ذمّ المنّ على الله ورسوله ﷺ بالإيمان.

والقسم الثاني هو:

١ ـ أن لا نسمع كلام الفاسق، حتى نثبّت منه، وتظهر الحقيقة.

٢ ـ إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى.. وجب قتال الباغية حتى تفيء إلى أمر الله.

٣ ـ حبب الصلح بين المؤمنين.

٤ ـ النهي عن السخرية واللمز والتنابز.

٥ ـ النهي عن سوء الظنّ بالمسلم، وعن تتبع العورات المستورة، وعن الغيبة والنميمة.

٦ ـ الناس جميعاً سواسية، مخلوقون من ذكر وأنثى، لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى.

والله أعلم

* * *

سورة ق

سورة ق مكّية كلّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، نزلت بعد المرسلات، وروي عن ابن عباس وقتادة: أنها مكية، إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ فمدنية، وهي أوّل المفصل على الصحيح، وقيل: أوّله من الحجرات، كما هي عند الشافعية.

وهي خمس وأربعون آيةً، وثلاث مئة وسبع وخمسون كلمةً، وألف وأربع مئة وأربعة وتسعون حرفاً، وسمّيت سورة قَ؛ لبدايتها بحرف قَ.

الناسخ والمنسوخ: قال محمد بن حزم: وجميعها محكم، إلا آيتين.

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...﴾ (الآية ٣٩)، نسخ الصبر بآية السيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ (٤٥ الآية)، نسخ بآية السيف.

مناسبتها لما قبلها[1]: أنه أشار في آخر السورة السابقة إلى أنّ إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقًّا، وذلك يقتضي إنكار النبوّة، وإنكار البعث، وافتتح هذه السورة بما يتعلّق بذلك، وعبارة أبي حيان[2]: مناسبتها لآخر ما قبلها: أنه تعالى أخبر أنّ أولئك الذين قالوا: آمنا لم يكن إيمانهم حقًّا، وانتفاء إيمانهم دليل على إنكار نبوّة الرسول ﷺ، فقال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾. وعدم الإيمان أيضاً يدل على إنكار البعث؛ فلذلك أعقبه به.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه مسلم وغيره عن جابر بن سمرة: أنه ﷺ كان يقرأ سورة ق في الركعة الأولى من صلاة الفجر.

ومنها: ما أخرجه أحمد ومسلم، وأبو داود والنسائي عن أبي واقد الليثي: أنه ﷺ كان يقرأ في العيد بقاف واقتربت.

ومنها: ما أخرجه أبو داود، والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام ابنة حارثة قالت: ما أخذت ق والقرآن المجيد إلا من في رسول الله ﷺ كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر، إذا خطب الناس وكل ذلك دليل على أنه كان يقرأ بها في المجامع الكبيرة: كالعيدين والجمع؛ لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب، وروي[1] عنه ﷺ: أنه قال: «من قرأ سورة قَ.. هوَّن الله عليه ثأرات الموت، وسكراته».

والله أعلم

* * *

(١) البيضاوي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ (٤) بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۢ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠) وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾.

المناسبة

قد قدّمنا آنفاً بيان مناسبة أوّل هذه السورة لآخر السابقة، وأما قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أنهم استبعدوا البعث، فقالوا: رجع

---

(١) المراغي.

بعيد. . أردف ذلك بالدليل الذي يدحض كلامهم، فإنَّ من خلق السماء، وزينها بالكواكب، وبسط الأرض، وجعل فيها رواسي، وأنبت فيها صنوف النبات، وجعل ذلك تذكرةً وتبصرةً لأولي الألباب، ونزّل من السماء ماءً فأنبت به ناضر الجنان، والزرع المختلف الأصناف والألوان، والنخل الباسق ذا الطلع المتراكم بعضه فوق بعض رزقاً لعباده، وأحيا به الأرض الموات، أفلا يستطيع من هذا شأنه أن يخرج الناس من قبورهم بعد بلاهم، وبعد أن يصيروا عظاماً ورفاتاً، وينشئهم خلقاً آخر في حياة أخرى، وعالم غير هذا العالم؟

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر تكذيب المشركين للرسول ﷺ. . أردف ذلك بذكر المكذبين للرسل من قبله، وبيان ما آل إليه أمرهم، تسليةً لرسوله ﷺ، وعبرة لهم، وتنبيهاً إلى أنَّ حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل، كُذبوا، فصبروا، فأهلك الله مكذبيهم، ونصرهم، وأعلى كلمتهم، كما قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

ثم ذكر الدليل على البعث الذي أنكرته الأمم التي كذّبت رسلها، بأنّ من خلق العالم باديء ذي بدءٍ. . فهو على إعادته أقدر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُۥ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما استدلَّ على إمكان البعث بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾. . أردف ذلك دليلاً آخر على إمكانه، وهو علمه بما في صدورهم، وعدم خفاء شيء من أمرهم عليه، فإنَّ من كان كذلك لا يبعد أن يعيدهم كرةً أخرى.

ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أنّ ما جاء به الدين حقّ لا شكّ فيه، وأنه يوم القيامة تأتي كل نفس ومعها ملكان:

أحدهما: سائق لها إلى المحشر.

والثاني: شهيد عليها، وأنّ الخزنة سيقولون لأهل النار لقد كنتم في غفلة عن حلول هذا اليوم الذي تُوفّى فيه كل نفس جزاء ما عملت، والآن أزلنا عنكم هذه الغفلة، فأبصرتم عاقبة أمركم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قٓ﴾؛ أي:[1] هذه سورة ق؛ أي: مسماة بـ﴿قٓ﴾، واختلف في معنى ﴿قٓ﴾ ما هو؟ فقال يزيد وعكرمة والضحاك: هو اسم جبلٍ محيطٍ بالأرض، من زمردة خضراء اخضرت السماء منه، والسماء مقببة عليه، وهو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنةٍ، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل، رواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال الفرّاء: كان يجب على هذا القول أن يظهر الإعراب في ﴿قٓ﴾؛ لأنّه اسمٌ، وكذا على القول الأول. وقال وهب[2]: أشرف ذو القرنين على جبل قَ، فرأى تحته جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف، قال: فما هذه الجبال حولك؟ قال: هي عروقي، ما من مدينة من المدن، ولا قرية من القرى، إلا وفيها عرق من عروقي، فإذا أراد الله سبحانه أن يزلزل مدينة.. أمرني، فحركت عرقي ذلك، فتزلزل تلك المدينة، فقال: يا قاف، أخبرني بشيءٍ من عظمة الله تعالى، قال: إنَّ شأن ربنا لعظيم، وإن ورائي أرضاً مسيرة خمس مئة عام في خمس مئة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضاً، لولا هي.. لاحترقت من حرّ جهنّم، فهذا يدل على أنّ جهنّم على وجه الأرض، والله أعلم بموضعها، وأين هي من الأرض، وقال الزجّاج: معنى قوله: ﴿قٓ﴾؛ أي: قُضِيَ الأمر، كما قيل: في حمّ؛ أي: حم الأمر، وقال ابن عباس أيضاً: إنه اسم من أسماء الله تعالى، أقسم به، وعنه أيضاً: أنه اسم من أسماء القرآن، وهو قول قتادة، وقال القرطبي: هو افتتاح أسماء الله عزّ وجل، مثل: القادر والقدير والقديم والقاهر والقهار والقريب والقابض والقدوس والقيّوم؛ أي: أنا القادر إلخ، وقيل: قَسَمٌ أقسم الله به؛ أي: بحق القائم بالقسط، وقال الشعبي: فاتحة السورة، وقال أبو

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

بكر الورّاق: معناه قف عند أمرنا ونهينا، ولا تعدهما، وقيل: غير ذلك مما هو أضعف منه.

والحق: أنه من المتشابه الذي استأثر الله سبحانه بعلمه، كما حقّقنا ذلك في فاتحة سورة البقرة.

وقرأ الجمهور: ﴿قٓ﴾ بسكون الفاء، وبفتحها عيسى، وبكسرها الحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمّال، وبالضم هارون وابن السميقع والحسن أيضاً فيما نقل ابن خالويه، والأصل في حروف المعجم إذا لم تركب مع عامل: أن تكون موقوفةً، فمن فتح القاف.. عدل إلى أخفّ الحركات، ومن كسرها.. فعلى أصل التقاء الساكنين، ومن ضم.. فكما ضم قط ومنذ وحيث وقبل وبعد وحسب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ أي: الشريف الكريم على الله، الكثير الخير والبركة، أو ذي المجد والشرف على سائر الكتب على أن يكون للنسب: كلابن وتامر، ﴿الواو﴾ فيه: للقسم إن قلنا: إنّ ﴿قٓ﴾ من المتشابه الذي لا نعلم معناه، وهو الأصحّ.

والمعنى: أقسمت بالقرآن المجيد، وإن قلنا: إنّ ﴿قٓ﴾ قسم أقسم به سبحانه وتعالى، فالواو فيه: عاطفة على ما قبله.

والمعنى: أقسمت بـ﴿قٓ﴾ وبـ﴿القرآن المجيد﴾.

واختلفوا في جواب القَسَم[1]، فقال الأخفش: إنه محذوف، تقديره: أقسمت بالقرآن المجيد، إنك يا محمد لنبيّ منذر؛ أي: مخوّف من عذاب الله تعالى، وقال الكوفيّون: جوابه قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾، وقيل: هو ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ بتقدير اللام؛ أي: لقد علمنا، وقيل: هو محذوف، تقديره: والقرآن المجيد، إنا أنزلناه إليك لتنذر به الناس، وقيل: هو محذوف، تقديره: لتبعثّن يدلّ عليه قوله: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا

---

(١) الشوكاني.

مِّتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ إضراب عن الجواب المحذوف على اختلاف الأقوال، وقوله: ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ في موضع نصب على تقدير مِن؛ أي:[1] بل عجب كفّار مكة، ومتعنّتوهم من أن جاءهم رسول منذر من عذاب الله من جنسهم، لا من جنس الملك، وهو محمد ﷺ؛ أي: إنهم شكّوا فيه، ولم يكتفوا بالشكّ والتردّد، بل جزموا بالخلاف، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، وقال بعضهم: جواب القسم محذوف، ودليل ذلك قوله: ﴿بَلْ﴾؛ لأنّه لنفي ما قبله، فدلّ على نفي مضمر، تقديره: أقسم بجبل قاف الذي به بقاء دنياكم، وبالقرآن الذي به بقاء دينكم ما كذّبوك ببرهان، ولا بمعرفةٍ بكذبك بل عجبوا، إلخ. والعجب: نظر النفس لأمر خارج عن العادة.

ثمّ فسّر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ فهو تفسير لتعجّبهم، وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار، وهذا إشارة إلى كونه ﷺ منذراً بالقرآن.

وحاصله: كون النذير منّا خصص بالرسالة من دوننا، وكون ما أنذر به هو البعث بعد موت كل شيء، بليغ في الخروج عن العادة إشكاله، وهو من فرط جهلهم؛ لأنهم عجبوا أن يكون الرسول بشراً، وأوجبوا أن يكون الإله حجراً، وأنكروا البعث مع أنّ أكثر ما في الكون مثل ذلك من إعادة كل من الملوين بعد ذهابه، وأحياء الأرض بعد موتها، وإخراج النبات والأشجار والثمار وغير ذلك.

ثمّ إنّ[2] إضمار الكافرين أوّلاً في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾؛ للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم من المقال، وأنه إذا ذكر شيء خارج عن سنن الاستقامة.. انصرف إليهم إذ لا يصدر إلا عنهم، فلا حاجة إلى إظهار ذكرهم، وإظهارهم ثانياً بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى: يقول الله سبحانه[1]: أقسم بكتابي الكثير الخير والبركة، إنّك أيها الرسول جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا، ولم يكتفوا بالشك في أمرك، وردّ رسالتك، بل جزموا بنفيها، وجعلوها من عجائب الأمور التي تستحق الدهشة، وتثير التأمّل والاعتبار، فقال المكذبون بالله ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم: هذا شيء عجيب؛ أي: إنّ مجيء رجل منّا برسالة من الله إلينا أمر عجيب، هلا أنزل إلينا ملكاً، فيكون لنا نذيراً، كما حكى عنهم من قولهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ وقوله حكاية عنهم: ﴿قَالُوٓاْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾.

وبعد أن أظهروا التعجب من رسالته، أظهروا استبعاد ما جاء به، فقالوا: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: أنرجع ونبعث حين فارقت أرواحنا أجسامنا، وصرنا تراباً كما يقول النذير؛ أي: لا نرجع ولا نبعث. ﴿ذَٰلِكَ﴾ البعث والرجوع بعد الموت لـ﴿رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ عن الأوهام، لا يصدّقه العقل، وتحيله العادة.

وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي: بكسر ميم ﴿مِتۡنَا﴾، والباقون: ﴿متنا﴾ بالضم، وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَءِذَا﴾ بهمزة الاستفهام الإنكاري، وهو على تفصيلهم في تحقيق الثانية وتسهيلها والفصل بينهما، وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وابن وثّاب والأعمش، وابن عتبة عن ابن عامر: ﴿إذا﴾ بهمزة واحدة على صورة الخبر، فجاز أن يكون استفهاماً، حذفت منه الهمزة كقراءة الجمهور، وجاز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر، وأضمر جواب إذا؛ أي: إذا متنا وكنا تراباً.. رجعنا، وهمزة الاستفهام على قراءة الجمهور: داخلة على محذوف، دلّ عليه ما بعده، وهو العام في الظرف؛ أي: أنبعث ونرجع إذا متنا، وصرنا تراباً لا فرق بيننا وبين تراب الأرض، كما يقول النذير، والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذٍ؛ أي: لا نرجع ولا نبعث. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرجع والبعث ﴿رَجۡعُۢ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي بتصرف.

(٢) البحر المحيط.

ردّ إلى الحياة، وإلى ما كنّا عليه. ﴿بَعِيدٌ﴾ جدّاً عن الأوهام، أو عن العادة، أو عن الإمكان أو عن الصدق غير كائن؛ لأنه لا يمكن تمييز ترابنا عن بقية التراب.

ثم ردّ سبحانه ما قالوه، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ نحن ﴿مَا تَنقُصُ﴾ وتأكل ﴿ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أجسادهم، فلا يضلّ عنّا شيء من ذلك، ومن أحاط علمه بكل شيء، حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور، لا يصعب عليه البعث، ولا يستبعد منه، وهذا[1] رد لاستبعادهم، وإزاحة له؛ أي: نحن على ذلك في غاية القدرة، فإنّ من عمّ علمه ولطفه، حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وتأكل من لحومهم وعظامهم.. كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟! وعبّر بمن في قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ لأنّ الأرض لا تأكل عجب الذنب، فإنه كالبذر لأجسام بني آدم، وفي الحديث: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، فمنه خلق وفيه يركب». والعجب بفتح العين وسكون الجيم: أصل الذنب، ومؤخر كل شيء، وهو ههنا عظم لا جوف له، قدر ذرة أو خردلة، يبقى من البدن ولا يبلى، فإذا أراد الله سبحانه الإعادة. ركّب على ذلك العظم سائر البدن وأحياه؛ أي: غيْر أبدان الأنبياء والصديقين والشهداء، فإنها لا تبلى، ولا تتفسخ إلى يوم القيامة، على ما نصت به الأخبار الصحيحة.

والأصح في كيفية الإعادة[2]، كما دلّ عليه الخبر الصحيح: أنّ السماء تمطر مطراً شبه المنيّ، فينشأ منه النشأة الآخرة، كما أنّ النشأة الدنيا من نقطة تنزل من بحر الحياة إلى أصلاب الآباء، ومنها إلى أرحام الأمّهات، فيتكون من قطر بحر الحياة تلك النقطة جسد في الرحم.

والخلاصة[3]: أي قد علمنا ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم، ولا يخفى علينا أين تفرّقت الأبدان، وأين ذهبت، وإلى أين صارت، فلا يصعب البعث ولا يستبعد.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

ثم أكد علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾؛ أي: وعندنا كتاب حافظ، ضابط لتفاصيل الأشياء كلها، أو محفوظ عن التغيير، وهذا إما تمثيل لحال علمه تعالى للكائنات جميعاً علماً كاملاً بعلم من عنده كتاب حفيظ، يتلقّى منه كل شيء، فيضبط ما يعلم أتم الضبط، ويحصيه أكمل الإحصاء، أو تأكيد لعلمه بها، بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

ثمّ حكى عنهم ما هو أفظع من تعجّبهم، وهو تكذيبهم بالنبوّة الثابتة بالمعجزات من أوّل وهلة بلا تدبّر ولا تفكر، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم بالنبوّة الثابتة بالمعجزات الباهرة، فالأفظعيّة لكون الثاني تكذيباً للأمر الثابت من غير تدبّر، بخلاف الأول، فإنه تعجّب؛ أي: بل كذّبوا بالحق الذي جاءهم، وهو محمد ﷺ، أو القرآن. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: حين جاءهم الحق من غير تأمّل وتفكر تقليدا للآباء، وبعد التأمل تمرداً وعناداً، وجاء بكلمة التوقع إشعاراً بأنّهم علموا بعد علو شأنه، وإعجازه الشاهد على حقيقته، فكذّبوا به بغياً وحسداً.

وقرأ الجمهور: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بفتح اللام وتشديد الميم، وقرأ الجحدري: بكسر اللام وتخفيف الميم، فاللام حرف جرٍ وما مصدرية، واللام كهي في قولهم: كتبته لخمس خلون من كذا؛ أي: عند مجيئه إياهم. ذكره في «البحر».

﴿فَهُمْ﴾؛ أي: كفار مكة ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾؛ أي: في أمر مختلط مضطرب عليهم، من مرج الخاتم في إصبعه: إذا اضطرب عليها من سعته بسبب الهزال؛ أي[1]: في أمر مضطرب لا قرار له، من غلبات آفات الحس والوهم والخيال على عقولهم، فلا يهتدون إلى الحق، ولذا يقولون تارةً: إنه شاعر، وتارةً ساحر، وأخرى كاهن، ومرّة مفترٍ، لا يثبتون على شيء واحد، وهذا اضطرابهم في شأن النبيّ ﷺ صريحاً، ويتضمن ذلك اضطرابهم في شأن القرآن أيضاً، فإنّ نسبتهم

---

(١) روح البيان.

إياه إلى الشعر ونحوه إنما هي بسببه.

واعلم: أنّ الاضطراب موجب للاختلاف، وذلك أدلّ دليل على البطلان، كما أنّ الثبات والخلوص موجب للاتفاق، وذلك أدل دليل على الحقِّية، قال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم، وكذا قال قتادة، وزاد: والتبس عليهم دينهم، وعن عليّ رضي الله عنه قال له يهودي: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم، فقال: إنّما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر، حتى قلتم لنبيكم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

والمعنى: أي بل كذبوا[1] بالنبوّة التي قامت الأدلة على صدقها، وأيدتها المعجزات الباهرة، وهم إذا كذّبوا بها. فقد كذّبوا بما أنبأ الرسول من البعث وغيره، ولا شك أنّ هذا الإنكار أعظم جرماً، وأشد بلية من الإنكار بما جاء به الرسول، إذ به أنكروا الصلة الروحية بين الله سبحانه وبين من يصطفيه من خلقه من ذوي النفوس الصافية، وأرباب الأرواح العالية. ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: فهم في قلقٍ واضطرابٍ، فتارة ينفون الرسالة عن البشر، وأخرى يزعمون أنها لا تليق إلا بأهل الجاه والرياسة، كما ينبىء بهذا قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. وثالثة يقولون: إنها سحر أو كهانة، إذ قالوا للنبيّ ﷺ: ساحر أو كاهن إلى نحو ذلك من أقاويلهم، التي تدلّ على اضطراب في الأمر، وقلق في الفكر، فهم لا يدرون ماذا يفعلون حين جاءهم النذير الذي أقضَّ مضاجعهم، وجعلهم حيارى دهشين، إلام هم صائرون، وإلى أي منقلبٍ ينقلبون.

و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾: للاستفهام[2] التوبيخيّ: داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلوا فلم ينظروا حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت؛ أي: فلم ينظروا إلى آثار قدرة الله في خلق العالم، وإيجاده من العدم إلى الوجود،

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

و﴿فَوْقَهُمْ﴾: ظرف لـ ﴿يَنظُرُوٓاْ﴾، أو حال من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾؛ أي: كيف رفعناها، وجعلناها على هذه الصفة، مرفوعة كالخيمة بغير عمد تعتمد عليه. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بما جعلنا فيها من الكواكب المرتبة على نظام بديع. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾؛ أي: فتوق وشقوق، وصدوع لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل، كما قال: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ وهذا[1] لا ينفي وجود الأبواب والمصاعد فيها، فإنها ليست من قبيل العيب والخلل، ولعل تأخير هذا لمراعاة الفواصل، والفروج: جمع فرج، وهو: الشق بين الشيئين كفرجة الحائط، كما سيأتي في مبحث المفردات.

والمعنى: أي[2] أفلم ينظر هؤلاء المكذّبون بالبعث بعد الموت، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد البلى إلى السماء فوقهم، كيف رفعناها بلا عمد، وزيّنّاها بالكواكب، وما لها من فتوق، فهي ملساء متلاصقة الطباق، وهذا هو الرأي الحديث في عالم السموات، إذ يقولون: إنّ هناك عالماً لطيفاً أرقَّ من الهواء، وألطف من كل ما نراه، وهو مبدأ كل شيء، وأول كل شيء، وهو العالم المسمى بالأثير، وهذا العالم وإن لم يره الناس، فقد عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا، فإنَّ من الكواكب ما لا يصل ضوؤه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة، ونور الشمس التي تبعد عنا مقدار سير القطار إليها، لو أمكن في نحو خمس وستين وثلاث مئة سنة، يصل إلينا في مدة ثمان دقائق وثماني عشرة ثانية، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التي تحتاج بسير النور إلى مليون سنةٍ ونصف مليون، ألا يدل هذا على أنّ ذلك الضوء محمول على شيء موجود، وهو الأثير، فلو أنَّ طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير.. لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره، وهذا ما يشير إليه الكتاب بقوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ فلو كان هناك فروج تتخلل السموات.. لانقطع سير النور إلينا، وآراء الجهلة في كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى، وبينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء، فجاء الكتاب الكريم، وعكس هذه القضية، وقال: لا فروج في السماء؛ أي: لا

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

خلاء في العالم، وفي المقام خلاف طويل لا مستند له.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾؛ أي[1]: بسطناها، وفرشناها على وجه الماء مسيرة خمس مئة عام من تحت الكعبة، وهذا دليل على أنّ الأرض مبسوطة، وليست على شكل الكرة، كما في «كشف الأسرار» وفيه أنه لا منافاة بين بساطتها وكرويتها، كما عرف في محله. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت أرسيت بها الأرض، إذ لو لم تكن.. لكانت مضطربةً مائلةً إلى الجهات المختلفة، كما كانت قبل، إذ روي: أنّ الله لمّا خلق الأرض.. جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحدٍ على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدر الملائكة مم خلقت، من رسا الشيء إذا ثبت، والتعبير عنها بهذا الوصف؛ للإيذان بأنّ إلقاءها لإرساء الأرض بها.

﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾؛ أي: وأخرجنا ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾؛ أي: من كل صنف، وقوله في آية أخرى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾؛ أي: أنواعاً متشابهة. ﴿بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسنٍ طيب من الثمار والنباتات والأشجار، كما قال في موضع آخر: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ أي: يبتهج به؛ أي: يسر، والبهجة: حسن اللون، وظهور السرور فيه.

والمعنى[2]: أي والأرض بسطناها، وألقينا فيها جبالاً ثوابت، لئلا تميد وتضطرب، وأنبتنا فيها من كل صنف من صنوف النبات ما حسن منظره، وراق مخبره.

وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾؛ أي: تعليماً منّا، وتفهيماً لكل عبد منيب كيفية الاستدلال على قدرتنا. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكرة منّا، وعظة لكل عبد منيب، مفعولان لأجله لبنيناها وما بعده، وقوله: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾؛ أي: راجع إلى الله بالتوبة، متدبر في بديع صنعه، وعجائب مخلوقاته، متعلق بكل من المصدرين؛ أي: فعلنا البناء والتزيين، وما بعدهما تعليماً منّا، وعظةً لكل عبد منيب.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وفي «الخطيب»: تنبيه: قال الرازي: يحتمل[1] أن يكون المصدران عائدين إلى السماء والأرض؛ أي: خلقنا السماء تبصرة، وخلقنا الأرض ذكرى، ويدلّ على ذلك أنّ السماء وزينتها غير متجددة في كل عام، فهي كالشيء المرئي على ممر الزمان، وأما الأرض فهي كل سنة تأخذ زينتها وزخرفتها فتذكِّر، فالسماء تبصرة، والأرض تذكرة، ويحتمل أن يكون كل واحد من المصدرين موجوداً في كل واحد من الأمرين، فالسماء تبصرة وتذكرة، والأرض كذلك، والفرق بين التذكرة والتبصرة: هو أنّ فيهما آياتٍ مستمرّة منصوبةً في مقابلة البصائر، وآيات متجددة مذكرة عند التناسي، وقال الزجاج: منصوبان بفعل مقدر؛ أي: فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير، وقال أبو حاتم: انتصبا على المصدرية؛ أي: جعلنا ذلك تبصرةً وذكرى، وفي سياق[2] هذه الآيات تذكير لمنكري البعث، وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة، وبيان لإمكان ذلك، وعدم امتناعه، فإن القادر على مثل هذه الأمور، يقدر عليه، وهكذا قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ إلخ.

وفي قوله: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: إشارة[3] إلى أنّ الوصول إلى مقام التبصرة والذكرى إنما هو بالعبودية، والإنابة التي هي مبنى الشريعة وأساسها، وقال بعضهم: التبصرة، معرفة منن الله عليه، والذكرى عدّها على نفسه في كل حال ليشتغل بالشكر فيما عومل به عن النظر إلى شيء من معاملته.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ بالنصب، وهما منصوبان بفعل مضمر من لفظهما؛ أي: بصر وذكر، وقرأ زيد بن عليّ ﴿تبصرة﴾ بالرفع، و﴿ذكرى﴾ معطوف عليه؛ أي: ذلك الخلق على ذلك الوصف تبصرة.

والمعنى: يتبصر بذلك، ويتذكر كل عبد منيب؛ أي: راجع إلى ربه، مفكر في بدائع صنعه.

والمعنى: فعلنا ذلك لتبصرة العبد المنيب وادّكاره فإنّ رفْعنا السماء وتزيينها بالكواكب؛ فلاستبصاره، وإنّ بسْطنا الأرض وإرساء الجبال وإنبات النبات؛

---

(١) تفسير الرازي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

فلاعتباره.

﴿وَنَزَّلْنَا﴾ عبر بصيغة التفعيل لإفادة التكرير ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أي: نزلنا من السماء ماء كثير البركة والخير لانتفاع الناس به في غالب أمورهم؛ أي: أنزلنا ماءً كثير المنافع حياة الأناسي والدواب والأرض الميتة، وفي «كشف الأسرار»: مطراً يثبت في أجزاء الأرض، فينبع طول السنة. ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾؛ أي: أخرجنا بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين كثيرة؛ أي: أشجاراً ذوات ثمار، فذكر المحل وأراد الحال، كما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾؛ أي: وحبَّ الزرع المحصود، فهو[1] من حذف الموصوف وإقامة صفته على ما هو المختار عند البصريين، كباب الجامع؛ أي: المسجد الجامع، لئلاّ يلزم إضافة الشيء إلى نفسه، وأصل الحصد: قطع الزرع، والحصيد بمعنى المحصود، وهو هنا مجاز باعتبار الأول.

والمعنى: وحبّ الزرع الذي شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما، مما يقتات به، وتخصيص إنبات حبه بالذكر؛ لأنه المقصود بالذات. ﴿وَالنَّخْلَ﴾ معطوف على ﴿جَنَّاتٍ﴾ وتخصيصها بالذكر، مع اندارجها في الجنات؛ لبيان فضلها على سائر الأشجار، وقد سبق بعض أوصافها في سورة يسٓ، وتوسيط الحبّ بينهما؛ لتأكيد استقلالها، وامتيازها عن البقية، مع مافيه من مراعاة الفواصل.

وقوله: ﴿بَاسِقَاتٍ﴾؛ أي: طوالاً في السماء عجيبة الخلق، حال مقدّرة من ﴿النخل﴾. فإنها وقت الإنبات لم تكن طوالاً، من بسقت الشجرة سوقاً إذا طالت، ويجوز أن يكون معنى ﴿بَاسِقَاتٍ﴾: حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت، فيكون من باب أفعل، فهو فاعل.

وجملة قوله: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾؛ أي: منضود متراكم بعضه فوق بعض، حال مقدرة من النخل أيضاً، والمراد:[2] تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وذلك قبل أن ينفتح، فهو نضيد في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه. فليس بنضيد، والطلع: شيء يخرج من النخل، كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، والطرف محدد، أو هو ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها، وقشره يسمى الكفرة بضم الكاف والفاء معا، وتشديد الراء، وما في داخله الإغريض؛ لبياضه، كما في «القاموس».

وقوله: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ علة لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾؛ أي: فأنبتنا هذه الأشياء لرزقهم، أو منصوب بفعله المحذوف؛ أي: رزقناهم رزقاً، والأول أولى وأوضح، وفي تعليله بذلك بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة، والتذكرة، تنبيه على أنَّ الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أهم، وأقدم من تمتعه به من حيث الرزق.

والمقصود من الآية الأولى: هو الاستدلال على القدرة بأعظم الأجرام، كما دل عليه النظر، وذكر الإنبات فيها بطريق التبع، فناسب التعليل بالتبصرة والتذكير، ومن الثانية بيان الانتفاع بمنافع تلك الأجرام، فناسب التعليل بالرزق، ولذا أخرت عن الأولى، لأنَّ منافع الشيء مترتبة على خلقه، قال أبو عبيدة: نخل الجنة نضيد ما بين أصلها إلى فرعها، بخلاف نخل الدنيا، فإن ثمارها في رؤوسها، كلما نزعت رطبة عادت ألين من الزبد، وأحلى من العسل، فنخل الدنيا تذكير لنخل الجنة، وفي كل منهما رزق للعباد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

والمعنى(١): ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع، إذ أنبتنا به جنات غناء، وحدائق فيحاء، وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالشعير، والقمح وغيرهما، وأنبتنا به النخل الطوال التي لها طلع منضود، متراكم بعضه فوق بعض، لأقوات العباد وأرزاقهم، ولم يقيد العباد هنا بالإنابة كما قيد به في قوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾؛ لأنّ التذكرة لا تكون إلا لمنيب، والرزق

---

(١) المراغي.

يعمّ كل أحد، غير أنّ المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً للإنعام، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام، ولذلك لم يخصص الرزق بقيد.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ تذكير ﴿مَيْتًا﴾ باعتبار البلد والمكان؛ أي: أرضاً جدبة لا نماء فيها أصلاً، بأن جعلناها بحيث ربت، وأنبتت أنواع النبات والأزهار، فصارت تهتز بها بعد ما كانت جامدة.

وقرأ الجمهور: ﴿مَّيْتًا﴾[1] بالتخفيف، وقرأ أبو جعفر، وخالد: بالتثقيل؛ أي: وأحيينا بذلك الماء الأرض المجدبة التي لا نبات فيها، فتربو وتنبت من كل زوج بهيج.

ثمّ جعل ما سلف كالدليل على البعث؛ لأنّه شبيه به، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ جملة قدّم فيها الخبر للقصد إلى القصر، وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الإحياء؛ أي: مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور، لا شيء مخالف لها، وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج؛ تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث، وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس، وتقريبه لأفهام الناس، وقد روي: «أنّ الله يمطر السماء أربعين ليلة كمنيّ الرجال، يدخل في الأرض، فينبت لحومهم وعروقهم وعظامهم، ثم يحييهم، ويخرجهم من تحت الأرض».

ثم ذكر سبحانه الأمم المكذّبة لرسلها، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ أي: كذّبوا نوحاً وجميع الرسل؛ لأنّ تكذيبه تكذيب لهم لاتفاقهم في أصول الدين. ﴿و﴾ كذّب قبلهم ﴿أصحاب الرس﴾ رسولهم، قيل: كانت الرس[2] بئراً بعدن لأمة من بقايا ثمود، وكان لهم ملك عدل حسن السيرة، يقال له: العنيس بوزن زبير، وكانت البئر تسقي المدينة كلها وباديتها، وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك، لأنّها كانت بكرات كثيرة منصوبة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

عليها، جمع بكرة بالفتح: وهي خشبة مستديرة في وسطها محزٌّ يستقى عليها، ورجال كثيرون موكلون بها، وأبازن بالزاي والنون من رخام، وهي تشبه الحياض كثيرة تملأ للناس، قال في «القاموس»: الأبزن مثلثة الأول: حوض يغتسل فيه، وقد يتخذ من نحاس، معرب آب زن، انتهى. وآخر للدواب، وآخر للبقر والغنم والهوام يستقون عليها بالليل والنهار، يتداولون ولم يكن لهم ماء غيره، فطال عمر الملك، فلمّا جاءه الموت.. طلي بدهن لتبقى صورته ولا تتغير، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت، وكان ممن يكرم عليهم، فلمّا مات.. شقَّ ذلك عليهم، ورأوا أن أمرهم قد فسد، وضجوا جميعاً بالبكاء، واغتنمها الشيطان منهم، فدخل في جثة الملك بعد موته بأيام كثيرة، فكلمهم وقال: إني لم أمت، ولكني قد تغيبت عنكم، حتى أرى صنيعكم بعدي، ففرحوا أشد الفرح، وأمر لخاصته أن يضربوا حجاباً بينه وبينهم، ويكلمهم من ورائه، كيلا يعرف الموت في صورته، فنصبوه صنماً من وراء حجاب لا يأكل ولا يشرب، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً، وأنه إله لهم، وذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه، فصدق كثير منهم، وارتاب بعضهم، وكان المؤمن المكذب منهم أقل من المصدق، فكلما تكلم ناصح منهم.. زجر وقهر، فاتفقوا على عبادته، فبعث الله لهم نبيّاً كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فأعلمهم أنَّ الصورة صنم لا روح له، وأنّ الشيطان فيه، وقد أضلَّهم الله سبحانه، وأنّ الله تعالى لا يتمثل بالخلق، وأنَّ الملك لا يجوز أن يكون شريكاً لله، وأوعدهم ونصحهم، وحذَّرهم سطوة ربهم ونقمته، فآذوه وعادوه، وهو يتعهدهم بالموعظة والنصيحة حتى قتلوه، وطرحوه في بئر، وعند ذلك حلت عليهم النقمة، فباتوا شباعى رواء من الماء، وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها، وتعطل رشاؤها، وهو بالكسر الحبل، فصاحوا بأجمعهم، وضج النساء والولدان، وضجت البهائم عطشاً، حتى عمهم الموت، وشملهم الهلاك، وخلفهم في أرضهم السباع، وفي منازلهم الثعالب والضباع، وتبدلت لهم جناتهم وأموالهم بالسدر والشوك شوك العضاة بالكسر: أم غيلان أو نحوه، والقتاد بوزن سحاب: شجر صلب شوكه كالإبر، فلا تسمع فيها إلا عزيف الجن؛ أي: صوتهم، وهو جرس يسمع في

المفاوز في الليل، وإلا زئير الأسد؛ أي: صوته من الصدر، نعوذ بالله من سطواته، ومن الإصرار على ما يوجب نقماته، كذا في «التكملة» نقلاً عن «تفسير المقري». وقيل: الرّسّ: بئر قرب اليمامة، أو بئر بأذربيجان، أو وادٍ، كما قال الشاعر:

فَهُنَّ لِوَادِيْ ٱلرَّسِّ كَٱلْيَدِ لِلْفَمِ

وقد سبق بعض الكلام عليه في سورة الفرقان، فارجع إليه.

﴿و﴾ كذّبت قبلهم ﴿ثمود﴾؛ أي: قوم ثمود صالحاً، وجميع الرسل، وهو ثمود بن عاد، وهو عاد الآخرة. ﴿و﴾ كذبت قبلهم ﴿عاد﴾؛ أي: قوم عاد هوداً، وجميع الرسل، وهو عاد إرم، وهو عاد الأولى. ﴿و﴾ كذب قبلهم ﴿فرعون﴾ موسى وهارون وجميع الرسل.

والمراد: هو وقومه القبط ليلائم ما قبله وما بعده من الجماعة. ﴿و﴾ كذب قبلهم ﴿إخوان لوط﴾؛ أي: أصهاره؛ لأنه صاهرهم، وتزوج منهم لوط وجميع الرسل، جمع صهر، والصهر: زوج بنت الرجل، وزوج أخته، وقيل: إخوانه قومه؛ لاشتراكهم في النسب لا في الدين، قال عطاء: ما من أحد من الأنبياء إلا ويقوم معه يوم القيامة قومه، إلا لوطاً عليه السلام، يقوم وحده. ﴿و﴾ كذّب قبلهم ﴿أصحاب الأيكة﴾ شعيباً وجميع الرسل، وهم من بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين، وكانوا يسكنون أيكة؛ أي: غيضة تنبت السدر الأراك، وقد مر ما فيه في سورة الحجر. ﴿و﴾ كذّب قبلهم ﴿قوم تبّع﴾ تبعاً وجميع الرسل، وهذا على تقدير رسالة تبع ظاهر، وأما على تقدير عدمها وهو الأظهر، فمعنى تكذيب قومه الرسل: تكذيبهم لمن قبلهم من الرسل المجمعين على التوحيد والبعث، وإلى ذلك كان يدعوهم تبّع، وهو أبو كرب أسعد الحميري ملك اليمن، سُمِّي تبعاً لكثرة أتباعه.

﴿كلٌّ﴾؛ أي: كل قوم من هؤلاء الأقوام المذكورين ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ أي: كذّبوا رسلهم، وكذّب جميعهم جميع الرسل بالمعنى المذكور أولاً، كما أشرنا إليه في الحلّ، وإفراد الضمير في ﴿كَذَّبَ﴾ باعتبار لفظ الكل، أو كل واحد منهم

كذب جميع الرسل، لاتفاقهم على التوحيد والإنذار بالبعث والحشر، فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ أي: فوجب وحل عليهم وعيدي، وحق بهم ما قدره الله عليهم من الخسف والمسخ والإهلاك، والوعيد يستعمل في الشر خاصةً، بخلاف الوعد، فإنه يكون في الخير والشر، وفي الآية: تسلية لرسول الله ﷺ؛ يعني: لا تحزن، ولا تكثر غمك لتكذيب الكفار إيّاك؛ لأنّك لست بأول نبيّ كذب، وكل أمة كذبت رسولها، واصبر على أذاهم كما صبروا، تظفر بالمراد كما ظفروا، وتهديد لأهل مكة؛ يعني: احذروا يا أهل مكة من مثل عذاب الأمم الخالية، فلا تكذبوا رسول الله، فإنّ الاشتراك في العمل يوجب الاشتراك في الجزاء.

والحاصل[1]: أنّ الله سبحانه هدّد كفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم، من النقم والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان، وأهلك جميع من ذكروا بعدهم من الأمم التي كذبت رسلها بضروب شتى من العذاب، وحقّ عليهم وعيده، ونصر رسله، وأعلى كلمتهم، وكانت العاقبة لهم، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. وقد تقدمت هذه القصص في مواضع متفرقة من الكتاب الكريم.

ثم ذكر سبحانه ما يؤكد صحة البعث، فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام[2] الإنكاري، داخلة على مقدر، ينبىء عنه العيُّ من القصد والمباشرة، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أقصدنا الخلق الأول وهو الإبداء، فعجزنا عنه، حتى يتوهم عجزنا عن الخلق الثاني وهو الإعادة؛ أي: ليس الأمر كذلك، وما هنا في «الشوكاني»: في الاستفهام و﴿الفاء﴾: غير صواب.

وجملة قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: معطوفة على مقدر يدلّ عليه ما قبله، كأنه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول، بل هم في خلط

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وحيرة وشبهة وشك في خلق مستأنف، وهو بعث الأموات لما فيه من مخالفة العادة، إذ لم تجر العادة بالإعادة في هذه الدار، وهذا قياس فاسد، كما لا يخفى، وتنكير ﴿خَلْقٍ﴾؛ لتفخيم شأنه، والإشعار بخروجه عن حدود العادات، أو الإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه، ويهتم بمعرفته، ولا يقعد على لبس.

وقرأ الجمهور: ﴿أَفَعَيِينَا﴾[1] بياء مكسورة بعدها ياء ساكنة، ماضي عيي، بوزن رضي، وقرأ ابن أبي عبلة والوليد بن مسلم والقورصبيُّ عن أبي جعفر والسمار عن شيبة وأبو بحر عن نافع: بتشديد الياء من غير إشباع في الثانية، هكذا قال أبو القاسم الهذلي في كتاب «الكامل». وقال ابن خالويه في كتاب «شواذ القراءآت» له: ﴿أفعَيَّنا﴾ بتشديد، قرأ ابن أبي علة، وفكرت في توجيه هذه القراءة، إذ لم يذكر أحد توجيهها، فخرجتها على لغة من أدغم الياء في الياء في الماضي، فقال: عيَّ في عيي، وحيَّ في حيي، فلما أدغم.. ألحقه ضمير المتكلم المعظم نفسه، ولم يفك الإدغام، فقال: عيّنا، وهي لغة لبعض بني بكر بن وائل، يقولون في رددت، وردنا: ردت وردّنا، فلا يفكون، وعلى هذه اللغة تكون الياء المشددة مفتوحة، فلو كان ضمير نصب.. لاجتمعت العرب على الإدغام، نحو: ردّنا زيد.

والمعنى: أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى يشكّوا في الإعادة؛ أي: إنّ ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل من الابتداء، فلا حقّ لهم في تطرق الشبهة إليهم، والشك فيه، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾. وقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾. وجاء في الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته».

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد أوجدنا الإنسان، وأنشأناه من العدم المحض، والمراد بالإنسان: الجنس، وقيل: آدم. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾؛ أي: ما تحدث به نفسه، وهو ما يخطر بالبال، والوسوسة: الصوت الخفي، والخطرة الرديئة، ومنه: وساوس الحلي، والمراد بها هنا: ما يختلج في سره وقلبه وضميره، أي: نعلم ما يخفي ويكن في نفسه، والضمير[1] في ﴿بِهِۦ﴾ لما إنْ جُعلت موصولة، والباء صلة كالباء في صوّت بكذا، وهمس بِهِ؛ أي: نعلم الخاطر الذي توسوسه نفسه، أو للإنسان إن جعلت مصدرية، والباء للتعدية؛ أي: ونعلم وسوسة نفسه به.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الإنسان ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهو حبل العاتق وعرقه، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال، وقال الحسن: الوريد: الوتين، وهو عرق معلق بالقلب، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان؛ أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده إليه، والإضافة بيانية؛ أي: حبل هو الوريد، والوريدان: عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدّمها متصلان بالوتين، والوتين: عرق في القلب، إذا انقطع.. مات صاحبه، يردان من الرأس إليه، فالوريد بمعنى الوراد، وقيل: سمى وريداً؛ لأنّ الروح الحيواني يرده، فالوريد حينئذٍ بمعنى المورود، وفي «المفردات»: الوريد: عرق متصل بالكبد والقلب، وفيه مجاري الروح، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾؛ أي: من روحه. انتهى. وفي «التأويلات النجمية»: حبل الوريد أقرب أجزاء نفسه إلى نفسه، يشير إلى أنه تعالى أقرب إلى العبد من نفس العبد إلى العبد، فكما أنه كل وقت يطلب نفسه يجدها؛ لأنّها قريب منه، فكذلك كل وقت يطلب ربه يجده لأنّه قريب منه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾. وفي الزبور: ألا من طلبني وجدني.

أي:[2] أنه تعالى قادر على بعث الإنسان؛ لأنّه خالقه، وعالم بجميع

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أموره، حتى إنه ليعلم ما تسوس به نفسه من الخير والشر. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ونحن أعلم به، وبخفيات أحواله، لا يخفى علينا شيء من أمره من علمكم بحبل الوريد؛ لأنّ العرق تحجبه أجزاء من اللحم، وعلم الله لا يحجب عنه شيء.

أي: ونحن[1] أقرب إلى الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدم، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله، وبنفوذ قدرتنا فيه، يجري فيه أمرنا كما يرجي الدم في عروقه.

و﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾: منصوب[2] بأذكر، وهو أولى لبقاء قوله: ﴿وَنَحْنُ...﴾ إلخ. على إطلاقه، أو هو متعلق بما في ﴿أَقْرَبُ﴾ من معنى الفعل، والتلقي: الأخذ، والتلقن بالحفظ والكتابة.

والمعنى: أنه تعالى لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس، ولا شيء أخفى منها، وهو أقرب إلى الإنسان من كل قريب حين يتلقى، ويتلقن، ويأخذ ويكتب الملكان الحفيظان الموكلان بالعبد ما يتلفظ به العبد ويفعله.

وفيه[3]: أي على الوجه الثاني، إيذان بأن استحفاظ الملكين أمر هو سبحانه غنيّ عنه، وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفىٰ الخفيات؟! وإنما ذلك الاستحفاظ لحكمة، وهي ما في كتب الملكين وحفظهما لأعمال العبد، وعرض صحائف العمل يوم القيامة، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله، خيراً أو شراً، من زيادة اللطف له في الانتهاء عن السيئات، والرغبة في الحسنات، والحال أنّ أحدهما ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: عن يمين العبد، وجانبه قعيد ﴿و﴾ الآخر منهما ﴿عن الشمال﴾؛ أي: شمال العبد ﴿قَعِيدٌ﴾؛ أي: مقاعد كالجليس بمعنى المجالس لفظاً ومعنى، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وقيل: يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) النسفي.

ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ أي:[1] فالله أقرب إلى الإنسان من عرقه المخالط له في وقت أخذ الملكين الحافظين منه قوله وفعله، فلهما عن اليمين مقاعد، وعن الشمال مقاعد، وفي هذا إشارة إلى أنّ المكلّف غير متروك سدى، قال الحسن وقتادة، ومجاهد: المتلقيّان ملكان يتلقّيان عملك، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك، وقال مجاهد أيضاً: وكّل الله بالإنسان ملكين بالليل، وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾؛ أي: ما يتكلم الإنسان من كلام، فيلفظه ويرميه من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾؛ أي: إلا لدى ذلك اللافظ ﴿رَقِيبٌ﴾؛ أي: ملك حافظ يرقب قوله ذلك ويكتبه، والقول أعم من الكلمة والكلام، والرقيب: الحافظ المتتبع لأمور الإنسان، الذي يكتب ما يقوله ويفعله من خير أو شر، فكاتب الخير هو ملك اليمين، وكاتب الشر هو ملك الشمال. ﴿عَتِيدٌ﴾؛ أي: حاضر ذلك الملك الرقيب لا يفارقه، معد مهيأٌ لكتابة ما أمر به من خير أو شر، فهو حاضر معه أينما كان، فالرقيب بمعنى الحافظ، والعتيد بمعنى الحاضر، والإفراد[2] حيث لم يقل: رقيبان عتيدان مع وقوفهما معاً على ما صدر عنه، لما أنَّ كلاً منهما رقيب لما فوض إليه، لا لما فوض إلى صاحبه، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿عَتِيدٌ﴾. وتخصيص القول بالذكر، لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص، واختلف فيما يكتبانه، فقيل: يكتبان كل شيء، حتى أنينه في مرضه، وقيل: إنَّما يكتبان ما فيه أجر ووزر، وهو الأظهر، قيل[3] إنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه، وعند جِماعه؛ ولذا كره الكلام في الخلاء، وعند قضاء الحاجة أشد كراهة؛ لأنّ الملائكة تتأذى بالحضور في ذلك الموضع الكريه لأجل كتابة الكلام، فإن سلم عليه في هذه الحالة.. قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: يردّ السلام بقلبه لا بلسانه، لئلا يلزم كتابة الملائكة، فإنهم لا يكتبون الأمور القلبية، وكذا يحمد الله بقلبه عند العطاس في بيت الخلاء، وكذا يكره الكلام عند الجماع، وكذا

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

الضحك في هذه الحالة، فلا بدّ من حفظ اللسان، وفي الحديث: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

قال الحسن البصري[1]: وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذ مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾. ثم قال: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

وروى أبو أسامة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة.. كتبها ملك اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة.. قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات، لعلّه يسبّح أو يستغفر».

وبعد أن ذكر استبعادهم البعث للجزاء، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه.. أعلمهم بأنهم يلاقون صدق ذلك حين الموت، وحين قيام الساعة فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وكشفت لك سكرة الموت عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، وأنّ البعث لا شكّ فيه، والباء[2] في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: إما للتعدية كما في قولك: جاء الرسول بالخبر، والمعنى: حضرت الموت؛ أي: شدته التي تجعل الإنسان كالسكران، بحيث تغشاه وتغلب على عقله، وكشفت له حقيقة الأمر الذي نطق به كتاب الله، وأخبرت به رسله، أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته، وإما للملابسة، كالتي في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾؛ أي: حالة كونها متلبسةً بالحق؛ أي: بحقية الأمر أو بالحكمة والغاية الجميلة، وقرىء: ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾. ويقال للميت بلسان الحال، أو تقول

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

له الملائكة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الموت أيها الإنسان ﴿مَا﴾: موصولة؛ أي: الأمر الذي ﴿كُنتَ﴾ في الدنيا ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بقوله: ﴿تَحِيدُ﴾؛ أي: تميل وتفرّ وتهرب منه، بل تحسب أنه؛ أي: الموت، لا ينزل عليك بسبب محبّتك الحياة الدنيا، كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾؛ أي: أقسمتم بألسنتكم بطراً وأشراً، وجهلاً وسفهاً، أو بألسنة الحال، حيث بنيتم مشيداً، وأملتم بعيداً، ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة، فكأنكم ظننتم أنكم ما لكم من زوال مما أنتم عليه من التمتّع بالحظوظ الدنيوية، فالخطاب[1] في الآية للإنسان المتقدم على طريق الالتفات، فإنّ النفرة عن الموت شاملة لكل فرد من أفراده طبعاً، ويضعده ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: أخذت أبا بكر غشية من الموت، فبكيت عليه، فقلت:

مَنْ لاَ يَزَالُ دَمْعُهُ مُقَنَّعَا لاَ بُدَّ يَوْمَاً أَنَّهُ مُهْرَاقُ

فأفاق أبو بكر رضي الله عنه فقال: بل جاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. وجوّز في «الكشاف» أن تكون الإشارة إلى الحق، والخطاب للفاجر، وهذا هو الظاهر؛ لأنّ الكلام في الفجار. قاله سعدي المفتي.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ هي النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور، والنافخ هو إسرافيل عليه السلام، وقد سبق الكلام في الصور. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: وقت ذلك النفخ على حذف المضاف ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا وتحقيقه، والوعيد: التهديد، أو يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود، وتخصيص الوعيد بالذكر، مع أنه يوم الوعد أيضاً؛ لتهويله، ولذا بدىء ببيان حال الكفرة. ﴿وَجَآءَتْ﴾ في ذلك اليوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿مَّعَهَا﴾ إلخ. محله النصب على الحالية من ﴿كُلُّ﴾ لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة، كأنه قيل: كل النفوس؛ أي: حالة كون كل نفس معها

---

(١) روح البيان.

﴿سَآئِقٌ﴾؛ أي: ملك يسوقها إلى المحشر ﴿و﴾ ملك ﴿شهيد﴾ يشهد بعملها خيراً أو شرّاً، وفي «كشف الأسرار»: يسوق الكافر سائقه إلى النار، ويشهد الشهيد عليه بمعصيته، ويسوق المؤمن سائقه إلى الجنة، ويشهد الشهيد له بطاعته، وهل الملكان الكاتبان في الدنيا هما اللذان ذكرهما الله في قوله: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، أو غيرهما؟. فيه خلاف كما في «فتح الرحمن» أو معها ملك جامع بين الوصفين، كأنه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد لها أو عليها، ويقال له: والله ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ أيها الإنسان في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ وسهوٍ ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم وغوائله، وفي «فتح الرحمن»: من هذا النازل بك اليوم، وقال ابن عباس: من عاقبة الكفر، وفي «عين المعاني»: أي: من السائق والشهيد، وخطاب الكل بذلك؛ لما أنه ما من أحد إلا وله غفلة ما من الآخرة، وقيل: الخطاب للكافر، وقرىء: ﴿كنت﴾ بكسر التاء على اعتبار تأنيث النفس، وكذا الخطابات الآتية، كما سيأتي، وقال ابن زيد[1]: الخطاب للنبيّ ﷺ؛ أي: لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة، وقال أكثر المفسرين: المراد به: جميع الخلق برّهم وفاجرهم، واختار هذا ابن جرير.

﴿فَكَشَفْنَا﴾؛ أي: أزلنا ورفعنا ﴿عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ وحجابك الذي كان على بصرك في الدنيا؛ يعني: رفعنا الحجاب الذي كان بينك وبين أمور الآخرة، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿فَبَصَرُكَ﴾ أيها الإنسان ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم الذي يعرض فيه العباد على الله ﴿حَدِيدٌ﴾؛ أي: حاد نافذ، تبصر ما كنت تنكره، وتستبعده في الدنيا لزوال المانع للإبصار، ولكن لا ينفعك، وهذا كقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أنَّ الإنسان وإن خلق من عالمي الغيب والشهادة، فالغالب عليه في البداية الشهادة، وهي العالم الحسّي، فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه، وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب، فمن

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الناس من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته، فيجعل بصره حديداً يبصر رشده، ويحذر شرّه، وهم المؤمنون من أهل السعادة، ومنهم من يكشف الله عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إيمانها، وهم الكفار من أهل الشقاوة، ومن كلمات أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه: لو كشف الغطاء.. ما ازددت يقيناً.

وقرأ الجمهور[1]: بفتح التاء من ﴿كُنتَ﴾ وفتح الكاف في ﴿عَنكَ﴾ ﴿غِطَآءَكَ﴾، ﴿فَبَصَرُكَ﴾ حملاً على ما في لفظ كل من التذكير، وقرأ الجحدري وطلحة بن مصرّف: بالكسر في الجميع على أنّ المراد: النفس، ولاكتساب كل التأنيث من المضاف إليه.

والمعنى: أي والله لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن هذا الذي عاينت اليوم من الأهوال والشدائد، فجلَّينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت عنك هذه الغفلة، وقد جعل سبحانه الغفلة غطاء غطي به الجسد كلّه، أو غشاوة غشي بها عينيه، فلا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة.. تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها، فأبصر ما لم يكن يبصره من الحق.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾؛ أي: قال الملك الموكل به في الدنيا، الكاتب لعمله، الشهيد عليه للربّ سبحانه ﴿هَٰذَا﴾ المكتوب من عمله، مبتدأ خبره: ﴿مَا﴾ وهي نكرة موصوفة[2]. و﴿لَدَيَّ﴾ ظرف صفة أولى لما ﴿عَتِيدٌ﴾ صفة ثانية لها، والتقدير: هذا شيء ثابت لديّ عتيد حاضر قد هيأته، ويجوز أن يكون ﴿عَتِيدٌ﴾ صفة لـ ﴿مَا﴾ و﴿لَدَيَّ﴾ متعلقاً بـ ﴿عَتِيدٌ﴾؛ أي: هذا المتكوب شيء عيتد لديّ؛ أي: حاضر، ويجوز أن تكونا ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، و﴿لَدَيَّ﴾ صلتها و﴿عَتِيدٌ﴾: خبر الموصول، والموصول وصلته: خبر اسم الإشارة.

والمعنى: أي وقال الملك الموكل به في الدنيا: هذا الذي وكّلتني به من بني آدم، قد أحضرته، وأحضرت ديوان أعماله، قاله مجاهد. أو قال شيطانه

---

(١) الشوكاني. (٢) النسفي.

الذي قيّض له في الدنيا مشيراً إليه هذا الشخص: ما عندي، وفي ملكي وسيطرتي، عتيد لجهنم حاضر قد هيأته لها بإغوائي وإضلالي إياه.

وقرأ الجمهور: ﴿عَتِيدٌ﴾ بالرفع، وعبد الله: بالنصب على الحال، والأولى حينئذٍ أن تكون ﴿ما﴾ موصولة.

ويقول الله سبحانه: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾: خطابٌ[1] من الله تعالى للسائق والشهيد، أو لملكين من خزنة النار، أو لواحد وهو الملك الجامع للوصفين، أو خازن النار على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل، وتكريره للتأكيد، كأنه قيل: ألقِ ألق، حذف الفعل الثاني، ثم أتى بفاعله وفاعل الفعل الأول على صورة ضمير الاثنين متصلاً بالفعل الأول، أو على أن الألف بدل من نون التوكيد الخفيفة على إجراء الوصل مجرى الوقف، ويؤيده أنه قرىء: ﴿ألقين﴾ بالنون الخفيفة، مثل: ﴿لنسفعاً﴾ فإنه إذا وقف على النون.. تنقلب ألفاً، فتكتب بالألف على الوقف، وفيه وجه آخر، وهو أنَّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان؛ يعني: أدنىٰ الأعوان في السفر اثنان، فكثر في ألسنتهم أن يقولوا: خليليّ، وصاحبيّ، وقفا وأسعدا، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين، كما قال امرىء القيس:

خَلِيْلِيَّ مُرَّا بِيْ عَلَىٰ أُمِّ جُنْدُبِ ... لِنَقْضِيَ حَاجَاتِ ٱلْفُؤَادِ ٱلْمُعَذَّبِ

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً ... وَجَدْتُ بِهَا طِيْباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وقوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ ٱللِّوَىٰ بَيْنَ ٱلدَّخُوْلِ فَحَوْمَلِ

فثنى في البيت الأول، ووحد في البيت الثاني، وثنّى في البيت الثالث أيضاً.

وقرأ الحسن[2]: ﴿ألقين﴾ بنون التوكيد الخفيفة خطاباً لواحد من خزنة

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

النار، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ أي[1]: كل مبالغ في الكفر بالمنعم والنعم، جاحد بالتوحيد، معرض عن الإيمان، وقيل: كل كافر حامل غيره على الكفر ﴿عَنِيدٍ﴾؛ أي: معاند للحق، يعرف الحق فيجحده، والعناد أقبح الكفر، وقال قتادة: منحرف عن الطاعة. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: كثير المنع للمال عن حقوقه مفروضة زكاة أو غيرها؛ أي: طبع على الشره والإمساك، كما أنَّ الكافر طبع على الكفر، والعنيد طبع على العناد، أو منّاع لجنس الخير عن أن يصل إلى أهله، يحول بينه وبينهم، وقيل: المراد بالخير هنا: الإسلام، فإنّ الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لمَّا منع بني أخيه منه، وكان يقول: من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت. ﴿مُعْتَدٍ﴾؛ أي: ظالم متخطّ للحق، معاد لأهله. ﴿مُّرِيبٍ﴾؛ أي: شاكّ في الله وفي دينه، فهو صيغة نسبة بمعنى ذي شكّ وريب؛ أي: موقع في الريبة، وقيل: متّهم.

أي[2]: ألقيا في جهنم كل كافر بالله، معاند لآياته، مانع للناس من اتباع الرسول ﷺ، ومن الإنفاق على من عنده، ظالم بالإيذاء وكثرة الهذاء، شاكٍّ في اليوم الآخر، فلا يظنّ أنّ الساعة آتية، فكل كافر موصوف بهذه الصفات.

﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ أو منصوباً على الذم، أو بدلاً من ﴿كَفَّارٍ﴾، أو هو مبتدأ متضمّن معنى الشرط، خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾: تكرير للتوكيد، و﴿الفاء﴾؛ للإشعار بأنّ الإلقاء للصفات المذكورة.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾؛ أي: الشيطان الذي قيض لهذا الكافر: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ وما أضللته، وما أغويته، قيل[3]: هذا جواب لكلام مقدر، وهو أنّ الكافر حين يلقى في النار، يقول: ربّنا أطغاني شطاني، فيقول الشيطان: ربّنا ما أطغيته. ﴿وَلَـٰكِن كَانَ﴾ هذا الإنسان ﴿فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، فدعوته فاستجاب لي، ولو كان

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) الخازن.

من عبادك الصالحين.. لم أقدر عليه، فيتبرأ منه شيطانه، وقال ابن عباس: قرينه: الملك الموكّل به، الكاتب لأعماله؛ يعني: يقول الكافر: ربّ إنّ الملك زاد عليّ في الكتابة، فيقول الملك: ربّنا ما أطغيته؛ أي: ما زدت عليه، وما كتبت إلا ما قال وعمل، ولكن كان في ضلال بعيد؛ أي: طويل لا يرجع عنه إلى الحقّ، فأعنته عليه بالإغواء والدعوة إليه من غير قسر وإلجاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ والأول أولى، وعليه الجمهور، وقال أبو حيان[1]: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ لم تأت هذه الجملة بالواو بخلاف ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قبله: لأنّ هذه استؤنفت كما استؤنفت الجمل في حكاية التقاول في مقاولة موسى وفرعون، فجرت مقاولة بين الكافر وقرينه، فكأنّ الكافر قال: ربّ هو أطغاني، قال قرينه: ربّنا ما أطغيته، وأما ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ فعطفت للدلالة على الجمع بين معناها، ومعنى ما قبلها في الحصول؛ أعني: مجيء كل نفس مع الملكين، وقول قرينه ما قال له.

وجملة قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾: مستأنفة، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله؟ فقيل: قال الله سبحانه لهم: لا تختصموا أيها الكفّار والقرناء لديّ؛ أي: في موقف الحساب والجزاء، إذ لا فائدة في ذلك، قال بعضهم[2]: هذا الخطاب في الكفار فقط، وأما قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ ففي المؤمنين في الظالم فيما بينهم؛ لأنّ الاختصام في الظالم مسموع، وهذا في الموقف، وأما قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ ففي جهنم، فظهر التوفيق بين الآيات.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: والحال أنّي قد قدمت إليكم بالوعيد والتهديد من العذاب بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، و﴿الباء﴾ في ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾: مزيدة للتأكيد، أو معدّية على أنّ قدّم بمعنى تقدّم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

والمعنى: أي قال الله سبحانه للإنسيِّ، وقرينه من الجن حين اختصما، فقال الإنسي: ربّ إنّ هذا أضلَّني عن الذكر بعد إذ جاءني، وقال الشيطان: ربّنا ما أطغيته، ولكن كان في ضلال بعيد عن الحقّ، فأعنته عليه بالإغواء من غير قسرٍ ولا إلجاء: لا تختصموا الآن عندي في موقف الحساب والجزاء، وقد قدمت إليكم بالوعيد على الطغيان في دار الكسب والتكليف، فقد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج، فما تركت لكم حجة عليَّ، فلا تطمعوا في الخلاص منه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة، والجملة: حال فيها معنى التعليل للنهي على معنى ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ وقد صحَّ عندكم وعلمتم أني قدمت إليكم بالوعيد، حيث قلت لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فاتبعتموه معرضين عن الحق، فلا وجه للاختصام في هذا الوقت، وإنما قدّر المعنى هكذا ليصح جعله حالاً، فإن مقارنة الحال لصاحبها من الزمان واجبة، ولا مقارنة بين تقديم الوعيد في الدنيا والاختصام في الآخرة.

﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ ولا يغير ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ والقضاء ﴿لَدَىَّ﴾؛ أي: عندي[1]؛ أي: لا يغير قولي في الوعد والوعيد، فما يظهر في الوقت هو الذي قضيته في الأزل، لا مبدل له، والعفو عن بعض المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل، فإنَّ دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد؛ يعني: ولا مخصص في حق الكفار، فالوعيد على عمومه في حقهم، قال الجلال الدواني في «شرح العضد»: ذهب بعض العلماء إلى أن الخلف في الوعيد جائز على الله تعالى، لا في الوعد، وبهذا وردت السنة، حيث قال النبيّ ﷺ: «من وعد لأحد على عمله ثواباً فهو منجز له، ومن أوعده على عمله عقاباً.. فهو بالخيار». والعرب لا تعد عيباً ولا خلفاً أن يعد شرًّا ثم لا يفعله، بل ترى ذلك كرماً وفضلاً، وإنما الخلف أن يعد خيراً ثم لا يفعله، كما قال:

وَإِنِّـي إِذَا أَوْعَـدْتُـهُ أَوْ وَعَـدْتُـهُ   لَمُخْلِفُ إِيْعَادِيْ وَمُنْجِزُ مَوْعِدِيْ

---

(١) روح البيان.

ولقد أحسن يحيى بن معاذ رضي الله عنه في هذا المعنى، حيث قال: الوعد والوعيد حقّ، فالوعد حقّ العباد على الله سبحانه، ضمن لهم إذا فعلوا ذلك أن يعطيهم كذا ومن أولى بالوفاء من الله، والوعيد حقّه على العباد، قال لا تفعلوا كذا فأعذّبكم ففعلوا، فإن شاء.. عفا، وإن شاء.. أخذ؛ لأنّه حقه، وأولاهما العفو والكرم؛ لأنه غفور رحيم، فالله تعالى لا يغفر أن يشرك به، فينجز وعيده في حق المشركين، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فيجوز أن يخلف وعيده في حق المؤمنين.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ أي: وما أنا بمعذّب للعبيد ظلماً بغير جرم اجترموه، ولا ذنب أذنبوه، والتعبير عنه بالظلم، مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم، على ما تقرّر من قاعدة أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلماً مفرطاً لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك، بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من الظلم، وصيغة المبالغة؛ لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض المبالغة في الظلم، وقيل: هي لرعاية جمعيّة العبيد من قولهم: فلان ظالم لعبده، وظلاّم لعبيده على أنها مبالغة كمّاً لا كيفاً، وقيل: إنّ الظلاّم هنا بمعنى الظالم، كالتمّار بمعنى التامر.

والظرف في قوله: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك، ويشمل كل من شأنه الذكر يوم نقول بما لنا من العظمة ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ دار العذاب، وسجن الله للعصاة ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ يا جهنم بمن ألقي فيك؟ وهل أوفيتك ما وعدتك؟. وهو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وقوله: لكل واحدة منكما ملؤها. فهذا السؤال من الله لتصديق خبره، وتحقيق وعده، والتقريع لأهل عذابه، والتنبيه لجميع عباده. ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنم مجيبة بالاستفهام تأدباً، وليكون الجواب وفق السؤال ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾؛ أي: هل من زيادة من الجن والإنس موجودة، فيكون مصدراً كالمحيد، أو من يزاد فيكون مفعولاً كالمبيع، ويجوز أن يكون ﴿يَوۡمَ﴾: ظرفاً لمقدر مؤخر؛ أي: يوم نقول لجهنم: هل امتلأت إلخ، يكون من الأحوال والأهوال ما يقصر عنه المقال، وقيل: العامل فيه ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾. وقيل:

المعنى؛ أي: قد امتلأت، ولم يبق فيَّ موضع لم يمتلىء، وبهذا قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان. وقيل: إنّ المعنى: أنها طلبت أن يزاد في سعتها لتضايقها بأهلها، واختلف العلماء في أنَّ الخطاب والجواب، هل هما على الحقيقة أو لا؟ فقال بعضهم: هما على الحقيقة، فينطقها الله بذلك كما ينطق الجوارح، وهو المختار، فإنَّ الله على كل شيء قدير، وأمور الآخرة كلها أو جلها على خلاف ما تعورف في الدنيا، وقد دلت الأحاديث على تحقق الحقيقة، فلا وجه للعدول إلى المجاز، كما روي من زفرتها وهجومها على الناس في الموقف، وجرّها الملائكة بالسلاسل، وقولها: «جُزْ يا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي». ونحو ذلك مما يدلّ على حياتها الحقيقية وإدراكها.

والمعنى: أي وأنذر قومك: يوم نقول لجهم هل امتلأت بما ألقي إليك فوجاً بعد فوج؟ فتقول: لا مزيد بع ذلك، وفي هذا بيان أنها مع اتساعها، وتباعد أقطارها يطرح فيها من الجِنة والناس جماعات بعد جماعات، حتى تمتلىء، ولا تقبل الزيادة.

وقرأ الجمهور: ﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ نافع والأعرج وشيبة وأبو بكر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعمش: ﴿يقول﴾ بياء الغيبة، وقرأ عبد الله والحسن والأعمش أيضاً: ﴿يقال﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿أقول﴾ بالهمزة.

الإعراب

﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

﴿قٓ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة قاف إن قلنا: إنه علم على السورة، والجملة: مستأنفة، وإن قلنا: من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.. فلا محل له من الإعراب؛ لأنّ الإعراب فرع عن المعنى، والمعنى غير معلوم لنا. ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿القرآن﴾: مقسم به مجرور

بواو القسم. ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾: صفة لـ ﴿القرآن﴾، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالقرآن المجيد، وجواب القسم: محذوف، دلّ عليه ما بعده، تقديره: إنك جئتهم منذراً بالبعث، فلم يقبلوا، بل عجبوا، وقيل: هو مذكور، واختلفوا فيه، فقيل: هو ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾، وقيل: هو قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ والأول أولى وأرسخ عرفاً في البلاغة، وقدّره أبو البقاء: لتبعثنّ، أو لترجعنّ، على ما دلّ عليه سياق الآيات. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، أضرب به عن جواب القسم المحذوف لبيان حالتهم الزائدة في الشناعة والقبح. ﴿عَجِبُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جواب القسم المحذوف. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول به في محل النصب بـ ﴿أَن﴾: المصدرية. ﴿مُّنذِرٌ﴾: فاعل. ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ ﴿مُّنذِرٌ﴾. والجملة الفعلية. مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: أي: بل عجبوا مجيء منذر إياهم؛ أي: من مجيئه. ﴿فَقَالَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قال الكافرون﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عَجِبُوٓاْ﴾. ﴿هَٰذَا شَىْءٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿عَجِيبٌ﴾: صفة ﴿شَىْءٌ﴾. والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَءِذَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على الجواب المحذوف، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مِتْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب المحذوف المدلول عليه بما بعده؛ أي: أإذا متنا وكنا تراباً نرجع ونبعث؛ أي: نبعث ونرجع وقت موتنا وكوننا تراباً. ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على ﴿مِتْنَا﴾. وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بَعِيدٌ﴾: صفة ﴿رَجْعٌۢ﴾. والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به؛ لأنّ علم بمعنى

عرف. ﴿نَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿نَنقُصُ﴾. والجملة الفعلية: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما تنقصه الأرض. ﴿وَعِندَنَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿عندنا﴾: خبر مقدم. ﴿كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿حَفِيظٌ﴾: صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿عَلِمْنَا﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب إضراباً انتقالياً مما هو شنيع إلى ما هو أشنع وأقبح، وهو تكذيب النبوّة بعد إنكار البعث. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق به، والجملة الإضرابية: معطوفة على جملة الإضراب في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾، ﴿جَآءَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾. ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِىٓ أَمْرٍ﴾: خبر، ﴿مَّرِيجٍ﴾: صفة ﴿أَمْرٍ﴾ والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا۟﴾: عطف اسمية على فعلية.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أغفلوا فلم ينظروا، والجملة المحذوفة: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَنظُرُوٓا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُوٓا۟﴾، ﴿فَوْقَهُمْ﴾: حال مؤكدة من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول ثان مقدم لـ ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾، أو في محل النصب حال من مفعول ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ وهي معلقة بالنظر قبلها. ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، وجملة ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾: بدل من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهَا﴾: خبر مقدم. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿فُرُوجٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل

النصب حال من مفعول ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الأرض﴾: معطوف على محل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو النصب على المفعولية. ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب حال من ﴿الأرض﴾، ولك أن تنصب ﴿الأرض﴾ بفعل محذوف وجوباً، تقديره: ومددنا الأرض مددناها، فهو من باب الاشتغال. ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿ألقينا﴾. ﴿رَوَٰسِيَ﴾ مفعول به، ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿أنبتنا﴾: ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿كُلِّ زَوْجٍۭ﴾: مفعول به. ﴿بَهِيجٍ﴾: صفة لـ ﴿زَوْجٍۭ﴾، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾: مفعولان من أجله لـ ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ وما بعده؛ أي: لتبصير أمثالهم، وتذكير أمثالهم، وقيل: منصوبان بفعل مقدر من لفظهما؛ أي: بصّرناهم تبصرةً، وذكّرناهم تذكرةً، وقيل: حالان من فاعل الأفعال المذكورة؛ أي: مبصّرين ومذكّرين، وقيل: حال من المفعول؛ أي: ذات تبصرة وتذكير لم يراها. ﴿لِكُلِّ﴾: متعلق بـ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ على سبيل التنازع. ﴿عَبْدٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مُّنِيبٍ﴾: صفة لـ ﴿عَبْدٍ﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ أو على ﴿ألقينا﴾. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿نزلنا﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، ﴿مُّبَٰرَكًا﴾: صفة ﴿مَآءً﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نزلنا﴾، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿أنبتنا﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وهو من حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه؛ أي: وحب الزرع المحصود. ﴿وَٱلنَّخْلَ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: حال مقدرة من النخل؛ لأنها في وقت الإنبات لم تكن طوالاً. ﴿لَّهَا﴾: خبر مقدم. ﴿طَلْعٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿نَّضِيدٌ﴾: صفة ﴿طَلْعٌ﴾ والجملة: في محل النصب حال ثانية من النخل الباسقات بطريق الترادف، أو من الضمير في ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ على طريق التداخل. ﴿رِّزْقًا﴾: مفعول لأجله لـ ﴿أنبتنا﴾ أو مفعول مطلق معنوي لـ ﴿أنبتنا﴾ على أنه مصدر من معنى ﴿أنبتنا﴾، أو حال من

﴿جَنَّٰتٍ﴾، وما بعده؛ على تأويله بمرزوقاً، أو ذا رزق. ﴿لِّلْعِبَادِۖ﴾: صفة لـ ﴿رِّزْقًا﴾، أو متعلق به على أنه مصدر. ﴿وَأَحْيَيْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿بَلْدَةً﴾: مفعول به، ﴿مَّيْتًاۚ﴾: صفة ﴿بَلْدَةً﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْخُرُوجُ﴾. مبتدأ مؤخر، والجملة التشبيهية: مستأنفة مفيدة للحصر.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ﴾: فعل ماض. ﴿قَبْلَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة لبيان حقيقة راهنة عن البعث، واتفاق جميع الرسل عليه. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾: معطوف على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وكذا ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ﴾: معطوفات على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾. ﴿﴾: مبتدأ وسوغ الابتداء به قصد العموم، أو إضافته المقدرة؛ أي: كل هذه الأمم. ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿كُلٌّ﴾ وأفرد الضمير نظراً إلى لفظ ﴿كُلٌّ﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر عن ﴿كُلٌّ﴾ والجملة: مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها. ﴿فَحَقَّ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿حق﴾: فعل ماض. ﴿وَعِيدِ﴾: فاعل مرفوع بضمة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة الممنوعة بسكون الوقف؛ لأنه مضاف إلى ياء المتكلم، وأصله: وعيدي، فحذفت الياء، فبقيت الكسرة دليلاً عليها، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿كَذَّبَ﴾ والعائد: محذوف، تقديره: عليهم. ﴿أَفَعَيِينَا﴾ ﴿الهمزة﴾: اللاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أقصدنا الخلق فعجزنا عنه حتى يتوهم أحد عجزنا إعادته، والجملة المحذوفة: مستأنفة مقررة لصحة البعث الذي حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة. ﴿عيينا﴾: فعل وفاعل معطوف على تلك المحذوفة. ﴿بِٱلْخَلْقِ﴾: متعلق بـ ﴿عيينا﴾ ﴿ٱلْأَوَّلِۚ﴾: صفة لـ﴿الخلق﴾ ﴿بَلْ﴾: عاطفة على مقدر مستأنف مسوق لبيان

شبهتهم، وفضح سفسطتهم، والتقدير: هم غير منكرين لقدرتنا، بل هم في خلط وشبهة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِي لَبْسٍ﴾: خبر. ﴿مِّنْ خَلْقٍ﴾: صفة لـ ﴿لَبْسٍ﴾ و﴿جَدِيدٍ﴾: نعت لـ ﴿خَلْقٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿وَنَعْلَمُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿نعلم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ونحن نعلم، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾ ولا يصح أن يكون ﴿نعلم﴾ حالاً بنفسه؛ لأنه مضارع مثبت باشرته الواو، كما في «الكرخي» ولك أن تجعل ﴿الواو﴾: استئنافية، فتكون الجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿تُوَسْوِسُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿نَفْسُهُۥ﴾: فاعل، وجملة ﴿تُوَسْوِسُ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: ضمير ﴿بِهِۦ﴾ ولك أن تجعل ﴿مَا﴾ مصدرية، والتقدير: ونعلم وسوسة نفسه له. ﴿وَنَحْنُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ. ﴿أَقْرَبُ﴾: خبره. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾. ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾ أيضاً ومضاف إليه، والجملة: معطوفة على جملة ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾ أو متعلق باذكر محذوفاً؛ أي: واذكر يا محمد لقومك حين يتلقىٰ المتلقّيان. ﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾: خبر مقدم. ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾: معطوف عليه. ﴿قَعِيدٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية. في محل النصب على الحال من ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿يَلْفِظُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة: مستأنفة. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿قَوْلٍ﴾: مفعول به ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿لَدَيْهِ﴾: ظرف مكان خبر مقدم. ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: مبتدأ مؤخر؛ لأنهما

وصفان لشيء واحد، كأنه قيل: إلا لديه ملك موصوف بأنه رقيب عتيد؛ أي: حافظ حاضر، كقولهم في الخبر: هذا حلو حامض، فالمبتدأ هنا مجموع الوصفين، والجملة الاسمية: في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يَلْفِظُ﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠)﴾.

﴿وَجَاءَتْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿جاءت سكرة الموت﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾؛ أي: حالة كونها متلبسةً بالحق. ﴿ذَلِكَ﴾. مبتدأ. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿كُنتَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿تَحِيدُ﴾. وجملة ﴿تَحِيدُ﴾: خبر ﴿كُنتَ﴾، وجملة ﴿كُنتَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال له في وقت الموت: ذلك الأمر الذي رأيته الآن هو الذي كنت منه تحيد، وتفرّ في حياتك، فلم ينفعك الهرب، وما أنجاك الفرار. ﴿وَنُفِخَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿نفخ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿فِي الصُّورِ﴾: نائب فاعل، والجملة: معطوفة على ﴿جاءت﴾. ﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣)﴾.

﴿وَجَاءَتْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾. ﴿مَعَهَا﴾: خبر مقدم. ﴿سَائِقٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَشَهِيدٌ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية: في محل الرفع صفة لـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أو حال منه على أنّه تخصّص بالإضافة. ﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾: خبره. ﴿مِنْ هَذَا﴾: متعلق بـ ﴿غَفْلَةٍ﴾ والجملة: جواب القسم، وجواب القسم: مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لكل نفس: لقد كنت إلخ. ﴿فَكَشَفْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كشفنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كُنتَ﴾، ﴿عَنكَ﴾: متعلق بـ ﴿كشفنا﴾،

﴿غِطَآءَكَ﴾: مفعول به، ﴿فَبَصَرُكَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿بصرك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿بصرك﴾. ﴿حَدِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿كشفنا﴾: عطف اسمية على فعلية. ﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جاءت كل نفس﴾. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿لَدَىَّ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿عَتِيدٌ﴾. و﴿عَتِيدٌ﴾: صفة لـ ﴿مَا﴾ الموصوفة؛ أي: هذا شيء عتيد لديّ؛ أي: حاضر عندي، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ويجوز أن يكون ﴿لَدَىَّ﴾: صفة أولى لـ ﴿مَا﴾، و﴿عَتِيدٌ﴾: صفة ثانية لها، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو عتيد؛ أي: هذا شيء ثابت لديّ عتيد؛ أي: حاضر، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: موصولة بمعنى الذي. و﴿لَدَىَّ﴾: صلتها. و﴿عَتِيدٌ﴾؛: خبر الموصول، والموصول وصلته: خبر اسم الإشارة، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ بدلاً من ﴿هَٰذَا﴾ موصولة أو موصوفة بـ ﴿لَدَىَّ﴾، و﴿عَتِيدٌ﴾: خبر ﴿هَٰذَا﴾.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَلْقِيَا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، لاتصاله بألف الاثنين، والألف فاعل. ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ ﴿أَلْقِيَا﴾، والجملة: في محل النصب مقول لقول محذوف؛ أي: يقال ألقيا في جهنم. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾: مفعول به. ﴿عَنِيدٍ﴾: صفة لـ ﴿كَفَّارٍ﴾، ﴿مَّنَّاعٍ﴾: صفة ثانية لـ ﴿كَفَّارٍ﴾، ﴿لِّلْخَيْرِ﴾: متعلق بـ ﴿مَّنَّاعٍ﴾، ﴿مُعْتَدٍ﴾: صفة ثالثة له. ﴿مُّرِيبٍ﴾: صفة رابعة. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب بدل من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾، أو في محل الجر بدل من ﴿كَفَّارٍ﴾. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: صلة الموصول. ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾: ظرف في محل المفعول الثاني ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول أول. ﴿ءَاخَرَ﴾: صفة لـ ﴿إِلَٰهًا﴾. ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة. ﴿ألقياه﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ ﴿ألقيا﴾، ﴿ٱلشَّدِيدِ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾. والجملة الفعلية: جملة مؤكدة لجملة قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ توكيداً لفظيًا، ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ، وجملة

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾: خبره، و﴿الفاء﴾: رابطة لشبه الموصول بالشرط في العموم، والأوّل: أرجح.

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جملة مستأنفة، أو جوابية، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها وقعت في جواب قول الكافر حين يلقي في النار: ربّنا أطغاني قريني وشيطاني. قال قرينه وشيطانه: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَطْغَيْتُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على الكافر. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿بَعِيدٌ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾ وجملة الاستدراك معطوفة على جملة قوله: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَخْتَصِمُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والواو: فاعل ﴿لَدَىَّ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿تَخْتَصِمُوا۟﴾. والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿قَدَّمْتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكُم﴾: متعلق بـ ﴿قَدَّمْتُ﴾. ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾: مفعول به لـ ﴿قَدَّمْتُ﴾، و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة الفعلية: في محل النصب حال من فاعل ﴿تَخْتَصِمُوا۟﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: نائب فاعل. ﴿لَدَىَّ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يُبَدَّلُ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: حجازية. ﴿أَنَا۠﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة ﴿ظلام﴾: خبر ﴿مَآ﴾ الحجازية. ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ متعلق بـ ﴿ظلام﴾

والجملة الاسمية: معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿ظلام﴾؛ لأنّه إذا لم يظلم في هذا اليوم.. فنفي الظلم عنه في غيره أولى، أو متعلق باذكر مقدراً؛ أي: واذكر يا محمد لقومك أهوال يوم نقول لجهنم إلخ. ﴿نَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿لِجَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ ﴿نَقُولُ﴾. ﴿هَلِ﴾: حرف استفهام للاستفهام التقريري، فإنّ الله سبحانه يقرّرها بأنها قد امتلأت، ولمّا خاطبها بصورة الاستفهام.. أجابته بصورة استفهام أيضاً، ومرادها الإخبار عن امتلائها، والإقرار به. ﴿ٱمْتَلَأْتِ﴾: فعل وفاعل و﴿التاء﴾: ضمير المؤنثة المخاطبة في محل الرفع فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿نَقُولُ﴾. ﴿وَتَقُولُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تقول﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿جَهَنَّمَ﴾، معطوف على ﴿نَقُولُ﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿مَّزِيدٍ﴾: مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: موجود، والجملة: في محل النصب مقول ﴿تقول﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾؛ أي: ذي المجد والشرف على سائر الكتب على أن يكون للنسب كلابن وتامر، قال الراغب: والمجد: السعة في الكرم، من قولهم: مجدت الإبل: إذا وقعت في مرعى كثير واسع، وصف به القرآن؛ لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية، أو لأنّ من علم معانيه وعمل بما فيه مَجُد عند الله تعالى وعند الناس وشرف، قال الإمام الغزالي رحمه الله: المجيد: هو الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه ونواله، فكان شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال.. سمي مجيداً، وهو الماجد أيضاً، ولكن أحدهما أدل على المبالغة.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ والعجب: نظر النفس لأمر خارج عن العادة.

﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب: الأمر الذي يتعجّب منه، وكذلك العجاب بالضم، والعجّاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة، قال قتادة: عجبهم أن

دعوا إلى إله واحد، وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور، والذي نص عليه القرآن أولى.

﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾؛ أي: بعث. ﴿بَعِيدٌ﴾ عن الأوهام، والرجع متعدّ بمعنى الرد بخلاف الرجوع. ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم.

﴿حَفِيظٌۢ﴾؛ أي: حافظ لتفاصيل الأشياء.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ من مرج الخاتم في أصبعه: إذا جرح، بالجيمين كفرح؛ أي: قلق واضطراب من سعته بسبب الهزال، وفي «المختار»: مرج الأمر والدين: اختلط، وبابه طرب، وأمر مريج. مختلط.

والمعنى: أنهم لا يثبتون على رأي واحد، فتارةً يقولون: شاعر، وتارةً: ساحر، وتارةً: كاهن.

﴿بَنَيْنَٰهَا﴾؛ أي: أحكمنا بناءها، فجعلناها بغير عمد، جمع عماد كأهب جمع إهاب. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾؛ أي: شقوق، جمع فرج، وهو الشقّ بين الشيئين كفرجة الحائط، والفجر: ما بين الرجلين، وكني به عن السوءة، وكثر حتى صار كالصريح فيه، واستعير الفرج للثغر، وكل مخافة، وسمي القباء المشقوق فروجاً، ولبس رسول الله ﷺ فروجاً من حرير ثم نزعه.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ من رسا الشيء يرسو؛ أي: ثبت، والتعبير عنها بهذا الوصف؛ للإيذان بأنّ إلقاءها لإرساء الأرض بها، وفي ﴿رَوَٰسِىَ﴾ إعلال بالقلب، أصله: رواسو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة.

﴿بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسن طيّب من البهجة، وهو حسن اللون، وظهور السرور فيه، وابتهج بكذا؛ أي: سر به سروراً: بأن أثره على وجهه، كما في «المفردات».

﴿مُّنِيبٍ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: منوب، نقلت حركة الواو إلى النون فسكّنت إثر كسرة فقلبت ياءً حرف مدّ. ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾؛ أي: الذي من شأنه أن يحصد، وأصل الحصد: قطع الزرع، والحصيد بمعنى المحصود.

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ البسوق: الطول، يقال: بسق فلان على أصحابه، من باب دخل؛ أي: وطال عليهم في الفضل، وبسقت الشاة ولدت، وأبسقت الناقة: وقع في ضرعها اللبأ قبل النتاج، ونوق بساق من ذلك. اهـ «سمين». وفي «المصباح»: بسقت النخلة بسوقاً، من باب قعد؛ طالت، فهي باسقة، والجمع باسقات وبواسق، وبسق الرجل: مهر في علمه. اهـ. ويجوز أن يكون معنى ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾: حوامل، من أبسقت الشاة: إذا حملت، فيكون من باب أفعل، فهو فاعل.

﴿نَّضِيدٞ﴾؛ أي: متراكب بعضه فوق بعض، يقال: نضدت المتاع بعضه على بعض ألقيته فهو منضود ومنضد، المنضد: السرير الذي ينضد عليه المتاع، ومنه استعير ﴿طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾، كما في «المفردات». ﴿طَلۡعٞ﴾ قال في «بحر العلوم»: والطلع: ما يطلع من النخلة، وهو الكم قبل أن يشق، ويقال لما يظهر من الكم: طلع أيضاً، وهو شيء أبيض يشبه بلونه الأسنان، وبرائحته المني.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ والرس: البئر التي لم تطو؛ أي: لم تبن. ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ والأيكة: الغيضة الملتفّة الشجر. ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ العيُّ بالأمر العجز عنه، يقال: عيّ بالأمر، وعيي به إذا لم يهتد لوجه علمه، وعيي عن حجته يعيا من باب تعب: إذا عجز عنه، وقد يدغم الماضي، فيقال: عيَّ، فالرجل عيٌّ، وعيٌّ على فعل وفعيل، وعيي بالأمر لم يهتد لوجهه، وأعياني بالألف أتعبني، فأعييت يستعمل لازماً ومتعدياً، قال الكسائي: تقول: أعييت من التعب، وعييت من العجز عن الأمر، وانقطاع الحيلة.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾؛ أي: شك شديد وحيرة واختلاط. ﴿مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ يقال: جددت الثوب: إذا قطعته على وجه الإصلاح، وثوب جديد أصله المقطوع، ثم جعل لكل ما حدث إنشاؤه، وخلق جديد، إشارة إلى النشأة الثانية، وقوبل الجديد بالخلق لما كان المقصود بالجديد القريب العهد بالقطع من الثوب.

﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ الوسوسة: الصوت الخفيّ، ومنه: وسواس

الحليّ، والمراد بها هنا: حديث النفس، وما يخطر بالبال من شتى الشؤون.

﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهو عرق كبير في العنق، وللإنسان وريدان، والوريدان: عرقان مكتنفان بصفحي العنق في مقدّمهما متصلان بالوتين، سميّا بذلك؛ لأنهما يردان من الرأس، أو لأنّ الروح تردهما، فالوريد إما بمعنى الوارد، وإما بمعنى المورود، وقال الزمشخري: وهو في القلب الوتين، وفي الظهر الأبهر، وفي الذراع والفخذ الأكحل والنَّساء، وفي الخنصر الأسيلم، وقال أيضاً: وحبل الوريد مثل في فرط القرب، كقولهم: هو منّي مقعد القابلة، ومعقد الإزار، وقال ذو الرمة:

هَــلْ أَغْــدُوَنْ فِــيْ عِــيْــشَــةٍ رَغِــيْــدِ وَٱلْــمَــوْتُ أَدْنَــىٰ لِــيْ مِــنَ ٱلْــوَرِيْــدِ

أي: لا أكون في عيشة واسعة، والحال أنَّ الموت أقرب إلي من الوريد.

﴿قَعِيدٌ﴾؛ أي: مقاعد، كالجليس بمعنى المجالس وزناً ومعنى، وقيل: يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

﴿عَتِيدٌ﴾؛ أي: حاضر، وفي «المصباح»: عتد الشيء بالضم عتاداً بالفتح حضر فهو عتد بفتحتين، وعتيد أيضاً، ويتعدى بالهمزة والتضعيف، فيقال: اعتده صاحبه وعتده: إذا أعده وهيأه، وفي التنزيل: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أصله: جيأ بوزن فعل، قلبت الياء ألفا لتحركها بعد فتح.

﴿تَحِيدُ﴾ أصله: تحيد بوزن تفعل، نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت، فصارت حرف مدّ، من حاد عنه يحيد حيداً من باب باع: إذا مال عنه وفرَّ وهرب.

﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: يوم إنجاز الوعيد والوعد، ففيه اكتفاء.

﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق فيه إعلال بالقلب، أصله: ساوق، قلبت الواو همزةً في الوصف حملاً له على فعله: ساق في الإعلال.

﴿كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الغفلة: معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور، وفي «المفردات»: الغفلة: سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ والغطاء: الحجاب المغطي لأمور المعاد، وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات، والألفة بها، وقصر النظر عليها، قال في «المفردات»: الغطاء: ما يجعل فوق الشيء من لباس ونحوه، كما أنّ الغشاء كذلك، وقد استعير للجهالة، قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا...﴾ الآية. وفيه إعلال بالإبدال، أصله: غطاي، أبدلت الياء همزةً لتطرفها إثر ألف زائدة.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يقال: حددت السكين: رققت حدَّها، ثم يقال لكل حاد في نفسه من حيث الخلقة، أو من حيث المعنى، كالبصر والبصيرة، فيقال: هو حديد النظر، وحديد الفهم، ويقال: لسان حديد، نحو: لسان صارم وماض، وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد.

﴿عَنِيدٍ﴾؛ أي: معاند للحق، وقال السدي: مشتق من العند، وهو عظم يعترض في الحلق، أو معجب بما عنده، كأنه من قولهم: عندي كذا، كما في «عين المعاني». وقال في «المفردات»: العنيد: المعجب بما عنده، والمعاند: المتباهي بما عنده، والعنود: الذي يعند عن القصد؛ أي: يميل عن الحق، ويردُّه عارفاً به.

﴿مُّعْتَدٍ﴾ من الاعتداء، وهو مجاوزة الحق؛ أي: متجاوز للحق ظالم.

﴿مُّرِيبٍ﴾؛ أي: شاك في الله، وفي دينه. ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ القرين هنا الشيطان المقيد له.

﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾؛ أي: لا يجادل بعضكم بعضاً عندي.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: على الطغيان في دار الدنيا في كتبي، وعلى ألسنة رسلي. ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أصله: مزيد بوزن مفعل بكسر العين مصدر ميمي، أو اسم مكان، نقلت حركة الياء فيه إلى الزاي، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مدّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ لما فيه من وصف الشيء بوصف صاحبه؛ لأنّ المجد حال المتكلّم.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والإضمار في موضع الإظهار، في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ فإضمار الكافرين أولاً؛ للإشعار بتعيّنهم بما أسند إليهم من المقال، وأنه إذا ذكر شيء خارج عن سنن الاستقامة.. انصرف إليهم، إذ لا يصدر إلا عنهم، فلا حاجة إلى إظهار ذكرهم، وإظهارهم ثانياً؛ للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ لاستبعاد البعث بعد الموت.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ مثل علمه تعالى بكلّيات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء.

ومنها: الإضراب الانتقالي، من بيان شناعتهم السابقة، إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، في قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو تكذيبهم للنبوّة الثابتة بالمعجزات الباهرة، فالأفظعية لكون الثاني تكذيباً للأمر الثابت من غير تدبّر، بخلاف الأول، فإنه تعجّب.

ومنها: الإتيان بالكلمة المفيدة للتوقّع في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إشعاراً بأنهم علموا بعد علو شأنه، وإعجازه الشاهد على حقّيته، فكذّبوا به بغياً وحسداً.

ومنها: الإتيان بصيغة التفعيل في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لإفادة تكرير النزول.

ومنها: ذكر المحل وإرادة الحال في قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: أشجاراً ذوات ثمرات، كما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ومنها: حذف الموصوف، وإقامة صفته مقامه، في قوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ فحذف الموصوف للعلم به، وأصله: وحب الزرع المحصود.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿ٱلْحَصِيدِ﴾ فإنه مجاز باعتبار الأول، لأنّ المعنى: وحبّ الزرع الذي شأنه أن يحصد.

ومنها: تخصيص إنباته بالحبّ في قوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾؛ لكونه المقصود بالذات.

ومنها: تخصيص النخل بالذّكرِ في قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ مع اندراجها في الجنات؛ لبيان فضلها على سائر الأشجار.

ومنها: توسيط الحبّ بين جنّات والنخل؛ لتأكيد استقلالها، وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾؛ لأنّ النضيد في الأصل: السرير الذي ينضد عليه المتاع، فاستعير للطلع النضيد.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ شبه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

وفيه أيضاً: تقديم الخبر للقصد إلى الحصر، كما في «أبي السعود».

ومنها: تنكير ﴿خَلْقٍ﴾ في قوله: ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لتفخيم شأنه، والإشعار بخروجه عن حدود العادات، أو الإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه، ويهتم بمعرفته، ولا يقعد على لبس.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ مثّل علمه تعالى بأحوال العبد، وبخطرات النفس بحبل الوريد القريب من القلب، وهو تمثيل للقرب بطريق الاستعارة، كقول العرب: هو مني مقعد القابلة، وهو منّي معقد الإزار.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ حيث شبه العرق بواحد من الحبال من حيث الهيئة، ثم استعار له اسمه.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أصله: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه.

ومنها: الطباق بين اليمين والشمال، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ حيث استعار لفظ السكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته، بجامع إذهاب العقل في كلٍ، وإنما لم يجعل الموت استعارة بالكناية، ثمّ إثبات السكرة له، تخييلاً؛ لأنّ المقام أدعى للاستعارة التحقيقية. كذا في «روح البيان».

ومنها: التعبير عن وقوعها بالماضي، إيذاناً بتحقّقها، وغاية اقترابها، حتى كأنه قد أتت وحضرت، كما قيل: قد أتاكم الجيش؛ أي: قرب إتيانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ حيث استعار الغفلة للجهالة بجامع مَنْع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ حيث استعار الغطاء للغفلة عن أمور المعاد؛ لأنّ الغطاء حقيقة في كل ما يجعل فوق الشيء من لباس ونحوه، فاستعاره للغفلة والجهالة بجامع الستر في كلٍّ.

ومنها: الجناس الناقص بين: ﴿عَنِيدٍ﴾، و﴿عَتِيدٌ﴾ لتغاير حرفي النون والتاء.

ومنها: توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلّف به، مثل: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾، ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية لما فيه من جميل الوقع على السمع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] الحوار بين الكافر وقرينه من الشياطين، واعتذار الكافر، ورد القرين عليه، وأنَّ الله سبحانه نهاهم عن الاختصام لديه؛ لأنه لا فائدة فيه بعد أن أوعدهم.. ذكر أن الجَنَّة تكون قريبة من المتقين، بحيث يرونها رأي العين، فتطمئن إليها نفوسهم، وتثلج لمرآها صدورهم، ويقال لهم: هذا هو الثواب الذي وعدتم به على ألسنة الأنبياء والرسل، وهو دائم لا نفاد له، ولا حصر فكل ما يريدون من لذّة ونعيم فهو حاضر، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمَّا أنذرهم[2] بما بين أيديهم من اليوم العظيم، والعذاب الأليم.. أنذرهم بما يعجل لهم في الدنيا من ضروب العذاب،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

سنّة الله فيمن تقدَّمهم من المكذبين قبلهم ممن ساروا في البلاد طولاً وعرضاً، وكانوا ذوي قوّة وأيدٍ، ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئاً، ووسط بين ذلك ذكر المتقين وما يلاقونه من النعيم؛ ليكون أمرهم بين الخوف والطمع، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند، وحال الشكور العابد، ثم ذكر أنّ هذا عظة وذكرى لكل ذي لب واعٍ سميعٍ لما يلقى إليه، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض في ستة أطوار مختلفة، وما أصابه تعب، ولا لغوب كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ ثمّ أمره بالصبر على ما يقولون، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار، فها هو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور، وسمع صوت الداعي لذلك بعد النفخ في الصور، وتشققت الأرض سراعاً، وخرج الناس من القبور، وما ذلك بالصعب على ربّ العالمين، خالق السموات والأرض، وإنا لنعلم ما يقول المشركون في البعث والنشور، فدعهم في غيّهم يعمهون، فما أنتَ عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بهذا اليوم، ومافيه من هول، إن أنت إلا نذير، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابي وشديد وعيدي، ولا تنفع العظة إلا ذوي الأحلام الراجحة والقلوب الواعية.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[1]: ما أخرجه الحاكم وصحّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ اليهود أتت رسول الله ﷺ، فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق في أول ساعة الآجال حتى يموت من مات، وفي الثانية ألقىٰ الآفة على كل شيء

(١) لباب النقول.

مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة خلق آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة» قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال ثم استوى على العرش، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: ثم استراح، فغضب النبيّ ﷺ غضباً شديداً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ. . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ. . .﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير من طريق عمرو بن قيس الملائي، عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله، لو خوَّفتنا، فنزلت هذه الآية: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ. . .﴾ ثمّ أخرج عن عمر مرسلاً مثله.

التفسير وأوجه القراءة

ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين. . شرع في بيان حال المؤمنين، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: قربت الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي تقريباً ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أو مكاناً غير بعيد عنهم، بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها قبل دخولها من فنون المحاسن، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبتهون بأنهم محشورون إليها، فائزون بها، وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد[1] للإزلاف، وانتصابه: إما على المصدرية، أو على الظرفية، كما مرّت الإشارة إليه، أو على الحالية المؤكّدة؛ أي: حال كونها غير بعيد؛ أي: شيئاً غير بعيد، كقولك هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل، إلى غير ذلك من أمثلة التوكيد، فالإزلاف تقريب الرؤية، وغير بعيد تقريب الدخول، فإنّهم يحاسبون حساباً يسيراً، ومنهم من لا يحاسب أصلاً، ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر الذي يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث، كالزئير والضليل، أو لتأويل الجنة بالبستان، وقيل: المعنى: أنها زينت قلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب، فصارت قريبة من قلوبهم، والأول أولى، والإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى الجنة التي أزلفت لهم على معنى هذا الذي ترونه من فنون نعيمها ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل، والجملة الاسمية: مقول لقول محذوف،

---

(١) روح البيان.

وقع حالاً من المتقين؛ أي: يقال لهم: هذا ما توعدون.

والمعنى[1]: وأزلفت الجنة للمتقين، حال كون أولئك المتقين مقولاً لهم من قبل الله، أو على ألسنة الملائكة عند ما شاهدوا الجنة ونعيمها هذا المشاهد، أو هذا الثواب، أوهذا الإزلاف، وتذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر، أو هو إشارة إلى الجنة والتذكير لما أنّ المشار إليه هو المسمى من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه، فضلاً عن تذكيره وتأنيثه، فإنهما من أحكام اللفظ العربي، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وفي «التأويلات النجمية»: هذا إشارة إلى مقعد صدق، ولو كانت الإشارة إلى الجنة لقال: هذه. انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بالتاء خطاباً للمؤمنين، وابن كثير وأبو عمرو: بياء الغيبة؛ أي: هذا القول هو الذي وقع الوعد به، وهي جملة اعتراضية بين المبدل منه والبدل.

ومعنى الآية: أي وأدنيت الجنة للذين اتقوا ربّهم، واجتنبوا معاصيه بحيث تكون بمرأى العين منهم، إكراماً لهم واطمئناناً لنفوسهم، فيرون ما أعد لهم من نعيم وحبور ولذّة وسرور لا نفاد له ولا فناء، وتقول لهم الملائكة: هذا هو النعيم الذي وعدكم به ربّكم على ألسنة رسله، وجاءت به كتبه.

ثم بين المستحق لهذا النعيم، فقال: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من المتقين، بإعادة الجار؛ أي: وأزلفت الجنة للمتقين لكل أوّاب منهم؛ أي: رجّاع إلى الله؛ أي: كثير الرجوع إلى الله بالتوبة، فأوّلاً يرجع من الشرك إلى التوحيد، وثانياً من المعصية إلى الطاعة، وثالثاً من الخلق إلى الحقّ، وقيل: هو المسبح، وقيل: هو الذاكر لله في الخلوة، قال الشعبي ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة، فيستغفر الله منها، وقال عبيد بن عمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله فيه.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: حافظ لتوبته من النقض، ولعهده من الرفض، أو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها، وقال قتادة: هو الحافظ لما استودعه من حقّه ونعمته، وقيل: هو الحافظ لأمر الله، وقال سهل رضي الله عنه: الأوَّاب: هو الراجع إلى الله تعالى بقلبه من الوسوسة إلى السكون إلى الله الحفيظ المحافظ على الطاعات والأوامر، وقال المحاسبيّ: الأوّاب: الراجع بقلبه إلى ربّه، والحفيظ: الحافظ قلبه في رجوعه إليه أن لا يرجع منه إلى أحد سواه، وقال الوراق: هو المحافظ لأوقاته وخطراته؛ أي: الخطرات القلبية والإلهامات الروعية، وفي الحديث: «من حافظ على أربع ركعات في أول النهار.. كان أوّاباً حفيظاً».

﴿مَّنْ﴾: بدل أو عطف بيان من ﴿كل أوّاب﴾ وقيل: يجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من المتقين، وفيه نظر[1]؛ لأنّه لا يتكرّر البدل والمبدل منه واحد؛ أي: وأزلفت الجنة لمن ﴿خَشِيَ﴾ وخاف ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ سبحانه حال كونه متلبساً ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ عن الناس، قال الضحاك والسدي: يعني: في الخلوة، حيث لا يراه أحد، وقال الحسن: إذا أرخى الستر، وأغلق الباب. والجار والمجرور: متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ﴿خَشِيَ﴾ أو مفعوله أو صفة لمصدره؛ أي: خشية متلبسة بالغيب حيث خشي عقابه وهو غائب عنه، قال بعضهم: والخشية خوف يشوبه تعظيم، قالوا: ومن رزق الخشية لم يعدم الإنابة، ومن رزق الإنابة لم يعدم التفويض والتسليم، ومن رزق التفويض والتسليم.. لم يعدم الصبر على المكاره، ومن رزق الصبر على المكاره.. لم يعدم الرضىٰ.

والتعرض لعنوان الرحمانية[2]؛ للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته، أو بأنّ علمهم بسعة رحمته لا يصدهم عن خشيته، وأنهم عاملون بموجب قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَ﴾ ربّه يوم القيامة ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾؛ أي: راجع إلى الله تعالى مخلص

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

لطاعته، وقيل: المنيب: المقبل على الطاعة، وقيل: السليم من أمراض القلب، وصف[1] القلب بالإنابة مع أنها وصف المكلف لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى؛ أي: لا عبرة للإنابة والرجوع إلا إذا كان من القلب.

والمراد: الرجوع إلى الله تعالى بما يحبّ ويرضى، وفي «التأويلات النجمية»: بقلب منيب إلى ربّه، معرض عمَّا سواه، مقبل عليه بكليته.

وقوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ بتقدير القول؛ أي: يقال لهم: ادخلوها، والجمع باعتبار معنى ﴿مَنۡ﴾ وقوله: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾: متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ﴿ادخلوها﴾؛ أي: يقال لهم من جهة الله سبحانه: ادخلوا الجنة حالة كونكم متلبسين بسلامة من العذاب، وزوال النعم، وحلول النقم أو بتسليم من جهة الله وملائكته عليكم؛ أي: مسلماً عليكم، أو سلم بعضكم على بعض.

والمعنى: أي[2] هذا الثواب للمتقين الذين يرجعون من معصية الله إلى طاعته تائبين من ذنوبهم، ويلقون الله بقلوب منيبة إليه خاضعة له، وتقول لهم الملائكة تكرمةً لهم: ادخلو الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار، فلا خوف عليكم، ولا أنتم تحزنون.

ثم يبشرون، ويقال لهم: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم الذي حصل فيه الدخول ﴿يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ والدوام في الجنة إذ لا انتهاء له أبداً، فاطمئنوا، وقروا عيناً فهذا يوم الخلود الذي لا موت بعده، ولا ظعن ولا رحيل، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الزمان الممتد الذي وقع في بعض منه الدخول المتحقق فيه، تقديره: الخلود إذ لا انتهاء له، فإن قيل[3]: المؤمن قد علم في الدنيا أنه إذا دخل الجنة.. خلد فيها، فما فائدة هذا القول؟

فالجواب من وجهين:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

الأول: أنّ الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ في الدنيا إعلاماً وإخباراً، وليس ذلك قولاً يقوله عند قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾.

الثاني: أنّ اطمئنان القلب بالقول أكثر. اهـ «كرخي».

والخلود في الجَنَّة[1] بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها من غير اعتراض الكون والفساد عليها، وقال سعدي المفتي: ولا يبعد والله أعلم أن تكون الإشارة إلى زمان السلم، فتحصل الدلالة على أنَّ السلامة من العذاب، وزوال النعم حاصلة لهم مؤبّداً مخلّداً لا أنها مقتصرة على وقت الدخول.

ثم زاد في البشرى، فقال: ﴿لَهُم﴾؛ أي: للمتقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ من فنون المطالب، كائناً ما كان سوى ما تقتضي الحكمة حجره، وهو ما كان خبيثاً في الدنيا أبداً كاللواطة ونحوها، فإنهم لا يشاؤونها؛ لأنّ الله سبحانه يعصم أهل الجنة من شهوة محال أو منهيّ عنه. ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة، متعلق بـ ﴿يَشَآءُونَ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من الموصول، أو من عائده، والأول أولى. اهـ «كرخي».

قال القشيري: يقال لهم: قد قلتم في الدنيا: ما شاء الله كان، فاليوم ما شئتم كان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: أي: عندنا زيادة في النعيم على ما يشاؤون، وهو ما لا يخطر ببالهم، ولا يندرج تحت مشيئتهم، من أنواع الكرامات التي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإنهم يسألون الله سبحانه، حتى تنتهي مسألتهم فيعطيهم ما شاؤوا، ثم يزيدهم من عنده ما لم يسألوه، ولم تبلغه أمانيهم، وقيل: إنّ السحاب تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور، فتقول: نحن المزيد الذي قال الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ والأصح: أن المزيد هو النظر إلى وجه الله الكريم، كما روي بطرق مختلفة، فيجتمعون في كل يوم جمعة، فلا يسألون شيئاً إلا أعطاهم، وتجلى لهم، ويقال ليوم الجمعة في الجنة: يوم المزيد.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أي لهم إجابة لسؤالهم كل ما يشتهون، ثم نزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم، ولم يدر بخلدهم، ونحو الآية قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

ثم خوف الله سبحانه أهل مكة، ومن دان دينهم بما وقع للأمم الماضية، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ كم: خبرية بمعنى عدد كثير، وقعت مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾. و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ مميزها ومبين لإبهامها. ﴿قَبْلَهُمْ﴾؛ أي قبل أهل مكة ﴿مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: من أمة؛ أي: وكثيراً من القرون الذين كذبوا رسلهم أهلكنا قبل قومك يا محمد. ﴿هُمْ﴾؛ أي: أولئك القرون ﴿أَشَدُّ﴾ وأقوى ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من أهل مكة ﴿بَطْشًا﴾؛ أي: أخذاً وبأساً، كعاد وثمود وفرعون، ومحل الجملة: النصب على أنها صفة لكم، وفيه إشارة إلى إهلاك النفوس المتمردة في القرون الماضية إظهاراً لكمال القدرة والحكمة البالغة، لتتأدب به النفوس القابلة للخير، وتتعظ به القلوب السليمة.

وقوله: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ معطوف على ﴿أَهْلَكْنَا﴾ فـ ﴿الفاء﴾[1] لمجرد العطف والتعقيب، من نقب في الأرض إذا ذهب وطاف في أرجائها؛ أي: وكم أهلكنا قبل قومك يا محمد من الأمم المكذبة لرسلها، الموصوفين بشدّة البطش والقوّة، فساروا في البلاد، وطافوا في أرجاء الأرض هرباً من عذابنا حين رأوا أمارته، حال كونهم قائلين: ﴿هَلْ﴾ لنا ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: هل لنا من مفرّ ومهرب ومخلص من أمر الله وعذابه، أو من الموت، فلم يجدوا مفرّاً ولا مهرباً، فـ ﴿مَّحِيصٍ﴾: مبتدأ خبره: مضمر، وهو لهم. و﴿مِن﴾: زائدة، والجملة مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿نقَّبوا﴾.

ويجوز أن يراد: فنقب أهل مكة، وجالوا في أسفارهم، ومسايرهم للتجارة في بلاد القرون، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم، ويحتمل أن تكون ﴿الفاء﴾: سببية، عاطفة على جملة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: دالّة على

---

(١) روح البيان بتصرف.

أنَّ شدّة بطشهم أبطرتهم، وأقدرتهم، على التنقيب؛ أي: فبسبب شدّة بطشهم نقبوا في البلاد، وجالوا فيها، وأذلوها، وقهروا أهلها، واستولوا عليهم، وتصرفوا في أقطارها، فأهلكناهم، فهل لهم من محيص؛ أي: ليس لهم مخلص من عذابي؟ وجملة ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: مستأنفة، واردة لنفي أن يكون لهم محيص؛ يعني: فإن أصرَّ أهل مكة.. فليحذروا من مثل ما حل بالأمم الماضية، فإنَّ الغاية هو الهلاك، والنهاية هو العذاب.

والمعنى[1]: أي وكثير من الأمم التي قبلك أهلكناهم، وكانوا أشدّ من قومك بطشاً، وأكثر منهم قوّة، كعاد وثمود وتبع، فتقلبوا في البلاد، وسلكوا كل طريق ابتغاء للرزق، ولم يجدوا لهم من أمر الله مهرباً ولا ملجأ حين حم القضاء، وهكذا حالكم، فحذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل في الدنيا، والآجل يوم القيامة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ بفتح القاف مشددة، والظاهر: أنّ الضمير في ﴿نقبوا﴾: عائد على ﴿كَمْ﴾؛ أي: دخلوا البلاد من أنقابها وطرقها.

والمعنى: طافوا في البلاد، وقيل: نقروا وبحثوا، والتنقيب: التنقير والبحث، قال امرؤ القيس في معنى التطواف:

وَقَدْ نَقَّبْتُ فِيْ ٱلآفَاقِ حَتَّىٰ رَضِيْتُ مِنَ ٱلْغَنِيْمَةِ بِٱلإِيَابِ

وروي: قد طوفت.

ومثله قول الحارث بن خلدة:

نَقَبُوْا فِيْ ٱلْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ ٱلْمَوْ تِ وَجَالُوْا فِيْ ٱلأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ

﴿فَنَقَّبُواْ﴾ متسبب عن شدة بطشهم، فهي التي أقدرتهم على التنقيب، وقوّتهم عليه، ويجوز أن يعود الضمير في ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ على قريش؛ أي: فنقّبوا في أسفارهم في بلاد القرون، فهل رأوا محيصاً حتى يؤملوه لأنفسهم؟ ويدلّ على عود الضمير

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

لأهل مكة قراءة ابن عباس وابن يعمر وأبي العالية ونصر بن يسار وأبي حيوة والأصمعي عن أبي عمرو: بكسر القاف مشددة على صيغة الأمر لأهل مكة؛ أي: فسيحوا في البلاد وابحثوا، وقرأ ابن عباس والحسن وأبو العالية وأبو عمرو في رواية: ﴿نقبوا﴾: بفتح القاف مخفّفة، وقرىء: بكسر القاف خفيفة؛ أي: نقبت أقدامهم وأخفاف إبلهم، من نقب خف البعير: إذا انتقب ودمي، ويحتمل أن يكون ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ على إضمار القول؛ أي: يقولون: هل من محيص من الهلاك، كما مرّ آنفاً، واحتمل أن لا يكون ثم قول؛ أي: لا محيص من الموت، فيكون توقيفاً وتقريراً واستئنافاً، اهـ من «البحر المحيط».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي[1]: إنَّ فيما ذكر من قصتهم، أو فيما ذكر في هذه السورة، من أولها إلى آخرها من العبر والأخبار، وإهلاك القرى. ﴿لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: لتذكرة وعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ أي: قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها كما ينبغي، فإنَّ من كان له ذلك يعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير.

قال الراغب: قلب الإنسان سمي به لكثرة تقلبه، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به، من الروح والعلم والشجاعة وسائر ذلك، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ أي: علم وفهم. انتهى، وفسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بالعقل، وذلك لأنَّ العقل قوة من قوى القلب، وخادم من خدامه، فمن له أدنى عقل فله ذكرى، وقال أبو الليث: لمن كان له قلب؛ أي: عقل، فكني به عنه. انتهى. قال الفرّاء: وهذا جائز في العربية، تقول: مالك قلب، وما قلبك معك؛ أي: مالك عقل، وما عقلك معك، وقيل[2]: المعنى: لمن كان له حياة، ونفس مميزة، فعبّر عن ذلك بالقلب؛ لأنّه وطنها ومعدن حياتها، ومنه قول امرىء القيس:

أَغَـرَّكِ مِـنِّـيْ أَنَّ حُـبَّـكِ قَـاتِـلِـيْ ... وَأَنَّـكِ مَـهْـمَـا تَـأْمُـرِيْ ٱلْـقَّـلْـبَ يَـفْـعَـلِ

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

وفي «الأسئلة المقحمة»: كيف قال: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾، ومعلوم أنّ لكل إنسان قلباً؟ قلت: إنّ المراد ههنا بالقلب: عقل، كني بالقلب عن العقل؛ لأنه محله ومنبعه كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ وسمعت بعض المشايخ يقول: لمن كان له قلب مستقر على الإيمان، لا ينقلب بالسراء والضرّاء. انتهى.

﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ إلى ما يتلى عليه من الوحي الناطق بما جرى عليهم، فإنَّ من فعله يقف على جلية الأمر، فينزجر عما يؤدي إليه من الكفر، فكلمة ﴿أَوۡ﴾ لمنع الخلو دون الجمع، فإن إلقاء السمع لا يجدي بدون سلامة القلب، كما يلوح به قوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن ذلك الملقي فهو حال من الفاعل. ﴿شَهِيدٌ﴾ من الشهود بمعنى الشاهد؛ أي: حاضر بذهنه ليفهم معانيه؛ لأنّ من لا يحضر ذهنه، فكأنه غائب أو شاهد بصدقه، فيتعظ بظواهره، وينزجر بزواجره.

والمعنى: أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحي الحاكي لما جرى على تلك الأمم، واستمعه والحال أنّ قلبه حاضر فيما يسمع، فإنَّ من لم يحضر قلبه فيما يسمع.. فهو غائب، وإن حضر بجسمه.

والخلاصة: استمع الوعظ بغاية استماعه، حتى كأنه يرمى بشيء ثقيل من علو إلى سفل اهـ «خطيب».

وقرأ الجمهور(١): ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ مبنياً للفاعل و﴿ٱلسَّمۡعَ﴾. نصب به؛ أي: أو أصغى سمعه مفكراً فيه، وقرأ السلمي وطلحة والسدي وأبو البرهشم: ﴿أو أُلقي﴾ مبنياً للمفعول السمع رفع به؛ أي: السمع منه؛ أي: من الذي له قلب.

قال مجاهد وقتادة: هذه الآية في أهل الكتاب، وكذا قال الحسن، وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة.

والمعنى: إنّ فيما تقدّم لتذكرة وعبرة لمن كان له قلب واع، يتدبّر الحقائق، ويعي ما يقال له.

---

(١) البحر المحيط.

ثم أعقب ذلك بذكر ما هو كالدليل على ما سلف، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أوجدنا السموات والأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أصناف المخلوقات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في قدر[1] ستّة أيّام من أيّام أول الدنيا، طول كل يوم ألف سنة من هذه الأيام. الأرض في يومين، ومنافعها في يومين، والسموات في يومين، ولو شاء.. لكان ذلك في أقل من لمح البصر، ولكنّه سن لنا التأنّي بذلك، فإن العجلة من الشيطان، إلا في ستة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت، ودفن الميت إذا حضر، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب وحل، وإطعام الضيف إذا نزل، وتعجيل التوبة إذا أذنب. قال بعضهم: إذا فتح الله عليك بالتصريف.. فأتِ البيوت من أبوابها، وإيّاك والفعل بالهمة من غير أناة، وانظر إلى الحق سبحانه كيف خمر طينة آدم بيديه، وسواه وعدله، ثم نفخ فيه الروح، وعلمه الأسماء، فأوجد الأشياء على ترتيب ونظام، وكان قادراً أن يكون آدم ابتداءً من غير تخمير، ولا شيء مما ذكر.

﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ بذلك الخلق، مع كونه مما لا تفي القوى والقدر ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾؛ أي: من إعياء ولا تعب ولا نصب، فإنه لو كان.. لاقتضى ضعفاً، فاقتضى فساداً، فكان من ذلك شيء على غير ما أردناه، فكان تصرفنا فيه غير تصرفنا في الباقي، وأنتم تشاهدون الكل على حدٍّ سواء من نفوذ الأمر، وتمام التصرف، وفي «التأويلات النجمية»: وما مسَّنا من لغوب؛ لأنها خلقت بإشارة أمر كن كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ فأنَّى يمسه اللغوب، وأنه صمد لا يحدث في ذاته حادث، انتهى. و﴿مِن﴾: زائدة، و﴿لُّغُوبٍ﴾: فاعل، والجملة: إما حالية، أو مستأنفة.

والمعنى[2]: قسماً بربك، إنا خلقنا السموات والأرض، وملأناهما بالعجائب في ستة أطوار مختلفة وما مسنا تعب ولا إعياء، ولا تزال عجائبنا تترى

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

كل يوم، فانظروا إليها، وتأمّلوا في محاسنها، فهي لا تحصى، ولا يبلغها الاستقصاء، وكذبوا اليهود الذين قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أوّلها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش، فنحن لايمسنا لغوب ولا إعياء، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لُغُوبٍ﴾ بضم اللام، وقرأ علي والسلميّ وطلحة ويعقوب: بفتحها، وهما مصدران: الأول مقيس، وهو الضم، وأما الفتح فغير مقيس، كالقبول والولوع والوزوع.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على ما يقوله المشركون في شأن البعث، من الأباطيل التي لا مستند لها إلا الاستبعاد، حيث قالوا: هذا شيء عجيب؛ أي: هذا الذي يقوله محمد: نبعث بعد الموت شيء عجيب بعيد عن العقل، فإنّ من خلق الخلق في تلك المدّة اليسيرة بلا إعياء ولا فتور، قادر على بعثهم، وجزائهم على ما قدّموا من الحسنات والسيئات، أو على ما يقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه، وهذا تسلية للنبي ﷺ، وأمر له بالصبر على ما يقوله المشركون؛ أي: هون عليك ولا تحزن لقولهم، وتلق ما يرد عليك منه بالصبر، وهذا قبل الأمر بقتالهم.

﴿وَسَبِّحْ﴾؛ أي: ونزهه تعالى يا محمد عن العجز عمّا يمكن، وعن وقوع الخلف في أخباره التي من جملتها الإخبار بوقوع البعث، وعن وصفه بما يوجب التشبيه حال كونك متلبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: بحمده على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها، وفي «الخطيب»: فقد كان النبيّ ﷺ مشتغلاً بأمرين:

أحدهما: عبادة الله.

والثاني: هداية الخلق، فلما لم يهتدوا.. قيل له: أقبل على شغلك الآخر،

---

(١) البحر المحيط.

وهو العبادة. اهـ. ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾؛ يعني: وقت صلاة الفجر، ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾؛ يعني: وقت صلاة العصر، وفضيلة هذين الوقتين مشهورة؛ لأنهما وقت تعاقب ملائكة الليل وملائكة النهار، والتسبيح فيهما بمكان، وقيل: المراد[1]: صلاة الفجر، وصلاة العصر، وقيل: الصلوات الخمس، وقيل: صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس، وركعتين قبل غروبها، والأول أولى.

فإن قلت: لم قال هنا: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ وقال في طه: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ بالضمير؟

قلت: لأنّه راعى هناك القياس؛ لأنّ الغروب للشمس كما أنَّ الطلوع لها، فأتى بالضمير لِسَبْقِ المرجع، وراعى هنا الفواصل، فهذا هو الفرق بين الموضعين، فتأمل.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾؛ أي: وسبحه سبحانه وتعالى بعض ساعات الليل، وقيل: هي صلاة الليل، وقيل: ركعتا الفجر، وقيل: صلاة العشاء، والأول أولى. فقوله[2]: ﴿مِنَ ٱلَّيۡلِ﴾: مفعول لفعل مضمر معطوف على ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ يفسره ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ و﴿مِن﴾ للتبعيض، ويجوز أن يعمل فيه المذكور أيضاً، ولا تمنع الفاء من عمل ما بعدها فيما قبلها، كما سيجيء في سورة قريش.

﴿و﴾ سبّحه ﴿أدبار السجود﴾؛ أي: أعقاب الصلوات وأواخرها، جمع دبر، من أدبر الشيء: إذا ولّى، وأدبرت الصلاة: إذا انقضت، والركوع والسجود يعبّر بهما عن الصلاة لأنهما أعظم أركانها، كما يعبّر بالوجه عن الذات، لأنّه أشرف أعضائها.

وقرأ الجمهور - أي: جمهور السبعة - والحسن والأعرج: ﴿وَأَدۡبَٰرَ﴾ بفتح الهمزة، جمع دبر، كطنب وأطناب، وقرأ نافع وابن كثير وحمزة وابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وطلحة، وشبل: بكسرها على المصدر، وقال[3]

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

جماعة من الصحابة والتابعين: أدبار السجود: الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر، وقد اتفق القرّاء السبعة في إدبار النجوم، أنه بكسر الهمزة كما سيأتي، وفي «تفسير المناسبات»[1]: وسبح متلبساً بحمد ربك قبل طلوع الشمس بصلاة الصبح، وما يليق به من التسبيح وغيره، وقبل الغروب بصلاة العصر والظهر كذلك، فالعصر أصل في ذلك الوقت، والظهر تبع لها، ولما ذكر ما هو أدل على الحب في المعبود؛ لأنّه وقت الانتشار إلى الأمور الضرورية، التي بها القوام والرجوع لقصد الراحة الجسدية، بالأكل والشرب واللعب والاجتماع بعد الانتشار، والانضمام بعد الافتراق، مع مافي الوقتين من الدلالة الظاهرة على طيّ الخلق ونشرهم، أتبعه ما يكون وقت السكون المراد به الراحة بلذيذ الاضطجاع والمنام، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: في بعض أوقاته، فسبحه بصلاتي المغرب والعشاء وقيام الليل؛ لأنَّ الليل وقت الخلوات وهي ألذّ المناجاة، ولما ذكر الفرائض التي لا مندوحة عنها على وجه يشمل النوافل من الصلاة وغيرها.. أتبعها النوافل المقيَّدة بها، فقال: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: الذي هو الأكمل في بابه، وهو صلاة الفرض بما يصلي بعده من الرواتب، والتسبيح القول أيضاً.

والمعنى ـ والله أعلم ـ: أن الاشتغال استمطار من المحمود المسبح للنصر على المكذّبين، وأنَّ الصلاة أعظم ترياق للنصر وإزالة النصب، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر.. فزع إلى الصلاة. انتهى، يقال: حزبه الأمر: نابه واشتد عليه، أو ضغطه وفزع إليه: لجأ.

والخلاصة[2]: أي ونزه ربك عن العجز عن كل ممكن كالبعث ونحوه، حامداً له على أنعمه عليك وقت الفجر، ووقت العصر، وبعض الليل، وفي أعقاب الصلوات، وقال ابن عباس: الصلاة قبل طلوع الشمس صلاة الفجر، وقبل الغروب الظهر والعصر، ومن الليل العشاءان، وأدبار السجود النوافل بعد

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الفرائض، روى البخاريّ عن ابن عباس قال: «أمر رسول الله ﷺ أن يسبِّح في أدبار الصلوات كلّها؛ يعني: قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وفي حديث مسلم: تحديد التسبيح بثلاث وثلاثين، والتحميد بثلاث وثلاثين، والتكبير بثلاث وثلاثين، وتمام المئة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، دبر كل صلاةٍ».

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أيها الرسول، أو أيها المخاطب ما أقول لك، وما أخبرك به في شأنّ أهوال يوم القيامة، فمفعول ﴿اسْتَمِعْ﴾: محذوف، والوقف على ﴿اسْتَمِعْ﴾. وفي حذف المفعول تهويل وتفظيع المخبر به، و﴿يَوْمَ﴾ أول كلام مستأنف، عامله: محذوف، تقديره: يعلم المشركون عاقبة كفرهم وتكذيبهم، أو يخرجون من قبورهم.

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ بالحشر، وهو إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس، فينادي بالحشر، والمراد بندائه: نفخه في الصور، سمّي نداء من حيث إنه جعله علماً للخروج وللحشر، وإنما[1] يقع ذلك النداء كأذان المؤذن، وعلامات الرحيل في العساكر، وقيل: هو النداء حقيقةً، فيقف على صخرة بيت المقدس، ويضع أصبعه في أذنيه، وينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزِّقة، والشعور المتفرقة، إنّ الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وقيل: المنادي جبريل، والنافخ إسرافيل، قال الشهاب الخفاجي: وهو الأصح، كما دلت عليه الآثار.

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إلى السماء، وهو صخرة بيت المقدس، فإنَّ بيت المقدس أقرب من جميع الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً، أو ثمانية عشر ميلاً، وهو وسط الأرض، كما قاله علي رضي الله عنه ولا يصح ذلك إلا بوحي، أو من مكان قريب يصل نداؤه إلى الكل على سواء، وفي «كشف الأسرار»: سمي قريباً، لأنّ كل إنسان يسمعه من طرف أذنه، وقيل: من تحت أقدامهم، وقيل:

---

(١) روح البيان.

من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة، ولعل ذلك في الإعادة، مثل: كن في البدء، والله أعلم. وكل ذلك مما لا مستند له من نقلٍ.

وعبارة السمين: قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ هو استماع على بابه، وقيل: هو بمعنى الانتظار، وهو بعيد، فعلى الأول يجوز أن يكون المفعول محذوفاً؛ أي: استمع نداء المنادي، أو نداء الكافر بالويل والثبور، فعلى هذا يكون ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ منصوباً بيخرجون مقدراً مدلولاً عليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ وعلى الثاني يكون ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ مفعولاً به؛ أي: انتظر ذلك اليوم. انتهى.

وقرأ ابن كثير[1] ﴿المنادي﴾ بالياء وصلاً ووقفاً، ونافع وأبو عمرو: بحذف الياء وقفاً، وعيسى وطلحة والأعمش وباقي السبعة: بحذفها وصلاً ووقفاً اتباعاً لخط المصحف، ومن أثبتها فعلى الأصل، ومن حذفها وقفاً فلأنَّ الوقف تغيير يبدل فيه التنوين ألفاً نصباً، والتاء هاءً، ويشدد المخفف، ويحذف في القوافي.

﴿يَوْمَ . . .﴾ إلخ. بدل من ﴿يَوْمَ يُنَادِ . . .﴾ إلخ. ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ أي[2]: الأرواح، وقيل: الأجساد؛ لأنه يمدها أربعين سنة، كما في «عين المعاني». ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾ والصرخة، وهي صيحة البعث التي هي النفخة الثانية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: إما حالٌ من الصيحة؛ أي: متلبسةً بالحق، أو من فاعل ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أي: متلبسين بالحق، أو متعلق بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ على أنَّ الباء للتعدية والعامل في الظرف: هو ما يدل عليه قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم؛ أي: يوم النداء، وسماع صيحة النفخ ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور، وهو من أسماء يوم القيامة، وسمّي يوم العيد يوم الخروج أيضاً تشبيهاً به.

والمعنى: يوم يسمعون الصيحة متلبسةً بالحق الذي هو البعث، يخرجون من القبور إلى المحاسبة، ثم إلى إحدى الدارين، إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا بانقضاء الآجال من غير أن يشاركنا في ذلك أحد، أو نحيي في الآخرة ونميت في الدنيا، والجملة: مستأنفة لتقرير أمر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

البعث. ﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمرجع للمجازاة في الآخرة لا إلى غيرنا، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فليستعدوا للقائنا، فتكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً؛ ﴿إنّ﴾ للتأكيد والاختصاص والتفرد.

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ بدل من ﴿يَوۡمَ﴾ الثاني، أو ظرف للمصير، أو ظرف للخروج.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بإدغام التاء في الشين، وباقي السبعة: بتخفيفها على حذف إحدى التاءين تخفيفاً، وقرىء: ﴿تشقّق﴾ بضم التاء، مضارع شقّقت، على البناء للمفعول، وقرىء: ﴿تنشق﴾ مضارع انشقّت، وقرأ زيد بن عليّ: ﴿تتشقّق﴾ بإثبات التاءين على الأصل؛ أي: يخرجون من قبورهم يوم تتشقّق وتتصدّع وتنفتح ﴿عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: عن الموتى حال كونهم ﴿سِرَاعٗاۚ﴾؛ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي من غير التفات يميناً وشمالاً، وهذا كقوله: ﴿مهطعين إلى الداع﴾ فهو حال من الضمير المجرور، والعامل فيه ﴿تَشَقَّقُ﴾ وقيل: محذوف، تقديره: يخرجون، فهو حال من الواو في ﴿يخرجون﴾، قاله الحوفي، ويجوز أن يكون هذا المقدر عاملاً في ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ﴾ كما مرّ آنفاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإخراج بتشقّق الأرض عنهم ﴿حَشۡرٌ﴾؛ أي: بعث وجمع وسوق ﴿عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾؛ أي: هيّن علينا للحساب والجزاء، فكيف ينكره عاقل؛ أي[2]: نقول: كن فيكون، وهو كلام معادل لقول الكفرة: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾. وتقديم الجار والمجرور على عامله؛ لتخصيص اليسر به تعالى، فإنّ ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته، الذي لا يشغله شأن من شأن، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾. وعبارة أبي حيّان: فصل بين الموصوف وصفته بمعمول الصفة وهو ﴿عَلَيۡنَا﴾؛ أي: يسير علينا، وحسّن ذلك كون الصفة فاصلة.

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إلينا المصير في ذلك اليوم الذي تتصدّع فيه الأرض، فتخرج الموتى من صدوعها مسرعة، وذلك جمع هيّن علينا لا عسر فيه ولا مشقّة.

ثم سلّى رسوله، وهدّد المشركين بقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: بما يقول المشركون من فريتهم على ربهم، وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم قدرته على البعث بعد الموت، وغير ذلك مما لا خير فيه، ففيه تسلية له ﷺ وتهديد لهم. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: على المشركين ﴿بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: بمسلط عليهم تجبرهم، وتقسرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنما أنت مذكر، وهذا كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: لست بمتسلّط عليهم تجبرهم على ما تريد، والآية منسوخة بآية السيف[2].

﴿فَذَكِّرْ﴾ وعظ ﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: بمواعظه ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ أي: من يخاف وعيدي لعصاتي بالعذاب، لأنَّ من لا يخاف الوعيد لكونه غير مصدق بوقوعه لا يذكر، إذ لا تنفع فيه الذكرى، كما قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾. وختمت السورة بقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ كما افتتحت بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ فحصلت المناسبة بين المبتدأ والمختتم.

وقرأ ورش[3]: بإثبات الياء بعد الدال في الوصل.

والمعنى: أي وما أنت بمسلط عليهم تقسرهم على الإيمان، وتسيرهم على ما تهوى وتريد، إنما أنت نذير، وما عليك إلا التبليغ، وعلينا الحساب، ثم أكد أنه مذكر لا مسيطر، وأن التذكير لا ينفع إلا من خشي ربه، فقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ...﴾ إلخ؛ أي[4]: فذكر أيها الرسول بهذا القرآن الذي أنزلته عليك من يخاف وعيدي، الذي أوعدته من عصاني، وخالف أمري؛ أي: بلّغ رسالة ربّك،

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

وما يتذكر بها إلا من يخاف وعيد الله تعالى، وشديد عذابه، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا برّ يا رحيم، وأما من لا يخاف وعيدنا، فنفعل بهم ما يوجبه أقوالهم، وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب، وفنون العذاب.

فائدة: كان[1] رسول الله ﷺ يخطب بسورة قٓ في كثير من الأوقات؛ لاشتمالها على ذكر الله تعالى، والثناء عليه، ثمّ على علمه بما توسوس به النفوس، وما تكتبه الملائكة على الإنسان من طاعة وعصيان، ثم تذكير الموت وسكرته، ثم تذكير القيامة وأهوالها، والشهادة على الخلائق بأعمالهم، ثمّ تذكير الجنة والنار، ثمّ تذكير الصيحة والنشور والخروج من القبور، ثم بالمواظبة على الصلوات.

قال السيوطي في كتاب «الوسائل»: أوّل من قرأ في آخر الخطبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ...﴾ الآية. عمر بن عبد العزيز، ولزمها الخطباء إلى عصرنا هذا، وكان النبيّ ﷺ يقرأ ق، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقرأ: الكافرون والإخلاص، ذكر ذلك ابن الصلاح، وفي الحديث: «من قرأ سورة قٓ... هوَّن الله عليه تارات الموت وسكراته» قيل: تارات الموت إفاقاته وغشياته، كما في «حواشي سعدي المفتي».

الإعراب

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية. ﴿أزلفت الجنة﴾: فعل ونائب

---

(١) روح البيان.

فاعل. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: متعلق بـ ﴿أزلفت﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾: أو مستأنفة. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: منصوب على الظرفية؛ لقيامه مقام الظرف؛ لأنّه صفته؛ أي: مكاناً غير بعيد، وأجاز الزمخشري نصبه على الحال، قال: وتذكيره لأنه على زنة المصدر، والمصادر يستوي فيه المذكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف؛ أي: شيئاً غير بعيد. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. و﴿مَا﴾: خبره، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾، والعائد: محذوف، تقديره: ما توعدونه، والجملة: معترضة بين البدل والمبدل منه، لا محل لها من الإعراب. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، بدل من قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: بتكرار الجار. ﴿حَفِيظٍ﴾: صفة ﴿أَوَّابٍ﴾ ﴿مَّنْ خَشِيَ﴾: بدل من ﴿كل أواب﴾ بعد كون كل بدلاً من المتقين، كما مرّ، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم من خشي الرحمن، وجملة ﴿خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾: صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿بِالْغَيْبِ﴾: حال من المفعول به؛ أي: خشيه، وهو غائب لا يعرفه. ﴿وَجَاءَ﴾: معطوف على ﴿خَشِيَ﴾، ﴿بِقَلْبٍ﴾: حال من فاعل ﴿جاء﴾؛ أي: حال كونه متلبساً بقلب، أو متعلق بـ ﴿جاء﴾. ﴿مُّنِيبٍ﴾ صفة ﴿قلب﴾.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾.

﴿ادْخُلُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مقول لقول محذوف؛ أي: ويقال لهم: ادخلوها. ﴿بِسَلَامٍ﴾: حال من الفاعل؛ أي: سالمين من كل مخوفة، وهي حال مقارنة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. و﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يَشَاءُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من الموصول، أو متعلق بـ ﴿يَشَاءُونَ﴾. ﴿وَلَدَيْنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لدينا﴾: متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَزِيدٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على ما قبلها. ﴿وَكَمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كم﴾: خبريّة بمعنى عدد كثير في محل النصب، مفعول مقدم لـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لذكر إهلاك قرون ماضية. ﴿قَبْلَهُم﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال

من ﴿كم﴾ الخبرية. ﴿مِّن قَرْنٍ﴾: تمييز ﴿كم﴾، و﴿مِن﴾: زائدة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، والجملة: صفة لـ ﴿كم﴾ أو لتمييزها. ﴿مِنْهُم﴾: متعلق بـ ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿بَطْشًا﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب بـ ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿فَنَقَّبُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿نقبوا﴾: فعل وفاعل معطوف على معنى ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ كأنه قيل: اشتد بطشهم فنقبوا، أو معطوف على ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: كم من قرن أردنا إهلاكهم فنقبوا في البلاد هرباً من إهلاكنا وعذابنا. ﴿فِي الْبِلَادِ﴾: متعلق بـ ﴿نقبوا﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿مَّحِيصٍ﴾: مبتدأ، خبره: محذوف، تقديره: هل من محيص لهم، والجملة الاسمية، مقول لقول محذوف حال من فاعل ﴿نقّبوا﴾؛ أي: فنقّبوا في البلاد قائلين: هل من محيص. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿ذكرى﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿لِمَن﴾: متعلق بمحذوف صفة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص. ﴿لَهُ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾: مقدم. و﴿قَلْبٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مِن﴾ الموصولة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هو شهيد﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿أَلْقَى﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ﴾: على وفاعل ومفعول به. ﴿وَالْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾. والجملة: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: متعلق بـ ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مَسَّنَا﴾: فعل ماض ومفعول به.

﴿مِن﴾: زائدة. ﴿لُّغُوبٍ﴾: فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقْنَا﴾ أو حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت إصرارهم على كفرهم، وتماديهم على تعنتهم، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: اصبر. ﴿اصبر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقرّرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: متعلق بـ ﴿اصبر﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَسَبِّحْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد معطوف على ﴿اصبر﴾. ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: سبح متلبساً بحمد ربك. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿سبح﴾. ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: ظرف معطوف على الظرف قبله. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾: متعلق بـ ﴿سبحه﴾. ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة، ﴿سبحه﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿سبح بحمد ربك﴾. ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾: ظرف معطوف على ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾. ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿استمع﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أو على ما بعده، ومفعوله: محذوف، تقديره: واستمع نداء المنادي يوم ينادي. و﴿يَوْمَ﴾: متعلق بـ ﴿استمع﴾. وقيل: تقدير المفعول: ما أقول لك، فيكون ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾: منصوباً بـ ﴿يخرجون﴾ مقدراً مدلولاً عليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾. و﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾ وحذفت ياء ﴿يُنَادِ﴾: في الخطّ تبعاً للرسم العثماني، أو تبعاً للفظ؛ لأنّها حذفت في اللفظ لالتقاء الساكنين. ﴿ٱلْمُنَادِ﴾: فاعل وحذفت الياء منه في بعض القراءات تبعاً للرسم العثماني أيضاً. ﴿مِن مَّكَانٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُنَادِ﴾. ﴿قَرِيبٍ﴾: صفة ﴿مَّكَانٍ﴾، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ الظرف:

بدل من الظرف قبله؛ أعني: يوم يناد المناد، وجملة ﴿يَسْمَعُونَ﴾: مضاف إليه لـ ﴿يَوْمُ﴾. ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من ﴿الواو﴾) في ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أو من الصيحة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿نَحْنُ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، وجملة ﴿نُحْيِۦ﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾ أو خبر ﴿نَحْنُ﴾ والجملة: خبر ﴿إنّ﴾. ﴿وَنُمِيتُ﴾: معطوف على ﴿نُحْيِۦ﴾. ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾: خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿نُحْيِۦ﴾ أو على جملة ﴿إنَّ﴾.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: بدل من الظرف الثاني؛ أعني: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ أو متعلق بـ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾. ﴿تَشَقَّقُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: فاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿تَشَقَّقُ﴾. والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمُ﴾. ﴿سِرَاعًا﴾. حال من الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾: مبتدأ وخبره، والجملة: مستأنفة. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بـ ﴿يَسِيرٌ﴾. و﴿يَسِيرٌ﴾: صفة لـ ﴿حَشْرٌ﴾. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾، ويصح كون ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿أَنتَ﴾: اسمها. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق ﴿بِجَبَّارٍ﴾ و﴿جبار﴾: خبر ﴿مَا﴾ الحجازية، و﴿الباء﴾: زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية: معطوفة على جملة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾. ﴿فَذَكِّرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قلت لك من علمنا بقولهم، وعدم سيطرتك عليهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ذكّر بالقرآن. ﴿ذكّر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر. ﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾: متعلق بـ ﴿ذكر﴾، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَخَافُ﴾: صلتها. ﴿وَعِيدِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه: فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة؛ اجتزاء عنها

بالكسرة، أو للفاصلة، أو اتباعاً للرسم، وهو مضاف، وياء المتكلم المحذوفة: في محل الجر مضاف إليه، مبني على السكون.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾؛ أي: قربت، وأدنيت الجنة، تقول: أزلفه: قرّبه، وأزلف الأشياء: جمعها، وأزلف الدليل القوم: حملهم على التقدم، وأزعجهم مزلفة بعد مزلفة؛ أي: مرحلة بعد مرحلة.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: في مكان غير بعيد منهم، بل هو بمرأى منهم، بحيث ينظرون إليها قبل دخولها، فيكون انتصابه على الظرفية كما مرّ.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذا هو الثواب الذي وعدتم به على ألسنة الرسل.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ الأوَّاب: الرجَّاع الذي يرجع عن المعصية إلى الطاعة، وفي «المفردات»: الأوّاب كالتوّاب، وهو الراجع إلى الله بترك المعاصي، وفعل الخيرات ومنه قيل للتوبة: أوبة، والفرق بين الأوب والرجوع: أنَّ الأوب ضرب من الرجوع، وذلك أنه لا يقال: إلا في الحيوان الذي له إرادة وقصد، والرجوع يقال فيه وفي غيره، آب أوباً وإياباً ومآباً، والمآب مصدر منه، واسم المكان والزمان.

﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: حافظ لحدود الله، وشرائعه، وقال المحاسبي: الأوّاب: الراجع بقلبه إلى ربه، والحفيظ: الحافظ قلبه في رجوعه إليه أن لا يرجع منه إلى أحد سواه، كما مرّ بسطه.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وفي «عين المعاني»: الخشية: انزعاج القلب عند ذكر السيئة وموجبها، وقال الواسطي: الخشية: أرق من الخوف؛ لأنّ الخوف للعامّة من العقوبة، والخشية من نيران الله في الطبع، كما مرّ.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: خاف عقاب ربّه، وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد.

﴿مُّنِيبٍ﴾؛ أي: مخلص مقبل على طاعة الله، قال في «المفردات»: النوب: رجوع الشيء مرّةً بعد أخرى، والإنابة إلى الله: الرجوع إليه بالتوبة، وإخلاص العمل.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾؛ أي: الدوام والبقاء في الجنة، إذ لا انتهاء له أبداً، قال الراغب: الخلود: هو تبرّي الشيء عن اعتراض الفساد، وبقاؤه عى الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم: الأيّام خوالد، وذلك لطول مكثها، لا لدوام بقائها، والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها من غير اعتراض الكون والفساد عليها.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ أي: وعندنا زيادة في النعيم على ما يشاؤون، وقال الراغب: الزيادة أن ينضم إلى ما عليه الشيء من نفسه شيء آخر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ القرن: الجيل من الناس، والقوم المتقرنون في زمان.

﴿فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ قال في «القاموس»: نقَّب في الأرض ذهب، كأنقب ونقب، وعن الأخبار: بحث عنها أو أخبر بها، والنقب: الطريق في الجبل؛ أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب، ويقال لمن طوف في الأرض: نقب فيها، قال أمرؤ القيس:

فَقَدْ نَقَّبْتُ فِيْ ٱلآفَاقِ حَتَّىٰ رَضِيْتُ مِنَ ٱلْغَنِيْمَةِ بِٱلإِيَابِ

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: هل من معدل ومهرب من عذاب الله؟ وفي «القاموس»: حاص عنه يحيص حيصا وحيصة وحيوصا ومحيصا ومحاصا وحيصانا: عدل وحاد كانحاص، أو يقال للأولياء: حاصوا، وللأعداء: انهزموا، والمحيص: المحيد والمعدل والمميل والمهرب، ودابة حيوص نفور، والحيصاء: الضيقة الحياء، وهو هنا اسم مكان من حاص، وأصله: محيص، بوزن مفعل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الحاء، فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مد.

﴿لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكرةً.

﴿قَلْبٌ﴾؛ أي: لبٌ يعي به. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحي. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ أي: حاضر، فهو من الشهود بمعنى الحضور، والمراد به: الفطن، إذ غيره كأنه غائب.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أصله: أيوام، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، وأدغمت فيها الياء.

﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ قال الراغب: اللغوب: التبع والنصب، يقال: أتانا ساعياً لاغباً خائفاً تعباً، وفي «القاموس»: لغب لغباً ولغوباً، كمنع وسمع وكرم: أعيى أشد الإعياء، وفي «المختار»: اللغوب بضمتين: التعب والإعياء، وبابه دخل، ولغب بالكسر لغوباً، لغة ضعيفة، وفي «المصباح»: أنّه من باب قتل.

﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ بفتح الهمزة، جمع دبر بضمتين، من أدبرت الصلاة: إذا انقضت، وأدبار السجود: النوافل بعد المكتوبات، وقيل: الوتر بعد العشاء اهـ «بيضاوي».

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾؛ أي: لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة، والسمع: إدراك المسموع بالإصغاء، والفرق بين المستمع والسامع: أنَّ المستمع: من كان قاصداً للسماع مصغياً إليه، والسامع: من اتفق سماعه من غير قصد إليه، فكل مستمع سامع من غير عكس.

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ وقف ابن كثير على ﴿ينادي﴾ بالياء، والباقون: بدونها، ووجه إثباتها: أنه لا مقتضى لحذفها، ووجه حذفها وقفاً، اتباعاً للرسم، والوقف محل تخفيف، وأما المنادي فأثبت ابن كثير أيضاً ياءه وصلاً ووقفاً، ونافع وأبو عمرو: بإثباتها وصلاً وحذفها وقفاً، وباقي السبعة بحذفها وصلاً ووقفاً، فمن أثبت فلأنّه الأصل، ومن حذف فلاتباع الرسم، ومن خص الوقف بالحذف، فلأنّه محل راحة ومحل تغيير، اهـ «سمين».

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: بحيث لا يخفى الصوت على أحد. ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾ وهي صيحة البعث التي هي النفخة الثانية، والصيحة والصياح: الصوت بأقصى

الطاقة. ﴿وَنُمِيتُ﴾ أصله: نموت بوزن نفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ أصله: المصير بوزن مفعل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الصاد فسكنت فصارت حرف مدّ. ﴿تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: تتصدّع، بحذف إحدى التاءين من تتشقق مع تخفيف الشين، وقرىء: بتشديدها بإدغام التاء الثانية فيها.

﴿سِرَاعًاۚ﴾ جمع سريع، والسرعة: ضد البطء، ويستعمل في الأجسام والأفعال، ويقال: سرع فهو سريع، وأسرع فهو مسرع.

﴿بِجَبَّارٍۖ﴾ من الجبر، وأصل الجبر: إصلاح الشيء بضرب من القهر، والجبّار في اسم الله تعالى هو: الذي جبر العباد على ما أراد، وهو صيغة مبالغة من جبر الثلاثي، فإنّ فعالاً إنما يبنى من الثلاثي نحو الفتّاح والعلام، ولم يجيء من أفعل بالألف إلا دراك. ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ والوعيد: التخويف بالعذاب، ويستعمل في نفس العذاب.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد في قوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ لأنّه تأكيد للإزلاف، كقولهم: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

ومنها: التعرض لعنوان الرحمانية، في قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته، أو بأنّ علمهم بسعة رحمته لا يصدّهم عن خشيته، وأنهم عاملون بموجب قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

ومنها: وصف القلب بالإنابة، في قوله: ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مع أنها وصف المكلّف، لما أنّ العبرة برجوعه إلى الله تعالى؛ أي: لا عبرة للإنابة والرجوع، إلا إذا كان من القلب، والمراد بها: الرجوع إلى الله تعالى بما يحبّ ويرضى.

ومنها: المبالغة في الثناء على الخاشي، في قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنّه إذا خشيه وهو عالم بسعة رحمته.. فناهيك بخشيته التي ما بعدها خشية، كما أثنىٰ عليه بالخشية، مع أنَّ المخشي عنه غائب.

ومنها: إطلاق اسم الجزء على الكل، في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إذا فسّرناه بالصلاة؛ أي: صلِّ حامداً لربّك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾.

ومنها: تكرار ﴿يَوْمَ﴾ في قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾؛ تفخيماً لشأنه، وتهويلاً منه.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾.

ومنها: الفصل بين الموصوف والصفة بمتعلقها، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص؛ لأنّ تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر؛ أي: لا يتيسّر ذلك إلا على الله سبحانه، اهـ «خطيب».

ومنها: التعبير بالمستقبل عن الماضي، في قوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لإفادة الاستمرار والتجدّد.

ومنها: تكرير الضمير في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ﴾ لإفادة التأكيد والاختصاص والتفرّد.

ومنها: توافق الفاصلة في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ لأنّه من المحسنات البديعية، كما مرّ.

ومنها: الحذف والزيادة في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موجز ما تضمّنته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ - إنكار المشركين للنبوّة والبعث.

٢ - الحثّ على النظر في السماء وزينتها، وبهجة بنائها، وفي الأرض وجبالها الشامخات، وزروعها النضرات، وأمطارها الثجاجات.

٣ - العبرة بالدول الهالكات، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبّع، وما استحقوا من الوعيد والعذاب.

٤ - تقريع الإنسان على أعماله، وأنه مسؤول عن دخائل نفسه في مجلس أنسه، وعند إخوته، وفي خلوته، وأنه محوّط بالكرام الكاتبين يحصون أعماله، ويرقبون أحواله حتى إذا جاءت سكرته، وحانت منيّته.. حوسب على كل قول وكل عمل، وشهدت عليه الشهود، وكشفت له الحجب.

٥ - إنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً.

٦ - إنّ القرآن عظة وذكرى لمن كان له قلب واع، يستمع ما يلقى إليه.

٧ - تسلية رسوله ﷺ على ما يقول المشركون، من إنكار البعث، وتهديدهم على ذلك.

٨ - أمر رسول الله ﷺ بالتسبيح، آناء الليل وأطراف النهار.

٩ - أمر رسول الله بالتذكير بالقرآن من يخاف وعيد الله تعالى، ويخشى عقابه[1].

والله أعلم

* * *

---

(١) وهذا آخر ما أردناه من شرح هذه السورة الكريمة، وقد فرغت منها قبيل المغرب يوم السبت، الثاني عشر من شهر الربيع الآخر، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة ١٢/ ٤/ ١٤١٥ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين يا ربّ العالمين.

سورة الذاريات

سورة الذاريات مكيّة، نزلت بعد الأحقاف، قال القرطبي في قول الجميع، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت سورة الذاريات بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وهي ستون آيةً[1]، وثلاث مئة وستون كلمةً، وألف ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً، سمّيت بالذاريات؛ لذكر الذاريات فيها.

مناسبتها لما قبلها من وجهين[2]:

الأوّل: إنّه قد ذكر في السورة السابقة، البعث والجزاء والجنة والنار وافتتح هذه بالقسم بأنّ ما وعدوا من ذلك صدق، وأنّ الجزاء واقع.

الثاني: أنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال، وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل.

وقال أبو حيان[3]: مناسبتها لآخر ما قبلها أنه قال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾. وقال في أوّل هذه بعد القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم: وفيها من المنسوخ آيتان:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ (الآية ١٩)، نسخ ذلك بآية الزكاة.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ (٥٤ الآية). نسخت بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

ها هنا أمور يجمل بك أن تفهمها[1]:

١ ـ بعد أن بيّن الحشر بدلائله وقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ثمّ أصروا على ذلك غاية الإصرار، لم يبق إلا اليمين فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾.

٢ ـ أنّ الأيمان التي حلف بها الله سبحانه في كتابه، كلها دلائل على قدرته، أخرجها في صورة الأيمان، كما يقول القائل للمنعم عليه: وحقّ نعمك الكثيرة، إني لا أزال أشكرك، فيذكر النعم وهي سبب لدوام الشكر، ويسلك بها مسلك القسم، وجاءت الآيات هكذا مصدرة بالقسم؛ لأنّ المتكلم إذا بدأ كلامه

(١) المراغي.

به.. علم السامع أنّ ها هنا كلاماً عظيماً يجب أن يصغي إليه، فإذا وجَّه همَّه لسماعه.. خرج له الدليل والبرهان المتين في صورة اليمين.

٣ - في السورة التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف المقطعة، كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة: الوحدانية والرسالة والحشر، وهي التي يتمّ بها الإيمان، فأقسم لإثبات الوحدانية في سورة الصافّات فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾. وأقسم في سورتي النجم والضحى لإثبات الرسالة، فقال في الأولى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾، وقال في الثانية: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾. وأقسم في سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء.

٤ - في السور التي أقسم فيها لإثبات الوحدانية، أقسم بالساكنات، فقال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾. وفي السور التي أقسم فيها لإثبات الحشر أقسم بالمتحركات، فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾؛ لأنّ الحشر فيه جمع وتفريق، وهو بالحركة أليق.

٥ - كانت العرب تحترز عن الأيمان الكاذبة، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع، وقد جرى النبيّ ﷺ على سننهم، فحلف بكل شريف، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً، وكانوا يعلمون أنه لا يحلف إلا صادقاً، وإلا أصابه شؤم الأيمان، وناله المكروه في بعض الأيمان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] حال المفترين الذين أنكروا يوم الدين، وكذّبوا بالبعث والنشور، وأنكروا نبوّة محمد ﷺ، وعبدوا مع الله سبحانه غيره من وثن أو صنم.. أردف ذلك بذكر حال المتقين، وما يتمتّعون به من النعيم المقيم، في جنّات تجري من تحتها الأنهار، جزاء إحسانهم في أعمالهم، وقيامهم في الليل للصلاة، والاستغفار بالأسحار، وإنفاقهم أموالهم للفقراء

---

(١) المراغي.

والمساكين، ونظرهم في دلائل التوحيد، التي في الآفاق والأنفس، وتفكيرهم في ملكوت السموات والأرض، مصدقين قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾. ثمّ أقسم بربّ السماء والأرض، إنّ ما توعدون من البعث والجزاء لحق، لا شك فيه، كما لا شك في نطقكم حين تنطقون.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر إنكار قومه بالبعث والنشور، حتى أقسم لهم بعزّته أنه كائن لا محالة.. سلّىٰ رسوله ﷺ، فأبان له أنه ليس ببدع في الرسل، وأنّ قومه ليسوا ببدع في الأمم، وأنهم إن تمادوا في غيّهم، وأصرّوا على كفرهم، ولم يقلعوا عمّا هم عليه.. فسيحل بهم مثل ما حلّ بمن قبلهم من الأمم الخالية.

وذكر إبراهيم عليه السلام من بين الأنبياء؛ لكونه شيخ المرسلين، وكون النبيّ ﷺ على سننه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ولأنّ العرب كانت تجله وتحترمه، وتدعي أنها على دينه.

وأتى[١] بالقصص بأسلوب الاستفهام؛ تفخيماً لشأن الحديث، كما تقول لمخاطبك: هل بلغك كذا وكذا؟ وأنت تعلم أنه لم يبلغه؛ توجيهاً لأنظهاره حتى يصغي إليه ويهتم بأمره، ولو جاء على صورة الخبر، لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة تنبيهاً إلى أنّ الرسول لم يعلم به إلا من طريق الوحي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[٢]: ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية: أنّ رسول الله ﷺ بعث سريّة، فأصابوا وغنموا، فجاء قوم بعد ما فرغوا، فنزلت

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

هذه الآية: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾؛ أي: أقسمت لكم يا أهل مكة بالرياح التي تذروا التراب ونحوه، وتطيره من الأرض ﴿ذَرۡوٗا﴾؛ أي: إطارة وإثارة، إنما توعدون لواقع لا محالة، يقال: ذرت الريح الشيء ذروا وأذرته: أطارته وأذهبته، وانتصاب ﴿ذَرۡوٗا﴾ على المصدرية، والعامل فيه: اسم الفاعل، والمفعول: محذوف، كما قدّرناه؛ أعني: التراب ونحوه، وفي «البيضاوي»: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾، يعني: الرياح تذرو التراب وغيره، أو النساء الولود، فإنّهنّ يذرين الأولاد. اهـ. والأول أولى؛ لأنّه أدل على القدرة، وروي عن كعب الأحبار أنه قال: لو حبس الله الريح عن الأرض ثلاثة أيام.. ما بقي على الأرض شيء إلا نتن.

وقرأ أبو عمرو[1] وحمزة: بإدغام تاء ﴿الذاريات﴾ في ذال ﴿ذَرۡوٗا﴾، وقرأ الباقون: بدون إدغام وقيل: المقسم به مقدر، وهو رب الذاريات وما بعدها، والأول أولى.

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢﴾؛ أي: فأقسمت لكم بالسحب الحاملات التي تحمل وقراً؛ أي: حملاً ثقيلاً، وهو الماء، كما تحمل ذوات الأربع الوقر، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾، وفي «البيضاوي»: فالسحب الحاملات للأمطار، أو الرياح الحاملات للسحاب، أو النساء الحوامل. انتهى.

قرأ الجمهور: ﴿وِقۡرٗا﴾ بكسر الواو، وهو اسم لما يُوقر؛ أي: يحمل، والمراد هنا: المطر، وقرىء: بفتحها، على أنه مصدر، والعامل فيه: اسم الفاعل، والمفعول به: محذوف؛ أي: فالسحب الحاملات للأمطار وقراً؛ أي: حملاً، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة.

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾؛ أي: فأقسمت لكم بالسفن التي تجري في البحر

---

(١) الشوكاني.

بالرياح جرياً يسراً؛ أي: سهلاً ليّناً ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾. وانتصاب ﴿يُسْرًا﴾ على المصدرية، أو على أنه صفة لمصدر محذوف، أو على الحال؛ أي: ذا يسر وسهولة، وفي «البيضاوي»: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾؛ أي: فالسفن الجارية في البحر سهلاً، أو الرياح الجارية في مهابها، أو الكواكب التي تجري في منازلها.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾؛ أي: فأقسم لكم بالملائكة التي تقسم الأمور والأشياء من الأمطار والأرزاق وغيرهما؛ إنما توعدون لواقع، وانتصاب ﴿أَمْرًا﴾ على المفعولية، والمراد بالمقسّمات: الملائكة، وإيراد جمع المؤنث السالم فيهم بتأويل الجماعات، وفي «كشف الأسرار»: هذا كقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾.

وقيل[1]: إنّ المراد بالذاريات، والحاملات والجاريات والمقسمات: الرياح، فإنها توصف بجميع ذلك؛ لأنّها تذرو التراب، وتحمل السحاب، وتجري في الهواء، وتقسم الأمطار، وهو ضعيف جدّاً.

قال عبد الرحمن بن سابط: يدبّر أمر الأرض أربعة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، فجبريل على الجنود والرياح، وميكائيل على القطر والنبات، وملك الموت على قبض الأرواح، وإسرافيل يبلغهم ما يؤمرون به، وأضاف هذه الأفعال إلى هذه الأشياء؛ لأنها أسباب لظهورها، كقوله تعالى حكاية عن جبريل: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾. وإنما الله هو الواهب الغلام، لكن لمّا كان جبريل سبب ظهوره.. أضاف الهبة إليه.

و﴿الفاء﴾ فيها: لترتيب الأقسام بها، والترتيب في هذه الأقسام ترتيب ذكريّ أو رتبيّ، باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على قدرته تعالى، ووضيح المقام: أنَّ الأيمان الواقعة في القرآن، وإن وردت في صورة تأكيد المحلوف عليه، إلا أنّ المقصود الأصليّ منها تعظيم المقسم به، لما فيه من الدلالة على كمال القدرة، فيكون المقصود بالحلف: الاستدلال به على المحلوف عليه، وهو هنا صدق الوعد بالبعث والجزاء، فكأنه قيل: من قدر على هذه الأمور

---

(١) الشوكاني.

العجيبة.. يقدر على إعادة ما أنشأه أولاً، فإذا كان كذلك، فالمناسب في ترتيب الإقسام بالأمور المتباينة أن يقدم ما هو أدل عى كمال القدرة، فالرياح أدلّ عليها بالنسبة إلى السحب، لكون الرياح أسباباً لها، والسحب لغرابة ماهيّتها، وكثرة منافعها، ورقّة حاملها الذي هو الرياح، أدلّ عليه بالنسبة إلى السفن، وهذه الثلاثة أدل عليه بالنسبة إلى الملائكة الغائبين عن الحسّ، إذ الخصم ربّما ينكر وجود من هو غائب عن الحسّ، فلا يتمّ الاستدلال، وهذا على كون الترتيب على طريق التدلّي والتنّزل، ويصح أن يكون على طريق الترقّي، لما في كل منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وجه، وأدنى من وجه آخر، فالملائكة المدبرات أعظم وأنفع من السفن، وهي باعتبار أنها بيد الإنسان يتصرّف فيها كما يريد، ويسلم بها من المهالك أنفع من السحب، والسحب لما فيها من الأمطار أنفع من الرياح. اهـ ملخصاً من «زاده» و«الشهاب».

وفي «الخازن»: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾؛ يعني: الملائكة، يقسّمون الأمور من الأرزاق، والأمطار، وغيرهما بين الخلق على ما أمروا به، وقيل: هم أربعة كما مرّ، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء، الأمين عليه، وصاحب الغلظة، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور واللوح، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح، وقيل: هذه الأوصاف الأربعة في الرياح، كما مرّ؛ لأنّها تنشىء السحاب وتثيره، ثمّ تحمله وتنقله، ثمّ تجري به جرياً سهلاً، ثم تقسم الأمطار بتصريف السحاب، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته وقدرته.

والمعنى: أقسم بالذاريات وبهذه الأشياء، وقيل: فيه مضمر، كما مرّ تقديره: أقسم برب الذاريات.

ثمّ ذكر جواب القسم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥﴾ و﴿ما﴾[1]: إما موصولة والعائد: محذوف؛ أي: إنّ الذي توعدونه من البعث والحساب، أو من

---

(١) روح البيان.

الثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾؛ أي: لموعود محقّق لا خلف فيه، قال في «الإرشاد»: وصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضى في أنّ اسم الفاعل مسند إلى المفعول به، إذ الوعد مصدوق، والعيشة مرضية.

وقال القاضي زكرياء: إن قلت: كيف قال ذلك، مع أنّ الصادق وصف للواعد لا لما يوعد؟

قلت: وصف به ما يوعد مبالغة، أو هو بمعنى مصدوق، كعيشة راضية، وماء دافق؛ أي: عيشة مرضية وماء مدفوق، فاسم الفاعل جاء بمعنى اسم المفعول انتهى. وقال ابن الشيخ: أي: لذو صدق على أنّ البناء للنسب كتامر ولابن؛ لأنّ الموعود لا يكون صادقاً، بل الصادق هو الواعد، وإما مصدرية؛ أي: إن وعدكم بالثواب، ووعيدكم بالعذاب لصادق؛ أي: لمحقّق لا محالة، إذ يحتمل ﴿تُوعَدُونَ﴾ أن يكون مضارع وعد وأوعد، والثاني: هو المناسب للمقام؛ لأنّ الكلام مع المنكرين.

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: وإنّ الجزاء على الأعمال لحاصل، وكائن لا محالة، فإنّ من قدر على هذه الأمور البديعة المخالفة لمقتضى الطبيعة.. فهو قادر على البعث الموعود، قال بعضهم: قد وعد الله سبحانه المطيعين بالجنة، والتائبين بالمحبّة، والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، والطالبين بالوجدان، كما قال: «ألا من طلبني وجدني». ووعد الله واقع ألبتة، ومن أوفى بوعده من الله، وأوعد الفاسقين بالنار، والمصرين بالبغضاء، والأعداء بالبعد، والجاهلين الغافلين بالفراق، والبطالين بالفقدان.

قال بعضهم: ما الحكمة في معنى القسم من الله سبحانه، فإنه إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن يصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده؟ والجواب: إنّ القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً، والحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر الله في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ الآية. ولا يكون القسم إلا باسم معظم، وقد أقسم الله بنفسه في القرآن في سبعة مواضع،

والباقي من القسم القرآنيّ قسم بمخلوقاته، كما في عنوان هذه السورة، ونحوه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، والصافات والشمس والليل والضحى وغير ذلك.

فإن قلت[1]: ما الحكمة في أنّ الله تعالى قد أقسم بالخلق، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى؟

قلت: فيه وجوه:

الأول: أنه على حذف مضاف؛ أي: ورب الذاريات، وربِّ التين، ورب الشمس.

والثاني: أنّ العرب كانت تعظم هذه الأشياء، وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون.

والثالث: أنّ الإقسام إنما يكون بما يعظمه المقسم أو يجله، وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارةً بنفسه، وتارةً بمصنوعاته؛ لأنّها تدل على بارىءٍ، وصانع حكيم، وقال بعضهم: القسم بالمصنوعات يستلزم بالصانع؛ لأنّ ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وقال بعضهم: إنّ الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى.

وقال بعضهم: القسم: إما لفضيلة، أو منفعة، ولا تخلو المصنوعات عنهما.

ومعنى الآية على القول الثاني ـ أعني: قول: أنّ هذه المذكورات أوصاف للرياح ـ: أقسم[2] سبحانه بالرياح، وذروها التراب، وحملها السحاب، وجريها في الهواء بيسر وسهولة، وتقسيمها الأمطار، إنّ هذا البعث لحاصل، وإن هذا الجزاء لا بدّ منه في ذلك اليوم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وهنا أقسم سبحانه بالرياح وأفعالها، لما يشاهدون من آثارها، ونفعها العظيم لهم، فهي التي ترسل الأمطار مبشّرات برحمته، ومنها تسقي الأنعام

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

والزروع، وبها تنبت البساتين والجنات، وتصير الأرض القفر مروجاً، وعليها يعتمدون في معاشهم، فآثارها واضحة أمامهم، ولا عجب أن تكون لها المنزلة العظمى في نفوسهم.

وأفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبيَّة، فإنَّ ما على الأرض منجذب إليها، واقع عليها، ولكن هذه الرياح تتصرف تصرفاً عجيباً تابعاً لسير الكواكب، فبجريها وجري الشمس تؤثر في أرضنا وهوائها بنظام محكم، فما ذرت الرياح التراب، ولا حملت السحاب، ولا قسمت المطر على البلاد إلا بحركات فلكيّة منتظمة، من أجل هذا جعل ذلك براهين على البعث والإعادة.

ثم ابتدأ سبحانه قسماً آخر، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾؛ أي: وأقسمت لكم يا أهل مكة بالسماء ذات الطرائق[1] المحسوسة، التي هي مساير الكواكب، أو المعقولة التي يسلها النظّار، ويتوصّل بها إلى المعارف، كما قال الراغب: الحبك بضمتين، جمع حباك كمثال ومثل، أو جمع حبيكة كطريقة وطرق، وهي الطرائق، فمن الناس من تصوّر منها الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرة، وهي الخطوط فيها كالطرق في الرمل، ومنهم من اعتبر ذلك بما فيها من الطرائق المعقولة المدركة بالبصيرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ذات الحُسن والجمال والاستواء والطرق، والظاهر: أنَّ السماء هي المعروفة، وقيل: السحاب.

﴿إِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في القرآن؛ أي: متخالف متناقض، وهو قولهم: إنه شعر وسحر وافتراء وأساطير الأولين، وفي الرسول: شاعر وساحر ومفتر ومجنون، وفي القيامة فإنّ من الناس من يقطع القول بإقرار، ومنهم من يقول: إن نظنّ إلا ظنًّا، وهذا من التحيّر والجهل الغليظ فيكم، وفي هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء، كما يلوح به ما نقل عن الضحاك: إنّ قول الكفرة لا يكون مستوياً، إنما هو مناقض مختلف، ووجه

---

(١) روح البيان.

تخصيص[1] القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة: تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه، على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا، وذلك بأن يقال: إنَّ ما في السماء من الطرائق يصحّ أن يكون سبباً لمزيد حسنها، واستواء خلقها، وحصول الزينة فيها ومزيد القوّة لها، وقيل: إنّ المراد بكونهم في قول مختلف أنّ بعضهم ينفي الحشر، وبعضهم يشكّ فيه كما مر، وقيل: كونهم يقرون أنّ الله خالقهم ويعبدون الأصنام.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ بضمتين، وابن عباس والحسن بخلاف عنه، وأبو مالك الغفاريّ وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو السمال ونعيم عن أبي عمرو: بإسكان الباء، وعكرمة: بفتحها جمع حبكة، مثل: طرفة وطرف، وأبو مالك الغفاريّ والحسن بخلاف عنه: بكسر الحاء والباء، وأبو مالك الغفاريّ والحسن أيضاً وأبو حيوة: بكسر الحاء وإسكان الباء، وهو تخفيف فِعِل المكسور، هما وهو اسم مفرد لا جمع، لأنّ فعلاً ليس من أبنية الجموع، فينبغي أن يعد مع إبل فيما جاء من الأسماء على فعل بكسر الفاء والعين، وابن عباس أيضاً وأبو مالك: بفتحهما، قال أبو الفضل الرازيّ: فهو جمع حبكة، مثل: عقبة وعقب. انتهى. والحسن أيضاً: ﴿الحبك﴾ بكسر الحاء وفتح الباء، وقرأ أيضاً كالجمهور، فصارت قراءته خمساً: الحُبُكُ والحُبْك، والحِبِك، والحِبْك، والحِبَكُ، وقرأ أبو مالك أيضاً: ﴿الحِبُك﴾ بكسر الحاء وضمّ الباء، وذكرها ابن عطية أيضاً عن الحسن، فتصير له ستّ قراءات، وقال «صاحب اللوامح»: وهو عديم النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها، ولا أدري ما رواه. انتهى.

﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: عن الإيمان بمحمد ﷺ، وبما جاء به، أو عن الحق، وهو البعث والتوحيد، أو عن القرآن. ﴿مَنْ أُفِكَ﴾؛ أي: من صرف عن الخير كله، وقيل: يحرم عنه من حرم، وقال اليزيدي: يدفع عنه من دفع

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

عنه، وقيل: يصرف عنه من صرف في علم الله وقضائه، إذ لا صرف أفظع منه وأشد، فكأنه لا صرف بالنسبة إليه.

قيل[1]: هذا مدح للمؤمنين؛ أي: يصرف عن القول المختلف من صرف عن ذلك القول، ورشد إلى القول المستوي، وقيل: إنّ هذا ذم؛ أي: يصرف عن الإيمان بمحمد ﷺ، والقرآن، والحشر من قد صرف عن الهدى، وهو الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وأبي بن خلف وأمية بن خلف ومنبه ونبيه.

وقرأ ابن جبير وقتادة[2]: ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: من أفك الناس عنه، وهم قريش كانوا يصدون الناس عن الإيمان، وقرأ زيد بن علي ﴿يَأْفَكُ عنه من أُفِكَ﴾ ببناء الأول للفاعل، والثاني للمفعول؛ أي: يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه، وعنه أيضاً: ﴿يَأْفَكُ عنه مَنْ أَفَكَ﴾ بالبناء للفاعل فيهما؛ أي: يصرف الناس عنه من هو أَفَّاكٌ كذَّابٌ، وقرىء: ﴿يُؤْفَنُ عنه من أُفِنَ﴾ بالنون فيهما، أي: يحرم عنه من حرم، من أفن الضرع: إذا نهكه حلباً.

والمعنى[3]: أي والسماء ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، إنكم أيّها المشركون المكذبون للرسول ﷺ لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم، ولا يجتمع، ولا يروج إلا على من هو ضال في نفسه؛ لأنّه قول باطل، يصرف بسببه من صرف عن الإيمان برسول الله ﷺ، وبما جاء به.

والخلاصة: قسماً بالسماء وزينتها، وجمالها، إنَّ أمركم في شأن محمد، وكتابه لعجب عاجب، فهو متناقض مضطرب، فحيناً تقولون: هو شاعر، وحيناً آخر تقولون: هو ساحر، ومرّةً ثالثة تقولون: هو مجنون، وحيناً تقولون عن القرآن: إنه سحر، وحيناً: إنه شعر، وحيناً: إنه كهانة.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: لعن وطرد عن رحمة الله الكذّابون من أصحاب

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

القول المختلف، وأصله: الدعاء بالقتل، أجري مجرى اللعن، و﴿اللام﴾[1] فيه: إشارة إلى أصحاب القول المختلف، كأنّه قيل: قتل هؤلاء الخرّاصون المقدرون ما لا يصح من القول، ويقولونه تخميناً في محمد، وفي القرآن. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ لفظ ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾؛ أي: الذين هم كائنون في غمرة وغشية من الجهل والضلالة تغمرهم وتغشاهم عن أمر الآخرة. ﴿سَاهُونَ﴾ خبر بعد خبر؛ أي: غافلون عمّا أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ، قال بعضهم: الغمرة فوق الغفلة، والسهو دون الغفلة.

وفي «كشف الأسرار»: الخرّاصون: هم المقتسمون الذين اقتسموا أعتاب مكة، واقتسموا القول في النبيّ ﷺ؛ ليصرفوا الناس عن دين الإسلام؛ يعني: أنّ أهل مكة أقاموا رجالاً على زقاق مكة، يصرفون الناس؛ يعني: وقت ورود قوافل. انتهى.

وأصل الغمرة[2]: ما ستر الشيء وغطاه، ومنها: غمرات الموت، والسهو الغفلة عن الشيء، وذهابه عن القلب.

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾؛ أي: يسألك يا محمد المشركون، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة، بل بطريق الاستعجال استهزاء، فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: متى يوم الجزاء، والكلام على حذف مضاف من اليوم وإقامة المضاف إليه مقامه، فلا يرد أنَّ ظرف الزمان لا يقع خبراً إلا عن الحدث؛ أي[3]: متى وقوع الجزاء، وقد كان لهم من أنفسهم ما لو تدبَّروا فيه يدفعهم إلى الاعتقاد بمجيء هذا اليوم، فإنّ أحداً منهم لا يترك عبيده وأجراءه في عمل دون أن يحاسبهم، وينظر في أحوالهم، ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم، فكيف يترك أحكم الحاكمين عبيده الذين أبدع لهم هذا الكون، وهيَّأ لهم كل ما يحتاجون إليه سدًى، ويوجدهم عبثاً.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

ثم أجاب سبحانه عن هذا السؤال، وذكر أنه يكون يوم القيامة، فقال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾. أي: يعرضون عليها؛ أي: يوم الجزاء هو يوم يعرض فيه الكفّار على النار، ويعذّبون بها، ويحرقون فيها كما يفتن الذهب بالنار، يقال[1]: فتنت الذهب: أحرقت خبثه لتظهر خلاصته، والكافر كله خبث فيحرق كلّه، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هو يوم هم إلخ، والفتح لإضافته إلى غير متمكّن، وقيل: هو منصوب بتقدير: أعنيْ، وقال بعض النحاة: ﴿يَوْمَ هُمْ﴾: بدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فيكون هنا حكاية من كلامهم على المعنى: ويقولون ذلك على سبيل الاستهزاء، ولو حكى لفظ قولهم.. لكان التركيب يوم نحن على النار نفتن.

وقرأ ابن أبي عبلة والزعفراني: ﴿يَوْمَ هُمْ﴾ بالرفع على البدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ أي[2]: يوم الجزاء هو يوم نعذب الكفار.

وتقول لهم الخزنة: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: عذابكم ﴿هَٰذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿ٱلَّذِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: تستعجلون وقوعه استهزاءً، وتظهرون أنه غير كائن، و﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، والموصول: خبره، والجملة: داخلة تحت القول المضمر، وهذا إشارة إلى ما في الفتنة من معنى العذاب؛ أي: هذا العذاب ما كنتم تستعجلون به في حياتكم الدنيا، وتقولون: متى هذا الوعد بطريق الاستهزاء، ويجوز أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ بدلاً من ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ بتأويله بالعذاب، و﴿ٱلَّذِى﴾: صفته.

ولمّا ذكر سبحانه حال أهل النار.. ذكر حال أهل الجنة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي والجهل والميل إلى ما سوى المولى، والمتصفين بالإيمان والطاعة والمعرفة والتوجّه إلى الحضرة العليا لكائنون ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين لا يعرف كنهها، فالتنكير[3]: للتعظيم، ويجوز أن يكون للتكثير، كما

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

في قوله: إنّ له لإبلاً، وإن له لغنماً، والعرب تسمي النخيل جنّةً. ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ أي: أنهار جارية؛ أي: تكون الأنهار بحيث يرونها، وتقع عليها أبصارهم، لا أنهم فيها؛ أي: هم في بساتين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون، حال كونهم ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: قابلين ما أعطاهم ربّهم من الخير والكرامة، راضين به، فهو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور على معنى: أنّ كل ما أعطاهم حسن مرضي متلقى بالقبول ليس فيه ما يرد، لأنّه في غاية الجودة، ومنه قوله: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يقبلها ويرضاها، قال بعضهم: معناه: آخذين ما آتاهم ربهم اليوم بقلوب فارغة إلى الله من أصناف ألطافه، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربهم في الجنة من فنون العطاء والرفد.

وفي «فتح الرحمن»[1]: ختم الآية هنا بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ وفي الطور بقوله: ﴿وَنَعِيمٍ فَٰكِهِينَ﴾؛ لأنّ ما هنا متصل بما به يصل الإنسان إلى الجنات وهو قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ الآيات. وما في الطور متصل بما يناله الإنسان فيها، وهو قوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ الآية. انتهى.

والمعنى[2]: أي إنّ الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معاصيه في بساتين وجنّات تجري من تحتها الأنهار، قريرةً أعينهم بما آتاهم ربّهم، إذ فيه ما يرضيهم، ويغنيهم، ويفوق ما كانوا يؤملون.

ثمّ ذكر الثمن الذي دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم، وعلّل استحقاقهم ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: لأنّهم ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قبل دخولهم الجنّة ﴿مُحْسِنِينَ﴾؛ أي: مخلصين في أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به وترك ما نهوا عنه؛ أي: إنهم كانوا في دار الدنيا يفعلون صالح الأعمال خشية من ربّهم، وطلباً لرضاه، ومن ثمّ نالوا هذا الفوز العظيم، والمكرمة التي فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون، ونحو الآية قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ

---

(١) فتح الرحمن. (٢) المراغي.

ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

ثمّ فصّل ما أحسنوا فيه، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: كانوا يهجعون من الليل هجوعاً قليلاً ما؛ أي: كانوا ينامون القليل من الليل، ويتهجّدون في معظمه، والهجوع[1]: النوم بالليل دون النهار. و﴿مَا﴾، مزيدة لتأكيد معنى القلة، فإنها تزاد لإفادة التقليل كما في قولك: أكلت أكلاً ما، و﴿قَلِيلًا﴾: ظرف و﴿يَهْجَعُونَ﴾: خبر ﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، أو صفة مصدر محذوف؛ أي: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً من أوقات الليل وساعاته؛ يعني: يذكرون، ويصلّون أكثر الليل، وينامون أقلّه، ولا يكونون مثل البطّالين الغافلين النائمين إلى الصباح، ويجوز[2] أن تكون ﴿مَآ﴾ مصدرية، أو موصولة؛ أي: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلّون فيها شيئاً، إما من أوّلها، أو من وسطها، وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقلّه، وربما نشطوا فجدوا إلى السحر، وعن أنس قال: كانوا يصلّون بين المغرب والعشاء.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: يطلبون في أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم، والسحر: السدس الأخير من الليل؛ لاشتباهه بالضياء كالسحر يشبه الحقّ وهو باطل؛ أي: هم مع قلّة هجوعهم، وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم وفي بناء[3] الفعل على الضمير المفيدة للتخصيص إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصّون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه، وفي «بحر العلوم»: تقديم الظرف للاهتمام به، ورعاية الفاصلة.

أي: فهم يحيون الليل متهجّدين، فإذا أسحروا.. أخذوا في الاستغفار،

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم.

ولمّا ذكر أنهم يقيمون الصلاة.. ثنى بوصفهم بإعطاء الصدقة، والبرّ بالفقراء، فقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: وفي أموال أولئك المذكورين ﴿حَقٌّ﴾؛ أي[١]: نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم؛ أي: يعدّونه واجباً عليهم في أموالهم، ويلزمونه أنفسهم تقرّباً إلى الله، وإشفاقاً على الناس، فليس المراد بالحق: ما أوجبه الله عليهم في أموالهم، فاندفع به ما عسى يقال: كيف يمدح المرء بأنه يثبت في ماله حقاً للفقراء؟ فمن يمنع الزكاة من الأغنياء يوجد فيهم هذا المعنى، ولا يستحقّون المدح؛ أي: هم الذين لا يجمعون[٢] الأموال إلا ويجعلونها ظرفاً للحق، فيرون في أموالهم حقًّا ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾؛ أي: للذي يسأل العطاء من الناس ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾؛ أي: وللمتعفّف الذي يحسبه بعض الناس غنيًّا، فلا يعطيه شيئاً، فهو الذي لا يسأل ولا يعطي؛ أي: هم أوجبوا على أنفسهم بمقتضى الكرم، بأن يصلوا بأموالهم الأرحام والفقراء والمساكين، تقرّباً إلى الله تعالى، وقال محمد بن سيرين وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة، والأول أولى، فيحمل على صدقة النفل، وصلة الرحم، وقرى الضيف؛ لأنَّ السورة مكيّة، والزكاة إنما فرضت في المدينة، وسيأتي في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ بزيادة معلوم.

والمعنى[٣]: وجعلوا في أموالهم جزءاً معيّناً ميّزوه، وعزلوه للطالب المحتاج، والمتعفّف الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يسأل الناس، ولا يفطنون إليه ليتصدّقوا عليه، أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، والأكلة والأكلتان» قيل: فمن المسكين؟ قال: «الذي ليس له ما يغنيه، ولا يعلم مكانه فيتصدّق عليه، فذلك المحروم».

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين بيَّن أنه قد لاحت لهم الأدلّة الأرضية والأنفسيّة، التي بها أخبتوا إلى ربّهم، وأنابوا إليه، فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا كلام[1] مستأنف، قصد به الاستدلال على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وقد اشتمل على دليلين: الأرض، والأنفس، وأما قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾. فهو كلام آخر، ليس المقصود به: الاستدلال، بل المقصود به: الامتنان والوعد والوعيد. اهـ شيخنا. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وقرأ قتادة: ﴿آية﴾ بالإفراد؛ أي: وفي الأرض دلائل واضحة على باهر قدرته، وعلامات ظاهرة على بديع صنعته من الجبال، والبر والبحر والأشجار والثمار والأنهار، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذّبة، لما جاءت به رسل الله سبحانه، ودعتهم إليه. ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾؛ أي: للموحّدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة، وأفهام نافذة، كلّما رأوا آية عرفوا وجه تأمّلها، فازدادوا إيقاناً على إيقانهم، وخصَّهم بالذكر؛ لأنّهم هم الذين يعترفون بذلك، ويتدبرونه فينتفعون به؛ يعني: أنّ في[2] الأرض دلائل واضحة على وجود الصانع وعلمه وقدرته، وإرادته ووحدته وفرط رحمته، من حيث إنها مدحوة كالبساط الممهد، وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين في أقطارها، والسالكين في مناكبها، وفيها سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن متفننة، وأنها تلقح بألوان النبات، وأنواع الأشجار، وأصناف الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح، وفيها دواب منبثة، قد رتب كلها، ودبر لمنافع ساكنيها، ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم، وقال الكلبيّ: عظات من آثار من تقدّم.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أيها الناس، آيات للموقنين من عجائب الصنع، الدالة على كمال الحكمة والقدرة والتدبير والإرادة، فيكون تخصيصاً بعد تعميم؛ لأن أنفس الناس مما في الأرض، كأنه قيل: في الأرض آيات للموحّدين العاقلين، وفي أنفسكم خصوصا آيات لهم؛ لأنّ أقرب المنظور فيه من كل عاقل نفسه، ومن ولد

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

منها، وما في بواطنها، وظواهرها من الدلائل الواضحة على الصانع، وفي نقلها من هيئة وحال إلى حال من وقت الميلاد إلى وقت الوفاة، قال ابن عباس رضي الله عنه[١]: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع، وقيل: يريد سبيل الغائط والبول، يأكل ويشرب من مدخل واحد، ويخرج من سبيلين، وقيل: يعني: تقويم الأدوات السمع والبصر والنطق والعقل، إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم، وحسبك[٢] بالقلوب، وما ركز فيها من العقول وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيّنات القاطعة على حكمة مدبّرها وصانعها، دع الأسماع والأبصار، والأطراف وسائر الجوارح، وتأتّيها لما خلقت له، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، فإنه إذا جثا منها شيء.. جاء العجز، وإذا استرخى.. أناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الأرض وما فيها من البراهين الساطعة، والأنفس وما فيها من الدلائل القاطعة، فتعتبروا بها، و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تنظرون إلى ذلك فلا تبصرون بعين البصيرة حتى تعتبروا، وتستدلّوا بالصنعة على الصانع، وبالنقش على النقاش، وكذا على صفاته.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ أي: أسباب رزقكم، فالكلام على حذف مضاف؛ يعني بها[٣]: الشمس والقمر وسائر الكواكب واختلاف المطالع والمغارب، التي يترتب عليها اختلاف الفصول، فتنبت الأرض أنواع النبات وتسقى بماء الأمطار التي تحملها السحب، وتسوقها الرياح لأسباب فلكيّة وطبيعيّة، أوضحها علماء الفلك وعلماء الطبيعة.

---

(١) الخازن.

(٢) النسفي.

(٣) المراغي.

وقيل المعنى[1]: وفي السماء سبب رزقكم، وهو المطر، فإنه سبب الأرزاق، وقال ابن جبير والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج، وقيل: المراد بالسماء: السحاب؛ أي: وفي السحاب رزقكم، وقيل: المراد بالسماء: المطر، وسمّاه سماء؛ لأنّه ينزل من جهتها، ومنه قول الشاعر:

إِذَا نَـزَلَ ٱلـسَّـمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ رَعَـيْـنَـاهُ وَإِنْ كَـانُـوا غِـضَـابَـا

وقيل: وفي السماء تقدير رزقكم، وقال ابن كيسان: وعلى ربّ السماء رزقكم كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ففي بمعنى على، ونظيره: قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وهو بعيد.

وقرأ الجمهور: ﴿رِزْقُكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأ يعقوب وابن محيصن، ومجاهد: ﴿أرزاقكم﴾ بالجمع.

﴿و﴾ كذلك في السماء ﴿ما توعدون﴾ من[2] الثواب؛ لأنّ الجنّة على ظهر السماء السابعة تحت العرش قرب سدرة المنتهى، أو أراد أنّ كل ما توعدون من الخير والشر، والثواب والعقاب والشدة والرخاء، وغيرها مكتوب مقدّر في السماء.

يقول الفقير: أمر العقاب ينزل من السماء، ونفسه أيضاً، كالصيحة والقذف والنار والطوفان، مما وقع على الأمم السالفة، وقال ابن سيرين: ما توعدون من أمر الساعة وبه قال الربيع، والأولى الحمل على ما هو أعمّ من هذه الأقوال، فإنّ جزاء الأعمال مكتوب في السماء، والقضاء والقدر ينزل منها، والجنة والنار فيها.

ثم أقسم سبحانه بنفسه، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وذكر الرب؛ لأنّه في بيان التربية بالرزق. ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنّ ما توعدون، أو ما ذكر من أمر الآيات والرزق على أنّ الضمير مستعار لاسم الإشارة.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وقال أبو حيان[1]: والظاهر: أنّ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾: عائد على الإخبار السابق من الله تعالى فيما تقدم في هذه السورة من صدق الموعود، ووقوع الجزاء، وكونهم في قول مختلف، وقتل الخراصين، وكينونة المتقين في الجنة على ما وصف، وذكر أوصافهم وما ذكر بعد ذلك؛ ولذلك شبّه في الحقيقة بما يصدر من نطق الإنسان بجامع ما اشتركا فيه من الكلام. انتهى، وقيل: عائد على القرآن، أو إلى الدين الذي في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ أو إلى اليوم المذكور في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أو إلى الرزق، أو إلى الله، أو إلى النبيّ ﷺ أقوال منقولة، ذكره أبو حيان أيضاً؛ أي: فأقسمت لكم برب السماء والأرض، إنّ ما أخبركم به في هذه الآيات ﴿لَحَقٌّ﴾؛ أي: لأمر ثابت، واقع لا محالة، وقرأ الجمهور: ﴿مِّثْلَ﴾ بالنصب على الحالية من الضمير المستكن في ﴿لَحَقٌّ﴾. و﴿مَآ﴾: زائدة، وجملة ﴿أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: في تأويل مصدر مجرور بإضافة ﴿مِّثْلَ﴾ إليه؛ أي: إنّ ما توعدون لحقّ حال كونه مثل نطقكم؛ أي: كما أنه لا شكّ لكم في نطقكم ينبغي أن لا تشكّوا في حقّيّة ما توعدون، أو على أنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: إنه لحقّ حقًّا مثل نطقكم، فإنه لتوغله في الإبهام لا يتعرف بإضافته إلى المعرفة، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم: ﴿مثل﴾ بالرفع على أنه صفة لقوله: ﴿لَحَقٌّ﴾.

والمقصود من الآية: تشبيه تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمي ووجوده، وهذا كما تقول: إنه لحق كما أنك ها هنا، وإنه لحق كما أنك تتكلّم.

والمعنى: أنه في صدقه وجوده كالنطق الذي تعرفه ضرورة، وإنما خص[2] التمثل بالنطق؛ لأنّه مخصوص بالإنسان وهو أخص صفاته.

ومعنى الآية: أقسم ربّنا جلّت قدرته بجلاله وكبريائه، إنّ ما وعدكم به من أمر القيامة، والبعث والجزاء، حقّ لا مرية فيه، فلا تشكّوا فيه، كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون، وهذا كما تقول للناس: إنّ هذا لحقّ كما أنك ترى

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وتسمع، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن: أنه قال فيها: بلغني: أنّ رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله قوماً أقسم لهم ربّهم، ثمّ لم يصدّقوه».

وقال بعض الحكماء[1]: معناه: كما أنّ كل إنسان ينطق بلسان نفسه، لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له، لا يقدر أن يأكل رزق غيره.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ للتعجيب[2] والتشويق إلى استماعه، ومثله لا يكون إلا فيما فيه فخامة، وعظيم شأن، وفي هذا الاستفهام تنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله ﷺ بغير طريق الوحي، إذ هو أمّي لم يمارس الخط وقراءته، ولم يصاحب أصحاب التواريخ، ففيه إثبات نبوّته، قال ابن الشيخ: الاستفهام للتقرير؛ أي: قد أتاك، وقيل: إن لم يأتك.. نحن نخبرك، والضيف في الأصل مصدر ضافه إذا نزل به ضيفاً، ولذلك يطلق على الواحد والجماعة كالزور والصوم، وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان.

وبدأ بقصّة إبراهيم، مع كونها متأخرة عن قصة عاد وغيرها، هزماً للعرب؛ لأنّه كان أباهم الأعلى، وصارت الضيافة متعارفة في القرى، وكان ضيفه اثني عشر ملكاً، منهم: جبريل ومكيائيل وإسرافيل وزقائيل، وتسميتهم ضيفاً؛ لأنّهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنّهم كانوا في حسبانه كذلك.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ صفة للضيف؛ أي: المكرمين عند الله سبحانه بالعصمة والتأييد والاصطفاء والقربة والسفارة بينه تعالى وبين الأنبياء، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾. أو المكرمين عند إبراهيم بالخدمة، حيث خدمهم بنفسه وبزوجته، وأيضاً بطلاقة الوجه، وتعجيل الطعام، وقيامه على رؤوسهم، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف، وقرأ عكرمة: ﴿المكرمين﴾ بالتشديد، وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليكرم ضيفه» قيل: إكرامه تلقّيه بطلاقة الوجه،

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

وتعجيل قراه، والقيام بنفسه في خدمته، وروي: أنّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: أكرم أضيافك، فأعدَّ لكل منهم شاةً مشوية، فأوحى إليه: أكرم، فجعله ثوراً، فأوحى إليه: أكرم، فجعله جملاً، فأوحى إليه: أكرم، فتحير فيه، فعلم أنّ إكرام الضيف ليس في كثرة الطعام، فخدمهم بنفسه، فأوحى إليه: الآن أكرمت الضيف، وقال بعض الحكماء[1]: لا عار للرجل ولو كان سلطاناً أن يخدم ضيفه، وأباه ومعلمه، ولا تعتبر الخدمة بالإطعام.

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ظرف للحديث، فالمعنى: هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه. ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي: نسلم عليك سلاماً، و﴿الفاء﴾ هنا: إشارة إلى أنهم لم يخلوا بأدب الدخول. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَامٌ﴾؛ أي: عليكم سلام، فهو مبتدأ، خبره: محذوف، وترك العطف قصداً إلى الاستئناف، فكأنّ قائلاً قال: ماذا قال إبراهيم في جواب سلامهم؟ فقيل: قال سلام؛ أي: حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لأنّ تحيّتهم كانت بالجملة الفعلية، الدالّة على الحدوث، حيث نصبوا ﴿سلاما﴾ وتحيّته بالاسمية الدالة على دوام السلام، وثباته لهم حيث عدل به إلى الرفع بالابتداء.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ بالنصب على المصدر السادّ مسدّ فعله المستغني به. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ بالرفع، وقرىء: بالرفع في الموضعين، وقرىء: بالنصب فيهما، وقرأ ابن وثّاب والنخعيّ وابن جبير وطلحة: ﴿قال سلم﴾، بكسر السين وإسكان اللام، والمعنى: نحن سلم، أو أنتم سلم.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: قال إبراهيم في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف، هؤلاء قوم منكرون؛ أي: مجهولون لنا لا نعرفهم، فهم منكرون عند كل أحد، وكانوا على أوضاع وأشكال خلاف ما عليه الناس، وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض، لأنّ السلام لم يكن تحيّتهم؛ لأنّه كان بين أظهر قوم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

كافرين، لا يحيي بعضهم بعضاً بالسلام الذي هو تحية المسلمين.

﴿فَرَاغَ﴾ إبراهيم؛ أي: مال ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ وخدمه الذين كانت عندهم البقرة، وكانت عامة ماله البقرة، فالمراد بأهله: خدمه، وهم الرعاة، فالاختفاء معتبر في مفهوم الروع؛ أي: ذهب في أثناء حديثه معهم إلى أهله وخدمه على خفية من ضيفه، فإنّ من أدب المضيّف أن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفّه الضيف، ويعذره أو يصير منتظراً.

وقوله: ﴿فَجَآءَ﴾ إبراهيم ضيفه ﴿بِعِجۡلٖ﴾ أي: بولد بقر ﴿سَمِينٖ﴾؛ أي: غير هزيل مشويّ بالحجارة، معطوف على جمل محذوفة، و﴿الباء﴾: للتعدية؛ أي: فراغ إلى أهله، فذبح عجلاً سميناً، فحنذه؛ أي: شواه، فجاء به ضيفه، والعجل: ولد البقر لتصوّر عجلته التي تعدم منه إذا صار ثوراً، أو بقرةً، واختاره؛ لأنّه كان عامّة ماله البقر، واختار السمين؛ مبالغة في إكرامهم.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: فجاء إبراهيم بعجل حنيذ، فقرّب العجل إليهم وقدّمه لهم، بأن وضعه لديهم حسبما هو المعتاد ليأكلوه، فلم يأكلوه، ولمّا رأى منهم ترك الأكل.. ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ منه إنكاراً لعدم تعرّضهم للأكل، وحثًّا عليه، و﴿أَلَا﴾ هنا بالخفيف: حرف عرض، وهو الطلب برفق ولين، وهو الصواب، وقيل: الهمزة في ﴿أَلَا﴾: للاستفهام الإنكاري، و﴿لا﴾: نافية كما في «الشوكاني». والأوّل أولى، بل أصوب.

وروي: أنهم قالوا: نحن لا نأكل بغير ثمن، قال إبراهيم: كلوا، وأعطوا ثمنه، قالوا: وما ثمنه؟ قال: إذا أكلتم.. فقولوا: بسم الله، وإذا فرغتم.. فقولوا: الحمد لله، فتعجّب الملائكة من قوله.

﴿فـ﴾ لما رآهم لا يأكلون ﴿أوجس منهم﴾؛ أي: فلمّا رآهم لا يأكلون.. أضمر في نفسه ﴿خِيفَةٗۖ﴾؛ أي: خوفاً منهم، فتوهّم أنهم لصوص أو أعداء جاؤوا بالشر، فإنّ عادة من يجيء بالشر والضرر أن لا يتناول من طعام من يريد إضراره، قال في «عين المعاني»: من لم يأكل طعامك.. لم يحفظ ذمامك.

يقول الفقير: يخالفه سلامهم، فإنّ المسلم لا بدّ أن يكون من أهل السلم، وقيل: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالت الملائكة حين أحسّوا بخوفه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منّا، إنا رسل الله سبحانه، وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه، وقيل: مسح جبريل العجل بجناحه، فقام يمشي حتى لحق بأمّه، فعرفهم إبراهيم، وأمن منهم. ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾؛ أي: بشّرت الملائكة إبراهيم، وفي سورة الصافات. ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾؛ أي: بواسطتهم ﴿بِغُلَٰمٍ﴾؛ أي: بولد يولد له ﴿عَلِيمٍ﴾؛ أي: كثير العلم في صغره، كثير الحلم في كبره، والمبشّر به عند الجمهور هو إسحاق، ولم تلد له سارة غيره، وقال مجاهد وحده: هو إسماعيل.

ومعنى الآيات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: هل عندك يا محمد نبأ بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة الذين وفدوا عليه؟ وهم ذاهبون في طريقهم إلى قوم لوط، فسلّموا عليه، فردّ عليهم التحية بأحسن منها، ثمّ أراد أن يتعرفّ بهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: إنكم قوم لا عهد لنا بكم من قبل، فعرفوني أنفسكم، من أنتم؟

واستظهر بعض العلماء أنّ هذه مقالة أسرّها إبراهيم في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وجلسائه من غير أن يشعرهم بذلك؛ لأنّ في خطاب الضيف بنحو ذلك، إيحاشاً له إلى أنه لو كان أراد ذلك.. لكشفوا له أحوالهم، ولم يتصدّ لمقدّمات الضيافة، ثمّ ذكر أنه أسرع في قرى ضيوفه، فقال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ إلخ؛ أي: فذهب خفية مسرعاً، وقدّم لضيوفه عجلاً سميناً أنضجه شياً، كما جاء في سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾؛ أي: مشويّ على الرضف. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: قال مستحثًّا لهم على الأكل: ألا تأكلون، وفي هذا تلطّف منه في العبارة، وعرض حسن، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة، إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون، وأتى بأفضل ماله، وهو عجل فتيٌّ شويٌّ، ووضعه بين أيديهم، ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه، وتلطف في العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ أي: فأعرضوا عن طعامه ولم

يأكلوا، فأضمر في نفسه الخوف منهم، ظنًّا منه أنّ امتناعهم إنما كان لشرّ يريدونه، فإنّ أكل الضيف أمنة، ودليل على سروره وانشراح صدره، وللطعام حرمة، وفي الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظنّ، وقد جاء في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ثمّ ذكر أنهم طمأنوه حينئذٍ، فقال: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ منا ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ وجاء في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. فبشّروه بإسحاق بن سارة، كما جاء في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾. وجاءت البشرة بذكر؛ لأنّه أسرّ للنفس، وأقر للعين ووصفه بالعلم؛ لأنّه الصفة التي يمتاز بها الإنسان الكامل، لا الصورة الجميلة، ولا القوّة، ولا نحوهما.

ثم أخبر عمّا حدث من امرأته حينئذٍ، فقال: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾؛ أي: امرأة إبراهيم، وزوجته سارة، لما سمعت بشارتهم إلى بيتها، وكانت في زواية تنظر إليهم، قال ابن الشيخ: فأقبلت إلى أهلها، وكانت مع زوجها في خدمتهم، فلمّا تكلّموا بولادتها.. استحيت، وأعرضت عنهم، فذكر الله سبحانه ذلك بلفظ الإقبال على الأهل، ولم يذكره بلفظ الإدبار عن الملائكة.

قال سعدي المفتي كذا في «التفسير الكبير»: ولا يناسبه[1] قوله: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ فإنّه يقتضي كونها عندهم، فالإقبال إليهم؛ أي: فأقبلت امرأته على الملائكة ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ حال من فاعل ﴿أقبلت﴾ والصرّة: الصيحة الشديدة؛ أي: حالة كونها متلبسة بصيحة وصوت شديد وقيل: صرّتها قولها: أوّه، أو يا ويلتي، أو رنّتها، والصرّة أيضاً: الجماعة، وبها فسّرها بعضهم؛ أي: أقبلت في جماعة من النساء كن عندها، وهي واقفة متهيّئة للخدمة.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾؛ أي: لطمت وجهها من الحياء، لما أنها وجدت حرارة دم الحيض، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجّب، وهي عادة النساء إذا أنكرن شيئاً. ﴿وَقَالَتْ﴾ أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي: أنا عجوز عاقر لم

---

(١) روح البيان.

ألد قطّ في شبابي، فكيف ألد الآن، ولي تسع وتسعون سنة؟ وكان إبراهيم ابن مئة سنة، سميت العجوز عجوزاً، لعجزها عن كثير من الأمور، والعقيم من النساء التي لا تقبل ماء الفحل، وفي «عين المعاني»: العقيم: من سد رحمها، ومنه: الداء العقام الذي لا يرجي برؤه، وبمعناه العاقر كما سيأتي، وكانت سارّة عقيماً لم تلد قطّ، فلمّا لم تلد في صغرها وعنفوان شبابها، ثم كبر سنها وبلغت سن الإياس.. استبعدت ذلك، وتعجبت، فهو استبعاد بحكم العادة لا تشكك في قدرة الله.

والمعنى[1]: أي فأقبلت امرأته سارّة حين سمعت بشارتهم، وكانت في ناحية من البيت تنظر إليهم، وهي تصرخ صرخة عظيمة، وضربت بيديها على جبينها، وقالت: أنا عجوز عقيم، فكيف ألد؟ وجاء في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.

فأجابوها عمّا قالت، حيث: ﴿قَالُوٓا۟﴾ لها ﴿كَذَٰلِكِ﴾؛ أي: مثل ذلك الذي بشّرناه، وأخبرناه به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنما نحن معبّرون نخبرك به عنه تعالى، لا أنّا نقول من تلقاء أنفسنا، وروي: أن جبريل عليه السلام قال لها: انظري إلى سيف بيتك، فنظرت، فإذا جذوعه مورقة مثمرة، فأيقنت، و﴿الكاف﴾ في ﴿كَذَٰلِكِ﴾[2]: منصوب المحل على أنه صفة لمصدر ﴿قَالَ﴾ الثانية؛ أي: لا تستبعدي ما بشّرناه به، ولا تتعجّبي منه، فإنه تعالى قال مثل ما أخبرناك به؛ أي: قضي وحكم في الأزل؛ أي: إنه من جهة الله سبحانه، فلا تعجبّي منه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، فيكون قوله حقًّا، وفعله محكماً لا محالة، تعليل لما قبله.

أي[3]: قالوا لها مثل الذي أخبرناك به، قال ربك، فنحن نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين، وهو الحكيم في أفعاله، العليم بكل شيء لا يخفى

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والخلاصة: أنها استبعدت الولادة لسببين: كبر السن، والعقم، وقد كانت لا تلد في عنفوان شبابها، والآن قد عجزت وأيست، فأجدر بها الآن أن لا تلد، فكأنها قالت: ليتكم دعوتم دعاء قريباً من الإجابة، ظنًّا منها أنّ ذلك منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبة، كما يقول الداعي: أعطاك الله مالاً، ورزقك ولداً، فردّوا عليها بأنّ هذا ليس منّا بدعاء، وإنما ذلك قول الله تعالى.

ولم تكن[1] هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل مع إبراهيم أيضاً، حسبما شرح في سورة الحجر، وإنما لم يذكر هنا اكتفاء بما ذكر هناك، كما أنه لم يذكر هناك سارّة، اكتفاءً بما ذكر ههنا، وفي سورة هود، وفي الآية إشارة إلى أنه لا يجوز اليأس من فضل الله تعالى، فإنّ المقدور كائن ولو بعد حين، وقد أورقت وأثمرت شجرة مريم عليها السلام أيضاً، وكانت يابسة كما مرّ في سورة مريم، وقد اشتغل أفراد في كبرهم، ففاقوا على أقرانهم في العلم، فبعض محرومي البداية، مرزقون في النهاية، فمنهم: إبراهيم بن أدهم وفضيل بن عياض ومالك بن دينار، رحمهم الله تعالى.

الإعراب

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)﴾.

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الذاريات﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالذاريات، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿ذَرْوًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والعامل فيه: اسم الفاعل، والمفعول به: محذوف، تقديره التراب ونحوه، كما مر. ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿الحاملات﴾: معطوف على ﴿الذاريات﴾

---

(١) روح البيان.

﴿وِقْرًا﴾: مفعول به لاسم الفاعل. ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿الجاريات﴾: معطوف على ﴿الحاملات﴾. ﴿يُسْرًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنّه صفة لمصدر محذوف؛ أي: جرياً يسراً سهلاً. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾: معطوف على ﴿الجاريات﴾، ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به لاسم الفاعل. ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إنّ﴾: حرف نصب. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، والعائد: محذوف، تقديره: توعدونه. ﴿لَصَادِقٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿صادق﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، فتكون هي و﴿ما﴾ في حيّزها مؤوّلة بمصدر هو اسم ﴿إنّ﴾؛ أي: إنّ وعدكم لصادق. ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَوَٰقِعٌ﴾: خبره. و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة: معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالسماء. ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ صفة لـ ﴿السماء﴾، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿في قول﴾: جار ومجرور، خبر ﴿إنّ﴾. ﴿مُّخْتَلِفٍ﴾: صفة ﴿قَوْلٍ﴾. وجملة ﴿إنّ﴾: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: معطوفة على جملة القسم الأوّل. ﴿يُؤْفَكُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به. ﴿مَنْ﴾: موصول في محل الرفع نائب فاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿أُفِكَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. والجملة: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾. فعل ونائب فاعل، والجملة: جملة دعائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾: خبر أول، أو متعلق بـ ﴿سَاهُونَ﴾، ﴿سَاهُونَ﴾: خبر ثان، أو هو الخبر، والجملة: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: فعل

وفاعل ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم و﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾. وجملة ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: بدل من جملة الصلة قبلها. ﴿يَوْمَ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بفعل محذوف، تقديره: يجيء يوم الدين يوم هم عى النار، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يُفْتَنُونَ﴾. و﴿عَلَى﴾: بمعنى في وجملة ﴿يُفْتَنُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿ذُوقُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل. ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم حين التعذيب: ذوقوا فتنتكم. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، والجملة: في محل النصب مقول لذلك القول. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وجملة ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبره. ﴿وَعُيُونٍ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، والجملة: مستأنفة. ﴿ءَاخِذِينَ﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: استقرّوا فيها، حال كونهم راضين ما آتاهم ربّهم. و﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿ءَاخِذِينَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾: فعل ومفعول به. ﴿رَبُّهُمْ﴾: فاعل، والجملة: صلة لـ ﴿مَآ﴾، والعائد: محذوف، تقديره: ما آتاهم إياه ربّهم. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿مُحْسِنِينَ﴾، و﴿مُحْسِنِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾. خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية؛ لأنه

صفة زمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، متعلق بـ ﴿يَهْجَعُونَ﴾، أو منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنّه صفة مصدر محذوف؛ أي: هجوعاً قليلاً. ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾: صفة لـ ﴿قَلِيلًا﴾ ﴿مَآ﴾: زائدة لتأكيد القلّة، وجملة ﴿يَهۡجَعُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾، جملة مفسّرة، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها تفسير لإحسانهم. ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿بالأسحار﴾: متعلق بـ ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ وقدّم معمول الخبر على المبتدأ؛ لجواز تقديم عامله عليه. ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿كان﴾ على كونها مفسّرة، أو على خبر ﴿كان﴾. ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿في أموالهم﴾: خبر مقدم. ﴿حَقٌّ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿حَقٌّ﴾، ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: معطوف على ﴿السائل﴾. والجملة: معطوفة على جملة ﴿كان﴾، أو على خبر ﴿كان﴾. فهي خبر ثالث لها. ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿في الأرض﴾: خبر مقدم. ﴿ءَايَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾: صفة لـ ﴿ءَايَٰتٌ﴾. والجملة: مستأنفة.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾: خبر مقدم لمبتدأ محذوف، لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: وفي أنفسكم آيات للموقنين. ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخيّ، داخلة على مقدر يقتضيه السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تنظرون ذلك فلا تبصرون، والجملة المحذوفة: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُبۡصِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف. ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿في السماء﴾: خبر مقدم. ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾: صلته والعائد: محذوف، تقديره: وما توعدونه. ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، و﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿رب السماء﴾:

مجرور بـ ﴿الواو﴾: ﴿وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿السَّمَاءِ﴾، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بربّ السماء، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿إِنَّهُ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها، ﴿لَحَقٌّ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿حق﴾: خبرها. وجملة ﴿إنّ﴾: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِثْلَ﴾: منصوب على الحالية من الضمير المستكن في ﴿حقّ﴾؛ أي: لحقّ هو حال كونه مماثلاً نطقكم، أو على المفعولية المطلقة؛ لأنّه صفة لمصدر محذوف؛ أي: لحقّ حقًّا مثل نطقكم. و﴿مَا﴾: زائدة كما قاله الخليل. ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَنطِقُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بإضافة مثل إليه، تقديره: مثل نطقكم، وقرىء: ﴿مثل﴾ بالرفع على أنه صفة لـ ﴿حق﴾. وقيل: ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل جرّ بإضافة مثل إليه، وجملة ﴿أنّ﴾ في محل جر صفة لها؛ أي: مثل شيء منطوق لكم، والنطق هنا: عبارة عن الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام، والاستفهام: هنا معناه: التفخيم والتنبيه على أنّ الحديث ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي. ﴿أَتَاكَ﴾: فعل ومفعول. ﴿حَدِيثُ﴾: فاعل. ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾: مضاف إليه. ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾: صفة للضيف، والجملة: مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، متعلق بـ ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ أو باذكر محذوفاً. ﴿دَخَلُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿فَقَالُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿دَخَلُوا﴾. ﴿سَلَامًا﴾: مفعول مطلق استغنى عن فعله؛ لأنّه سدّ مسدّه، تقديره: نسلّم عليكم سلاماً، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿سَلَامٌ﴾: مبتدأ، خبره: محذوف؛ أي: سلام عليكم، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء، والجملة: في

محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. وجملة ﴿قَالَ﴾: مستأنفة. ﴿قَوۡمٞ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أنتم قوم. ﴿مُّنكَرُونَ﴾: صفة لـ ﴿قَوۡمٞ﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَرَاغَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: فبادر إلى إكرام ضيفه من غير أن يشعرهم فراغ. ﴿راغ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿راغ﴾ ﴿فَجَآءَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿جاء﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾: معطوف على ﴿راغ﴾. ﴿بِعِجۡلٖ﴾ متعلق بـ ﴿جاء﴾ ﴿سَمِينٖ﴾. صفة ﴿عجل﴾، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قربه﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿جاء﴾. ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ ﴿قرب﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿أَلَا﴾: حرف عرض وطلب، وجملة ﴿تَأۡكُلُونَ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فامتنعوا من أكله فأوجس. ﴿أوجس﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. ﴿مِنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿خِيفَةٗ﴾ و﴿خِيفَةٗ﴾ مفعول به. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَخَفۡ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿قَالُواْ﴾. ﴿بِغُلَٰمٍ﴾: متعلق بـ ﴿بشروه﴾، ﴿عَلِيمٖ﴾: صفة ﴿غلام﴾.

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَقۡبَلَتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: وسمعت سارّة تبشيرهم إبراهيم فأقبلت. ﴿أقبلت امرأته﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف. ﴿فِي صَرَّةٖ﴾: حال من الفاعل؛ أي: حالة كونها صارّة؛ أي: صارخةً. ﴿فَصَكَّتۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿صكت وجهها﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿أقبلت﴾. ﴿وَقَالَتۡ﴾: معطوف على ﴿صكت﴾، ﴿عَجُوزٌ﴾: خبر

لمبتدأ محذوف؛ أي: أنا عجوز. ﴿عَقِيمٌ﴾: صفة ﴿عَجُوزٌ﴾. والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قالت﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿كَذَٰلِكِ﴾: صفة لمصدر محذوف لـ ﴿قَالَ﴾ الثاني. ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾: فعل وفاعل، والتقدير: قالوا: قال ربك قولاً مثل ذلك التبشير الذي بشّرناه، وجملة ﴿قَالَ﴾: في محل النصب مقول لـ ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر أول لـ ﴿إن﴾ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إنّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وهي الرياح التي تذروا التراب وغيره؛ أي: تطيّره وتفرّقه، من ذرا يذرو، من باب عدا يعدو، ويقال: ذرا يذري من باب رمى، وفيه إعلال بالقلب، أصله: الذاروات، من ذرا يذرو، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة، ويحتمل أن تكون من ذرى يذري من باب رمى، فلا قلب فيها حينئذٍ، أفاده الجوهري في «صحاحه» في مادة ذرا، ولو كان كما قال.. لكان المصدر ذرياً.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ﴾ هي الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء.

﴿وِقْرًا﴾ والوقر والثقل والحمل، كلها ألفاظ وزنها واحد، ومعناه واحد.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾ هي الرياح الجارية في مهابّها بسهولة.

و﴿اليسر﴾ السهولة. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ هي الرياح التي تقسم الأمطار بتصريف السحاب.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ و﴿مَآ﴾: يجوز تكون اسمية، وعائدها: محذوف؛ أي: توعدونه ومصدرية، فلا عائد لها، وحينئذٍ يحتمل أن يكون ﴿تُوعَدُونَ﴾ مبنياً من الوعد، وأن يكون مبنياً من الوعيد؛ لأنّه صالح أن يقال: أوعدته فهو يوعد، ووعدته فهو يوعد لا يختلف، فالتقدير: إنّ وعدكم أو إنّ وعيدكم، اهـ «سمين».

﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ جمع حبيكة كطرق وطريقة وزناً ومعنى، وقيل: الحبك: التكسر الذي يبدو على وجه الماء إذا ضربته الريح.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾؛ أي: متناقض مضطرب في شأن الله، فبينا تقولون: إنه خالق السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان، معه، وفي شأن الرسول، فتارةً تقولون: إنه مجنون، وتارةً تقولون: إنه ساحر، وفي شأن الحشر، فتارةً تقولون: لا حشر ولا بعث، وأخرى تقولون: الأصنام شفعاؤنا عند الله يوم القيامة.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾؛ أي: يصرف عن القول المختلف؛ أي: بسببه. ﴿مَنْ أُفِكَ﴾؛ أي: ومن صرف عن الإيمان، يقال: أفكه عنه يأفكه إفكاً صرفه وقلبه، أو قلب رأيه، كما في «القاموس». ورجل مأفوك؛ أي: مصروف عن الحق إلى الباطل، كما في «المفردات».

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: لعن الكذّابون، وهذا دعاء عليهم كقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾. وأصله: الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى لعن وقبح، من الخرص، وهو تقدير القول بلا حقيقة، ومنه: خرص الثمار؛ أي: تقديرها مثلاً، بأن يقدر ما على النخل من الرطب تمراً، وكل قول مقول عن ظنّ وتخمين يقال له: خرص، سواء كان ذلك مطابقاً للشيء أو مخالفاً له، من حيث إنّ صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظنّ ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظنّ والتخمين، والخرص: الظن والحدس، يقال: كم خرص أرضك بكسر الخاء، وأصل الخرص: القطع، من قولهم: خرص فلاناً كلاماً، واخترصه: إذا قطعه من غير أصل.

﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ من غمره الماء يغمره: إذا غطاه، والمراد بها هنا: الجهل، قال الراغب: أصل الغمر: إزالة أثر الشيء، ومنه: قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله: غمر وغامر، وبه شبه الرجل السخي والفرس الشديد العدو، فقيل لهما: غمر كما شبهها بالبحر، والغمرة: معظم الماء الساترة لمقرها، وجعلت مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها، وإلى نحوه أشار بقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾. وقيل للشدائد: غمرات، قال تعالى: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾. وقال الشاعر:

قَـالَ ٱلْـعَـوَاذِلُ إِنَّـنِـيْ فِـيْ غَـمْـرَةٍ صَـدَقُـوْا وَلَـكِـنْ غَـمْـرَتِـيْ لاَ تَـنْـجَـلِـيْ

﴿سَاهُونَ﴾ قال الراغب: السهو: خطأ عن غفلة، وذلك ضربان:

أحدهما: أن لا يكون من الإنسان جوالبه ومولداته كمجنون سبَّ إنساناً.

والثاني: أن يكون مولداته منه، كمن شرب خمراً، ثم ظهر منه منكر لا عن قصد إلى فعله، والأول معفو عنه، والثاني مأخوذ به، وعلى الثاني ذمَّ الله تعالى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ انتهى. وقوله: ساهون جمع ساه، وفعله سها يسهو، فأصل ساهٍ: ساهو، قلبت واوه ياء لتطرفها إثر كسرة، ثم أعلت إعلال قاض، أما ساهون، فأصله: ساهيون، وعلى هذا استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الهاء لمناسبة الواو، فوزنه فاعون.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يحرقون ويعذّبون بها، كما يفتن الذهب بالنار، يقال: فتنت الشيء؛ أي: أحرقت خبثه لتظهر خلاصته، فالكافر كله خبث، فيحرق كله، قال الراغب: أصل الفتن: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، ويستعمل في إدخال الإنسان النار، ومنه: قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: عذابكم، وتارةً يسمون ما يحصل منه العذاب فتنةً، فيستعمل فيه نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾. وتارة في الاختبار نحو قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾.

﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ والهجوع: النوم بالليل دون النهار، وبابه خضع، والهجعة: النومة الخفيفة، ويقال: أتيت فلاناً بعد هجعة؛ أي: بعد نومة خفيفة من الليل، كما في «المختار».

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ جمع سحر بفتح السين وسكون الحاء: السدس الأخير من الليل لاشتباهه بالضياء، كالسحر يشبه الحق، وهو باطل.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾؛ أي: المستجدي الطالب العطاء.

﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هو المتعفّف الذي يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس، وفي «القاموس»: المحروم: الممنوع من الخير، ومن لا ينهى له مالٌ،

وفي «المفردات»؛ أي: الذي لم يوسَّع عليه في الرزق، كما وسع على غيره، بل منع من جهة الخير. انتهى.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والضيف للواحد والجماعة؛ لأنّه في الأصل مصدر كالزور والصوم، وفي «القاموس»: والضيف للواحد والجميع، وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان، وهي ضيف وضيفة، أما الضيفن: فهو من يجيء مع الضيف متطفلاً، وفي «الأساس»: ضاف إليه مال إليه، وضاف عنه مال عنه، وضاف السهم عن الهدف، وضافت الشمس، وضيَّفت وتضيَّفت: مالت إلى الغروب.

﴿فَرَاغَ﴾ رغ ذهب في خفية، وهذا من أدب المضيف ليبادر ضيفه بقراه، وفي «المصباح»: وراغ الثغلب روغاً من باب قال، وروغاناً: ذهب يمنةً ويسرةً في سرعة وخديعةٍ، فهو لا يستقر في جهة، وراغ فلان إلى كذا: مال إليه سرًّا، وفيه إعلال بالقلب، أصله: روغ قلبت الواو ألفاً لتحرّكها وانفتاح ما قبلها.

﴿بِعِجْلٍ﴾ والعجل: ولد البقرة، سمّي بذلك لتصور عجلته التي تعدم منه إذا صار ثوراً أو بقرةً. ﴿سَمِينٍ﴾ والسمين: ضد الهزيل.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ الوجس: الصوت الخفيّ كالإيجاس، وذلك في النفس، أي: أضمر في نفسه خيفة؛ أي: خوفاً منهم.

﴿لَا تَخَفْ﴾ أصله: لا تخوف بوزن تفعل، مضارع خوف بكسر العين من باب فعل المكسور، نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت، لكنّها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال، ثمّ حذفت لالتقائها ساكنة مع الفاء آخر الفعل المسكّن؛ لدخول الجازم عليه.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾ والغلام: الطار. الشارب، والكهل: ضده، أو من حين يولد إلى أن يشب كما في «القاموس».

﴿فِي صَرَّةٍ﴾ والصرة بفتح الصاد: الصيحة الشديدة، يقال: صر يصر صريراً: إذا صوت، ومنه: صرير الباب، وصرير القلم، وقيل: الصرّة: الجماعة من

الناس كما مرّ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض، يقال: صكه: إذا ضربه شديداً بعريض، أو عام كما في «القاموس».

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي: أنا كبيرة السنّ، سميت العجوز عجوزاً؛ لعجزها عن كثير من الأمور، وقال في «القاموس»: العقم بالضم: هزمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد، وفي «عين المعاني»: العقيم: من سد رحمها، ومنه: الداء العقام، كما مرّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: لعن الكذّابون، حيث شبّه اللعن بالقتل بجامع فوات كل خير في كل منهما، فاشتق من القتل بمعنى اللعن قتل بمعنى لعن على طريقة الاستعارة التصريحية التبعيّة، ففيه تشبيه الملعون الذي يفوته كل خير وسعادة بالمقتول الذي تفوته الحياة، وكل نعمة. اهـ «زاده».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾؛ لأنّ السائل الطالب والمحروم المتعفّف.

ومنها: الكناية عن الموصوف في قوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾؛ لأنّه كناية عن محذوف، وهو المكذّب الجاحد للحق، والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ للرسول أو للقرآن؛ أي: يصرف عنه من صرف صرفاً لا أشدَّ منه ولا أعظم، وفائدة الكناية هنا: أنّه لمّا خصّص هذا بأنّه هو الذي. . صرف أفهم أنّ غيره لا يصرف، فكأنه قال: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه يعتبر بمثابة المعدوم بالنسبة إليه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾؛ لأنّ الغمرة حقيقة في

الماء الكثير الساتر لمقرّه، فاستعير للجهالة التي تغمر صاحبها.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ لأنّ أصله: متى مجيء يوم الجزاء، فحذف المضاف الذي هو المصدر وأقيم المضاف إليه الذي هو الظرف، والاستفهام فيه للاستعجال استهزاءً لا للاستعلام.

ومنها: الاستعارة المكنيّة في قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ شبّه العذاب بطعام يؤكل، ثم حذف المشبه به، واستعير له شيء من لوازمه، وهو الذوق.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾؛ لإفادة التعظيم أو التكثير.

ومنها: زيادة ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾؛ لتأكيد معنى التقليل، فإنها تكون لإفادة التقليل.

ومنها: بناء الفعل على الضمير المفيد للتخصيص، في قوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ إشعاراً بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به لاستدامتهم له، وإطنابهم فيه، وفي «بحر العلوم»: وتقديم الظرف فيه للاهتمام به، ولرعاية الفاصلة.

ومنها: تأكيد الخبر بالقسم وإن واللام في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ لكون المخاطب منكراً، ويسمّىٰ هذا الضرب إنكارياً.

ومنها: ذكر لفظ الربّ في القسم دون غيره، لكون السياق في بيان التربية بالرزق.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾؛ لأنّه شبه تحقق ما أخبر به عنه بتحقق نطق الآدميّ، ومعناه: إنّه لحق كما أنت تتكلم.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: ألم يأتك حديث... إلخ. فالاستفهام فيه تقريريّ لتفخيم الحديث، ولتجتمع نفس المخاطب، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب، فتقرره هل سمع ذلك أم لا، فكأنك تقتضي أن يقول: لا، ويطلب منك الحديث.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وقد اختلف في تقرير المبتدأ لمحذوف، فقيل: إنّ الذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام: أنه لا يخاطبهم بذلك، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، بل يظهر أنه يكون التقدير: هؤلاء قوم منكرون.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ فإنّه قد سمّى الغلام عليماً باعتبار ما يؤول إليه أمره إذا كبر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الحمد لله الذي تتمّ بنعمته الصالحات، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وقد انتهى ما منّ الله سبحانه وتعالى به علينا من المعاني المحرّرة، والألفاظ المحبّرة، والأبحاث المشكلة من الفنون المختلفة على الجزء السادس والعشرين من الآيات المحكمة في اليوم الثالث والعشرين، قبيل صلاة الظهر من شهر الربيع الآخر من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة من الهجرة النبوية ٢٣/ ٤/ ١٤١٥ هـ. على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، بيد جامعها محمد الأمين بن عبد الله الأرميّ الهرريّ غفر الله له، ولوالديه، ولمن أعانه عليها، ولجميع المحبّين، وإخوانه المسلمين، وصلى الله على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

إلى هنا تم المجلد السابع والعشرون، ويليه المجلد الثامن والعشرون، وأوّله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾ الآية ٣١. من سورة الذاريات، فلله الحمد حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه على كل حال، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده. ٢٣/ ٤/ ١٤١٥ هـ.

شعرٌ

إِذَا رَأَيْتَ لَحِيْنَا ... كُنْ سَاتِراً وحَلِيْمَا

يَا مَنْ يُقَبِّحُ لَغْوِيْ ... لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

آخرُ

كُلُّ حيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مدَّةَ ٱلْعُمْـ ... ـرِ وَمَرْدِيٌّ إِذَا ٱنْتَهَىٰ أَمَدُهُ

آخرُ

كُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَؤُوْبُ ... وَغَائِبُ ٱلْمَوْتِ لا يَؤُوْبُ

آخرُ

خُلِقْتُ مِنَ التُّرَابِ فِصِرْتُ شَخْصاً ... بَصِيْراً بِٱلسُّؤَالِ وَبِٱلْجَوَابِ

وَعُدْتُ إلى ٱلتُّرابِ فِصِرْتُ فِيْهِ ... كَأَنِّي مَا بَرِحْتُ مِنَ ٱلتُّرَابِ

آخرُ

بِلاَدُ ٱللهِ وَاسِعَةٌ فَضَاءٌ ... ورِزْقُ الله فِيْ الدُّنْيَا فَسِيْحُ

فَقُلْ لِلْقَاعِدِيْنَ علَىٰ هَوَانٍ ... إِذَا ضَاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيْحُوْا

الفهرس